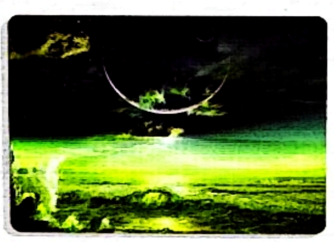
أساليب وخصائص المنهج القرآني في عرض

# أدلة التوحيد النفسية والعقلية والعلمية




إعداد الدكتور

رشيد منصور محمد الصباحي

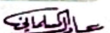
















# أساليب
# وخصائص المنهج القرآني في عرض
# أدلــة التــوحيــد
# النفسية والعقلية والعلمية




اسم الكتاب: أساليب وخصائص المنهج القرآني في عرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية والعلمية

إعداد الدكتور: رشيد منصور محمد الصباحي

رقم الإيداع: ١٨٢٨٤/٢٠١٥_ الترقيم الدولي: ٩٧٧/٣٣١/٣٤٢/٥

نوع الطباعة: لون واحد.

عدد الصفحات: ٦٤٠ - الجزء الثاني.

القياس: ١٧×٢٤.





تجهيزات فنية:

مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية

أعمال فنية وتصميم الغلاف أ/ عادل المسلماني.

٢٠١٦

الإدارة

دار الإيمان

١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.

تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٠ - ٥٤٤٦٤٩٦

المبيعات

دار القمة

١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.

تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٠ - ٥٣٢٢٠٠٢

E-mail dar_aleman@hotmail.com

# أساليب وخصائص المنهج القرآني في عرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية والعلمية

(هذا البحث رسالة علمية نال بها المؤلف درجة الدكتوراه)


إشراف

أ.د. عبد الوهاب بن لطف الديلمي

مشرفاً ورئيساً

إشراف

د. عبد العلي الجسماني

مشرفاً مشاركاً

إعداد

رشيد منصور محمد الصباحي

عفا الله عنه





بسم الله الرحمن الرحيم

**د ـ القرار المكين والحصن الأمين:**

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ﴾ (المرسلات: ٢٠، ٢١).

عندما بحث علماء الأجنة في مستقر الجنين في بطن أمه، وجدوا أنه على الرغم من أنَّ طبيعة الجسم البشري أن يطرد أيَّ جسم خارجي عنه، إلا أنَّ رحم الأم يأوي الجنين ويُغذِّيه، بل وجدوا أن الرحم مُهيَّأٌ ـ بقصد ـ ليكون قراراً مكيناً للجنين من خلال عدة صور:

**الصورة الأولى:** إحاطته بتصفيح عظمي في جسد الأم ـ في منتصف جسمها تماماً، طولاً وعرضاً وعمقاً، فالجنين محمي بذلك من كافة الجهات.

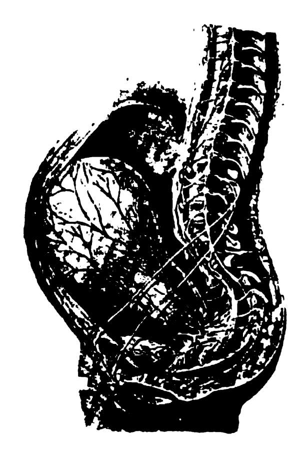
**الصورة الثانية:** تلاؤم هيئة العظام المحيطة بالرحم[1]، وطريقة تكوينها وأحجامها، وتناسبها مع شكل الجنين بحيث أن أية زيادة في طولها أو عرضها أو ارتفاعها أو عمقها أو ثنياتها أو حُفَرها يجعل الرحم غير صالح لنمو الجنين والحفاظ عليه، لقد جعل الله حوض المرأة أوسع من حوض الرجل استعداداً للحمل والولادة.

**الصورة الثالثة:** تهيئة هذا التصفيح العظمي المحيط بالرحم بحيث يستقبل ضغط عظم الفخذين من الأسفل، وثِقَل الجسم من الأعلى من خلال العمود الفقري.. دون تأثر الجنين بذلك. انظر الشكل (٢٣).

---

(١) وهي مكونات الحوض «عظم العجُز والعصعص بالخلف، ومن الجانبين والأمام يوجد عظمان هما عظما الحرقفة، وهذا العظم هو حلقة الاتصال ما بين العمود الفقري في الأعلى والعجز بالخلف، وعظم الفخذ من الأسفل». انظر: الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ٢/ ٢٤١.

## شكل (٢٣)



صورة للرحم وهو يملأ تجويف البطن، وقد هيأه الله ليكون قراراً مكيناً للجنين. وغذّاه بالدماء والأعصاب المختلفة اللازمة لنموه.





الجنين مكتمل في القرار المكين

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٤)

**الصورة الرابعة:** اكتشف الأطباء أن حجم الرحم عند العذراء حوالي (٢.٥سم مكعب) قبل الحمل، ويصبح بعد الحمل في حجم يتجاوز (٥٠٠٠ سم مكعب) أي بزيادة حجمه ألفي مرة تقريباً، بمعنى أنه يكبر حيناً بعد آخر.. ووجدوا أنه يتجاوز عَظْم العانة من الأمام في نهاية الشهر الثالث، أي في الأسبوع الثاني عشر من الحمل، وذلك مهم جداً ليتناسب حجم الرحم مع الجنين الذي اكتملت أعضاؤه وأجهزته، واحتاج لسعة في محيطه.

**الصورة الخامسة:** إحاطة الرحم بأربطة عديدة لتعليقه، وبشكل مرن ومتكيف ومتطور.. فهي تشدُّه من الأمام والخلف والجانبين والأعلى والأسفل، وبهذه الطريقة يقف جسم الرحم ـ الذي هو على شكل هرم مقلوب ـ في الفراغ، فيستقيم قوامه، وينتظم وقوفه، ويؤدي وظيفته، ويحمي الجنين، وأي خلل في هذا التوازن ينتج عنه الإجهاض[1].

**الصورة السادسة:** تزويد الرحم بِسِنَادَات عضلية من أسفله لدعمه وحفظه من قاع البطن وما تحويه من مثانة وغيرها.. وبما أن الأم بحاجة لإفراغ البول وتنظيم التغوُّط وخَلاَص الجنين ـ وهذه كلها متقاربة في مخارجها وملتصقة فُوّهاتها بجانب بعضها البعض ـ جعل الله ثلاث عضلات مترابطة متناسقة تسد هذه الأرضية بشكل محكم، وبنفس الوقت تترك المجال للفوّهات،.. وقدَّر أن تلتفَّ حول كل فوّهة ما يلائمها من العضلات بحيث

(١) نفسه ٢/ ٢٤١-٢٤٦.

تتشكّل مصرّات على غاية من الأهمية للتحكم بخروج البول أو الغائط.. بعيداً عن الجنين الطاهر[١].

**الصورة السابعة:** بعد انغراس البويضة الملقحة في غشاء باطن الرحم[٢]، وقيامها بالاستطالة وبداية التخلق.. يُفرز منها هورمونات خاصّة، لها علاقة بسير الحمل، واستقرار الرحم، وتغذية الجنين، ونموّه، وتحقيق الأمان له من أي تقلّص عضلي رحمي مفاجئ، يؤدي إلى خروج البويضة، أو موت الجنين،.. فإذا وصل الحمل إلى حدود الأمان، وتجاوز الخطر... بدأت مرحلة هورمونية جديدة بإنتاج مادة أخرى يحتاجها الجنين ليكتمل نموه...[٣].

حيث اكتشف علماء الأجنة أن هذا الهرمون الجديد يحقق زيادة سُمْك الرحم، وامتلاء غدده بالإفرازات المهمة للجنين... فيصبح الغشاء الداخلي للرحم أشبه بالأسفنجة.

بل وجدوا أنَّ هذا الهرمون يثير في نفسية المرأة الاستعداد النفسي للحمل، والوضع، ويُحيي فيها مشاعر الأمومة[٤].

---

(١) وحتى نعرف رحمة الله بنا علينا أن نتذكّر حال المرضى الذين يصابون بسلس البول أو الغائط أو سقوط الرحم أو ممن يحملون أكياس البول والغائط لأمرٍ جراحي خاص، وما يرافق ذلك من انتشار الرائحة الكريهة، وضيق النفس، وحرج الموقف. والجنين محفوظ من مساوئ ذلك كله.

(٢) قارن هذا بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد: ٨).

(٣) الطب محراب الإيمان، د/ خالص جلبي ٢/ ٢٤٦-٢٤٨.

(٤) نفسه.

«لقد وجد الأطباء وعلماء الأجنة أنّ الرحم يقوم بإحاطة الجنين بعدة طبقات من سائل يُسمّى بالسائل الأمينوسي (سائل السَّلى) أو كما سمّاها بعضهم حجبٌ شفافة رقيقة هي (الأمينوسي، الكريوني، الساقط)[1]، فهو محاط بثلاثة أغشية لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق، بينما تظهر للعين المجردة كأنها غشاء واحد»[2] ـ انظر الأشكال (٢٤، ٢٥، ٢٦) ـ وهو كما قال تعالى: ﴿ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾ (الزمر: ٦) تشكّل حصناً حصيناً لحمايته كما سنأتي عليه بعد قليل.

---

(١) وسمّاها بعضهم بـ«الغشاء المنباري، والخوربون، والغشاء اللفائفي» وسنأتي لشرحها عند الحديث عن الظلمات الثلاث والأغشية الثلاثة ص٥٠٦.

وانظر: الإسلام والطب الحديث، للدكتور عبد العزيز إسماعيل، وإنه الحق، للزنداني ص١٧-١٨، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور محمد البار ص٥٧ وما بعدها.

(٢) الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ٢/ ٦٥.

و: علم الأجنة، للزنداني ص٥٥-٥٦.

وانظر: الإسلام والطب الحديث، للدكتور عبد العزيز إسماعيل، وإنه الحق، للزنداني ص١٧-١٨، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور محمد البار ص٥٧، وما بعدها.

## شكل (٢٤)



صورة حية للجنين داخل أغشيته الثلاثة في ظلمات ثلاث، وقد أعد الله المشيمة للتنفس والتغذية والتصفية والإفراز والإفراغ وغير ذلك مما يتعلق بالجنين.

شكل (٢٥)



صورة حية لجنين في نهاية الشهر الرابع (١٦أسبوعاً) داخل أغشيته الثلاثة كلها لحمايته وتغذيته عبر الحبل السري الذي يحتوي على شريانين يجريان من الجنين إلى الأم يحملان الدم الأسود (غير المؤكسد) وينقلان المواد الضارة (ثاني أكسيد الكربون والبولينا) لتفرزها الأم عبر جهازها التنفسي والبولي... ويقوم الحبل السري بنقل الدماء النقية من الأم (المشيمة) إلى الجنين بواسطة الوريد السري الذي يحمل الغذاء والهواء (الأكسجين) إلى الجنين.

شكل ( ٢٦)



صورة حية للجنين في بطن أمه وهو يرضع إبهامه بإلهام من الله الذي خلقه، وقد بلغ من العمر أربعة أشهر ونصف الشهر.

وبعد أن شرحتُ كيف أعدَّ الله رحم الأم لاستقبال الجنين وحمايته وتغذيته وتحقيق نموه، أقول:

ليس هناك تعبير أدقّ، ولا أقوى دلالة، ولا أوضح معنى لبيان هذا كله من قوله سبحانه عن الجنين: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ (المؤمنون: ١٣)، فكلمة (قرار) في الآية تشير إلى العلاقة القوية بين الجنين ورحم أمه، وتؤكد استقراره فيه لمدة تسعة أشهر، الاستقرار الذي يحقق له الأمان والحماية والغذاء والنمو.

وكلمة (مكين) تشير إلى تسخير كل شيء في الرحم له، وتدل على تثبيته بقوة، وتؤكّد موقعه المثالي.

وهكذا جاء اللفظان (قرار) و(مكين) للتعبير البليغ الجامع عن حقيقة تهيئة الرحم، وإعداده للجنين، بوظائفه الدقيقة، وخصائصه المتميزة، ولا يفطن لهذين الوصفين إلا من له علم بحاجات الجنين، وطبيعة الرحم، لمواكبة هذا النمو حتى يخرج سليماً[1].

**هـ ـ تعاقب الخلق والتقدير، وتحديد جنس الجنين:**

قال تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ (عبس: ١٧-١٩) وقال سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ

---

(١) علم الأجنة، للزنداني ص٥٦.

وانظر: أسرار خلق الإنسان (العجائب في الصلب والترائب)، للدكتور داود سليمان السعدي (أخصائي الأمراض الباطنية)، دار الحرف العربي، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، بيروت ـ لبنان ص١٠٣-١١٠.

ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ (النجم: ٤٥، ٤٦) يشير المقطعان إلى أمرين اثنين: **فالمقطع الأول** يشير إلى تعاقب عملية الخلق والتقدير في أول مراحل النطفة الأمشاج، ويشير **المقطع الثاني** إلى أنَّ تحديد ذكورة وأنوثة الجنين تبدأ في بداية تخلُّق النطفة والأمشاج.

وقد أثبت العلم الحديث أنه «بعد ساعات من تلقيح الحيوان المنوي للبويضة في رحم الأم، تبدأ عملية أخرى تتحدَّد فيها الصفات التي ستظهر على الجنين في المستقبل (الصفات السائدة)[١] كما تتحدَّد فيها الصفات المتنحِّية التي قد تظهر في الأجيال القادمة المتناسلة من هذا الجنين بعد حين، وهكذا ففي هذه المرحلة يتم تقدير أوصاف الجنين وتحديدها»[٢].

كما أثبت أيضاً أن «الحيوان المنوي الذي نجح في تلقيح البويضة إن كان يحمل الكروموسوم (Y) كان الجنين ذكراً ـ بإذن الله ـ وإن كان يحمل الكروموسوم (X) كان الجنين أنثى»[٣].

وهكذا فإذا أراد الخالق إيجاد ولد ذَكَر ألهم الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الذكورة (Y)[٤] وقوّاه على تلقيح البويضة، وإن أراد سبحانه إيـجاد أنثى

---

(١) وقد وجد العلماء أن توريث الصفات يتم عبر جينات (صبغيات) حيث يحتوي كل صبغي على مورِّثات، يمكن أن يصل عددها إلى ١٥-٢٠ ألف مورِّثة، وكل واحدة من هذه المورِّثات مسؤولة عن قطاع في الكيان الإنساني للمستقبل.

انظر: الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ٢/ ٢٩٩.

(٢) علم الأجنة، للزنداني ص٤٦ بتصرف.

(٣) نفسه ص٤٧-٤٨ بتصرف.

(٤) حسب التسمية والمصطلحات العلمية الحديثة المتعلقة بذلك.

ألهم الآخر الحامل لشارة الأنوثة (X) ومكّنه من تقليح البويضة مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝ ﴾

(الشورى: ٤٩، ٥٠).

لقد سبقت آيات القرآن خلاصة ما توصّل إليه العلم الحديث المتعلق بخلق الإنسان ومراحل تخليقه وتصويره في بطن أمه بقوله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(آل عمران: ٦).

ثم جاءت السنة النبوية الصحيحة فشرحت ذلك وفصّلته تفصيلاً، ومن ذلك قوله ﷺ ـ في سياق رده على أحد أحبار اليهود وقد جاءه قائلاً ـ : «...وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي... جئت أسألك عن الولد؟ قال ـ أي رسول الله ﷺ ـ : **ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا منيُّ المرأة منيَّ الرجل أنثى بإذن الله.** قال اليهودي: صدقت، وإنك لنبي. ثم انصرف فذهب، فقال رسول الله ﷺ : **لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، ومالي علم بشيء منه، حتى آتاني الله به**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم في ١/ ٢٥٢-٢٥٣، في كتاب: الحيض، باب: صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما، برقم ٣١٥، عن ثوبان ﷺ. والحديث طويل وأوله: «كنت قائماً عند رسول الله ...».

وغير ذلك من صحيح الأحاديث التي تؤكد أن تحديد جنس الجنين يكون بناء على سبق ماء الأب أو الأم، وعلو أحدهما على الآخر[١] فكان ذلك سبباً لمجانسة الولد للعالي ماؤه، وعِلَّةً لشبهه به[٢].

**و ـ الإنشاء الآخر ونفخ الروح:**

قال تعالى في نهاية الآية التي تشرح مراحل تخلُّق الجنين في بطن أمه: ﴿ ... ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٤) قال ابن جرير الطبري: «عُني بذلك نفخ الروح فيه، وذلك أنه بنفخ الروح فيه يتحوَّل خلقاً آخر، إنساناً، وكان قبل ذلك بالأحوال التي وصفه الله أنه كان بها، من نطفة

---

(١) كقوله ﷺ: «... إن ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر، فمن أيها علا أو سبق يكون منه الشَّبَه» أخرجه مسلم في ١/ ٢٥٠، في كتاب الحيض، باب: وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، برقم ٣١١، عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وأول الحديث «إذا رأت ذلك المرأة فلتغتسل». وقوله ﷺ ـ عندما سألته امرأة بقولها: «هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء؟ فقال: نعم، فقالت لها عائشة: تربت يداك. قالت: فقال رسول الله ﷺ: دعيها، هل يكون الشَّبَه إلا من قِبَل ذلك. إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه» أخرجه مسلم في ١/ ٢٥١ في كتاب: الحيض، باب: وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، برقم ٣١٤، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) مع ملاحظة أن الولد قد يشبه غير أبويه من أجداده ـ سواء من قبل أبيه أو أمه ـ كما أثبته العلم الحديث المتعلق بالجينات المتنحية، وكما صح عن النبي ﷺ عندما جاءه رجل من بني فزارة فقال: «يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاماً أسوداً. فقال النبي ﷺ: هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: فما ألوانها؟ قال: حمر. قال: هل فيها من أورق؟ قال: إن فيها لوُرْقا. قال: فأنى أتاها ذلك؟ قال: عسى أن يكون نزعة عِرْق. قال: وهذا عسى أن يكون نزعة عرق». أخرجه مسلم في ٢/ ١١٣٧ في كتاب اللعان، برقم ٢٠، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وعلقة ومضغة وعظم، وبنفخ الروح فيه يتحوَّل عن تلك المعاني كلها إلى معنى الإنسانية، كما تحوَّل أبوه آدم بنفخ الروح في الطينة التي خُلق منها إنساناً، وخلقاً آخر غير الطين الذي خُلق منه»[١].

وقال ابن كثير في تفسير الآية نفسها: «أي: ثم نفخنا فيه الروح فتحرَّك، وصار خلقاً آخر، ذا سمع وبصر وإدراك، وحركة واضطراب..»[٢].

نفهم من تفسير الشيخين أنَّ معنى ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَهُ[٣] خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ :

١- نفخنا فيه الروح، فصار يتحرك.

٢- حوَّلناه من مراحل التخلُّق وأطواره إلى مرحلة أخرى هي مرحلة النمو والزيادة.

٣- نقلناه من مرخلة اللحم إلى صورة الإنسان المكتمل في سمعه وبصره وحركته.

ولقد شرح علماء الأجنة صفات كل مرحلة من مراحل التخلُّق الإنساني في رحم الأم[٤]، فلما وصلوا إلى المرحلة الأخيرة وهي مرحلة كساء العظام باللحم أكَّدوا أنها «تبدأ.. في نهاية الأسبوع السابع، وتستمر طوال الأسبوع

---

(١) جامع البيان ١٨/ ١٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٨٧.

(٣) أنشأناه: النشأة مصدر مشتق من الفعل نشَأَهُ، وهذا الفعل يأتي بمعنيين:

أ ـ الارتفاع بالشيء. ب. ربا وشبَّ ونما.

انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٥/ ٤٢٨، لسان العرب، لابن منظور ١٤/ ١٣٤- ١٣٥ مادة نشأ، تاج العروس، للزبيدي ١/ ٢٦٤، المعجم الوسيط ٢/ ٩٢٠.

(٤) انظر: علم الأجنة، للزنداني ص٢٣٤-٢٣٥.

الثامن[١]، الذي يُعتبر انتهاؤه انتهاءً لأطوار مرحلة التخلُّق، حيث سمّوها مرحلة الحميل (EMBRYO) ثم تأتي بعد هذه المرحلة مرحلة الجنين (FETUS)، كما قرَّره علماء الأجنة اليوم، والتي توافق مرحلة النشأة كما جاء في كلام الله ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٤) وتبدأ هذه المرحلة في بداية الأسبوع التاسع، وتتم فيها:

أ ـ **النشأة:** حيث يسرع معدّل نمو الجنين مقارنة بالمراحل السابقة.

ب ـ **الخلق الآخر:** بمعنى أن الحميل يتحول إلى خلق آخر، حيث يؤكد علماء الأجنة، أنه في الفترة ما بين الأسبوعين التاسع والثاني عشر تبدأ أحجام كل من الرأس والجسم والأطراف في التوازن والاعتدال «بعد اكتمال تخلُّقها في المراحل السابقة)، وفي الأسبوع الثاني عشر يتطوَّر بناء الهيكل العظمي من العظام الغضروفية اللينة إلى العظام الكِلسِيَّة الصلبة، كما تتمايز الأطراف، ويظهر الشعر على الجلد، ويزداد وزن الجنين بصورة ملحوظة،.. وتبدأ الحركات الإرادية، وتصبح الأعضاء والأجهزة مهيأة للقيام بوظائفها»[٢]. ـ انظر الشكل(٢٧)ـ .

وفي هـذه المرحلة يتم نفخ الروح، التي دلَّت عليها نصوص القرآن والسنة المطهرة.

وهكذا نرى دقة المصطلح القرآني بتعبيره عن تخلُّق الجنين بعد كِسَاء عظامه باللحم بقوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾.

---

(١) ارجع البصر إلى الشكل (٢٢) ص٦٣٢.

(٢) علم الأجنة، للزنداني ص٢٠٥ باختصار.

الشكل (٢٧)




صورة حية لجنين بلغ من العمر
خمسة وعشرين أسبوعاً وقد اكتمل تماماً

## ز ـ الظلمات الثلاث والأغشية الثلاثة:

قال تعالى عن نفسه ـ مخاطباً خلقه ومتحبِّباً إليهم: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (الزمر: ٦) ذكر ابن عاشور في تفسير قوله سبحانه: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾ أن الله تعالى خلق الإنسان في أطوار عشرة[1]، وذكر كلاماً بنحو ما قاله أهل الاختصاص في علم الأجنة، ثم قال: «والظلمات الثلاث: ظلمة بطن الأم، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة[2]، وهي غشاء من جلد، يُخلق مع الجنين، محيطاً به، ليقيَه، وليكون به استقلاله مما ينجرُّ إليه من الأغذية من دورته الدموية الخاصَّة به دون أمِّهِ...»[3] ارجع البصر إلى الشكل ٢٤، ٢٥، ٢٦.

لقد اكتشف علماء الأجنة أن الظلمة مهمة جداً لنمو الجنين، وأن الضوء يعيق مراحل نموه المختلفة، وأن الجنين يتخلّق داخل أغشية ثلاثة محيطة به هي:

١ - غشاء السلي أو الأمينيون، ويحيط بالجنين مباشرة.

---

(١) بينما قسّمها الشنقيطي إلى أطوار أربعة، انظر: أضواء البيان ٥/ ٢٠-٢١.

(٢) وفي كتاب الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ١/ ٨٠ أن الظلمات الثلاث قد تكون:

أ ـ ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة الأغشية.

ب ـ أو هي الأغشية الثلاثة التي تحيط بالجنين وهي الساقط والكريوني والأمينوسي.

(٣) التحرير والتنوير ٢٤/ ٢٥.

وانظر: الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ١/ ٧٩-٨٠.

٢- غشاء الكوريون «الغشاء المشيمي».

٣- الغشاء الساقط.

أما غشاء السّلي والأمنيون: فيُعرف بالغشاء الباطن، لأنه يحيط بالجنين من كل جانب، وهو عبارة عن كيس غشائي رقيق ومقفل يحيط بالجنين إحاطة تامة، وفيه سائل يزداد مع نمو الجنين، حتى يبلغ أوجّه في الشهر السابع، وللسائل الأمنيوني (الأمنيوسي) فوائد جمّة لا يمكن الاستغناء عنها في تكوين الجنين منها على سبيل الإجمال:

أ ـ تغذية الجنين...

ب ـ حماية الجنين ووقايته من الصدمات المفاجئة، والحركات العنيفة، والسقطات التي تتعرض لها الأم، وكذا تقلبات الحرارة وهجوم الميكروبات.

ج ـ تسهيل الحركة الكاملة للجنين داخل الرحم، وتسهيل تنكسيه على رأسه قبل ولادته.

د ـ حفظ الجنين في حرارة ثابتة مناسبة، لا تزيد ولا تنقص إلا في حدود ضئيلة جداً.

هـ- يقوم السائل الأمنيوني بمنع غشاء الأمنيون من الالتصاق بالجنين، ولو وقع ذلك لتشوه الجنين تشوّهات خَلْقية.

هذه بعض وظائف السائل الأمنيوسي أثناء الحمل.

أما وظائفه أثناء الولادة فمنها:

- أن السائل الأمنيوسي يكوّن جيب المياه الذي يوسّع عنق الرحم ليتسع لخروج الوليد بكامله.

- وفي نفس الوقت يقي الجنين من الانحصار والانضغاط بين جدار عنق الرحم أثناء الولادة وما يرافق ذلك من ضغط عال جداً حال الطّلْق، ولولا ذلك لتهشّم رأس الجنين.

- كما أن السائل الأمينوسي يمهّد ويُعقّم طريق الجنين وذلك عندما ينفجر جيب مياهه فيقتل الميكروبات الموجودة في المهبل قبيل الولادة، ويُسهّل خروجه.

أما غشاء الكوريون «الغشاء المشيمي»: فهو الثاني من الأغشية التي تحيط بالجنين، ويقوم بنقل الغذاء والأكسجين من الأم إلى الجنين، كما ينقل غاز ثاني أكسيد الكربون والبولينا من الجنين إلى دم الأم، عن طريق الزغابات والخملات الموجودة عليه بشكل كبير.

أما الغشاء الثالث «الغشاء الساقط» فهو مكوّن من الغشاء المخاطي المبطن للرحم، وهو رقيق، وينمو نموّاً هائلاً، ويُسمّى بالساقط لأنه يسقط ويخرج مع دم الحيض أو مع دم النفاس إذا كان هناك حمل، ويُقسّم إلى ثلاثة أجزاء حسب موقعه في الرحم(١).

**عموماً**: لقد أشار القرآن الكريم إلى الظلمات الثلاث وما يحيط بالجنين من أغشية أثناء تخلقه حتى ولادته، ليذكّر الإنسان بنعم الله عليه، ويلفت انتباه

---

(١) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، لمحمد البار، ص٤٢٣-٤٢٧، و«الطب محراب الإيمان»، للدكتور خالص جلبي ١/ ٧٩، و: دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث، لمحمد عز الدين ص١٥٠.

و: الإعجاز الإلهي في مراحل خلق الجنين، للدكتور كمال محمد درويش، دار الصحوة، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص٦٨-٧٢.

العقلاء لآيات الله فيه، فيصلوا بذلك إلى اليقين بوجود الله الرب الإله المستحق للتوحيد وحده.

وبعد أن عقدتُ مقارنة بل مطابقة بين كلام الله المتعلق بخلق الإنسان، ومراحل تخلُّقه في رحم أُمِّه، وبين اكتشافات علماء الأجنة في العصر الحديث، وقبل أن أشرح دلالة خلق الإنسان وتخليقه على وحدانية الله وتوحيده أختم هذه الفقرة بذكر شيء من آيات الله في الأجنة والمواليد مما ذكره أهل العلم الحديث مما يتعلق بقوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ﴾ (غافر: ٦٧) كما يلي:

### ح ـ من آيات الله في الأجنة والمواليد:

١ ـ يُغيِّر الطفل موضعه مراراً ـ في رحم أمه ـ قبل ولادته، ليتكيف مع القناة العظمية للحوض، بحثاً عن أنسب الأماكن اتساعاً لخروجه.

٢ ـ البويضة الملقَّحة التي كانت خلية واحدة لا تكاد تُرى، قد خرجت الآن بعد تسعة شهور فقط، طفلاً كاملاً، بوزن ألفين وخمسمائة جرام، مكوَّن من مئات الملايين من الخلايا.

٣ ـ إلى الآن لم يتمكن علماء الأجنة من المعرفة الدقيقة لسبب ولادة الطفل الإنساني عاجزاً لا يمشي على أقدامه مباشرة، كالحيوانات الأخرى، ويعتقدون أن ذلك لحكمة عظيمة هي: حاجة المولود لقضاء أطول فترة ممكنة من الحضانة، مع أمه، لقصور عقله، ولكون سلوكه إرادياً، يتعلَّمه من البيئة التي ينشأ فيها، وليس غريزياً موروثاً كالحيوان.

٤ ـ اكتشف الأطباء أن الجنين يبدأ في الشهر الرابع وهو في بطن أمه بوضع إصبعه في فمه ومصِّها، وعلَّلوا ذلك بأنه يقوم بحركة إرادية، وتدريب عملي على عملية الرضاع التي سيحتاج إليها بعد ولادته ـ أعد النظر في الشكل ٢٦ ـ.

٥ ـ يتكون لبن الأم في ثدييها في الساعات الأخيرة التي تسبق الوضع، وإن لم يكن الوليد قد خرج بعد.

٦ ـ أثبت الطب الحديث أنه لا بديل للطفل المولود أحسن من لبن أمه، كون تركيبه اللبني وخصائصه. تواكب نموه بدقة، ففي البداية يكون هذا اللبن سائلاً أصفر خفيفاً يسمى اللِّبأ، تكون مكوِّناته مناسبة جداً للرضيع في أيامه الأولى، ومع نمو الطفل تُضاف إلى هذا اللبن مواد جديدة يحتاجها المولود، وترتفع نسبة المواد القديمة لتكفيه وتغطي حاجته.

وقد وجد الأطباء أن التركيب الكيماوي للبن الأم متناسب تماماً مع الإمكانات الهضمية للرضيع، فهو يُهضم ويُمتص بسرعة، وفوق ذلك يحوي مضادات حيوية تحمي الطفل من كل ما يؤثر عليه سلباً.

٧ ـ أثبت الواقع أن الأم قد تنام على هدير الشوارع وضجيج السيارات، ولكن شهقةً أو صرخةً واحدةً من طفلها توقظها فوراً ومراراً.

٨ ـ تعتقد المدرسة التوليدية التحويلية في علم اللغة ـ من خلال دراستها لتدرُّب الطفل على المشي واكتساب اللغة ـ بوجود استعداد سابق لديه قبل ميلاده لتعلُّم اللغة، حتى تصدَّرت هذه النظرية الدراسات اللسانية الحديثة[1].

(١) دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص١٦٤، والمؤلف قد نقل ذلك عن مراجع أجنبية.

٩ ـ يتوقف الجسم عن نموه في مرحلة ما بعد البلوغ، وينصرف إلى المحافظة على مستوى النمو الذي وصل إليه، وذلك بتعويض أيٍّ تلف يحصل في الخلايا.

وتوقُّف نمو الجسم في مرحلةٍ من العمر يمنعه من بلوغ أطوارٍ وأحجامٍ شاذَّة، وهو ما لا يحتاج إليه الجسم بعد أن يبلغ أشده.

بينما يستمر نضوج العقل، وزيادة ملكاته، وتحصيله العلمي دون توقُّف، لأهمية ذلك[1].

يتضح لنا من كل ما سبق أن جميع ما يحصل في الجسد الإنساني يتم بحكمة ولحكمة مقصودة، وهداية وإرادة، وبفعل فاعل له صفات معينة. ألا يجزم العقل بعد هذا كله بوجود رب: عليم، خبير، قدير، حكيم، هادي، بديع، مهيمن، محيط، صمد، مبدئ معيد، واسع، باسط، قابض[2]، مقدِّم مؤخِّر، قوي قهَّار، لا يكون شيء إلا بمشيئته، وهو فعَّال لما يريد؟!

ألا يجزم بوجود خلاَّق: حفيظ، لطيف، قريب، ودود، وهّاب، رحمن، رحيم، رؤوف، رفيق، منّان، مانع معطي، كريم، رزَّاق، نافع، ضار، ولي، والي؟!

ألا يؤمن بأنه: سميع بصير، شهيد، واحد، أحد، علي عظيم، حي قيوم؟!

**وبعد كل ما سبق أقول: تتضح دلالة خلق الإنسان وتخليقه على وحدانية الله وتوحيده من الوجوه الثلاثة الآتية:**

---

(١) انظر: تفاصيل ذلك في المرجع السابق ص١٥٣-١٦٥.

(٢) حيث يبسط الرحم ويوسعه للجنين ثم يقبضه سبحانه بعد الولادة حتى يرجع لحالته الطبيعية.

انظر: المرجع السابق، ص١٥٣.

**الوجه الأول:** تقرير القرآن لبطلان المصادفة في خلق الإنسان وحتمية وجود خالق له هو الله (عز وجل):

من المعلوم بالضرورة لكل الناس أن الإنسان مخلوق، مُحدَث، بعد أن لم يكن، وكل واحد يعلم أنه خُلِق في بطن أمه بعد أن لم يكن، وحدوث حادِث بلا محدِث ممتنع في العقل؛ لأنه يتضمن رجحان هذا المحدَث من غير مرجِّح، وكل محدَث فوجوده وعدمه متساويان من حيث إمكان كل منهما، إذ لولا إمكان وجوده لم يوجد فعلاً، ولولا إمكان عدمه لم يكن معدوماً من قبل، فوجوده الواقع المشاهد دليل على أنَّ وجوده قد ترجَّح على عدمه[١]، وذلك لابد فيه من مرجِّح، (اختيار).

ثم إن حدوث كل إنسان مرتبط بزمان ومكان وصفة، ومعلوم أن تخصيص أحد المثلين رغم تساوي الزمان والمكان والصفات، لابد فيه من مخصِّص (تقدير).

وإن العقل ليؤمن باحتياج كل محدَث أو حادث إلى من أحدثه (محدِث)، وبمعنى آخر: إنه لابد لكل فعل ومفعول من فاعل.

وحدوثُ المحدَث من غير علة، أو رجحان الممكن من غير مرجِّح، أو وقوع الفعل والمفعول من غير فاعل يتناقض مع العقل السليم[٢].

---

(١) وقد بيَّن الله في كتابه أن وجود الإنسان في هذه الأرض وجود ممكن غير واجب، ومشيئة الله هي التي جاءت به، وهو قادر سبحانه على إذهابه، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (الإنسان: ١، ٢)، وقال أيضاً: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ (الإنسان: ٢٨)، وقال سبحانه: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ (النساء: ١٣٣).

(٢) وكما أن العقل يؤمن بأن رجحان إحدى كفتي الميزان المتساويتين لا يكون إلا بمرجِّح فكذلك وجود الإنسان، عدمه كان بناء على موجود له.

وعندما يتفكَّر الإنسان في نفسه يجزم بأنه مخلوق مدبَّر مُتصرَّف فيه منذ أن كان جزءاً يسيراً جداً من ماء مهين حتى صار شيخاً كبيراً على وشك الموت، فليس له ولا لغيره من المخلوقات أي تدبير وتصريف لهذا البدن. ـ سواء في خلقه وتخلُّقه، أو أطواره ومراحل حياته[1]، أو وظائف بدنه وأعضائه حتى شيخوخته[2]. ليس له تصريف بأجهزته وأعضائه الظاهرة والباطنة ـ لا تحريكاً ولا تسكيناً، ولا زيادة ولا نقصاً، ولا تبديلاً ولا تحويلاً، ولا إحياء، ولا إماتة[3].

ويصل به عقله إلى حتمية وجود خالق له واجب الوجود، ذاك هو ربُّه، القائل: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الروم: ٤٠) والقائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ (النساء: ١) ونحوها من الآيات[4].

وقد وردت بعض آي القرآن التي تؤكد خلق الله للناس أجمعين ـ بذواتهم وأصولهم ـ، وتنفي أن يكون غيره خالقاً لهم، أو شريكاً معه في خلقهم، قال

---

(١) قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ (الروم: ٥٤).

(٢) قال سبحانه: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (يس: ٦٨).

(٣) قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ (الحج: ٦٦).

(٤) انظر على سبيل المثال سورة مريم ٦٧، والحجرات ١٣، والإنسان ٢٨.

تعالى مخاطباً الكفار: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ (الواقعة: ٥٧-٥٩) وقال سبحانه: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ (الطور: ٣٥) يتبيَّن لنا من خلال هذين المقطعين أن الله عزوجل يستدل بدلالة آيات خلق الإنسان على وحدانيته في ربوبيته، ويدحض خلق الإنسان وتخلُّقه من غير خالقه[1]، حيث أن لكل مخلوق خالق، ولكل معلول علة، والعلة غير المعلول، إذ من المستحيل أن يكون الشيء هو علة ومعلولاً في نفس الوقت، ولنفس الحدث وهذا يعني أنه من المستحيل أن يكون الإنسان خالقاً ومخلوقاً في نفس الوقت.

وقد نقل ابن تيمية عن أبي الفرج صدقة بن الحسين البغدادي[2] ما نصه: «وجه دلالة الإنسان من نفسه على الله تعالى أنه كان نطفة، ثم تقلَّبت به الأحوال

---

(١) ولهذا أنكر سبحانه على المشركين عبادة آلهتهم التي لا تخلق شيئاً فقال سبحانه: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (الأعراف: ١٩١)، ونحوها في النحل: ٢٠، والفرقان: ٣.

(٢) هو صدقة بن الحسين بن بختيار بن الحداد البغدادي، أبو الفرج، توفي سنة ٥٧٣هـ ذكر ابن تيمية أنه من المتأخرين المتنسبين إلى أحمد، الذين مالوا إلى بعض كلام المعتزلة، وذكر عنه ابن الجوزي عظائم، استدل بها على سوء معتقده ودافع عنه آخرونَ من مؤلفاته (محجة الساري في معرفة الباري).

انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية ١/ ٢٧٠. و: المنتظم في أخبار الملوك والأمم، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت٥٩٧هـ) دراسة وتحقيق محمد عبدالقادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط(بدون)، د.ت ـ بيروت ـ لبنان ١٨/ ٢٤٣-٢٤٥. و: لسان الميزان، لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العقسلاني (ت٨٥٢)هـ دار الفكر، ط (بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان ٣/ ٢٢٤-٢٢٦.

إلى أن انتهى إلى حال الكمال، فلابد لهذا التنقُّل والتغيُّر من مغيِّر، ولم يكن التغيُّر في وقت أولى من وقت، فلا يخلو ذلك المغيِّر:

أ ـ إما أن يكون قد اقتضى تغيُّرها على سبيل الإيجاب من غير اختيار، بالطبع، أو القالب[1].

ب ـ أو يكون اقتضى تغيُّرها على سبيل الاختيار، وهو الفاعل، ولا يخلو ذلك الفاعل:

١ - إما أن يكون هو الإنسان.

٢ - أو غيره.

**وإن كان غيره، فلا يخلو:**

أ ـ إما أن يكون من جنسه.

ب ـ أو من غير جنسه.

**فإن كان من جنسه، فإما أن يكون:**

١ - أبويه.

٢ - أو غيرهما.

فإن كان من غير جنسه فهو قولنا، وسنُبطِل سائر الأقسام، ونثبت هذا الأخير.

أمَّا أنَّه لا يجوز أن يكون الإنسان قد تشكَّل لأجل أن الرحم على شكل القالب، فلأن الكلام فيمن شكَّل ذلك القالب كالكلام فيمن شكَّل الإنسان؛ ولأن القالب يقتضي تشكيل ظاهر ما يُلقى فيه، فما الذي اقتضى تشكيل باطن

---

(١) يقصد الوعاء الذي يُخلق فيه الجنين وهو الرحم.

الإنسان؛ وَوَضَع أجزاء الباطن مواضعها؟ ولا يجوز أن يكون المقتضِي لتغيير الإنسان وتشكيله طبيعة غير عالمِةٍ ولا مختارةٍ؛ لأن الإنسان أبلغ في الترتيب والحكمة من بناء دار وصناعة تاج.

وكما لم يجز أن يحصل ذلك ممن ليس بعالمٍ، فكذلك الإنسان. ألا ترى أن أعضاء الإنسان مقسومة على حسب المنفعة، وموضوعة مواضعها؟

ولا يجوز أن يكون الإنسان هو الذي غيَّر نفسه من حال إلى حال؛ لأنه لو قدر على ذلك في حال ضعفه، لكان في حال كماله أقدر، وإذا عجز عن خلْق مثله، وخلْق أعضائه في حال كماله، فهو عن ذلك في حال الضعف أعجز.

ولا يجوز أن يكون المغيِّر له من حال إلى حال أبويه[1]؛ لأنه ليس يجري حسب إيثارهما، ألا ترى أنهما يريدانه فلا يكون، ويَكرهانهِ فيكون، ويريدانه ذكراً فيكون أنثى، ويريدانه أنثى فيكون ذكراً، فإذا لم يكن لأبويه في ذلك تأثير، فغيرهما مما لا تعلُّق له به أجدر، فصحَّ أن للإنسان فاعلاً مخالفاً له[2]، وهو الله تعالى»[3].

لقد استدل أبو الفرج البغدادي على وجود الخالق سبحانه بدليل عقلي متعلِّق بخلق الإنسان نفسِه، فيه من الدلالة القوية والمعاني الواضحة ما ليس في غيره، ولهذا فلا عجب من موقف جبير بن مطعم رضي الله عنه عندما سمع قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ (الطور: ٣٥) فقال: «كاد قلبي أن

---

(١) هكذا في الأصل، ولعل الأصوب (أبواه).

(٢) أي من غير جنسه.

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٢٥، ٣١-٣٣ حيث نقل ابن تيمية هذا النص، وذكر أنه في كتاب (محجَّة الساري في معرفة الباري) لأبي الفرج البغدادي (ولم أعثر على المرجع الأصلي).

يطير»[1]، لقد كانت هذه الآية باستدلالها القوي على خلق الله للناس طريقاً إلى إيمانه برب العالمين حيث قال: «وذلك أوّل ما وقر الإيمان في قلبي»[2].

قال ابن تيمية في تقرير معنى الآية السابقة: «هذا تقسيم حاصر، يقول:

أخُلِقوا من غير خالق خَلَقهم؟ فهذا ممتنع في بَدَائِه[3] العقول.

أم هم خَلَقوا أنفسهم؟ فهذا أشد امتناعاً.

فعُلِم أن لهم خالقاً خلَقَهم.

وهو ـ سبحانه ـ إنما ذكر الدليل بصيغة استفهام الإنكار ليُبيِّن أن هذه القضية التي استدلَّ بها فطرية بديهية، مستقرة في النفوس، لا يمكن لأحد إنكارها، ولا يمكن أيضاً لصحيح الفطرة أن يدَّعي وجود حادث بدون محدِث أحدثه، ولا يمكنه أن يقول: هو أحدث نفسه»[4].

وبناءً على كل ما سبق نصل إلى النتائج التالية:

---

(١) أخرجه البخاري في ٤/ ١٨٣٩ في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الطور، برقم ٤٥٧٣ عن جبير بن مطعم.

(٢) المرجع السابق ٤/ ١٤٧٥ كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً، برقم ٣٧٩٨.

(٣) بدائه: جمع بديهة، وهي مكتوبة في كتاب (الرد على المنطقيين) بلفظ (بدايَة) ويظهر أن ما أثبتناه هو الأصوب والأنسب للسياق.

(٤) الرد على المنطقيين، ص٢٥٣.

و: انظر الفتاوى ٢/ ١١، والفرقان بين الحق والباطل، لابن تيمية وهو ضمن الفتاوى ١٣/ ١٥١.

و: الصواعق المرسلة، لابن القيم ٢/ ٤٩٣-٤٩٤.

و: الأسماء والصفات، للبيهقي ص٢٧٠ وما بعدها.

أ ـ نفيُ أن يكون خلقُ الإنسان وتخلُّقه في بطن أمه من غير خالق.

ب ـ نفيُ خلق الإنسان أو تدبير مراحل تخلُّقه في رحم أمه من تلقاء نفسه.

ج ـ ضرورة أن يكون للإنسان خالقٌ واحدٌ، خلَق أصله، ودبَّر تخلُّقه في بطن أمّه ﴿ فِىٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ﴾ (التين: ٤) ذاك هو الله القائل: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ﴾ (الأعراف: ١١) والقائل سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ ﴾ (آل عمران: ٦).

قال محمد رشيد: «ومن عَرَفَ ما في تصوير الأجنة في الأرحام من الحِكَم والنظام، علم أنه يستحيل أن يكون بالمصادفة والاتفاق، وأيقن بأن ذلك فعل عالِمٍ خبير بالدقائق، حكيم، يستحيل عليه العبث، عزيز لا يُغلب على ما قضى به علمه وتعلّقت به إرادته، واحد لا شريك له في إبداعه»[١]. ومن هنا خاطب الله خلقه قائلاً: ﴿ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (غافر: ٦٤) فقرَّر ربوبيته لهم، وقال معاتباً كل كافر جاحد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝ ﴾[٢] ذكر الرازي في تفسير ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ أن المراد: من الصُّور المختلفة، بحسب الطُّول والقِصر، والحسن والقُبح، والذكورة والأنوثة[٣]، ثم قال:

---

(١) المنار ٣/ ١٣٤.

(٢) الانفطار ٦-٨، ونحوها في الحج: ٥.

(٣) قال تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾ (الشورى: ٤٩، ٥٠).

«ودلالة هذه الحالة على الصانع القادر في غاية الظهور؛ لأن النطفة جسم متشابه الأجزاء، وتأثير طبع الأبوين فيه على السَّوية، فالفاعل المؤثِّر بالطبيعة في القابل المشابه لا يفعل إلا فعلاً واحداً، فلما اختلفت الآثار والصفات، دلَّ ذلك الاختلاف[1] على أنَّ المدبِّر هو القادر المختار»[2].

وخلاصة القول أنه:

إذا:

أخبرنا الله بوحدانيته في خلق الإنسان، وتدبير مراحل تخلُّقه، وأنه هو الذي ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (الأعلى: ٢، ٣)، ولم يثبت أنَّ أحداً غيره قال ذلك[3]، أو شاركه في خلق شيء في الكون[4] ـ كالإنسان مثلاً ـ .

---

(١) واختلاف الألسنة والألوان والنبات آية من آيات الله، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢).
وقال سبحانه: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: ٤).

(٢) التفسير الكبير ٣١-٧٤.

(٣) بل قد اعترف الكفار بأن الله خالقهم وخالق السماوات والأرض وما فيهن كما سبق شرحه ص ١٧١، ص ١٨٨.

(٤) قال تعالى مخاطباً الكفار: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ (سبأ: ٢٢)، وقال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ (فاطر: ٤٠).

وإذا:

ثبتت لنا صحة القرآن، ونسبته إلى الله وحده، وصِدق وأمانة ناقله ـ رسول الله ﷺ ـ.

وإذا:

تبيَّن لنا وتأكّد لعقولنا أنَّ خلق الإنسان ومراحل تخلُّقه في رحم أمِّه قد تمَّت بصورة بديعة، منتظمة، محكمة، تجلَّت فيها صور الترابط، والتواؤم، والاتفاق والإعجاز العلمي القرآني في وصف خلق الإنسان ومراحل تخليقه ـ دون خلل أو تناقض أو فساد، فقد دلَّ ذلك كلُّه بما لا يدع مجالاً للشك على أن خالق الإنسان هو من وصف نفسه بقوله: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾. (الحشر: ٢٤)، ودلّ أيضاً على أن القرآن كلام الله.

وهكذا استدلَّ الله على توحيد ربوبيته وأكَّد على ذلك بدليل خلق الإنسان وتخلُّقه في بطن أمه، مع أن «توحيد الربوبية لا يحتاج إلى دليل، فإنه مركوز في الفِطَر، وأقرب ما ينظر فيه المرء أمر نفسه، لمَّا كان نطفة... ثم صارت تلك النطفة في قرار مكين... وانقطع عنها تدبير الأبوين، وسائر الخلائق، ولو كانت موضوعة على لوح أو طبق، واجتمع حكماء العالم على أن يُصوِّروا منها شيئاً لم يقدروا»[1] إن الاستدلال بحدوث الإنسان على مُحْدِثه وخالقه هو كما قال ابن تيمية: «حجة صحيحة... من الحجج التي دلَّ عليها القرآن، وأرشد إليها»[2]،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ص٤٧٦.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٣٣.

وهذا واضح جداً من أوّل ما نزل من القرآن، حيث خاطب الله نبيه قائلاً: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (العلق: ١، ٢) فذكر الخلق مطلقاً، ثم خصَّص خلق الإنسان بالذكر، ومن حكمة هذا التخصيص أنَّ الناس جميعاً مشتركون في مباشرة هذه الدلالة، فالإنسان هو المستَّدِل، وفي الوقت ذاته هو الدليل والبرهان والآية، فهذه الدلالة يعلمها الإنسان من نفسه، ويذكرها كلما تفكَّر في خلقه، ومن يراه من بني جنسه[1].

**الوجه الثاني:** تأكيد القرآن لربوبية الله للإنسان واستحقاقه سبحانه لتوحيد العبادة بناءً على ذلك:

استدل القرآن الكريم على استحقاق المولى عزوجل لتوحيد الألوهية بدليل خلق الله للإنسان وتخليقه له في بطن أمه، وقد كان هذا في أكثر من آية، منها:

أ ـ قوله تعالى عن نفسه مخاطباً خلقه: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (الزمر: ٦).

ب ـ قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ٦).

ج ـ قوله سبحانه في سياق حديثه عن إثبات يوم البعث: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية ١٦/ ٢٦٢-٢٦٣.

مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ (الحج: ٥، ٦) ومحل الشاهد في دلالة الآية على توحيد الألوهية قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ حيث قال ابن عاشور: «... ويجوز أن تكون الباء للملابسة، أي: كان ذلك الخلق... ملابساً لحقِّية إلهية الله، وهذه الملابسة ملابسة الدليل لمدلوله»[(١)]، وقال الشنقيطي: «بيّن جل وعلا... أطوار خلقه الإنسان ونقله له، من حال إلى حال، ليدل خلقه بذلك على كمال قدرته، واستحقاقه للعبادة وحده»[(٢)].

د ـ قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ٢١) فقد أمر أمراً صريحاً بعبادته سبحانه، يقول ابن القيم رحمه الله في قوله سبحانه: ﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾: «وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته، لأنه إذا كان ربنا الذي يُربِّينا بنعمه، وإحسانه، وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا، وكل ذرَّة من العبد فمملوكة له مُلكاً خالصاً حقيقيّاً، وقد ربَّاه بإحسانه إليه، وإنعامه عليه، فعبادته له، وشكره إياه، واجب عليه، ولهذا قال: ﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ ولم يقل إلهكم، والرب هو السيد والمالك

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٠٤.

(٢) أضواء البيان ٥/ ٧٧٦.

والمنعم والمربِّي والمصلح، والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها، فلا شيء أوجب في العقول والفِطَر من عبادة من هذا شأنه وحده، لا شريك له»[١] والمقصود بالعبادة هنا كما قال ابن جرير الطبري رحمه الله: التوحيد، حيث ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أنه فسّر ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ بمعنى: وحِّدوا ربكم[٢].

والشاهد من كل الآيات السابقة أن الله تعالى ختم الأولى بقوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾ (الزمر: ٦) وختم الثانية بقوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ٦) وعقّب على الأخيرة بآية بعدها، ذيَّلها بقوله سبحانه: ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٢) للإشارة إلى أنه ما دام سبحانه هو الخالق للإنسان، المصوِّر له، المنعم عليه، فهو الرب الذي يستحق العبادة وحده لا سواه، قال السعدي في تفسير الآية الثانية بعد شرحه لبعض مظاهر قدرة الله في تخليق الجنين: «فَمَنْ ـ كان ـ هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم، لا مشارك له في ذلك، فيتعيَّن أنه لا يستحق العبادة إلا هو»[٣] وهذا ما نبَّه الله إليه بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦) ومن هنا خاطب نوح قومه قائلاً: ﴿ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ۝ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ۝ ﴾ (نوح: ١٣، ١٤)، حيث جعل تخليق الله للناس في بطون أمهاتهم طوراً فطوراً دليلاً على ربوبيته لهم،

---

(١) بدائع الفوائد، لشمس الدين محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية (ت٧٥١)هـ الناشر: مكتبة ابن تيمية، مكتبة العلم، بجدة، ط(بدون)، د.ت، مصر ـ السعودية ٤/ ١٣٢.

(٢) جامع البيان ١/ ١٨٥.

(٣) تفسير السعدي ص١١٣.

وانفراده بالملك، واستحقاقه توحيد الألوهية، وتعجّب من الانصراف عن مقتضى هذا البرهان، القاطع، وما ذلك إلا لشدة ووضحه وجلائه، وعلّل إبراهيم عليه السلام عبادته لربه وعداوته لآلهة الكفار بخلق الله له وتدبيره أموره[١]، وكذا الرجل الذي جاء من أقصى المدينة وورد ذكره في سورة يس[٢].

وأمر الله نبيه ﷺ أن يواجه الكفار بحقيقة جحودهم لربهم الذي خلقهم وبرأهم في أرحام أمهاتهم، بقوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[٣] أي: «قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر»[٤]، وطريق الشكر إنما هو العبادة كما قال سبحانه لمحمد ﷺ أصلاً، وأمته تبعاً: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الزمر: ٦٦) وعاتب المعرضين عن توحيد ألوهيته، معجّباً من إعراضهم عنه ـ كما مرَّ معنا في أوّل آية في هذه الفقرة ـ بقوله سبحانه: ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أي: «فكيف تنصرفون عن عبادته، وتنقلبون عنها إلى عبادة غيره»[٥].!!

إننا نجد أن الله تعالى جعل تدبيره للأجنة، وعنايته بهم، حتى خروجهم من بطون أمهاتهم، وخلقِه لأسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم من موجبات شكره،

---

(١) حيث قال لقومه: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ (الشعراء: ٧٥-٨١).

(٢) حيث قال لقومه: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يس: ٢٢).

(٣) الملك: ٢٣، ونحوها في المؤمنون: ٧٨.

(٤) تفسير السعدي ص٩٦٠.

(٥) فتح القدير، للشوكاني ٤/ ٥٩٣.

وحسن عبادته، كما يتضح من الآية السابقة، ومن قوله تعالى مخاطباً جميع خلقه: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨) وهذا ما فعله سيد الشاكرين محمد ﷺ بعبادته لربه طوال حياته، واعترافه له في سجوده باستحقاقه لذلك قائلاً: «**سجد وجهي للذي خلقه، وشقَّ سمعه وبصره، بحوله وقوَّته**»[1] وفي رواية: «**سجد وجهي للذي خلقه، وصوَّره، وشقَّ سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين**»[2].

وكما أن الله عز وجل قد استدل بخلق الإنسان وتخليقه في بطن أمه على وحدانيته في ألوهيته، فقد استدل بذلك أيضاً على وحدانيته في أسمائه وصفاته كما يتضح من تذييل كثير من آيات خلق الإنسان ببعض أسماء الله وصفاته، مثل قوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٤) وقوله جلَّ شأنه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ (الروم: ٥٤).

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٢/ ٤٧٤ في أبواب الصلاة، باب: ما يقول في سجود القرآن، برقم ٥٨٠ عن عائشة رضي الله عنها، وأخرجه الحاكم في مستدركه ١/ ٢٢٠، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وانظر: سنن أبي داود ٢/ ١٢٦، كتاب: الصلاة، باب: ما يقول إذا سجد، برقم ١٤١٤. وقد صححه أحمد شاكر في تحقيقه لسنن الترمذي ٢/ ٤٧٤.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ٤٥٢، كتاب: الدعوات، باب: رقم ٣٢، برقم ٣٤٢١، عن علي بن ابي طالب، وقد صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم ٢٧٢١.

وكما مرَّ معنا أيضاً في قوله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ٦) فقد ختم الآية الأولى بقوله: ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ وذيَّل الثانية بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ وكذا الأخيرة بقوله: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وكلها تشير إلى توحيد الأسماء والصفات، وتؤكد المناسبة بينها وبين محور الآيات المتحدثة عن خلق الإنسان.

وهكذا استدل الإله الواحد على وحدانيته ووجوب توحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته بدليل خلقه للإنسان، وعنايته به.

ودعى خلقه لإعمال عقولهم في هذا الدليل ليفقهوا واجبهم تجاه خالقهم، فقال سبحانه: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾[1] وقال عن الكفار المعرضين عن عبادته: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ ﴾ (الروم: ٨) قال ابن القيم رحمه الله: «وإذا تأملت ما دعى الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى، وبوحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله، من عموم قدرته وعلمه، وكمال حكمته ورحمته، وإحسانه وبِرِّه ولطفه،.. فبهذا تعرَّف إلى عباده، وندبهم إلى التفكر في آياته... إن القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه، ووسطه، وآخره، إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره... وهو غافل عنه، معرض عن التفكر فيه، ولو فكّر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره...»[2].

---

(١) الطارق: ٥، ونحوها في سورة يس: ٧٧.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ١٩٣-١٩٤ باختصار.

كما جعل سبحانه اللعنة على كل غافل عن آياته في خلق الإنسان فقال تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾ (عبس: ١٧-٢١).

لو أن الإنسان العاقل سأل نفسه:

أين كان قبل ولادته؟ وكيف تكوَّن في بطن أمه؟ ومِمَّ كانت نشأته؟

ولو سأل نفسه أيضاً:

كيف التقى نصفه القادم من صلب أبيه مع النصف الآخر الآتي من ترائب أُمِّه؟

ومن الذي هيَّأ له الظروف الملائمة لتخلُّقه ونموِّه في رحم أمِّه؟

ومن الذي وفَّر له الغذاء والحماية في ظلماته الثلاث في بطن والدته؟

ومن الذي للسبيل يسَّره[1]؟

ومن الذي قدَّر الأقدار لكل ما سبق وغيره مما يجهله الإنسان أو يعرفه لإيجاده في أحسن تقويم؟

من الذي قدَّرها زماناً ومكاناً، وهيئة وظروفاً، وخصائصَ وصفاتٍ، وسلوكاً وقدراتٍ، حتى جعل من الماء المهين إنساناً مكرَّماً سميعاً بصيراً؟

---

(١) هناك آيات وآيات عن تيسير الله لولادة الطفل، انظر ذلك في:

أ ـ تفسير ابن كثير للآية ٢٠ من سورة عبس.

ب ـ تحفة المودود بأحكام المولود، لابن القيم.

ج ـ خلق الإنسان بين الطب والقرآن، لمحمد البار، ص٤٦٠.

د ـ الطب محراب الإيمان، لخالص جلبي ٢/ ٦٤-٦٦.

لو سأل كل عاقل نفسه تلك الأسئلة، وبحث عن إجابتها لأيقن أن له ربّاً خالقاً يستحق العبادة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ٢١).

وصدق من قال: «إن الله لا يشرق إلا في قلوب الباحثين عنه»[1].

لقد شهد بعض الملحدين أن توالد الإنسان على مدار الزمان آية على وجود الخالق ـ وإن لم يؤمنوا بالله وحده ـ، حيث قال أحدهم:

إن «الحياة تُرغَم على التناسل لكي يبقى النوع، وهو دافع بلغ من القوة أنَّ كل مخلوق يبذل أقصى تضحية في سبيل هذا الغرض... وهذه القوَّة الإلزامية لا توجد حيث لا توجد الحياة، فمن أين تنشأ هذه الدوافع القاهرة؟ ولماذا بعد أن نشأت تستمر ملايين السنين؟ إنه قانون الطبيعة الحيَّة... الذي يأتي من إرادة الخالق...»[2].

**الوجه الثالث: مطابقة الكشوفات العلمية الجنينية لما نصَّت عليه الآيات القرآنية:**

ثبت لنا من كل ما أسلفنا ذكره السبق القرآني والدقة التصويرية في كلام الله عن خلق الإنسان في الأمور الآتية:

**الأول:** أصل خَلْقِهِ من نطفة مختلطة (أمشاج) من الذكر والأنثى، من الماء الغزير المتحرك (الدافق).

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص١٢٢ وقائل العبارة هو العالم البيولوجي سيسل هامان.

(٢) العلم يدعو للإيمان، لكريسي موريسون ص ١٤٨.

**الثاني:** مراحل تخلُّق الجنين في بطن أمه، وحالة استقراره ونموه في القرار المكين.

**الثالث:** تحديد جنسه وصفاته في بداية تخلُّقه من النطفة الأمشاج.

**الرابع:** نفخ روحه وتحوُّله إلى خلق آخر وجسد كامل بعد مراحل تخلُّقه.

**الخامس:** حفظ الله له في بطن أمه من خلال عدة أغشية في ثلاث ظلمات.

إن هذا التطابق الدقيق بين ما وصلت إليه علوم الإنسان، وما سجَّلته آيُ القرآن عن أصل خلق النفس البشرية ومراحل تخلُّقها وصفاتها والبيئة المحيطة بها ـ البيئة المجهولة المظلمة التي لا يعلمها إلا علاَّم الغيوب ـ يدل دلالة واضحة قوية على أنَّ القرآن كلام الله، ويدل أيضاً على أنَّ خالق الإنسان هو كما قال عنه نفسه: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ (الحشر: ٢٤) والقائل: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾ (السجدة: ٧) إذ كيف يمكن أن تأتي الأوصاف القرآنية للمرحلة الجنينية دقيقة وصادقة ـ كما أثبتته الكشوفات العلمية ـ إن لم يكن الواصف لها عليم شهيد بصير حفيظ مبدئ محيي، قال عن نفسه أنه: ﴿ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس: ٧٩).

لقد عُرِض مضمون الآيات القرآنية السابق شرحها على أكابر علماء الأجنة في عصرنا الحديث، من غير المسلمين، وقيل لهم: إن كل الحقائق العلمية الجنينية التي وصل إليها العلم الحالي قد ذُكرت في القرآن قبل ١٤٠٠ عام تقريباً، فاشتد الأمر على بعضهم وعَظُم حتى وقف أحدهم[١] يصرخ بقوله: (لا لا لا) وينكر

---

(١) هو مارشال جونسون، رئيس قسم التشريح ومدير معهد دانيال بجامعة توماس جيفرسون بفيلادلفيا بأمريكا.

ذلك، فلما قُرِئ عليه قوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝ ﴾ (نوح: ١٣، ١٤).

وترجمت له باللغة الإنجليزية، وقُرئت عليه آيات أخرى مما سبقت الإشارة إليها، جلس، وقال:

لكن هذا يمكن أن يكون له تفسيرات ثلاثة:

**الأول:** أن يكون صدفة.

فجُمِع له أكثر من خمسة وعشرين نصّاً قرآنياً، ووُضعت بين يديه، وقيل له: كل هذه النصوص قد تكون صدفة؟!

ثم إن القرآن الكريم قد أعطى لهذه الأطوار أسماء:

هذا نطفة، والذي بعده علقة، والذي بعده مضغة، والذي بعده العظام، والذي بعده كساء العظام باللحم.

إنه سمَّى هذه الأطوار بأسماء، أيكون هذا صدفة؟!

فقال: لا.

فقيل له: فمـاذا بقي؟

قال: يمكن أن يقال: إن محمداً ـ ويقصد رسول الله ﷺ ـ عنده ميكروسكوبات (مجاهر) ضخمة فقيل له:

أنت تعلم أنَّ مثل هذه الأطوار والدقائق والتفاصيل، وما عرفه العلم في شأنها، وذَكَره القرآن كذلك هذا لا يتيسَّر إلا بميكروسكوبات ضخمة جداً، والذي عنده هذه الميكروسكوبات الضخمة لابد أن يكون له تقنية عالية جداً، وتنعكس على طعامه وشرابه وحربه وسلمه، ولابد أن يتلقَّى هذا من الجيل الذي قبله، ويُسلِّمه للجيل الذي بعده... فأيقن ببطلان شبهته...

ثم قال: لا، لم يكن عند محمد أجهزة ولا ميكروسكوبات، ما بقي إلا أن نقول هو رسولٌ من عند الله[١].

ثمَّ تبنَّى الأبحاث المتعلقة بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة، فصار يولي اهتمامه في أبحاثه على أطوار الجنين، ووصْفِ القرآن الدقيق لشكله الخارجي وتركيباته الداخلية.

وهكذا كانت الكشوفات العلمية الحديثة المتعلقة بالجنين، المطابقة لما سبقت إليه آيات القرآن مؤكِّدةً لحفظ الله كتابه من التحريف، لتستمر أدلة التوحيد القرآنية ذات الدلالة العلمية منصوبة للبشرية، ومتجدِّدة لها في كل زمان ومكان ومجال، فتتعمَّق جذورها، ويبقى حالها كما قال سبحانه: ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٢٤، ٢٥).

## الفرع الثاني: دلائل التوحيد في أعضاء الجسم ووظائفها:

بلغت دلائل وجود الله وتوحيده ـ سواء في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته ـ في جسم الإنسان ووظائف أعضائه من الكثرة عدداً جعل طائفة من الأطباء والمفكرين والباحثين يخصِّصون مؤلفات لذلك[٢]، وسأقتصر هنا على نماذج معينة كما يأتي:

---

(١) إنه الحق، للزنداني ص٣٢-٣٣.

والذي قام بمناظرته ومحاورته هو الشيخ عبد المجيد الزنداني (رئيس جامعة الإيمان حالياً)، وكان ذلك في المؤتمر السابع للإعجاز الطبي للقرآن الكريم الذي عُقد في الرياض عام ١٩٨٢م.

(٢) من أبرز هذه المؤلفات:

## ١ ـ من آيات الله في جمجمة الإنسان وعموده الفقري، وبعض عظامه ومفاصله:

من المعلوم المحسوس أنَّ الطفل يولد وجمجمة رأسه رطبة ليِّنة، مفكَّكة العظام، ثم تتصلَّب وتترابط بعد ذلك بشهور، وما كان لينها إلا لِحِكَم، منها تيسير ولادته حيث أنّ حجم جمجمته أكبر من فتحة عظام حوض الأم ـ كما يقول الأطباء ـ[1].

فمن آثار رحمة الله ولطفه بالمولود وأمِّه أن جعل العظام غير ملتحمة، ليسهل تغيير حجم الرأس وشكله أثناء الولادة، فيساعد ذلك على خروج الطفل بسهولة، قال تعالى:

﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ (عبس: ٢٠).

أي: «سهّل مخرجه من البطن»[2] ..

---

أ ـ خلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور محمد علي البار (طبيب).

ب ـ الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي (طبيب).

ج ـ دليل الأنفس، لمحمد عز الدين بين القرآن الكريم والعلم الحديث، لمحمد عز الدين توفيق، وغيرها كثير.

وانظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم ص١٩٤ وما بعدها، وص٢٧٠ وما بعدها.

(١) انظر: دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص١٥١-١٦٣.

(٢) روح المعاني، للآلوسي ١٥/ ٢٤٦.

بعدة أمور[1].

ومن آيات الله في الجمجمة أن غلَّف الدماغ الرخو الهش السريع التأثر بأي شيء، غلَّفه بثلاثة أغلفة (أغشية) لحمايته، ويُسمَّى الغشاء الأول الملاصق له بالأم الحنونة، ويُسمَّى الغشاء الأخير بالأم الجافية، ويُسمَّى الغشاء الذي بينهما بالغشاء العنكبوتي، وهو رخو يلتصق بشدة بالأم الجافية، ويتباعد عن الأم الحنون حتى يترك المجال لسائل معين... لحماية المخ وغيره، من الرضوض..

لقد وجد الأطباء أن الدماغ موضوع في قحفة عظم الجمجمة، ضمن صندوق عظمي، تشتد وتزيد سماكته في بعض المناطق الخطرة المعرَّضة للصدمات أكثر من غيرها، كما في الجبهة والقفا، بينما ترقُّ وتضعف في المناطق الأخرى البعيدة عن الارتطام، كما في الصدغين ونحوهما[2]...

---

(١) منها:

أ ـ تتابع تقلصات الرحم بصورة منتظمة متدرجة متباعدة، ولو انقبض الرحم دفعة واحدة لمات الجنين لانقباض الرحم عليه، ولقلة ورود الدم إلى الجنين بسبب التقلص.

ب ـ توسعة عنق الرحم من ١ سم إلى ١٠سم وهو القطر الذي يسمح بخروج طفل ذي رأس ووزن طبيعي من غير مشاكل.

ج ـ تهيئة الوليد عادة ليبدأ خروجه بمقدَّم رأسه ـ كالسهم ـ ثم يتبعه بقية الجسم ـ في الوضع الطبيعي.

د ـ إفراز مواد جيلاتينية وسوائل لمجرى المولود ومحل خروجه من رحم أمه لتسهيل ولادته، وغير ذلك كثير.

انظر: دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص١٥٢-١٥٣. و: الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ١/ ٨٢-٨٧.

(٢) الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ١/ ٩٨.

- ومن آيات الله في الجمجمة أن جعل المسافة بين خلاياها كبيرة، وجعل لها تجاويف كثيرة، لوظائف عديدة، ولأنها لا تحمل أيَّ أثقال مقارَنةً بعظام العمود الفقري المعدّة والمصمّمة لتحمل أثقال الجسد الإنساني[1]، حيث جعلها سبحانه بأحجام تتناسب مع ما تحمله من أثقال الجسم، فكلما كان موضع الفقرة إلى أعلى كان الثقل الذي تحمله من الجسم أقل، فيصغر حجمها، وكلما اتجهنا في العمود الفقري إلى أسفل ازداد حجم تلك الفقرات، وازدادت قوّتها وصلابتها، حتى نصل إلى عظام العجز الملتحمة مع بعضها، والمتصلة بالحوض الذي يُعدُّ قاعدة عظيمة عريضة لحمل ما فوقه، ثم تأتي بعد ذلك عظام العُصعُص التي تعين على اتزان الجسم عند الجلوس... لقد وجد الأطباء أن الفقرات في نهاية العمود الفقري مكدَّسة، وكأنها قواعد اسمنتية مصبوبة.

- ومن آيات الله في العمود الفقري أن هيّأه لحماية الحبل الشوكي الذي يمثل الحُزمة العصبية المارَّة من الدماغ القائد المسيطر على حركات الجسم إلى سائر أجزائه بعمود مكوَّن من فقرات عظمية، بين كل فقرة وأخرى طبقة من الغضاريف اللينة التي تمكن الإنسان من الحركة والانثناء دون حدوث أي قطع في النخاع الشوكي، أو تمزيق لأي عصب[2].

ولولا هذا التمفصل بالفقرات، وتلك الأقراص الغضروفية لما تسنَّى للإنسان الحركة والتنقُّل، والانحناء، والتقاط الأشياء، أو الميل إلى أحد الجانبين، ولبقي قطعة واحدة عدا أطرافه العليا والسفلى.

---

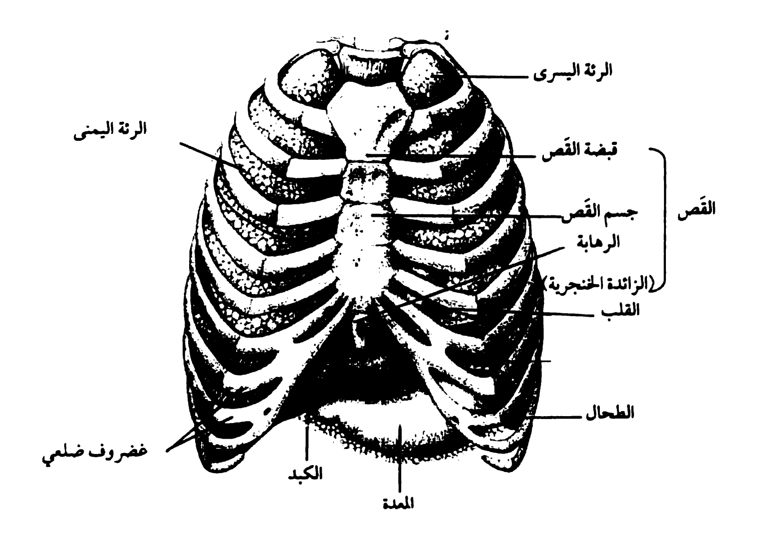
(١) علم الإيمان، للزنداني ١/ ١٢٧.

(٢) علم الإيمان، للزنداني ١/ ١٣٢.

- ومن آيات الله في العمود الفقري أيضاً أن أحاط النخاع الشوكي بثلاثة أغشية ـ كما هو الحال في الدماغ والجنين ـ وجعل النخاع يسبح في سائل، يُسمَّى بـ (السائل الدماغي الشوكي) كل هذا لحفظه وليكون خلق الإنسان في أحسن تقويم.

- ولله آيات في عظام القفص الصدري، فنظراً لما يحويه الصدر من أعضاء مهمَّة رئيسة تتوقَّف عليها حياة الإنسان، مثل القلب، والرئتين، وغيرهما، فقد حمى الله هذه الأجهزة مع بعض أجزاء من المعدة والكبد بقفص عظمي تكسوه العضلات القوية، وجَعَلَهُ مرناً قابلاً للتوسع مع حركات الهواء دخولاً وخروجاً.. ـ انظر الشكل (٢٨) ـ.

## شكل (٢٨)




جعل الله القفص الصدري حماية للقلب والرئتين
والطحال والكبد وجزء من المعدة، وتدعيماً للبدن.

- لقد تنوّعت مفاصل جسم الإنسان، ورُوِّبت بسوائل لزجة ليسهل انزلاق العظام بعضها فوق بعض، وتتم حركتها بسهولة[١]!!

فهل هذا كله فعل الصدفة؟ أم كان عبثاً بدون مشيئة وقصد وتصميم؟! ألا يدل هذا على فعل فاعل حفيظ عليم!

**٢ ـ من آيات الله في تنظيم حرارة الجسد الإنساني:**

من المعلوم أنَّ درجة حرارة جسم الإنسان ثابتة عند ٣٧ درجة مئوية ـ عندما يكون في وضعه الطبيعي صحيحاً معافى، ومن الثابت طبيًّاً أن إفراز جسم الإنسان للعرق يؤدي إلى تخفيض درجة حرارة الجسم إذا ارتفعت، وخاصَّة في فصل الصَّيف، كما أنّ إحراق الطعام فيه يقوم برفعها إذا انخفضت وخاصَّة في فصل الشتاء، فكيف يتم ذلك؟ وعلى ماذا يدل؟

يقول أهل الاختصاص في الجسد الإنساني بوجود منطقتين أسفل الدماغ تقومان بتنظيم الحرارة والتعرُّق بشكل دقيق جداً، ليبقى توازن درجة الحرارة عند ٣٧°م، وموجز ذلك كما يلي:

يوجد تحت جلد الشخص العادي ثلاثة ملايين غدَّة عَرَقية تقريباً[٢]،... تتألف الغدَّة من أنبوب ملتوي يفرز العرق، بحيث يشكل مجموع هذه الأنابيب طولاً يزيد على أربعة كيلومترات!!.

---

(١) نفسه: ١/ ١٣٥. وانظر: دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص٢٨٤.

(٢) وفي كتاب الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ٢/ ٣٠٣ أنه يوجد من ٥-١٥ مليون مكيّف لحرارة البدن. وانظر: دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص٢٣٣ وقد اقتبس مؤلفه ذلك من مراجع أجنبية.

وثبت قيام أكثر من (٢٠٠.٠٠٠) جُسيم حسِّي متوزّع تحت الجلد مختص بالحرارة بإرسال إشارات إلى جميع هذه الغدد المتشعِّبة في الجسم، عن طريق الألياف العصبية، فتصل الإشارات إلى النخاع... ومنه إلى أسفل الدماغ حيث جهاز تنظيم الحرارة والتعرُّق... فيُعطي إشارة إلى أعصاب الجلد بالقيام بدورها...، وتبدأ الأعصاب الجلدية بتوسعة العروق الدموية التي تُرَوِّي السطح الخارجي، فيزداد مرور الدماء، وبزيادته يزداد إشعاع الحرارة... وحينها تقوم الغدد العرقية بإفراز العرق، الذي يحوي كمية كبيرة من الماء، ويمتص كمية كبيرة من حرارة الجسم، وباطِّراح العرق تحصل التهوية الجلدية، وتتوازن الحرارة داخل الجسم وخارجه[1] والشاهد من كل ما سبق: من الذي أقام هذا الميزان المحكم الدائم في عمله، في سائر أجسام البشر قبل أن يُخلقوا؟ ومن الذي جعله يتكيَّف حسب أماكن تواجدهم، وعلى مستوى جميع فصول السنة الحارَّة والباردة؟!»[2].

---

(١) ولا شك أن للزفير دور في تخفيض حرارة البدن كونه محملاً ببخار الماء.
ويقول الأطباء: إن السر في أن الكلاب تلهث دائماً هو قلة غددها العرقية وهي لا توجد إلا في أخمص أقدامها. انظر: الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ١/ ١٥٧.

(٢) والأطباء يستغربون من استقرار درجة حرارة الإنسان الطبيعي ـ غير المصاب بحمّى ـ عند ٣٧ْم؟! مع أنه قد يعيش في منطقة سيبيريا التي تنخفض الدرجة فيها إلى (-٦٢ْم) أي ٦٢ درجة تحت الصفر الذي يعني بداية التجمد للماء، كما قد ترتفع الدرجة إلى ٦٠ْم في منطقة الصحراء الكبرى في بلاد الطوارق في شمال إفريقيا.. ويؤكِّدون أنَّ المريض الذي ترتفع درجة حرارته ما بين 43ْ-٤٥° قد يتعرض لمخاطر كبيرة، وإن كريات الدم البيضاء ـ التي تدافع عن الجسم وتشكل له مناعة ضد كثير من الأمراض تموت عند هذه الدرجة، وتموت أيضاً لو انخفضت حرارة الإنسان إلى ٢٥°م، وهذا يعني موت الإنسان، فكيف يحصل هذا الاتزان العجيب؟!ـ عموماً قد ثبت علمياً وجود ملايين الغدد العرقية تحت الجلد كما أشرنا إليه.

لقد كان الجنين في بطن أمه في رحمٍ مكيَّف عند درجة ٣٧°م، في وقت لم يكن فيه بحاجة إلى جهاز تنظيم الحرارة والتعرق، لقد أعدَّ الله له هذا الجهاز الذي سيحتاجه بعد ميلاده لتنظيم حرارته بعد خروجه إلى الدنيا التي تتغير فيها درجات الحرارة، ويكون حينها في أمسّ الحاجة إلى هذا الجهاز؟

ألا يدل ذلك على أن الله الذي: ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (السجدة: ٧)، هو الذي: ﴿ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤) فهو صاحب علم سابق، وحكمة عظيمة، ولطف ورحمة!!

### ٣ ـ من آيات الله في خلايا الإنسان الجسدية، والعصبية:

لله آيات في أصل تكوين الخلايا الإنسانية[1]، وله آيات أخرى في كيفية تركيبها، وإعادة بناء ذاتها، حيث يؤكِّد العلماء أن السِّر في خلق الإنسان لا يكمن فقط في تركيب جسده المادِّي من عناصر معيَّنة، ولكن في كيفية تركيبه، فلو اختلفت هذه النسب قليلاً ما صلحت لبناء هذا الجسد الآدمي، المكوَّن من ألف مليون مليون خلية، تنتظمها أنسجة متخصِّصة، وتنتظم الأنسجة المتخصِّصة في أعضاء، والأعضاء في نظام باهر تتعاون جميعها لخدمة هذا الكيان عبر أجهزة معينة.

ويقولون بأن جسم الإنسان يستهلك من خلاياه حوالي (١٢٥ مليون) خليَّة في كل ثانية[2]، تنهدم ويتكوَّن غيرها في الحال، ومع ذلك يبقى الإنسان محتفظاً بشخصيته وكامل صفاته.

---

(١) لم أتعرض لشرحها لطول موضوعها وصعوبة فهمها على قارئ البحث كونها تحمل مصطلحات علمية أجنبية لم تأخذ حقها من الترجمة إلى العربية بصورة كافية.

(٢) انظر كتيب: النظر في الكون لماذا؟، للدكتور زغلول النجار ص١٤-١٥.

ويقولون أيضاً: إن كلَّ شيء تقريباً في الجسد الإنساني يتغيَّر باستمرار: الأخلاط، الخلايا، السكريات، الشحوم، البروتينات، الماء،... إلخ، ولكن شيئاً واحداً له صفة الديمومة والاستمرار، وعدم التغيير: إنها الخلايا العصبية، وهذا شيء مهم للغاية، لأن مفتاح السِّر في ذاكرة الإنسان يبدأ من هذه النقطة، وهي: أن ثبات الخلايا العصبية يجعلها تزيد من أكداس الذاكرة لحظة بعد لحظة، ولو تغيَّرت الخلايا العصبية كباقي خلايا الجسم، فإن صاحبها سيضطر لإعادة تعلم اللغة التي كان قد تعلَّمها، وذلك كلَّ ستة أشهر[1]!!

ولا يزال العلماء في حيرة أمام ذاكرة الإنسان البالغ عدد خلايا دماغه ما يقارب (١٤ مليار) خلية عصبية، كيف تترابط فيما بينها، وتعمل دفعة واحدة لقيام الجسد الإنساني؟ حتى قال أحدهم في محاضرة له ألقاها عام ١٩٧٥م «لو أننا جمعنا كلَّ أجهزة العالم من التلفون والتلغراف والراديو والتلفزيون ثم حاولنا أن نصغِّر هذه الكومة الهائلة من الأجهزة المعقَّدة حتى استطعنا أن نوصِّلها إلى مثل حجم الدماغ، فإنها لا تبلغ في تعقيدها مثل الدماغ»[2].

لا زال العلماء في حيرة كيف تستحضر هذه الذاكرة المعلومات من بين الأكداس الهائلة من الذكريات؟ وأين هي أماكن الاستيعاب.

ويؤكِّد المتخصصون في الجسد الإنساني أن بإمكان الإنسان العادي اختزان نصف مليون صورة كل يوم في مستودعات الذاكرة، أي ما يقرب من عشرة

---

(١) الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ١/ ١٧٦.

(٢) نفسه ١/ ٩٦، وقائل العبارة هو: جود سون هريك أستاذ التاريخ في معهد نيويورك بأمريكا.

مليار صورة في متوسط حياة الإنسان[1]، هذا كله غير ما يسمعه، ويشمُّه، ويتذوَّقه، ويلمسُه...

لقد قدَّر بعضهم أن مخزون الذاكرة يتَّسع لـ(٩٠) مليون مجلَّد مليء بالمعلومات[2].

**عموماً**: إذا كان أهل عصرنا قد أخذتهم الدهشة والإعجاب لما يصنعه الحاسوب بسعة ذاكرته وغزارة معلوماته، وسرعة تحضيره لها، أَوَلَيس عقل الإنسان ودماغه الذي اخترع هذا الجهاز أولى بالدهشة والإعجاب؟!

ألا يُعتبر هذا الدماغ بخلاياه العصبية، وذاك الجسد بخلاياه التكوينية دليلاً عظيماً على وجود خالق مبدع له؟! ذاك هو الله القائل: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (السجدة: ٩).

لقد آمن بعض أساتذة الغرب الجامعيين بوجود الله لِمَا رأوه من آياته في خلايا الإنسان وغيره، حيث قال أحدهم: «إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا قد بلغت من التعقيد درجة يصعب علينا فهمها، وإنَّ ملايين الملايين من الخلايا الحيَّة على سطح الأرض تشهد بقدرة الله، شهادة تقوم على الفكر والمنطق، ولذلك فإنني أومن بوجود الله إيماناً راسخاً»[3].

---

(١) يقصد ٥٠ سنة.

(٢) الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ١/ ١٧٨. وانظر: دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص٢٦١-٢٦٤.

(٣) الله يتجلى في عصر العلم ص٦٧، وقائل العبارة هو رسل تشارلز آرنست أخصائي علم الأحياء والنبات، حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة مينوسونا، أستاذ في جامعة فرانكفورت بألمانيا.

**٤ ـ من آيات الله في نطق الإنسان، وبيانه:**

امتن الله على خلقه بأنه ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (الرحمن: ٣، ٤) وأنه جعل لكل عبد: ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ (البلد: ٩) ليُعرِب عما في نفسه، ويتمكن من مخاطبة الآخرين، ومن قضاء حوائجه.. إلخ.

«فالنطق أشرف ما خصّ الله به الإنسان، وما باين به سائر الحيوان... ولهذا قيل ما الإنسان لولا اللسان، إلا بهيمة مهملة، أو صورة ممثّلة»[١].

ومنافع البيان في حياة الإنسان عديدة، منها ـ إضافة لما سبق ـ : أنه «باللغة يتمكن من التعبير عما في الوجود المادّي، وتحقيق الوعي به عن طريق الرموز ـ الكلمات ـ... وبها يتمكن من الفهم... وبتدوينها بشكل مكتوب يحفظ العلوم والأحداث،... وبالكلمة المكتوبة بالقلم ـ أحد اللسانين ـ يتمكن الإنسان من إبلاغ مقاصده إلى الأماكن البعيدة[٢]، ويوثّق ما يخاف عليه الضياع والنسيان...

واللغة ميزة إنسانية صرفة، وبكل الاعتبارات: فمن جهة لا توجد عند غيره من المخلوقات ـ كما هي عند الإنسان ـ ومن جهة أخرى يتقاسم الناس معرفتها بالتساوي، دون أن يكون للفروق الفردية في الذكاء أثر في ذلك»[٣].

ومما جعل للغة تأثيراً كبيراً في المحيط الاجتماعي هو استقلال كل شخص بصوته ولسانه.

---

(١) دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص٢٧٨.

(٢) ويمكنه ذلك أيضاً عن طريق الهاتف وشبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) وغيرها من وسائل الاتصال العصرية، وكلها معتمدة على اللغة أيّاً كانت.

(٣) المرجع السابق بتصرف.

وقبل أن أشرح آيات الله في نطق الإنسان وبيانه، أُلخّص ما قاله علماء وأطباء العصر الحديث عن عملية النطق والبيان، حيث ذكروا أنَّ:

١- الطب لا يزال حتى اللحظة حائراً أمام عملية التفكير والإدراك والتخيُّل وتركيب الكلمات والجُمل والأفكار، وربط كل هذا ببعضه البعض حتى يخرج الكلام منسجماً متوازناً، يهدف إلى معنى، ثم كيف ينتقل هذا الأمر من عالم الماديّات المحسوسة إلى عالم الروح والفكر حيث يتم التعبير بالأشياء المجردة؟!

٢- الصوت يكون نتيجةً لتقلُّص الحبال الصوتية، وارتخائها، بالإضافة إلى عضلات اللسان، وغضاريف الحنجرة، وعضلات الوجه، وإطباق الشفتين، ثم الأجواف المحفورة في الجمجمة التي تعطي الصوت رنينه الخاص لكل إنسان، بحيث يكون لكل شخص صوته المميّز به.

٣- الأعصاب هي التي تقوم بإعطاء الأوامر إلى العضلات المناسبة بحيث تتناسق هذه العضلات بعضها مع بعض، فيرتخي قسم حين ينقبض قسم آخر، فلا يطغى عمل على عمل، ولا يُفسد عملُ عضلات عملَ عضلات أخرى، فإذا انطلق الهواء من الرئتين فإن الحبال الصوتية تعترضه فيخرج الحرف المناسب... ـ الذي يقصده المتكلم ـ ... ووجد العلماء أن الهواء يجب أن ينطلق بسرعة هائلة ليُخرج الحرفَ المناسبَ عند مروره بمخرجه المحدَّد له، ثم يتبعه صوت آخر بتحوُّل الهواء إلى مكان آخر حتى ينطق المتكلم بحرف غير الأول، وهكذا حتى تتتابع الحروف، وتكتمل الكلمات، وتتكون الجمل، حسب قصد المتكلِّم وقدرته، كل هذا بسرعة هائلة، تتناسب مع حاجة المتكلِّم للتفاهم مع العالَم من حولِه. إن تتابع الحروف عجيب، فقد يخرج الحرف الأول من الشفتين بينما يكون الحرف

الثاني الذي يليه مباشرة من الحلق، والثالث من جانب اللسان، وهكذا، فما أبدع التأليف بين المخارج والحروف!

٤- عضلات اللسان والغضاريف والحبال الصوتية مزدوجة، وهناك تناسق عجيب بين الشطرين، فإذا حصل خلل ما ـ في المخيخ مثلاً الذي يقوم على تناسق عضلات التصويت ـ حدث المرض المعروف بالرُّتة، وهو تقطُّع الكلمات، وعدم فهم ما يقوله المريض بذلك إلا بصعوبة.

٥- عملية الكلام المتكررة تُشرف عليها ثلاثة أعصاب رئيسة، وألياف عصبية، وفروع عصبية صغيرة لا تُحصى، بالإضافة إلى سبع عشرة عضلة في اللسان، وما يزيد على عشرين عضلة في الوجه[1].

٦- الصوت عند الإنسان إنما هو حروف وكلمات وجمل وتراكيب مرتبطة بالإرادة والفكر والجهاز العصبي... إلخ ـ على عكس الحيوان الذي تُعتبر أصواته أصواتاً غريزية ـ فالإنسان ينطق كلاماً ذا معنى وقصد.

٧- نطق الإنسان يتميز عن نطق الحيوان بأمرين أساسيين:

**أولهما**: قدرته على تشكيل حروف فصيحة من صوت خام، وهذا يتم على مستوى الفم واللسان والأسنان والشفتين، وسقف الحلق، والحنجرة.

**ثانيهما**: قدرته على اختيار الحرف، ورصفه إلى جانب آخر، لتكوين الكلمة، ثم اختيار الكلمة ورصفها إلى جانب أُخرى لتكوين الجملة، وتكوين التراكيب المختلفة من الجمل بعد ذلك، وهذه العملية تتم على مستوى الفكر[2].

---

(١) الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ١/ ١٤٢-١٤٤ باختصار.

(٢) دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص٢٨٠-٢٨٣ باختصار.

فاللغة ـ لصلتها بالفكر ـ ميزة إنسانية، ولذلك فإن تعلمها في فترة الطفولة يتم بتدخل ملكة فكرية مسبقة يولد بها الطفل.

وأختم هذا التحليل العلمي والدراسة الحديثة لنطق الإنسان وبيانه بكلام نفيس لابن القيم عن تكريم الله لابن آدم بالنطق والبيان، حيث قال ـ بعد سرده لكثير من آيات الله في الإنسان ـ «ثم تأمَّل هذا الصوت الخارج من الحلق، وتهيئة آلاته، ـ وتأمل ـ الكلامَ وانتظامه ـ وتأمَّل ـ الحروف ومخارجها وأدواتها ومقاطعها وأجراسها، تجد الحكمة الباهرة في هواء ساذج يخرج من الجوف، فيسلك في أنبوبة الحنجرة... حتى ينتهي إلى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفاً، يدور عليها الكلام كله، أمره ونهيه، وخبره واستخباره، ونظمه ونثره، وخطبه ومواعظه، وفضوله، فمنه المضحِك ومنه المبكي، ومنه المؤيِس ومنه المطمِّع، ومنه المخوِّف ومنه المرجِّي، والمسلِّي والمُحزِن، والقابض للنفس والجوارح والمنشِّط لها، والذي يُسقم الصحيح ويُبرِئ السَّقيم، ومنه ما يزيل النعم ويحِلُّ النقم، ومنه ما يُستدفع به البلاء ويُستجلب به النعماء، وتُستمال به القلوب ويُؤلِّف به بين المتباغضِين ويُوالى به بين المتعادِين،... فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج يخرج من الصَّدر، لا يدري ما يُراد به... فيجتمع الناس من بلاد شتَّى فيتكلَّم كل منهم بلغته، فتسمع لغات مختلفة، وكلاماً منتظماً مؤلَّفاً...»[1].

قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾ (الرحمن: ١-٤).

---

(١) مفتاح دار السعادة ص ٢٧٩ باختصار.

لقد أكرم الله آدم بخلقه عاقلاً ناطقاً وقال: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة: ٣١) وورَّث ذلك لذرِّيته من بعده.

وإن للرحمن آيات في نطق الإنسان وإخراج الكلمات، إذ كيف تساوت الحناجر والأحبال الصوتية في أصل خِلقتها، واختلفت اختلافاً يسيراً في أشكالها وتوترها لدى جميع الخلق، فأدَّى ذلك إلى اختلاف كبير وكثير بين أصوات كل البشر قاطبة، وكذا لغاتهم التي يتحدَّثون بها؟

لقد اعتبر الله عزوجل اختلاف لغات بني آدم وأصواتهم آية دالّة عليه سبحانه، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢) قال ابن عاشور: «واختلاف لغات البشر آية عظيمة[١]، فهم مع اتحادهم في النوع كان اختلاف لغاتهم آية دالَّة على ما كوَّنه الله في غريزة البشر من اختلاف التفكير، وتنويع التصرُّف في وضع اللغات، وتبدُّل كيفياتها باللهجات، والتخفيف والحذف والزيادة، بحيث تتغيَّر الأصول المتحدة إلى لغات كثيرة[٢]... فمحل العبرة هو اختلاف

---

(١) قال ابن عاشور: «فاختلاف الألسنة سببه القرار بأوطان مختلفة متباعدة،...وتطرَّق التغيُّر إلى لغات البشر تطرَّقاً تدريجياً، على أن توسُّع اللغات بتوسع الحاجة إلى التعبير عن أشياء لم يكن للتعبير عنها حاجة قد أوجب اختلافاً في وضع الأسماء لها، فاختلفت اللغات بذلك في جوهرها، كما اختلفت فيما كان متفقاً عليه بينها باختلاف لهجات النطق، واختلاف التصرُّف، فكان لاختلاف الألسنة موجبان». التحرير والتنوير ٢١/ ٣٤.

(٢) ولا شك أن اللغات كانت واحدة للبشر أجمعين حين كانوا في مكان واحد، وما اختلفت اللغات إلا بانتشار قبائل البشر في المواطن المتباعدة.

انظر: المرجع السابق ٢١/ ٣٤.

اللغات مع اتحاد أصل النوع... وقيل أراد باختلاف الألسنة اختلاف الأصوات بحيث تتمايز أصوات الناس المتكلمين بلغة واحدة، فنعرف صاحب الصوت وإن كان غير مرئي... »[١].

ونُقل عن الإمام الشافعي أنه استدل على وجود الله بأربعة أدلة عقلية منها: اختلاف الأصوات بين الناس، مع أنَّ آلات الصوت واحدة في جميع البشر، وهي الأسنان واللسان والحلق والحنجرة، ومع ذلك فالناس مختلفون في نبرات أصواتهم[٢].

قال ابن القيم: والله «سبحانه جعل الحناجر مختلفة الأشكال: في الضيق والسَّعة، والخشونة والملاسة، لتختلف الأصوات باختلافها، فلا يتشابه صوتان،... وإن هذا الاختلاف الذي بين... الأصوات ـ على كثرتها وتعدُّدها ـ ليس في الطبيعة ما يقتضيه، وإنما هو كما قال سبحانه: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (النمل: ٨٨) وقال: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (السجدة: ٧) ومجَّد نفسه بقوله: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (غافر: ٦٤) وقوله: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٤)»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ٣٥-٣٦ باختصار.

(٢) انظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصفهاني ٩/ ٧٧-٧٨.

و: مناقب الشافعي، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، ط١، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، القاهرة، مصر، ١/ ٣٩٩-٤٠٠.

(٣) التبيان في أقسام القرآن، تأليف العلامة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥هـ، قدم له وحققه وعلق عليه الشيخ محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، بيروت ـ لبنان ص٣٩١.

إن دلالة آيات الله في نطق الإنسان وبيانه على وحدانية الله تتضح من خلال التساؤلات الآتية:

س١: من الذي خلق آلات النطق عند الإنسان؟ وأقدره على الكلام والتعبير عمّا في باطنه.

س٢: كيف أمكن لمليارات البشر التحدث بمئات اللغات، وتمييز الأصوات، وكل ذلك ناتج عن حروف قليلة العدد في كل لغة، وآلات نطق لا تزيد عن عدد أصابع يد الإنسان؟

س٣: من الذي حقّق التواصل والتنسيق بين فكر الإنسان المتكلّم وإرادته وعضلات لسانه وحنجرته وشفتيه وحلقه، وجهازه العصبي، وغير ذلك من عوامل نطقه حتى تكلّم بكلام منتظم معقول هادف ومقصود؟

س٤: أيُّ قدرة تدخّلت ورجّحت تميز الإنسان عن الحيوان بتمكينه من تشكيل الحروف واختيار الكلمات وتكوين الجمل حتى نطق، ووثّق علومه من بدء البشرية وحتى منتهاها؟

ألا يدل كل ذلك على وجود خالق حكيم بديع!! له «كمال القدرة، ونفوذ المشيئة، وتمام العناية بعباده... لئلا يقع التشابه فيحصل الاضطراب، وتُفوَّت كثير من المقاصد والمطالب»[١].

عموماً سيكون تقرير ذلك والحديث عن وجه دلالته العقلية على التوحيد في نهاية الكلام عن آيات الله في جسم الإنسان ووظائف أعضائه[٢].

---

(١) تفسير السعدي، ص٦٩٦.

(٢) انظر ص ٧٠٥.

**٥ ـ من آيات الله في حماية الجسد نفسه، ووظائف بعض مكوِّناته:**

لله آيات في مخلوقاته ـ في الأعيان والأعراض ـ كلها تدل على عظمته وقدرته، وحقيقة وحدانيته:

وفي كل شيء له آية ... تدلُّ على أنه الواحد(١)

ومن تلك الآيات ما جعله الله عزوجل في الجسد الإنساني من وظائف التغذية والحماية والتكيف مع أحواله والظروف المحيطة به... إلخ، وسأقتصر هنا على شرح فقرتين:

**الأولى:** حماية الجسد لنفسه.

**الثانية:** وظيفة مادة الكولسترول الموجودة في الدم الإنساني.

ولنبدأ بالوظيفة الأولى:

**ـ حماية الجسد لنفسه:**

يقول أهل الاختصاص بالجسد الإنساني: إن بدن الإنسان يقوم بحماية ذاته بصورة لا إرادية،.... تحفظ للجسم توازنه، وتسارع إلى تقويم أي خلل يحدث فيه،... ولولا قدرة الجسم على تقليص عدد الاختلالات، لكان الإنسان سريع العطب بصورة لن تسمح له بحياة عادية، كالتي يحيا عليها الناس الآن...

لقد اكتشف الأطباء أن الجسد الإنساني ـ في سبيل حماية ذاته ـ يعترض الأخطار من مباديها قبل أن يعجز عن مواجهتها في قوّتها واكتساحها... حيث وجدوا الأمور التالية:

---

(١) سبق نَسْبُه لقائله، ص١٤١.

١ ـ اختلاف الأنسجة والأعضاء في بنائها وأماكن وجودها حسب وظائفها: فتركيب الدماغ والرأس وموقعه، يتناسب مع وظيفته كقائد لبدن الإنسان وأفكاره.

وموقع العينين، وتغطيتهما بالجفون، وتظليلهما بالرموش، وتزويدهما بالغدد الدمعية، والشبكات المخروطية العصبية... إلخ، كل هذا لتتمكن العينان من أداء وظيفتهما على أحسن وجه وأكمله، وهكذا في بقية جوارح الإنسان وأعضائه حيث جعل الله لها من أنواع الخلايا وطريقة بنائها وأماكن تواجدها ما يتناسب تماماً مع الأهداف والمقاصد المخلوقة لها.

٢ ـ أعضاء الجسد الإنساني محمية، وتختلف حمايتها حسب أهمية العضو: فالجسم كله محميٌّ بالجلد، وبوَّاباته التي تصله بالخارج كالفم والأنف والعينين وغيرها محمية كذلك،.. وعلى قدر أهمية العضو ووظيفته تتحدَّد درجة حمايته وأسبابها،.. فاستدارة الرأس تجعله أكثر صموداً للصدمات من الأشكال ذات الزوايا..

وشكل الجمجمة المقوَّس، وتعدُّد عظامها، وتداخلها فيما بينها يعطيها قوَّة أكثر ـ كما في المباني الهندسية الحديثة ـ ... وللدماغ حماية داخلية تتمثل في ثلاثة أغشية بينها سائل يردُّ الرضوض عن مادة الدماغ اللينة... ونفس الحماية للحبل الشوكي لأهميته فقد حماه الله بالفقرات الظهرية، وجعله داخل العمود الفقري، ولفَّه بثلاثة أغشية منفصلة عن بعضها البعض، وأحاطه بسائل شوكي يمتص الصدمات[1]... وهكذا في بقية الجوارح جعل الله لها حماية تتناسب مع أهميتها ووظيفتها.

---

(١) انظر: تفاصيل أكثر في كتاب الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ١/ ٢٠٢ وما بعدها. و: دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص٢٣٠ وما بعدها. و: موسوعة جسم الإنسان الشاملة «موسوعة تعريفية مصوَّرة لتراكيب الجسم ووظائفه وصيانته»، إعداد أحمد سليمان الخطيب، ويوسف سليمان خير الله، مكتبة لبنان، ناشرون، ط١، ٢٠٠٠م، بيروت ـ لبنان.

٣ ـ سعي الجسم للإصلاح الدائم لأنسجته التالفة: وهذا طريق ثالث من طرق حمايته لذاته، فالجسم يستبدل أنسجته كل عشر سنوات تقريباً ـ عدا الخلايا العصبية لحكمةٍ عظيمة سبقت الإشارة إليها[1]، فإذا عاش الإنسان سبعين عاماً فمعنى ذلك أنه قد تجدَّد سبع مرات دون علمه أو شعوره بذلك، يقول الباحثون في الجسد الإنساني: «ولولا هذه القدرة الباهرة على التجدد لأسرع الضعف والنحافة إلى الجسم خلال بضعة شهور، لأن عملية الهدم قائمة داخل الجسم في كل لحظة»[2] ولا يحصل هذا التجدد دفعة واحدة؛ لأن الجسم لا يمكن أن يستغني عن أي عضو في فترة استبداله، كما لا يستطيع أن ينشئ عضواً آخر مكان عضوٍ انمحى كليَّة، لذلك تقوم عملية التجدد في زمن متصل، دون أن تتأثر الأعضاء أو الوظائف بذلك....

وأسرع ما يكون التجدد في الأعضاء التي تشتغل بشكل مكثف، أو التي تتعرض للاحتكاك[3]...

---

(١) راجع ص ٦٨٥ حيث ذكرت أن جسم الإنسان يستهلك في الثانية الواحدة حوالي ١٢٥ مليون خلية تتهدم ويتكون غيرها في الحال، ولا تعارض بين المذكور أعلاه والمذكور هناك حيث يتكون الجسد الإنساني بشكل عام من ألف مليون مليون خلية.

(٢) دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص٢٣٠.

(٣) مثل: بطانة الجهاز الهضمي المتجددة كل ثلاثة أيام، وبعض خلايا الأمعاء المتجددة كل يوم أو نصف يوم، والخلايا الليمفاوية وهي فصيلة من فِصَل الدم الدفاعية تعيش ما بين عشر ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة، والطبقة الخارجية من الجلد، وشعر الإنسان حيث يبلغ عمر الشعرة من تسعة إلى عشرة أشهر، وتُستبدل الأهداب كل خمسة أشهر ... إلخ.
انظر: المرجع السابق ص٢٣١.

لقد وجد الأطباء أن الجسد الإنساني يستفيد من الخلايا المتهدِّمة في بناء خلايا جديدة ـ كما يفعل البشر في هدم العمارات بطريقة فنيَّة تمكنهم من الاستفادة أكبر قدر ممكن من المخلَّفات ـ ووجدوا أيضاً أنه يقوم بتخزين كل أنواع المواد التي يحتاج إليها للبناء أو الطاقة...

٤ ـ قدرة الجسم العالية على التكيف: وهذا طريق آخر يسلكه الجسم للحماية، وحفظ التوازن، ... وقد سبق شرح مثالٍ على ذلك عند الحديث عن آيات الله في تنظيم حرارة الجسد الإنساني»[١] والذي يمكن إضافته هنا: أنه في الحالة المقابلة للحرارة ـ حالة البرد ـ تقوم الغدد العرقية الموجودة تحت الجلد، وعددها ما يقارب (٣ملايين) غدَّة، بتجميد عملها المتعلق بالتبريد، فتصير شبه مشلولة، ويزداد الاحتراق، فيتولَّد الحرارة في الجسد الإنساني بكميات كافية لتدفئته[٢].

لقد عزى الأطباء قيام الجسد بتلك الوظائف كلها إلى:

أ ـ هرمونات الغدد الصَّماء: التي تقوم بإفرازات معينة توجِّه جسم الإنسان لذلك كله.

ب ـ الجهاز العصبي الأنباتي: الذي يقوم بتشغيل الأعضاء الداخلية للجسد، والجهاز المخِّي الشوكي الذي يقوم بإيقاف هذا التشغيل عند الحاجة لذلك[٣].

وهكذا هي آيات الله في بقية وظائف الجسم...

---

(١) راجع ص٥٣١.

(٢) دليل الأنفس، محمد عز الدين ص ٢٣٣.

(٣) نفسه ص٢٣٥-٢٣٨ باختصار.

إننا نرى أنَّ كل ما سبق لم يكن ليحصل عبثاً أو عشوائية، بل كل شيء في جسد الإنسان خُلق لحكمة، وله وظيفة كما أرادها خالقه، فالإنسان مخلوق بالحق، وللحق ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾ (المؤمنون: ١١٥).

وكل شيء في بدن الإنسان قد وُجد لهدف مقصود، وغاية سامية حتى أظافر يديه، ورموش عينيه، وشعيرات أنفه.

**ـ وظيفة مادة الكولسترول في دم الإنسان:**

كما أن الله عزَّوجل قد اعتبر النبات بأشكاله وألوانه وطعومه وروائحه آية على وحدانيته وكذا اختلاف الألسنة والألوان، لوحدة المكوِّنات واختلاف الصفات، فكذلك الحال في مادة الكوليسترول الموجودة في دم الإنسان، فإن بناءها الكيماوي واحد، لكن وظائفها متعدِّدة متنوِّعة، يقول أحد الأطباء في رسالة الدكتوراه التي حضَّرها بعنوان (الطب محراب الإيمان) ما خلاصته: الكوليسترول مادة يصطنعها الجسم البشري، وهي بالأصل مادة شحمية دسمة[1]، تُعتبر من دسم البدن، ولكن هذا المركب... يتغيَّر في كل لحظة إلى مركَّب جديد كما يأتي:

أ ـ هو تارة كوليسترول في الدم بشكل دسم.

ب ـ وهو تارة أخرى هرموناً يعطي صفات الذكورة كلها من توزُّع الشعر في البدن ـ وخاصَّة الوجه ـ وغِلَظ الصوت، وشدة العضلات، وضيق الحوض، واتساع الصدر... إلخ.

---

(١) إذا ترسَّبت على جدران الأوعية الدموية سبَّبت ارتفاع الضغط، انظر: الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ١/ ٦٠.

ج ـ وهو تارة ثالثة يصبح هرموناً أُنثويًّا، يعطي للأنثى كل صفات الأنوثة، من رِقَّة الجلد، ونعومة الصوت، وكثرة الشحم في البدن، وضعف العضلات، وكبر الحوض العظمى حتى يتسع للحمل والولادة،... إلخ.

د ـ وهو أحياناً ينتج فيتامين DS الذي يقوم بدور مهم في امتصاص الكِلْس من الأمعاء، وترسيبه على العظام، لبنائها وتمتينها...

هـ ـ وهو تارة خامسة يأخذ صورة الأحماض الصفراوية التي تُفرز من الكبد، حيث تُسهِّل امتصاص الأغذية من الأمعاء، وتقلُّب الخمائر فيها...

و ـ وهو تارة سادسة يصبح مركباً يشد عضلات القلب ويقوِّيها..

وغير ذلك من خصائصه المتنوِّعة بناءً على تغير بعض ذرَّاته مع أنَّ أصل بناءه الكيماوي واحد.

٥- إنه ينتقل من مادَّة دسمة إلى هرمون، إلى فيتامين، إلى حمض صفراوي، إلى مادة تقوِّي القلب، أيُّ سر عجيب في هذه التحوُّلات، ومن الذي يطوِّرها ويحوِّرها على هذه الكيفية المدهشة[1] ألا يدل ذلك كله على وجود إرادة مخصِّصة له، لها مشيئة النفوذ فيه، والتغيير لأوصافه ووظائفه؟! والطبيعة عاجزة عن هذا كلِّه، ويستحيل على الصدفة أن تقوم بمثل هذا على مستوى كل البشر من لدن آدم عليه السلام إلى ما شاء الله.

ألا يدل ذلك على واحد أحد هو الله عز وجل!

٦ ـ حقائق وآيات في أرقام وكلمات: أختم حديثي عن آيات الله في جسم الإنسان ووظائف بعض أعضائه بالحقائق التالية:

---

(١) الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ١/ ٦١-٦٢ باختصار.

١- يوجد في رئتي الإنسان حوالي (٧٥٠ مليون) سَنَخْ رئوي يقوم بتصفية الدماء... وفي سبيل ذلك تنتفخ الرئتان حوالي (٥٠٠ مليون) مرَّة خلال الحياة وسطيّاً، ويتنفَّس الإنسان في اليوم الواحد (٢٥ ألف) مرَّة، يسحب فيها (١٨٠) متر مكعَّب من الهواء، يتسرب منها (٦.٥) متر مكعب من الأكسجين إلى الدماء.

٢- يَرِدُ إلى الكِلْية في مدى (٢٤ ساعة) (١٨٠٠) لتر من الدم، يتم رشح ما بين (١٨٠-٢٠٠) لتر منه، ويُطرح منه حوالي (١.٥) لتر، وهو المعروف بالبول، وتتم تصفية الدم في الكِلية عن طريق (مليون) وحدة وظيفية تُسمَّى النَّفْرُونات، تقوم بتصفية الدم حوالي (٣٦) مرَّة في اليوم، ويبلغ طول أنابيبها المجموعة الملتوية (٥٠ كيلو متراً).

٣- ينبض القلب يوميّاً بما يزيد على (مائة ألف مرَّة)، وفي العام بما يزيد عن (الأربعة مليون) مرَّة، وفي متوسِّط العمر بما يزيد على (٢٠٠٠مليون) مرة[١]، ويضخ القلب في اليوم الواحد (٨٠٠٠) لتر من الدماء، وبعبارة أخرى يضخُّ (٢٢٠٠) جالون في اليوم الواحد، وحوالي (٥٦ مليون) جالون على مدى الحياة المتوسِّطة، تُرى هل يستطيع محرِّك آخر القيام بمثل هذا العمل الشاق لمثل هذه الفترة دون أن يصاب بخلل وعطل؟!

٤- الدم الذاهب إلى الدماغ يعود في (٨ ثوان) بينما يعود الدم الذاهب إلى أصابع القدم في (١٨ ثانية).

---

(١) فإذا اعتبرنا كل نبضة تسبيحة لله بناء على قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء: ٤٤) فكم يكون القلب مسبِّحاً لله الذي خلقه وأبدعه؟!

٥- يبلغ مجموع كُريَّات الدم الحمراء في جسم الإنسان حوالي (٢٥ مليون مليون) كرية، يمكنها أن تفرش سطحاً مقداره (٣٤٥٠) متر مربع.

٦- تمشي الكُرَيَّةُ الحمراء في رحلتها لنقل الأكسجين (١١٥٠) كم في عروق البدن، خلال عمرها الذي تعيشه فيه وهو (١٢٠) يوماً.

٧- تقوم الكريات الحمراء بنقل (٦٠٠) لتر من الأكسجين لخلايا الجسم كل (٢٤ ساعة)، حيث تمر (١٥٠٠ مرة) في اليوم الواحد، تُرى هل يمكن لحمَّال أن يحمل في اليوم الواحد ١٥٠٠ مرَّة بدون تعب؟! وهل يمكن لآلات الإنسان التي اخترعها للحمل أن تقوتم بمثل هذا؟!

٨- يحتاج الدماغ يوميّاً لكمية من الدم لا تقل عن (١٠٠٠) لتر، ولو نقصت هذه الكمية لتقاعس عن القيام بعمله الحيوي.

٩- في العين الواحدة حوالي (١٤٠) مليون مستقبل للضوء،... ويخرج من العين (نصف مليون) ليف عصبي ينقل الصورة بشكل ملوَّن من الشبكية إلى الدماغ لترجمتها.

١٠- في شبكية الأذن (٣٠ ألف) خلية سمعية، لنقل كافَّة الأصوات.

١١- يوجد على سطح اللسان (٩٠٠٠) نتوء ذوقي، لمعرفة طعم الحلو والحامض والمر والمالح.

١٢- عمل العضلات في اليوم الواحد يساوي ما حمولته (٢٠ طناً).

١٣- يبلغ مجموع أطوال أنابيب الغدد العرقية تحت سطح الجلد حوالي (٤-٥) كيلومترات.

١٤- يوجد في كل سنتيمتر مربع (٣٠٠) مسام عِرقي تسمح بخروج السوائل والأملاح وبقية المواد الضارَّة إلى خارج البدن، ولا تسمح بالعكس، فهي صمّام في اتجاه واحد لحكمة عظيمة.

١٥- في المعدة (٣٥ مليون) غدة للإفراز وهضم الغذاء، ـ بما في ذلك اللحوم ـ ولكنها لا تهضم نفسها[١].

**أخيراً أقول:** ولله آيات في جميع بدن الإنسان في أذنه وسماعها، وعينه وإبصارها، وأنفه الذي يشم، ولسانه التي تتذوَّق، وعضلاته التي تتحرك، ومفاصله المترابطة المتحركة، وجيناته الوراثية، وبصمات أصابعه، ولسان الزمار في حلقه، وتنظيم نومه حسب الأحوال المحيطة به؛ وأثر غدده الصمَّاء الداخلية في إدارة غدد الجسم كلها، وفي أماكن وأجراس الإنذار المبكِّر بقدوم مرض أو خطر قد يؤذيه أو يهلكه، وآلام جلده، ومشاعره وأحاسيسه، وروحه الغامضة، إلى غير ذلك مما أشار إليه القرآن، واكتشفه علم الإنسان، وحسبنا ما سطَّرته البنان.

... وبعد أن عشنا في ظلال آيات الله القرآنية، وبعض الحقائق العلمية مما يتعلق بخلق الإنسانية[٢]، أقول: لا شك أنَّ لكل ذلك دلالات عظيمة قوية على وجود خالق مبدع مدبِّر، له صفات الحكمة والعلم والقدرة، واللطف والرحمة، بل له صفات الكمال كلها.

---

(١) انظر: الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ١/ ١٩١، وما بعدها، و٢/ ٢٥٢ وما بعدها.

(٢) ولمعرفة مزيد من ذلك انظر: التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم ص٣٨٢ وما بعدها. و: في ظلال القرآن، لسيد قطب ٦/ ٣٨٤٨ في تفسيره للآيات ٦، ٧، ٨ من سورة الانفطار.

فما وجه دلالة كل ما سبق على وحدانية الله وتوحيده؟ هذا ما أُقرره تحت العنوان التالي:

**دلالة إبداع الجسد الإنساني ووظائف أعضائه على وحدانية الله وتوحيده:**

يمكن القول بعد كل ما سبق: «إن المظاهر الجزئية والحقائق العلمية المتعلقة بخلق الإنسان ووظائف مكوِّناته كشفت عن آياتٍ لله فيه، والآيات كشفت عن سنن، والسنن أرشدت إلى الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض»[١].

فقد تجلَّى من خلال ما سبق ذكره أربع قضايا رئيسة هي:

**أولاً**: حتمية وجود خالق للإنسان.

**ثانياً**: اتصاف هذا الخالق بصفة الحكمة البالغة.

**ثالثاً**: اتصافه ببقية صفات الكمال كلها وتنزّهه عن كل صفة من صفات النقص.

**رابعاً**: وحدانيته في كل ما سبق.

أما النقطة الأولى فقد سبق شرحها فيما مرّ معنا في هذا البحث[٢].

وأما النقطة الرابعة والأخيرة، فسأُؤَجِّل الحديث عنها لنهاية البحث عند الحديث بصورة إجمالية عن «دلالة الظواهر الإنسانية والكونية على وحدانية الله وتوحيده»[٣]، ولنبدأ بالفقرة الثانية كما يأتي:

---

(١) دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص٢٩٢ بتصرف وزيادة.

(٢) انظر ص٦٥٧.

(٣) انظر ص٨٦٢.

## أولاً: دلالة الجسد الإنساني ووظائفه على اتصاف خالقه بالحكمة البالغة:

يقال: «إن الأبحاث التي اتخذت من الإنسان موضوعاً لدراستها أثبتت أنه لا يمكن أن يفعل الإنسان بنفسه أحسن مما فعل الله به[١]،... ومما يؤكد هذا أن الأطباء إذا أرادوا استبدال عضو مريض في جسد الإنسان ـ أو ترقيعه وتعويض ما نقص من أجزائه ـ لجؤوا إلى العضو السليم من جسم الإنسان أو بدن غيره، يقيناً منهم بأن العضو الحيَّ لا تقاس إليه الأعضاء الصناعية[٢]..»[٣].

إن مما يدل على حكمة الله ودقة إحكامه في خلق الإنسان وإبداع أعضائه ما نراه من قيام وِرَشٍ أو مصانع الأطراف الصناعية بصناعتها في أقرب صورةٍ وتقليد للأعضاء الحيّة التي خلقها الله ـ شكلاً ووظيفة ـ... فهذا الفعل يؤكِّد أنها خُلقت لغاية وهدف وفق ناموس الله الذي وضعه لها.

وإن كل شيء خُلق في جسد الإنسان بإحكام، ولحكمة ـ كما سبق شرحه ـ فدلَّ ذلك على وجود حاكم حكيم، ذاك هو الله القائل عن نفسه أنه ﴿ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (هود: ٤٥).

وأنه ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢).

---

(١) بل إن أقصى ما يسعى إليه الطب البشري هو أن يوفِّر للجسم البشري الوسط الذي يحافظ فيه على توازنه (الطب الوقائي)، أو يرد له هذا التوازن عند ما يختلّ (الطب العلاجي).

(٢) ولنتأمل في حال شخص قُطعت يده أو رجله أو ذهبت عينه وعوض عن ذلك بأعضاء صناعية كم الفرق بينهما تكويناً ووظيفة وثمناً وجمالاً.

(٣) دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص ٢٩٣ بتصرف.

ولازالت الدراسات المهتمَّة بالإنسان ووظائف أعضائه تكشف كل يوم أنَّ كل صغيرة وكبيرة في كيان ابن آدم قد خُلقت بأحسن ما يمكن خلقها به، أو عليه، وأتقنه وأكمله، وأوفره للشروط التي تُحقِّق هدف خلْقه، وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله القائل عن نفسه أنه ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ (السجدة: ٧) وأنه ﴿ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (النمل: ٨٨) وأنه خلق ﴿ ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين: ٤).

وحقيقة إنه لو جئنا بأُمِّي لا يقرأ ولا يكتب ـ سواء كان عربيّاً أو أعجمياً ـ ووضعناه أمام سيَّارة حديثة مزوَّدة بأحدث ما وصل إليه العلم من كهرباء ودوائر وأجهزة إلكترونية وميكانيكية، تُحقِّق حركتها ووقوفها، وتُوفِّر إضاءتها وسماع أصوات مسجِّلها، وتُسهِّل وتُنسِّق العمل بين جميع مكوِّناتها، لها مقاعد مريحة، وعجلات محكمة، ومِقْود دقيق،..

وقد أُعِدَّت للسير في النور والظلام، والصَّحوة والأمطار، والسهول والجبال... إلخ.

وقلنا له: إن السيارة جاءت من عدم، وأُحدثت بغير محدِث، وأُحكمت بكل ما سبق وغيره من غير حكيم، وليس هناك هدف ولا قصد ولا حكمة من إيجادها بهذه الصورة.. لو قلنا له ذلك لحكم علينا بسفه العقول، وخرافة الكلام.

وكذلك العقلاء يَجزمون بأن للإنسان المخلوق المحكَم خالقاً حكيماً، ويَحكمون على كل قائل بغير هذا بفقدان العقل أو ضلاله ـ إن كان له عقل ـ.

إنهم بفطرتهم وبَدِيهيتهم يُفرِّقون بين مصنوعات دخَلَها القصد والإرادة والنظام والحكمة، وبين أخرى ليس لها شيء من ذلك.

وإن العلل الغائبة في سلوكيات الإنسان الإرادية وغير الإرادية[١] تدلل على أنها من فعل خالق حكيم ـ سواء أدركها الإنسان أم لم يدركها[٢] ـ ذاك هو الله رب العالمين.

وهنا يجب مراعاة أنَّ الله الخالق الحكيم لم يستفد صفتي الخلق والحكمة ـ وهما من صفات الأفعال ـ بعد خلقه للإنسان وإحكامه له، بل هو خالق حكيم قبل أن يخلق الخلق فهي صفة ثابتة له أزَلاً، والمخلوقات آثار أفعاله، وأفعاله آثار صفاته، فالصفات قبل الأفعال، وهذا ما أشار إليه صاحب العقيدة الطحاوية بقوله عن الذات الإلهية: «ليس بخلقه الخلق استفاد اسم الخالق، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم الباري، له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالقية ولا مخلوق»[٣].

## ثانياً: اتصاف الخالق الحكيم بصفات الكمال كلها، وتنزهه عن كل صفة من صفات النقص:

استلزمت صفتا الخلق والحكمة صفاتِ الله الأخرى بقياس الأَوْلى، من طريقين:

**الأول**: أن مقتضى الخلق والحكمة أن يكون صاحبهما متصف بصفات أخرى، مثل: العلم، الإرادة، القدرة، الحياة، السمع، البصر... إلخ.

---

(١) من أفعال الإنسان غير الإرادية: النوم، التنفس، نبضات القلب، حركات الجهاز الهضمي، والدموي،...إلخ.

(٢) دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص٢٩١-٢٩٥ باختصار.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ص١٣١.

وهذا ما أشار الله إليه في بعض آياته المتحدثة عن خلق الإنسان، كقوله تعالى عن صفة العلم: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤) وقوله عن صفة القدرة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا[١] وَصِهْرًا[٢] وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٤) ونحو ذلك من الآيات.

**الثاني:** أنَّ كل كمالٍ للإنسان ليس فيه نقص بوجه من الوجوه، وهو من أبرز المخلوقات التي تجلَّت فيها مظاهر كمال الله ـ كالسمع والبصر والكلام والقدرة والحياة ـ فالله سبحانه وتعالى أولى به، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (النحل: ٦٠) وقال: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الروم: ٢٧) لأن كل كمال للمخلوق إنما استفاده من الخالق.

وكل نقص أو عيب وجب نفيه عن الإنسان كمظهر من مظاهر الكمال البشري ـ كالجهل والنسيان والعجز والمرض ـ فيجب نفيه عن الله بطريق الأَوْلى، والإنسان الذي يتفكر في نفسه ويعرفها بما فيها من صفات وخصائص لا شك أنه سيعرف ربه بصفاته وكماله فـ«من عرف نفسه عرف ربه»[٣] قال ابن تيمية في

---

(١) نسباً: أي ذكوراً يُنسب إليهم الأبناء.

(٢) صهراً: أي إناثاً يصاهر بهن. انظر: التحرير والتنوير ١٩/ ٧٧، وللآية معان أخرى عند الشوكاني، انظر: فتح القدير ٤/ ١١٠.

(٣) القائل هو يحيى بن معاذ الرازي، ولا يصح رفع هذا الأثر إلى رسول الله ﷺ كما نصَّ على ذلك النووي وابن تيمية. انظر: كشف الخفاء ومزيل الالتباس فيما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للمفسر المحدث الشيخ إسماعيل بن محمد العلجوني الجراحي (ت١١٦٢)هـ، أشرف على طبعه أحمد القلاش، نشر وتوزيع مكتبة التراث الإسلامي، حلب، دار التراث، ط(بدون)، د.ت ـ القاهرة ٢/ ٣٦١.

شرح ذلك: «يقال إنه من عرف نفسه عرف ربه، من جهة الاعتبار، ومن جهة المقابلة، ومن جهة الامتناع»[١] ثم شرح ذلك بما ملخصه:

## أولاً: من جهة الاعتبار:

فإن الإنسان يعلم من نفسه أنه حيٌّ عليم قدير سميع بصير متكلِّم...، فيتوصَّل بذلك إلى أن يفهم ما أخبر الله به عن نفسه من أنه: حيٌّ عليم قدير سميع بصير، فإنه ـ أي الإنسان ـ لو لم يتصوَّر لهذه المعاني من نفسه، ونظره إليه، لم يمكن أن يفهم ما غاب عنه[٢]،... لقد جعل الله الصفات في الإنسان لعدة حكم، منها: أن تعطيه من نفسه ما يقرب إليه صفات خالقه ويعرفه بها[٣]، فيفهم لها معنى، مع العلم أنَّ صفاته المخلوقة لا تشابه صفات خالقه إلا في الاسم، والفرق بين صفات الخالق والمخلوق كالفرق بين ذواتهما[٤].

مع ملاحظة قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الروم: ٢٧).

---

(١) فتاوى ابن تيمية ٩/ ٢٩٥.

(٢) كحديثنا الآن عن الكمبيوتر (الحاسوب) والطائرة والغواصة والتلفون المحمول وغير ذلك فمثال هذه المسمَّيات لم يكن بإمكاننا ولا بإمكان من سبقنا فهمها وتصورها دون رؤيتها وهكذا..

(٣) وتأمل قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ (البلد: ٧، ٨) للإشارة إلى رؤية الله تعالى للإنسان، وكأن معنى الآية: كيف لا نراه ونحن زوَّدناه بأداة الرؤية، وكيف لا نبصره ومنا استفاد نعمة البصر. وانظر: التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم ص ٣٨٢-٣٨٥.

(٤) قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (النحل: ٦٠).

وليست كل صفات الكمال الواجبة لله يجد الإنسان في نفسه ما يُعرِّفه بها بقياس الأَولى، فهناك صفات كمال إلهية يَعْرفها الإنسان بصفات نقص يجدها في نفسه، وهذا ما شرحه ابن تيمية في الاعتبار الثاني كما يلي:

## ثانياً: من جهة المقابلة:

«يقال: إن من عرف نفسه بالعبودية عرف ربه بالربوبية، ومن عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى، ومن عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم، ومن عرف نفسه بالذل عرف ربه بالعز، وهكذا أمثال ذلك»[1] أ.هـ.

مع ملاحظة أنه: ليس لأن العبد اتصف بصفات نقص قد اتصف الرب بصفات الكمال المقابلة لها، فصفات الكمال الإلهية لازمة لذاته، وكل ما يـجده الإنسان في نفسه من صفات كمال أو نقص لا يعدو أن يكون طريقاً لمعرفة هذه الصفات.

وأنه: عندما يتعرف الإنسان على هذه الصفات الإلهية، يعلم من نفسه أيضاً أنها لا يمكن أن تشبه صفات الكمال التي في المخلوقين، فالله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١) ولهذا يؤمن المسلم الموحِّد بهذه الصفات دون تكييف أو تشبيه أو تمثيل، وهذا هو الاعتبار الثالث الذي شرحه ابن تيمية كما يلي:

---

(١) الفتاوى ٩/ ٢٩٧.

## ثالثاً: من جهة العجز والامتناع:

يقال: إذا كانت نفس الإنسان التي هي أقرب الأشياء إليه، بل هي هويته، ولا يعرف كيفيتها، ولايحيط بها علماً ـ سواء الجسد أو الروح ـ ولا يعرف تفاصيل خلقها وحقيقتها بدليل اكتشافه كل يوم شيئاً جديداً عنها، فالخالق جلَّ جلاله أَوْلَى ألاَّ يعلم العبد كيفيته، ولا يحيط علماً بحقيقته، ولهذا صحَّ عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه لربه: «... **لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[1] وكان يقول: «**يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك**»[2] وغير ذلك من الدعاء.

لقد كان الخلق المحكم للإنسان دليلاً على كثير من صفات الكمال لربه، وعلى سبيل المثال الجهاز التنفسي المحكم الذي يباشر أعماله دون توقف، وفي غاية من الدقة والسهولة، وبطريقة لا تكلف الإنسان جهداً أو مشقَّة في نومه أو يقظته، إضافة إلى تلك الأجهزة التنفسية المتناسبة مع كل مخلوق وبيئته، المحققة

---

(١) أخرجه: مسلم في ١/ ٣٥٢، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، برقم ٢٢٢ عن عائشة رضي الله عنها، وأخرجه النسائي في سننه ٣/ ٢٤٩ برقم ١٧٤٧ عن علي بن أبي طالب. وأول الحديث «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك..».

(٢) أخرجه ابن ماجه في ٢/ ١٢٤٩ في كتاب: الأدب، باب فضل الحامدين برقم ٣٨٠١ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٤٤٠. وقال: إسناده متصل ورواته ثقات، إلا أنه لا يحضرني في صدقة بن بشير (مولى العمريين) جرح ولا عدالة. انظر: الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، للحافظ زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري (ت٦٥٦)هـ ضبط أحاديثه مصطفى محمد عمارة، دار الريان للتراث، دار الحديث، ط (بدون)، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، القاهرة ـ مصر.

لحاجاته، كلها تشهد بأنها من صنع رب رحيم رؤوف عليم، خبير قادر هو الله سبحانه وتعالى[١].

وإن الذي خلق الجنين في بطن أمه، وخلق له الجهاز التنفسي دونما حاجة إليه هناك، لا شك أنه عليم يعلم خروج الطفل للحياة، واحتياجه لهذا الجهاز بعد مغادرته رحم أمه، ونفس الأمر يتعلق بالأسماع والأبصار والعقول وبقية الجوارح فتخليق ذلك كله للإنسان في بطن أمه يدل دلالة قاطعة على أن الخالق لها رحمن رحيم عليم خبير... إلخ الصفات.

وهكذا اتضح لنا من خلال هذا القياس القرآني العقلي ما يجب لله من صفات الكمال، وخِلال الجلال، وما لا يجوز أن يُنسب إليه مما تنزَّه عنه من صفات النقص والعيب، مع توحيده في ذلك كله[٢].

- إن توحيد الأسماء والصفات هو أحد نوعي التوحيد العلمي من أنواع التوحيد الثلاثة[٣]، ويقوم أساسه على معرفة الله والإيمان به كما وصف نفسه، وسمَّى ذاته.

- وإنَّ الإيمان بصفتي الخلق والحكمة لله يدفع لتوحيد ربوبيته، ومن هنا أجاب موسى على فرعون عندما سأله مع هارون بقوله: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ ﴾ (طه: ٤٩، ٥٠).

(١) علم الإيمان، للزنداني ١/ ٩٤ بتصرف وزيادة.

(٢) دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص٢٩٦-٢٩٨ باختصار.

(٣) والنوع الثاني هو توحيد الربوبية وكلاهما يُعرف بتوحيد الإثبات والمعرفة. راجع ما سبق شرحه من أنواع التوحيد ص ٤٤.

- وإنَّ من له صفات الكمال كلها هو وحده المستحق للعبادة، بكل صورها القلبية والقولية والبدنية والمالية، ولهذا فقد علَّل إبراهيم عليه السلام توحيده لربه ربوبيةً وألوهيةً وكفره بأصنام قومه وعداوته لها كون الإله هو الخالق، الهادي، المعطي، الشافي، الرزاق، المحيي، المميت، الغافر... إلخ، فكلها صفات تقتضيها ربوبيته لما خلق، لقد خاطب إبراهيم قومه بقوله ـ كما سجَّل الله ذلك في القرآن ـ: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ (الشعراء: ٧٥-٨٢)، وكلها من صفات الأفعال التي ترجع إلى معنى الربوبية.

لقد جمع الله بين أركان التوحيد الثلاثة: «ربوبية، ألوهية، أسماء وصفات» في بعض آياته، للإشارة إلى ترابطها وتلازمها واقتضاء كل واحد منها للآخر، فقال سبحانه مخاطباً خلقه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ثم ختمها بقوله: ﴿ فَٱعْبُدُوهُ ﴾[1] للتأكيد على فريضة توحيده في ألوهيته.

هذا هو المنهج القرآني لإقامة التوحيد في نفوس العبيد، إنه يستخدم الأدلة العقلية المتعلقة بخلق الإنسان من بدايته حتى وفاته لتقرير التوحيد، ويدعو لتعقُّل ذلك، كما يتضح من تذييله سبحانه لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ

(١) الأنعام: ١٠٢، ونحوها في السجدة ٦-٩.

لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (غافر: ٦٧) أي: ولعلكم تعقلون ما أراده الله من خلق الإنسان على هذه الحالة ليكون ذلك دليلاً على وجود خالقه، وعلى انفراده بالربوبية، واستحقاقه العبادة، قال ابن عاشور: «فمن عقل ذلك من الناس فقد اهتدى إلى ما أُريدَ منه، ومن لم يعقل ذلك فهو بمنزلة عديم العقل؛ ولأجل هذه النكتة لم يُذكر لفعل (تعقلون) معمول، لأنه نُزِّل منزلة اللازم، أي رجاء أن يكون لكم عقول، فهو مراد الله من ذلك الخلق»[١].

«لقد جاء ذكر خلق الإنسان في كثير من آيات القرآن، تارة مجملةً، وتارة مفصَّلة، تنبيهاً إلى دلائل القدرة والحكمة، والعلم والعظمة، والكمال والجلال، للخالق المبدع، فتارة تذكر آيات القرآن أطوار خلق الإنسان وتفصِّل القول فيها بما يبهر العقل، ويلجئها إلى التسليم بالربوبية لصاحب هذا الصنع والتقدير، وتارة تُنبِّه إلى حسن صورته، وتسوية خلقه وتعديل قوامه، وتارة تُنبِّه إلى ما ركَّبه الله فيه من جوارح وحواس، وتارة تذكر ما صنَّف إليه البشر من ألوان وألسنة وأجناس، إلى غير ذلك من مجالات التفكر والاعتبار، والتأمل والادِّكار»[٢].

ولم يكتف القرآن بذلك[٣]، بل قدَّم أدلة أخرى تتعلق بخلق السماوات والأرض، وما بينهما، وما فيهما، وهذا ما أشرحه في المطلب الثاني:

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٤/ ٢٤١ بتصرف يسير.

(٢) الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، لسعود العريفي ص ٢٤٥ بتصرف.

(٣) وهناك عدة آيات قرآنية تحدَّثت عن دلائل وحدانية الله في الأنفس منها ما جاء في السور التالية، البقرة: ٢٨، والأنعام: ٤٦، والنحل: ٧٨، والمؤمنون: ٧٨، والروم: ١٩-٢١،٥٤، والزمر: ٦، والملك: ٢٣-٢٤، والإنسان: ١-٢، وعبس: ١٧-٢٢، والبلد: ٨-١٠.

# «المطلب الثاني»

# «دلائل التوحيد الكونية»

## توطئة:

لله آيات تدل عليه في العالم العلوي (السماوات) والعالم السفلي (الأرض)، ولن يستطيع المرء حصرها جميعاً واستنباط كل ما فيها من دلالات(١)، ويكفينا من ذلك ما يحقق المقصود من هذا البحث.

لقد أكَّد الله وجود آياته في الكون لقوم يعقلون فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٤).

واعتبر خلق السماوات والأرض أعظم من خلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (غافر: ٥٧) وقال سبحانه: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ (النازعات: ٢٧-٣٢).

---

(١) ذكر صاحب دلائل التوحيد ما يقرب من ثمان وعشرين ومائتي آية جاءت في خمس وعشرين سورة، كلها تشير إلى آيات الله الكونية. انظر: كتاب دلائل التوحيد انطلاقاً من القرآن والكون، لعبد الله بن عبد القادر التليدي، ص ٣٨ وما بعدها.

وجعل ذلك دليلاً على وجوده ووحدانيته سبحانه وتعالى فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الشورى: ٢٩) ودعى جميع خلقه لتأمل ذلك كله للاستدلال به عليه، فأمر محمداً ﷺ أن يدعو جميع الخلق لرؤية آيات الله الكونية بقوله: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1] وأنكر على الكفار المعرضين عن آياته في الكون فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾ (ق: ٦-٨).

ووصف أهل الإيمان وامتدحهم بقوله: ﴿ ... وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (آل عمران: ١٩١) فيدفعهم ذلك التفكر إلى معرفة الحق، والاعتراف بربوبية الخالق، وتنزيهه عن كل شريك ونقص وعيب وعبث قائلين: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران: ١٩١).

لقد استدل رسل الله عليهم الصلاة والسلام على الذات الإلهية بدليل خلق الكون بما فيه ومن فيه، فخاطبوا أقوامهم قائلين: كما قال سبحانه: ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (إبراهيم: ١٠) وما كان ذلك إلا لقوة هذا الدليل وكمال وضوحه، ورؤيتهم له، بل عيشهم فيه وعليه ليل نهار ـ ومن هنا قال نوح لقومه: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ ﴾ (نوح: ١٥، ١٦).

---

(١) يونس: ١٠١، ونحوها في الأعراف: ١٨٥.

وما أكثر الآيات التي تحدثت عن خلق السماوات والأرض، وما فيهما من دلالات على الحق، وكررت ذلك[١]، مؤكدة أن الله تعالى ما خلقهما باطلاً[٢] ولا لعباً[٣] ولا عبثاً[٤].

إننا نجد أن الله عزوجل قد حصر الحكمة من خلق السماوات والأرض وما بينهما بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (الحجر: ٨٥).

قال الشنقيطي رحمه الله: «ذَكَر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق، أي ليدل بذلك على أنه المستحق لأن يُعبد وحده، وأنه يكلف الخلق ويجازيهم على أعمالهم»[٥].

وقال ابن عاشور: «والباء في ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ للملابسة، متعلقة بـ(خلَقنا) أي خلقاً ملابساً للحق، ومقارناً له، بحيث يكون الحق بادياً في جميع أحوال المخلوقات[٦]... والحق هو إجراء أحوال المخلوقات على نظام ملائم للحكمة

(١) انظر: على سبيل المثال السور التالية: الأنعام: ٧٣، يونس: ٥، إبراهيم: ١٩، النحل: ٣، الروم: ٨، الزمر: ٥، الجاثية: ٢٢، الأحقاف: ٣، الدخان: ٣٩، التغابن: ٣.

(٢) كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ..﴾ (ص: ٢٧).

(٣) كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾ (الأنبياء: ١٦).

(٤) كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ (النجم: ٣١).

(٥) أضواء البيان ٣/ ١٩١.

(٦) قال ابن عاشور: «والملابسه هنا عُرفية فقد يتأخر ظهور الحق عن خلق بعض الأحوال والحوادث تأخراً متفاوتاً، فالملابسة بين الحق والخلق تختلف باختلاف الأحوال من ظهور الحق وخفائه، على أنه لا يلبث أن يظهر في عاقبة الأمور كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ (الأنبياء: ١٨)، انظر: التحرير والتنوير ١٣/ ٦٠.

المناسبة في الخير والشر، والكمال والنقص، والسمو والخفض، في كل نوع بما يليق بماهيته وحقيقته وما يصلحه، وما يصلح هو له،...»[١].

إن التفكر في خلق السماوات والأرض سبيل لمعرفة الحق، فهي صادرة عن الحق سبحانه وتعالى، مشتملة عليه، آيلة إليه، والحق سابق لخلقها، مقارن له، غاية له، فالحق السابق: صدور ذلك عن علم الله وحكمته سبحانه وتعالى.

والحق المقارن: ما اشتملت عليه من الحِكَم والمصالح والمنافع، والآيات الدَّالة على الخالق وصفاته، وصدق رسله ولقائه.

وأما الحق الذي هو غاية خلقها فهو غايتان:

غاية تُراد من العباد؛ وهي معرفتهم بخالقهم وعبادتهم له.

وغاية تُراد بهم؛ وهي الجزاء بالعدل والفضل، والثواب والعقاب[٢].

وإلى هذه المعاني أشارت بعض الآيات التي تذكر خلق السماوات والأرض وما بينهما، بحسب سياقها، ومنها ما يشير إلى إفراده سبحانه بالعبادة والتوحيد دون غيره، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النحل: ٣).

وحتى يتضح لنا أحق الحق في خلق السماوات والأرض ـ وهو توحيد العبادة ـ أبدأ بذكر شيء من آيات الله الكونية (بشكل عام) ثم أُثنِّي بذكر بعض آيات الله السماوية بشكل خاص، ثم أختم بسرد جزء من آيات الله في الأرض

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٦٠ باختصار.

(٢) بدائع الفوائد، لابن القيم ٤/ ١٦٢-١٦٧ باختصار وتصرف.

ودوابِّها بشكل أخص، مستشهداً لذلك بأقوال واكتشافات علماء العصر الحديث عن حقائق هذا الكون وعظمته، مرجئاً الكلام عن وجه دلالة المظاهر الكونية ـ بشكل عام ـ على وحدانية الله وتوحيده، إلى نهاية الحديث عن آيات الله في السماوات والأرض والدواب، وإن كنت سأشير إلى شيء من ذلك ـ بصورة خاصة ـ في نهاية بعض الفقرات:

## أولاً: من آيات الله الكونية:

البحث في آيات الله الكونية، والتأمل فيها، طريق إلى اليقين بالله ووحدانيته، ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ ، وهذا ما ذكره سبحانه وتعالى عن العلة والهدف والنتيجة من كشف آياته لخليله إبراهيم عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ (الأنعام: ٧٥) «أي ليعلم أن شيئاً من... الأفلاك والكواكب والمشايخ والشياطين لا يصلح للإلهية، ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ بالتوحيد، بالاستدلال بالأدلة الكثيرة، وقيل: ﴿ وَلِيَكُونَ ﴾ ... من الموقنين بالتوحيد، فعلنا ما فعلنا من الإراءة والتبصير بآيات السماوات والأرض»[1]، وقال ابن عاشور في معنى الآية: «فيها إشارة إلى حجة مستنبطة من دلالة أحوال الموجودات على وجود صانعها»[2] ـ وهذا ما استنبطه علماء الكون المعاصرين بعد طول بحث وعناء ـ ، ولكن قبل ذكر ذلك أعرِض شيئاً من نتائج أبحاثهم عن حقائق الكون وأسراره.

---

(١) محاسن التأويل، للقاسمي ٦/ ٥٨٧ بتصرف يسير.

(٢) التحرير والتنوير ٦/ ١٧٤.

### أ ـ أصل خلق الكون ونشأته:

يؤكد علماء العصر الحديث أن الكون كله (السماوات والأرض) قد خُلق من أصل واحد، وأنَّ بداية تخلُّق الكون كانت من مادَّة واحدة، هي سديم، دخاني، هائل، يشبه السحاب[١]، حار جداً، وكان هذا قبل (١٥.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) خمسة عشر مليار سنة تقريباً[٢].

وتفصيل ذلك كما يقول علماء الفيزياء الفلكية أن الكون بكل أبعاده المادِّية والزمنية نتج عما يُسمى بـ(بالانفجار العظيم)[٣] (BIG BANG) الذي حصل في

---

(١) السديم هو دخان حار جداً، تشكلت منه النجوم الشديدة الحرارة والإضاءة، والفرق بينه وبين السحاب أو الضباب أن الضباب بارد وخامل، لذا لا يمكن أن تتشكَّل منه نجوم تشهد انفجارات نووية هائلة مستمرة.

انظر: وجود الله بالدليل العلمي والعقلي، للدكتور محمد نبيل النشواتي، دار القلم، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، دمشق ـ سوريا ص١٩، ص٣٠.

و: سلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص١٦-٢١.

و: معرفة الله (دلائل الحقائق القرآنية والكونية) للمرابط بن محمد لخديم الشنقيطي، دار وحي القلم، ط١، ٢٠٠٢م، دمشق ـ سوريا ص ١٠٣.

(٢) مع ملاحظة أن وحيد الدين خان ذكر في كتابه (الإسلام يتحدَّى) كلاماً آخر لعلماء الكون عن تقدير عمره بصورة تقريبية حيث ذكر أن الانفجار العظيم وقع قبل خمسة آلاف مليار سنة تقريباً.

انظر: الإسلام يتحدى ص٥٦.

(٣) يقول د/ زغلول النجار: (ويؤكد العلماء أننا إذا عدنا... إلى الوراء مع الزمن فلابد وأن تلتقي مادة الكون وطاقته في جرم واحد متناه في الكثافة والصِّغر، وأنَّ هذا الجُرم الابتدائي كان بالقطع في حالة حرجة مما أدَّى إلى انفجاره) النظر في الكون، للدكتور زغلول النجار ص٥.

وقت قصير جداً ـ انظر الشكل (٢٩) ـ فدلَّ هذا على أن الكون خُلق من العدم، ونتج عن هذا الانفجار السَّديم[١]، الذي تكثَّف إلى نقاط شديدة الحرارة والكثافة، فأعطت نجوماً كثيرة، تتكون من غازات مستعرة، ثم انفصلت عنها فيما بعد المجرَّات[٢] بما فيها من نجوم[٣] وكواكب[٤]، ومنها شمسنا، وأرضنا التي نعيش عليها، أمَّا ما تبقَّى من السديم الدخاني فإنه يُشكِّل ما يُدعى الآن بدرب التبَّانة الهائل السعة[٥].

---

(١) المعجزات القرآنية، لهارون يحيى ص١٢.

وانظر: مع الله في السماء، للدكتور أحمد زكي، دار القلم، ط١، ١٩٨٣م، بيروت ـ لبنان ص١٤٤، ٢١٧.

و: التفسير العلمي المعاصر وأثره في كشف ا لإعجاز العلمي للقرآن الكريم، للأستاذ الدكتور سليمان بن صالح القرعاوي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط١، الرياض ـ السعودية ص٨١-٩٦.

(٢) المجرَّات هي مجموعة كبيرة من النجوم والكواكب

(٣) النجوم هي أجرام ملتهبة يصدر عنها ضوء وحرارة كالشمس.

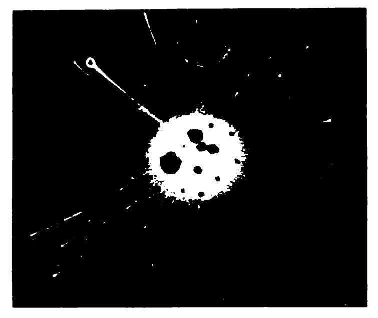
(٤) الكواكب هي أجرام معتمة تستقبل الضوء والحرارة كالأرض والقمر.

(٥) سلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص١٦-١٧.

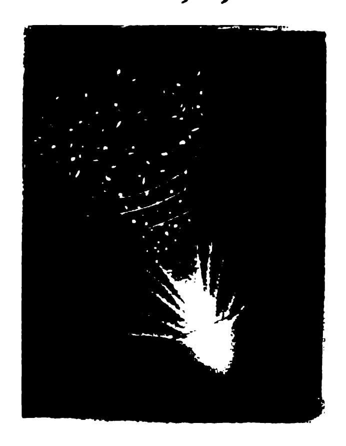
ويمكننا مشاهدة السديم الدخاني الذي يشكل مجرَّة درب التَّبانة في الليالي الحالكة السواد عندما يختفي القمر وخاصَّة إذا حاولنا مشاهدته بعيداً عن المدن الشديدة الإضاءة.

انظر: وجود الله، للشواتي ص١٧-٢٩.

## شكل (٢٩)



إن الانفجارات دائماً تؤدي إلى بعثرة المادة وتشتيتها بشكل عشوائي إلا ما كان من انفجار الكون وبداية خلقه فقد كان آية باهرة على الدقة والنظام والإبداع لخالق الكون قال تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (لقمان: ١١)



شكل تخيلي للحظة الانفجار العظيم
التي تخلق منها الكون

ولقد كان من المفروض نتيجة لهذا الانفجار العظيم الذي يطلق عليه اسم (BIG BANG) أن تكون الذرَّات والدقائق التي يتألف منها الكون بصورة اعتباطية عشوائية، ولكن الذي حدث هو العكس تماماً، فقد تشكَّل كونٌ عظيم ذو ترتيب وتنظيم بديع، وعلى درجة عالية من الدِّقّة[١]، يقول البروفيسور فريد هويل (Fred Hoyle) عن نظرية انفجار الكون العظيم: «تؤمن هذه النظرية بأن الكون وُجد بعد حدوث انفجار كبير جداً، ومن البديهي أن أي انفجار يؤدي إلى تشتيت المادَّة إلى أجزاء، بصورة غير منتظمة، إلا أن الانفجار الكبير أدَّى إلى حدوث عكس ذلك، بصورة غامضة، فقد أدَّى إلى تجمع المواد بعضها مع بعض، لتتشكَّل منها المجرَّات»[٢] ـ انظر الشكل (٣٠) ـ ويعبِّر الآن ساندیج (Alan Sandge) ـ الأخصائي في الفيزياء الفلكية ـ عن هذه الحقيقة قائلاً: «أجد من الاستحالة أن ينشأ هذا النظام الدقيق اعتباطاً... وإن التفسير الوحيد لذلك هو وجود رب بالفعل»[٣].

---

(١) ويشبّه العلماء انتشار المادة في الكون لتشكيل المجرَّات والنجوم والمجموعات التابعة لها بكومة من القمح في صومعة أُلقيت عليها قنبلة يدوية، واستطاعت هذه القنبلة أن تضع القمح في قطع من القماش منتظمة الشكل، مرصوفة، وموضوعة فوق الرفوف، وفق ترتيب محدَّد، بل إن ترتيب أجزاء الكون أكثر دقة من ترتيب هذا القمح وبصورة غير اعتيادية. انظر: سلسلة المعجزات، لهارون يحيى، ص١٦.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة، نقلاً عن:

THE INTELLIGENT UNIVERSE, FRED HOYLE-

بمعنى: الكون الذكي، لندن، ١٩٨٤م ص١٨٤-١٨٥. (ولم أعثر على المرجع الأصلي).

(٣) سلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص١٦ بتصرف، نقلاً عن:

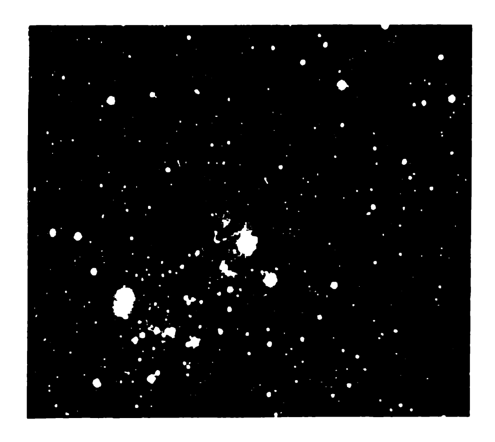
SIZIN UP THE COSMOS: AN ATRONOMERS OF QUEST 1991 MARSH 12 WILL FORD. J.N

بمعنى: استكشاف الكون: أبحاث علماء الفلك، مجلة نيويورك تايمس ص ١٣٩.

## شكل (٣٠)



صورة حية حديثة لسديم معتم تتولد داخله نجوم جديدة



السديم الذي تتكون منه المجرات

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١)

إن المعجزة الكبرى ـ كما يعبر عنها علماء الكون ـ تتمثل في اتحاد الذرَّات مع بعضها نتيجة الانفجار الكبير، لتأخذ أنسب صورة ممكنة تشكُّل الكون المتميِّز بالدِّقة والانتظام، والذي يتألَّف من ملايين المجرَّات، وهذه المجرَّات تتشكَّل من ملايين النجوم والكواكب، بالإضافة إلى التريليونات من الأجرام السماوية[1].

إن هذه الحقيقة العلمية الكونية، قد سبق إليها القرآن الكريم قبل ١٤٠٠ عام تقريباً، حيث قال سبحانه عن أصل خلق السماء من دخان: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١).

---

(١) سلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص١٦-١٧ بتصرف واختصار.

ويقول الدكتور زغلول النجار: «ويؤكد علماء الفلك أن عملية اتساع الكون ـ وهي ناتجة عن الانفجار الأولي العظيم ـ في تناقص في سرعتها، وفي تضاد كامل مع قوى الجاذبية التي ترتبط بها أجرام السماء، ومن ذلك يحسبون أنه لابد وأن يأتي الوقت الذي تتساوى فيه هاتان القوّتان المتضادّتان، فيضطرب هذا النظام الكوني البديع، ومع تزايد قوى الجاذبية على قوى الانتشار يبدأ هذا الكون الشاسع في التجمع على ذاته مرَّة أخرى على هيئة الجرم الابتدائي الذي خُلق منه أول مرَّة ـ وهو جرم متناه في كثافته وفي ضآلة حجمه ـ فيؤدي ذلك إلى انفجار من جديد على هيئة غلالة من دخان تتخلق منه أرض غير الأرض، وسماوات غير السماوات الحالية، ويعود كل شيء إلى أصله ... ».

وقد سبق كلام الله إلى هذه الحقيقة بقوله سبحانه: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

وقوله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ (إبراهيم: ٤٨).

وانظر: النظر في الكون لماذا؟ للدكتور زغلول النجار ص١٥-١٦.

وقال سبحانه عن تفتُّق السديم إلى مجرَّات بما فيها من نجوم وكواكب ـ مثل كوكبنا الأرض ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ (الأنبياء: ٣٠) أي كانتا في حالة التصاق ليس فيه ذوات متميِّزة... بل هما أمر واحد متَّصل متشابه.. ﴿ فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ بإيجادهما وحصول التمييز، بانفصال بعض الأجزاء عن البعض الآخر[1].

وقد أكّد علماء الفلَك أن الشمس انفتقت ـ وهي إحدى النجوم ـ إلى تسعة كواكب، والأرض انفصلت عنها[2] وانفتق عن الأرض[3] القمر الذي كان جزءاً منها، ويدَلِّلون على هذا الانفتاق بالتشابه الكبير بين تكوين وتركيب قشرة القمر وقشرة الأرض[4].

لقد جاءت آيات القرآن لمخاطبة الذين كفروا ـ بصورة مباشرة ـ عن هذه الحقائق الكونية، وكَشَفَ الله مصداقية ذلك على أيدي علمائهم المعاصرين، فلما بلغهم ما جاء في كتاب الله تحيَّر بعضهم ووقف مذهولاً أمام إشارة وتصريح

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري ١٧/ ٢٤. و: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٥٥٤. و: روح المعاني، للآلوسي ٩/ ٣٣-٣٤.

(٢) انظر: العلم يدعو للإيمان، لكريسي موريسون ص٦٣.

(٣) ويذكر النشواتي في كتابه (وجود الله بالدليل العلمي والعقلي) ص٣٠ أن الأرض كانت كتلة واحدة من اليابسة (البانجا) تحيط بها المياه من كل الجهات، ثم انفتقت قبل حوالي ٥٠ مليون سنة فأصبحت أجزاء منفصلة ما لبثت أن ابتعدت عن بعضها بالتدرج وببطء شديد استغرق ملايين السنين فتشكّلت القارات المعروفة التي تفصلها عن بعضها البعض البحار والمحيطات. أ.هـ.

(٤) انظر: مع الله في السماء، للدكتور أحمد زكي ص١١٣. و: وجود الله، للنشواتي ص٣٠.

الآيات القرآنية لأصل خلق الكون ونشأته حتى قال البروفيسور الأمريكي بالمر (Palmer): «لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون هذه المعلومات من مصدر بشري، خاصَّة وأنها ظهرت في وقت لم تكن علوم الفلَك والفضاء قد ظهرت إلى الوجود بعد، كما لم تكن التلسكوبات العملاقة والراديوية، ولا محطّات الفضاء اللاسلكية، ولا سفن الفضاء معروفة آنذاك! فالعلماء لم يتوصّلوا إلى هذه الحقائق المذهلة إلا منذ عهد قريب، وقريب جدّاً»[١].

عموماً إن كلام «بالمر» السابق يؤكد ما آمن به الموحِّدون أن القرآن كلام الله[٢]، وأن ما جاء فيه من الحقائق المتعلقة بأصل خلق الكون لا يقدر عليها إلا الله، فهو وحده القادر على إخبارنا أين كان الكون، وكيف صار؟ وعلى يد من؟ وبأي قدرة؟! وإلى أين سيذهب فهو وحده العليم بذلك كله، بل يؤكِّد وجود الله، وحياته، وقيوميته على هذا الكون منذ الأزل، وغير ذلك من وحدانية الله في أسمائه وصفاته، يقول البروفيسور «بالمر» ـ السابق ذكره ـ : «إن الذي أخبر محمداً ـ ﷺ ـ عنها، لابد وأنه موجود، وأنه حيٌّ قيوم، ويعلم أسرار الكون وعلومه؛ وهذا لا ينطبق على عالِمٍ حكيم غير الله وحده سبحانه»[٣].

---

(١) نفس المرجع ص٣٢، وقد اقتبس المؤلف بعض ذلك من مراجع أجنبية أثبتها في نهاية كتابه.

(٢) وقد شهد بذلك العالِم يوشيدي كوزاي ـ رئيس مرصد طوكيو العالمي في اليابان ـ في المؤتمر العلمي للإعجاز القرآني الذي عُقد في القاهرة، وكذا في مؤتمر الشباب الإسلامي الذي عُقد في الرياض في الفترة من ٢٠-٢٧ ربيع الآخر ١٣٩٩هـ الموافق ١٨-٢٥ مارس (آذار) ١٩٧٩م.

انظر: وجود الله، للنشواتي ص١٨، ٢١.

(٣) نفسه: ٢١.

**ب ـ سعة الكون، وعظمة نجومه ومجرّاته:**

المجرّة هي عدد كبير جداً من النجوم والكواكب، وقدّر علماء الفضاء عدد المجرَّات بالملايين كل مجرَّة تحتوي على ملايين النجوم المشتعلة، وبتفصيل أدقّ فإن علماء الفَلَك يعتقدون أن هذا الكون يتألف من (٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠) خمسمائة مليون من مجاميع النجوم (المجرَّات)، مضروباً في (٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) خمسمائة ألف مليار من النجوم والكواكب، وفي كل مجموعة منها (أي مجرَّة) يوجد (١٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) مائة مليار من النجوم أو أكثر أو أقل[1][*].

بل يقولون: «إن عدد نجوم السماء مثل عدد ذرَّات الرمال الموجودة على سواحل البحار في الدنيا كلها[2]، منها ما هو أكبر بقليل من الأرض، ولكن

(١) انظر: الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص٥٨.

وواضح من خلال مقدمة الكاتب وما تضمَّنته صفحات كتابه (في الحواشي) أنه استعان ببعض المراجع الأجنبية لجمع وتوثيق المعلومات المذكورة أعلاه.

وانظر أيضاً: روح الدين الإسلامي، لعفيف عبد الفتاح طبّارة ص٦٨.

(*) ملاحظة: أثبتُّ الأرقام التقديرية المذكورة أعلاه من باب الأمانة العلمية في النقل والتوثيق، أما تحديد أعداد هذه المخلوقات الغائبة عن البشر، والتي لم يقم دليل شرعي على عددها، ولم يتمكن العلماء المعاصرون من عدِّها وحصرها بدقة ودليل قوي فلا يمكن الجزم بصحته. وهكذا بقية الأرقام المذكورة فيما يلي من فقرات البحث.

(٢) ومع هذا كله يقول الدكتور أحمد زكي في كتابه (مع الله في السماء) ص٩٩-٢٠٠: «إن المجرّة فراغ، أكبر الفراغ ـ أي في المسافات بين أجرامها.. إن النجوم على كثرتها في المجرّة لا تكاد تملأ منها شيئاً، أرأيت لو أنك جئت بعشرة من الرجال، ونثرتهم على سطح هذه الأرض،.. ـ هل يزدحمون؟! ـ السماء هكذا: قلة سكان واتساع مكان».

أكثرها كبير جداً، حتى يمكن أن نضع في واحد منها ملايين النجوم، في مثل حجم الأرض التي نعيش عليها[١]، ولسوف يبقى فيه مع ذلك مكان خال!!

إن كوننا هذا فسيح جداً، ولكي نفهمه نتصوَّر طائرة خيالية تسير بسرعة (١٨٦.٠٠٠) مائة وستة وثمانين ألف ميل[٢] في الثانية الواحدة، وأن هذه الطائرة الخيالية تطوف بنا حول الكون الموجود الآن، إن هذه الرحلة الخيالية سوف تستغرق (١.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) مليار سنة ضوئية[٣]، أي ألف مليون سنة ضوئية للإحاطة به، يضاف إلى ذلك أن هذا الكون ليس بمتجمد أو متوقف، بل هو يتسع كل لحظة، حتى إنه بعد (١.٣٠٠.٠٠٠.٠٠٠) مليار وثلاثمائة مليون سنة تصير هذه المسافات الكونية ضعفين[٤]!!

---

(١) تأمل هذا العدد الهائل من ملايين المجرات في كل مجرة مليارات النجوم والكواكب وقارن ذلك بقوله سبحانه عن الكفار: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ (الزمر: ٦٧).

(٢) الميل يساوي ١٦٠٩ من الأمتار. أي أن (١٨٦.٠٠٠) ميل تساوي (٢٩٩.٢٧٤.٠٠٠) متر.

أي ما يقرب من (٣٠٠.٠٠٠) كم في الثانية، والثانية جزء من الوقت (لحظة) بقدر تلفظك بلفظ الجلالة (الله)

(٣) وعند النشواتي في كتابه (وجود الله بالدليل العلمي والعقلي) ص٤١ أن الرحلة هذه تستغرق ما لا يقل عن ألف مليار سنة ضوئية متواصلة، والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء خلال سنة كاملة، وتساوي ٦ مليون مليون ميل.

(٤) ينبغي ملاحظة أن هذه الحسابات هي نظرية اينشتين عن الكون، ولكنها ليست إلا قياساً رياضياً، والحقيقة أن الإنسان لم يستطع حتى الآن أن يفهم سعة هذا الكون!!. انظر: الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص٥٦. و: مع الله في السماء، للدكتور أحمد زكي ص١٩٥.

ويقدِّر علماء الفلك أن أقرب مجموعة من النجوم إلينا[١]، وهي التي نراها في الليل كخيوط بيضاء دقيقة تضم حيّزاً مداه (١٠٠.٠٠٠) مائة ألف سنة ضوئية[٢]، ونحن ـ سكان الأرض ـ نبعد عن حيِّز هذه المجموعة بمقدار (٣٠.٠٠٠) ثلاثين ألف سنة ضوئية، وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألَّف من سبع عشرة مجموعة، وقطر هذه المجموعة الكبيرة (ذات السبع عشرة) مليونان من السنين الضوئية.

إن الكون يتَّسع من كل جوانبه، كالبالون الـمُتَّخذ من المطاط حين ينفخ فيه الأطفال[٣].

---

(١) يقول د/ أحمد زكي في كتابه (مع الله) ص١٧٥: «إن أقرب نجم إلينا يبعد عن الشمس فوق الأربع من السنين الضوئية، فهو على مسافة تبلغ نحواً من (٢٦.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) ميل، ستة وعشرين ألف مليار ميل، وإنك لو مثّلت الشمس بنقطة من حبر على هذه الصفحة لتمثّل أقرب نجم بنقطة أخرى تبعد عن النقطة الأولى بنحو أربعة أميال».

(٢) وفي بعض المراجع التي رجعتُ إليها: «وإن العبور من ـ إحدى جوانب مجرّتنا إلى الجانب المقابل يستغرق ما لا يقل عن (١٠.٠٠٠.٠٠٠) عشرة مليون سنة ضوئية.. وإنّ بُعد أقرب المجرّات إلينا ـ مجرة أندروميدا ـ يبلغ نحو عشرين ضعف هذه المسافة، أما الوصول إلى الفضاء الذي أمكن رؤيته بالتلسكوبات العملاقة فيتطلب زمناً قدره ألف ضعف هذه المدّة. انظر: مع الله، للدكتور أحمد زكي ص٢٠١. و: معرفة الله، للمرابط بن محمد لخديم الشنقيطي ص٥٨. نقلاً عن: طبيعة الحياة، لفرانسيس كريك، ترجمة أحمد مستجير، مراجعة د/ عبد الحافظ حلمي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، مطابع الرسالة، ط (بدون)، رمضان ١٩٠٨هـ/ مايو (آيار) ١٩٨٨ ـ الكويت ص٢٥-٢٦. «ولم أعثر على المرجع الأصلي».

(٣) الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص٥٨. و: مع الله، للدكتور أحمد زكي ص١٩٥-١٩٨ باختصار.

**عموماً**: إن هذه السعة العظيمة في الكون، وهذا العدد الهائل في نجومه وكواكبه ومجرّاته جعل كاتبة أمريكية متخصصة في علم الفلك، تقول: «إن هذا العلم إذا دخله الإنسان فإما أن يسجد لخالقه أو يفقد عقله»[1].

**ج ـ حركة الكون ودقة نظامه واتزانه:**

بالإضافة إلى سعة الفضاء السابق شرحها فقد أكّد علماء الكون أنه يتمدّد بسرعة ثابتة مقدّرة محكمة دقيقة، وهذه السرعة متناسبة مع شكله الحالي الذي بلغه الكون، فلو كانت أقلَّ قليلاً من هذا المقدار لما استطاعت المجموعات الشمسية أن تتشكّل، بل سترجع كسابق عهدها، أي مادة منكمشة ولو كانت هذه السرعة أكبر قليلاً لما استطاعت المادّة أن تتوحّد لتشكّل النجوم والمجرّات، ولاندثرت وتلاشت في الفضاء الكوني، وفي كلتا الحالتين يستحيل وجود الحياة، ومن ضمنها حياة الإنسان...

لقد كشفت بحوث ودراسات البروفيسور بول ديفيس (Bool Deves) أستاذ الفيزياء الرياضية في جامعة أديلياد الاسترالية أن أيَّ تغيُّر في سرعة تمدد الكون مهما كان ضئيلاً ـ حتى لو كان بنسبة ١ إلى مليار مليار أو ١/ ١٠ قوة ١٨ (١. ٠^١٨)[2] ـ يؤدي إلى عدمه، ولما استطاع الكون أن يظهر إلى الوجود، وإن مجرَّد حدوث تغيير ولو بهذا المقدار الضئيل جداً جداً يعني عدم إمكانية ظهور الكون، ثم علّق البروفيسور المذكور على هذه الحقيقة بقوله: «إن الحسابات تدل على أن

---

(١) النظر في الكون، للدكتور زغلول النجار ص١٧.

(٢) ويمكن أن نكتب النسبة المئوية السابقة بالشكل التالي:

(١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠.٠) أي سبعة عشر صفراً عن يسار الرقم (١) ويمين العلامة العشرية.

الكون يتمدّد بسرعة دقيقة للغاية... ودرجة مذهلة[١]، ونتيجة لهذه الحقيقة لا يمكن اعتبار الـ(Big Bang) الانفجار العظيم انفجاراً عاديّاً، بل انفجاراً منظماً ومحسوباً بدقة من النواحي كافّة»[٢].

ويؤكد علماء الفَلك ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ أن جميع نجوم السماء وكواكبها ومجرّاتها ـ بما في ذلك المجموعة الشمسية[٣]، وكويكباتها[٤]، والشهب

---

(١) ويقول ستيفين هاوكنج (STEPHEN HAWKING): ... «إن سرعة تمدد الكون تتسم بالحساسية الفائقة، والدقة المتناهية، حتى أن هذه السرعة لو كانت أقل قليلاً عند الثانية الأولى من الانفجار الكبير بمقدار (١) إلى مليون مليار لتعرض الكون إلى الانكماش ولاستحال وصوله إلى صورته الحالية» أ.هـ . انظر: سلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص١٨-١٩. نقلاً عن: التاريخ الموجز للزمن، لمؤلفه (ستيفن هاوكينج STEPHEN HAWKING)، مطبعة بانتام، لندن، سنة ١٩٨٨م ص١٢١-١٢٥ باختصار.

(٢) سلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص١٨-١٩ باختصار. نقلاً عن: SUPER FORCE: THE SEARCH GRAND UNIFIED OF NATURE, DAVIES

بمعنى: القوة الخارقة: البحث عن النظرية الكبرى الموصِّلة لنشوء الطبيعة، سايمون وشوستر، طبعة ١٩٨٤م ـ نيويورك، ص ٢٤٣.

وقد نشرت مجلة العلم والتقنية (التركية) في العدد ٢٠١ ص١٦ مقالاً مترجماً عن مجلة SCIENCE فيه: «لو كانت كثافة الكون أكثر قليلاً لأصبحت الجسيمات الذرية تجذب بعضها بعضاً، ولانعدمت إمكانية نشوء النجوم والمجرّات، ولما وُجدنا نحن على وجه الحياة». انظر: سلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص١٩.

(٣) هي الشمس والكواكب التسعة التي تدور حولها وهي «عطارد، والزهرة، والأرض، والمريخ، والمشتري، وزحل، والقمر، وأورانس، ونبتون». انظر: معرفة الله، للمرابط بن محمد بن محمد الشنقيطي ص٦٤-٦٩، و: مع الله في السماء، لأحمد زكي، ص٤١، ص١٢١-١٤٦.

(٤) هي عبارة عن أجرام سماوية صغيرة في الحجم يقرب عددها من ثلاثة آلاف كوكب وهذه المجموعة توجد في منطقة وسطى بين المرّيخ والمشتري ا.هـ معرفة الله، للمرابط الشنقيطي ص ٦٩.

والنيازك[١]، تتحرك وتدور في السماوات، في دوران خاص بها، ودوران آخر عام يتبع المجرّات ويؤكدون أن مجرتنا التي يقع فيها نظامنا الشمسي تدور على محورها بحيث تكمل دورة واحدة في (٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠) مائتي مليون سنة ضوئية[٢].

**ويقولون أيضاً:** إن من النجوم والكواكب ما يسير بسرعة ثمانية أميال في الثانية، ومنها ما يسير بسرعة ثلاثة وثلاثين ميلاً في الثانية، ومنها ما يسير بسرعة أربعين ميلاً في الثانية، وجميع النجوم على هذا النحو من الحركة والسير، حيث تبتعد في كل ثانية بسرعة فائقة عن مكانها، وهذه الحركة المدهشة تحدث طبقاً لنظام وقواعد محكمة، بحيث لا يصطدم، بعضها ببعض[٣]، ولا يحدث اختلاف في سرعاتها[٤]...

ويرى علماء الفلك أنَّ مجرَّات النجوم يتداخل بعضها في بعض، فتدخل مجرَّة تشتمل على بلايين من السيارات المتحرِّكة، في مجرَّة أخرى مثلها (وتتحرّك

---

(١) الشهب والنيازك شيء واحد يراها الرائي في السماء كالأسهم النارية تظهر ثم تختفي، وتترك أثراً يلمع لثواني معينة، وقد يستمر لدقائق، والنيزة أو النيزك كلمة فارسية معناها الرمح القصيرة أو السهم أو النبل، من أجل هذا أطلقوها على الشهب لشبه بينهما.
انظر: مع الله في السماء، لأحمد زكي ص١٧٠.

(٢) الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص٥٦-٥٨.
و: مع الله في السماء، للدكتور أحمد زكي، ص ١٩٥.

(٣) لو قُدِّر اصطدام نجم معين بنجم آخر - على سبيل المثال - مع استحالة ذلك، فإن ذلك قد يحدث مرّة واحدة في كل (٦٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) ستمائة مليون مليون عام كما يقول علماء الفلك. انظر: المرجع السابق ص٢١٩.

(٤) روح الدين الإسلامي، لعفيف طبّارة ص٥٨.

سيارتها هي الأخرى»، ثم تخرج منها بسياراتها جميعاً، دون أن يحدث أيُّ تصادم[١] بين سيارات المجرّتين[٢] - كما هو متوقع - .

ويؤكّدون أن الشمس تسير بسرعة هائلة، وكذا القمر، وأيضاً الأرض وكذا بقية كواكب المجموعة الشمسية، - انظر الشكل (٣١) - .

فكل الكواكب والنجوم والمجرات تدور في أفلاك لها كما قال سبحانه: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس: ٤٠)، مختلفة الاتجاهات والمسارات - انظر الشكل (٣٢) - منها الذي ينزع عن مجراه ثم يعود إليه بعد حين، ومنها الذي يتخذ لنفسه مساراً حلزونياً شاذاً، ومنها الذي يجري هائجاً بسرعة هائلة، ومنها الذي يسبح في الكون بهدوء واتزان[٣]،... دون خلل يُصيبها أو عطل يعتريها.

---

(١) ويقول علماء الفلك: لو ارتطمت الشمس مثلاً بنجم آخر عندما يقترب منها فإنه حتماً ستنفجر وتتلاشى وتُبعثر أشلاؤها في أنحاء الفضاء... فتزول هي والكواكب السيارة التابعة لها والتي من بينها الأرض كل هذا في أقل من لمح البصر.اهـ. ولعل هذا يكون يوم القيامة كما تشير إليه بعض آيات القرآن والله أعلم.

انظر: وجود الله، للنشواتي ص٥٠

(٢) قارن هذا كله بسيارات البشر القليلة العدد الصغيرة الحجم، البطيئة السرعة التي يصطدم بعضها ببعض في اليوم الواحد آلاف المرات مخلّفة وراءها عشرات الآلاف من الضحايا.

(٣) معرفة الله، للمرابط الشنقيطي ص٧١-٧٢.

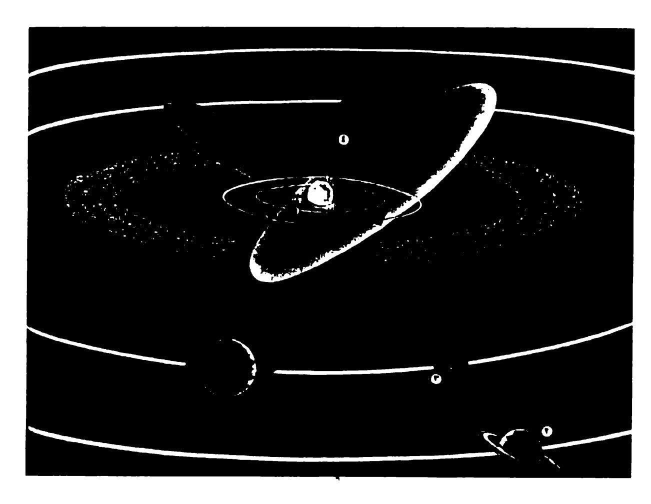
## شكل (٣١)

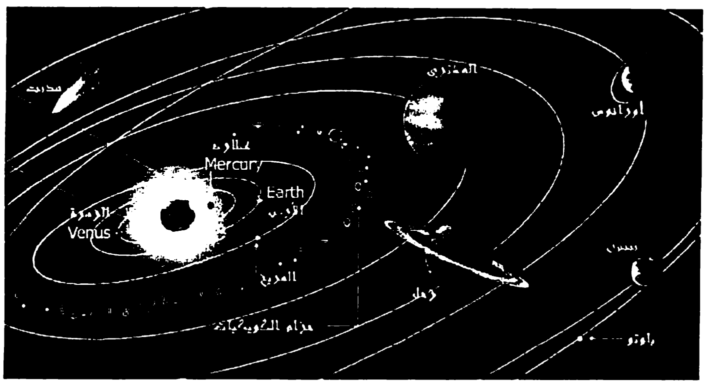



**المجموعة الشمسية**

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٣)

## شكل (٣٢)






**تداخل مدارات المجموعة الشمسية دون حدوث صدام بينها**

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ (الملك: ٣)

إنها في حركة دائبة، كما قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ (التكوير: ١٥، ١٦)، أي النجوم والكواكب التي تختفي وتظهر، فهي في جريان دائم ـ وإن كنا نرى هذه الأجرام الدائرة المتحركة ساكنة[١].

لا شك أن وراء هذا كله خالقاً مبدعاً مسيطراً على الكون بأجمعه، ولولا سيطرته هذه، وتسييره هذا لجميع ما في الكون من أجرام عظيمة، لاضطرب نظامه، وانهارت أجرامه.

وهذا ما شهد به عالم الفضاء الأمريكي البروفيسور كينغ آرم سترونغ، فعندما عُرضت عليه بعض آيات القرآن المتعلقة بسير الشمس والقمر[٢] بميزان دقيق وغيرها من الآيات[٣]، دُهش[٤]، وقال ما نصه:

---

(١) والواحد منا قد يستغرب لعدم إدراكه لهذه السرعات الهائلة لأجرام السماء كالشمس وكواكبها التي منها القمر، والسبب في ذلك هو بُعد هذه الأجرام عن الأرض، فحالنا كركّاب الطائرات الذين لا يشعرون بسرعتها التي تزيد على ٧٠٠كم/ س، بسبب بُعدها عن الأرض بمسافة لا تقل عن ٣٠.٠٠٠ قدم، فهم يرون الأرض ثابتة ويشعرون كأن الطائرة ثابتة رغم حركة وجريان الجميع.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ (الرحمن: ٥).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (ق: ٦).

وقوله تعالى: ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (الملك: ٣، ٤).

وقوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ (يس: ٣٧).

وقوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ (التكوير: ١٥، ١٦).

(٤) كان هذا في عام ١٩٧٩م في الرياض في مؤتمر الإعجاز العلمي القرآني.

«لا يمكن أن يكون هذا كلام إنسان قضى عمره في الصحراء - يقصد محمداً ﷺ - وقد مات قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة ... إن الدِّين الذي يقول مثل هذه الحقائق العلمية التي تتوافق مع أحدث اكتشافات العصر لابد وأنه دين حق، ولابد أيضاً أن يكون القرآن كلام مبدع هذا الكون، العالم العليم بكل أسراره... ودقائق معجزاته»[1]. وصدق الله في قوله: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (سبأ: ٦).

وكما أن للكون حركة دائمة منتظمة، فله أيضاً نظام دقيق، وموازين مدهشة لحفظه واستقراره، ويتضح هذا كثيراً من موقع المجموعة الشمسية من المجرَّة، وموازينها الدقيقة، حيث يذكر علماء الفلك أن مجموعتنا الشمسية تقع على أطراف مجرّتنا - درب التّبّانة - ذات الشكل الحلزوني، فهي تحتل موقعاً بين أذرع الحلزون، ولهذا الموقع أهمية كبرى في صلاح الأرض للحياة، يقول البروفيسور مايكل ديتون: «الحقيقة... التي تملك على المرء عقله هي تميز الكون.. من ناحية حاجاتنا البيولوجية[2]، لأنه يهيئ لنا الوسط الملائم لنشأة الحياة.. والعامل المهم.. هو وقوع مجموعتنا الشمسية مجاورة لأحد أذرع مجرتنا..»[3]. فنحن في أكثر الأماكن من الكون أمناً وصيانة،... ومجموعتنا الشمسية بعيدة عن تأثير ومضاعفات الانفجارات التي تقع في المستعمرات العملاقة «Super nova»[4] - انظر الشكل (٣٣) - .

---

(١) وجود الله، للنشواتي ص٥٢، ٦٠.

(٢) أي المتعلقة بالحياة.

(٣) سلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص٥٢.

(٤) نفسه ص٥٣-٥٤.

**يقول العلمـاء:**

إن من أهم الساحات التي تظهر فيها الموازين والنظم الدقيقة في الكون هي المجموعة الشمسية، التي توجد ضمنها أرضنا، وإن النظام الدقيق الموجود في هذه المجموعة بجميع كواكبها الصغيرة والكبيرة هو الذي مكّنها من الاستمرار طوال أربعة مليارات سنة.

**ويقولون:**

إن الكوكب الوحيد الذي يحتوي على غلاف جوّي وسطح ملائم للحياة هو بلا شك كوكب الأرض[1].

والعامل الذي يحمي هذه الكواكب ـ أي كواكب المجموعة الشمسية ـ من تشتتها في الفضاء هو التوازن الموجود بين قوة جذب الشمس والقوة الطاردة المركزية للكواكب ولو كانت سرعة دوران الكواكب ـ ومنها كوكب الأرض ـ أقل مما هي عليه الآن لانجذبت كلياً نحو الشمس، وابتلعتها الشمس مع انفجار كبير يحدث نتيجة البلع، ولو افترضنا العكس، أي لو كانت سرعة دوران الكواكب أكبر مما هي عليه، عندئذ لن تكفي قوة الجذب الخاصّة بالشمس لمسك الكواكب في مداراتها، وبذلك تتشتت هذه الكواكب في الفضاء ـ ومنها كوكبنا الأرض ـ إلا أن الواقع أن هناك توازناً بين القوتين، يستند إلى دقة فائقة تستمر بموجبها المجموعة الشمسية في البقاء إن هذا التوازن موجود لدى كل كوكب على حدة، وسبب ذلك اختلاف الكواكب من ناحية بعدها عن الشمس، وكذلك اختلافها من ناحية كتلتها.

---

(١) سأشرح ذلك بالتفصيل في ما يلي من فقرات قادمة.

## شكل (٣٣)



المجموعة الشمسية في ذراع من أذرع مجرة درب التبانة ليتحقق لها الأمان وصلاح الحياة على الأرض كما أراد الله تعالى .

المجموعة الشمسية مكبّرة داخل المجرة

موقع المجموعة الشمسية داخل المجرة

لقد أثبتت الأبحاث الفلكية أن وجود الكواكب الأخرى في مجموعتنا الشمسية يشكل عاملاً مهماً جداً في وجود الأرض في مدارها وثباتها واستقرارها[1].

وعلى سبيل المثال كوكب المشتري يعتبر الأكبر من ناحية الكتلة، ويُعتبر وجوده مهمّاً لحفظ توازن الأرض في حركتها.

«وهناك فائدة أخرى ـ مهمة جداً ـ متعلقة بكوكب المشتري[2]، فلولاه[3] لاصطدمت ملايين المذنبات والشهب والنيازك بالأرض، فهو بكتلته العظيمة يشكِّل مجالاً مغناطيسياً قوياً يستطيع أن يجعل النيازك والمذنّبات تنحرف عن مسارها المتجه نحو الأرض... ـ انظر الشكل (٣٤) ـ.

---

(١) ذكر أحمد زكي في كتابه (مع الله في السماء) ص١٢٩ نسبة تقديرية لأبعاد الكواكب عن الشمس وأحجامها، وضّحها بالعبارة التالية:
«الشمس كرة كبيرة تحملها بين يديك، قطرها ٨٦ سم ـ أي أقل من متر ـ .. وعلى بُعد ٣٦متراً من هذه الكرة ـ الشمس ـ توجد حبة عدس هي عطارد، وعلى بُعد ٦٧ متراً من الكرة توجد حبة فول صغيرة هي الزهرة، وعلى بُعد ٩٣ متراً من الكرة توجد حبة فول أخرى أكبر قليلاً من الأولى هي الأرض، وعلى بُعد ١٤٢ متراً من الكرة توجد حبة سمسم هي المريخ، وعلى بُعد ٤٨٢ متراً من الكرة توجد حبة برتقالة هي المشتري، ثم برتقالة أصغر على بُعد ٨٨٦ متراً هي زحل، ثم ليمونة على بُعد ١٧٧٢ متراً هي أورانس... إلخ».

(٢) وهناك كواكب شبيهة بالمشتري في العديد من المجموعات النجمية الأخرى، إلا أن هذه الكواكب تختلف في أنها لا تشكل عاملاً لحفظ التوازن للمجموعات النجمية التي تنتمي إليها، فضلاً عن عدم كونها ذات تأثير على شقيقاتها من باقي كواكب تلك المجموعات النجمية..

(٣) هكذا في الأصل (فلولاه) والأصح شرعاً فلولا أن الله سخّره.

إن الكتل الخاصّة بالكواكب ومداراتها حول الشمس هي المعطيات المثالية المسبِّبة لهذا التوازن العجيب في مسار المجموعة الشمسية منذ مليارات السنين، وأيُّ تغيير في هذه المعطيات مهما كان طفيفاً يؤدّي حتماً إلى انعدام وجودها، وبالتالي انعدام وجود البشرية[١]...

**وملخَّص القول:**

إنَّ بناء هذه المجموعة الشمسية قد صُمِّم بشكل خاص ودقيق وخارق للعادة، لكي يكون ملائماً لحياة الإنسان»[٢].

وهذا ما عبَّر الله عنه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل: ١٢).

---

(١) قارن هذا كله بقوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ (الانشقاق: ١-٤).

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ (التكوير: ١-١١).

وقوله: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ (الانفطار: ١-٤).

(٢) سلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص٥٢-٥٧ باختصار.

## شكل (٣٤)


المشتري
الأرض
يمثل كوكب المشتري درعاً واقياً للحياة على كوكب
الأرض. ويؤدي كوكب المشتري هذه المهمة الخطيرة عن
طريق كتلته الضخمة وعن طريق مجاله المغناطيسي القوي،
ويحول هذا الكوكب الضخم دون سقوط الآلاف من
النيازك على كوكب الأرض والتي يؤدي سقوطها حتماً
إلى هلاك البشرية.

وبسبب هذا الإعجاز الدقيق في خلق الكون لم يملك بعض علمائه الماديين إلا الاعتراف بأنه قائم على عناية ورعاية سبقتها إرادة وقدرة وعلم، وهذا كله يدل على وجود رب مدبِّر له ومصرِّف لشئونه، حيث قال بول ديفيس:

«من الصعوبة أن نعارض فكرة وجود الكون بشكله الحالي بواسطة قوة... دقيقة،... وإن الموازين العددية الحسَّاسة التي تتصف بها الطبيعة في أركانها كافَّة تعتبر دليلاً قوياً على أن ثمَّة تصميماً خارقاً لهذا الوجود»[1].

... وبعد أن ذكرتُ شيئاً من الحقائق العلمية عن خلق الكون وسعته، وعظمة ما فيه، أقول:

لقد مثَّلت الحقائق السابق ذكرها تفسيراً علميّاً دقيقاً لمعنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (الذاريات: ٤٧) فلا عجب بعدها أن يقسم الله بالسماء في أكثر من موضع[2]، ويقسم أيضاً بمواقع النجوم في السماوات العُلى على صدق آياته القرآنية المشيرة إلى آياته الكونية، والداعية للتفكر فيها قائلاً: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ (الواقعة: ٧٥)، ومؤكداً على عظمة هذا الأمر بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (الواقعة: ٧٦).

---

(١) سلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص٢١. نقلاً عن: GOD AND THE NEW PHYSICS PAVL DAVIES

بمعنى: الرب والفيزياء الحديثة لـ(بول ديفيس)، سايمون وشوستر، ١٩٨٣م، نيويورك ص ١٨٩.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ (الذاريات: ٧).

ومعنى الحبك الخَلْق الحَسَن. وقيل الزينة، وقيل الطرائق، وقيل النجوم. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٥/ ١١٠. و: المفردات، للراغب ص١٠٦.

وقوله سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ (البروج: ١).

فهو قسم عظيم كون المقسِم هو الله العظيم، وعظيم كون المقسَم عليه هو القرآن العظيم، وعظيم كون المقسَم به هي مخلوقات عظيمة جداً في مواقعها البعيدة(١)، وأحجامها الكبيرة(٢)، ودقة موازينها، وهي عظيمة في المسافات بينها(٣)، وعظيمة في سرعاتها، وعظيمة في أعدادها، وعظيمة في وهجها ونارها(٤)، وعظمة انهيارها يوم زوالها.

---

(١) يقول علماء الفلك المعاصرون: عندما تكون السماء صافية، يمكن أن نعد بالعين المجرَّدة (٥٠٠٠) خمسة آلاف نجم وكوكب مما فيها تقريباً، ويمكن أن نعدّ منها (٢.٠٠٠.٠٠٠) اثنين مليون بالتسلكوبات العادية، وأكثر من (١٥.٠٠٠.٠٠٠) خمسة عشر مليوناً بأجهزة الرصد الحديثة. وهذا على افتراض ثباتها وعدم جريانها. انظر: الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان، ص٥٧. و: معرفة الله، للمرابط الشنقيطي، ص٥٦.

(٢) لمعرفة أحجام المجموعة الشمسية وكتلها انظر: مع الله في السماء، لأحمد زكي ص١٢٧، وما بعدها. وسلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص٢٢ وما بعدها.

(٣) لو صغّرنا المسافة بين الشمس والأرض بنسبة معينة حتى أصبحت تساوي (٢٨٠) مائتين وثمانين متراً مثلاً، فستكون المسافة في الجهة المقابلة بين الشمس وأقرب نجم إليها ويسمَّى نجم الفاسنتوري (٧٨.٠٠٠) ثمانية وسبعين ألف كم بناءً على النسبة التصغيرية.
وللعلم أن هذا النجم هو أقرب النجوم إلى الأرض بعد الشمس، وفي مجرتنا فقط (مجرة درب التبانة) أكثر من مائتين وخمسين بليون نجم متوهِّج على التقدير وليس الحصر والعد.
ولو جعلنا الأرض بحجم ذرَّة غبار فستكون الشمس بحجم ثمرة الجوز، وتكون المسافة حينها بين الشمس والأرض ٣ متر، والمسافة بينها وبين نجم الفاسنتوري (٦٤٠) ستمائة وأربعين كيلومتراً... وبنفس المسافات الشاسعة جداً تقع بقية نجوم درب التبانة التي عددها (٢٥٠) بليون نجم، وهذه المجرة صغيرة جداً بالمقارنة مع حجم الكون الذي قدّر العلماء عدد مجرّاته بأكثر من ٢٠٠ بليون مجرّة... والمسافات بينها أكبر من المسافة بين الشمس والفاسنتوري بملايين المرات أ.هـ. انظر: سلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص٢٢.

(٤) من النجوم ما يعطي من الضوء (٥٠٠.٠٠٠) خمسمائة ألف مرة من مثل ما تعطي الشمس، ويُشع في الدقيقة الواحدة ما تشعه الشمس في عام، ولو حلَّ أحد هذه النجوم محل الشمس لانصهرت الأرض وتبخّرت هي وكل ما عليها. انظر: مع الله في السماء، لأحمد زكي ص١٧٨.

## ثانياً: من آيات الله السماوية[1]:

لله آيات في خلق السماوات وبنائها وحبكها، وسعتها، وتزيينها بالكواكب والنجوم، وله آيات في بروجها وإمساكها ورفعها بغير عمد، وجعْلها سقفاً محفوظاً، وله آيات في شمسها وقمرها وما ينتج عنهما من ليل ونهار وحر وبرد وظلال، وله سبحانه آيات في جعل السماوات سبعاً شداداً وطباقاً، وآيات في نظامها وفتقها، كما أنَّ له آيات في رياحها وسحبها وأمطارها، وآيات أخرى في رعودها وصواعقها وبروقها، وغير ذلك من الآيات، ومن هنا أمر الله بإرجاع

---

(١) لفظ السماء يُطلق على عدة معان... يجمعها ويربط بينها: العلو، والسماء مشتقة من السمو، السين والميم والواو يدل على أصل العلو، يقال: سموت إذا علوت، والعرب تُسمي السحاب سماءً، والمطر سماء، وكذلك سقف البيت، وكل عال مرتفع مطل فهو سماء حتى يقال لظهر الفرس سماء، ويتوسَّعون حتى يسموا النبات سماءً، انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٣/ ٩٨، مادة سمو.. وقد ورد لفظ السماء في القرآن بالمعاني السابقة، فتارة يطلق على:

أ ـ السحاب، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ (النحل: ٦٥).

ب ـ المطر، قال تعالى: ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ (نوح: ١١).

ج ـ سقف البيت، قال تعالى لكل من كان يعتقد أن الله لن ينصر رسوله محمداً ﷺ ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ (الحج: ١٥)، والسبب هو الحبل.

د ـ مطلق العلو، قال تعالى عن حال الكافر وضيق صدره بسبب كفره ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، ومن إطلاقه على جهة العلو قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ (البقرة: ٢٩).

وقد أُطلق لفظ السماء في القرآن مفرداً في أكثر الآيات المتحدثة عن نزول الأمطار للإشارة إلى أنها تأتي من السماء الدنيا القريبة للأرض، وأطلق لفظ السماوات على الخلق العظيم ذي السبع الطباق.

البصر وتكرار النظر في السماوات السبع لاستجلاء آياته فيها، والتأكد من عظمة خلقها، ودقة إبداعها وإحكامها، فقال سبحانه ـ بعد أن مجّد نفسه بقوله: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الملك: ١) وبعد ذكره للحكمة من خلق الموت والحياة ـ قال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ[1] فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا[2] وَهُوَ حَسِيرٌ[3] ۝ ﴾ (الملك: ٣، ٤).

وحقيقة إنه عندما رجّع علماء الفلَك أبصارهم في خلق السماوات، ومجرّاتها، ودقّة نظامها، اكتشفوا وكشفوا لنا كثيراً من آيات الله فيها، ومن ذلك ما يلي:

### أ ـ بناء السماء وحفظها:

كثيراً ما يأتي في كتاب الله الحديث عن السماء...، والدعوة إلى التفكر فيها، من ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (ق: ٦) وغيرها من الآيات[4] التي اعتبر الله فيها السماء بناء عظيماً وأشار إلى وجود ترابط وتماسك بين أجزائها[5].

---

(١) تفاوت: أي اختلاف أو تباين، أو نقص أو عيب أو خلل. انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٦/ ٢٣٥.

(٢) خاسئاً وهو حسير: أي ذليلاً صاغراً عن أن يرى نقصاً أو خللاً في السماوات.

(٣) وهو حسير: أي متعب كليل، المرجع السابق.

(٤) كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ (الغاشية: ١٧، ١٨).

(٥) قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ (غافر: ٥٧).

وقال: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ (النازعات: ٢٧، ٢٨).

وقال: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ (النبأ: ١٢).

وهذا ما أكّده علماء الفضاء المعاصرون حيث قالوا: بوجود تجاذب بين أجرام السماء، وأنه لو اختلّ جُرم منها لاختلّت بقية الأجرام.

وأكّدوا أن الحركة والجاذبية تملآن الكون الفسيح، وتشملان كلَّ ما فيه...

وأن السماء محفوظة وحافظة ـ بإذن الله ـ.

وأنه بسبب قوّة الجاذبة للكتل والأجرام العظيمة الموجودة فيها كان هذا التماسك بين أجرامها.

هذا ما قاله علماء الفَلَك باختصار.

وقد جاء ذكر ذلك في القرآن الكريم قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾ (فاطر: ٤١).

وقوله عز وجل: ﴿ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ ﴾ (الحج: ٦٥).

وقوله: ﴿ رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ﴾[١].

وقوله: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ﴾ (الروم: ٢٥).

لقد ثبت لعلماء الفضاء أن الأرض وكل النجوم والكواكب معلّقة في السماء، ممسوكة بقوى خفية، سمّوها ـ كما أسلفنا ـ قوى الجاذبية[٢]، وثبت لهم أيضاً أن

(١) الرعد: ٢، ونحوها في لقمان: ١٠.

(٢) مع الله في السماء، لأحمد زكي ص ٤٩.

الغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض من كل جهة[1]، له وظائف ضرورية لاستمرارية الحياة، منها أنه:

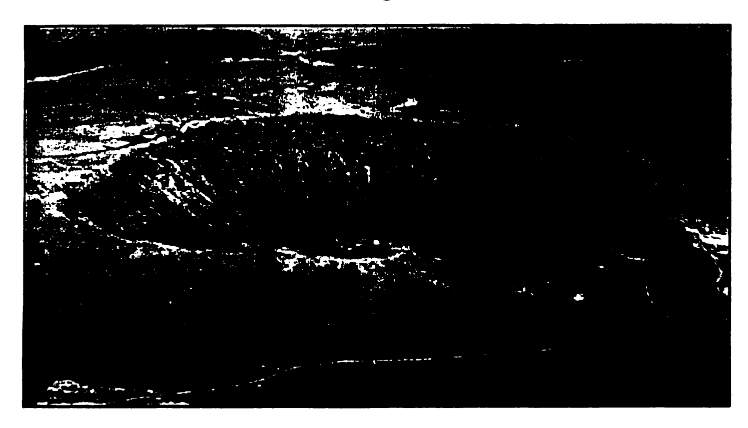
١ ـ يقوم بتدمير العديد من النيازك الصغيرة والكبيرة الجارية في الفضاء والمتجهة إلى الأرض، ويمنعها من السقوط على سطح الأرض وإيذاء الكائنات الحيَّة، رغم أن سرعتها في الفضاء تصل إلى ١٥٠ ميل في الثانية، أي بسرعة ثمانمائة وأربعة وستين ألف كيلو متر في الساعة، وهذه تعادل سرعة الطائرات المدنية ألف مرة تقريباً، ولو قُدِّر لهذه الشهب والنيازك الوصول لسطح الأرض لأحدثت انفجاراً ودماراً هائلاً.

إن الغلاف الجوي يقوم بتهدئة سرعتها حتى تذهب أو تكاد، وقد تحترق فتصبح رماداً قبل أن تصل إلى الأرض، وقد تصل منها بقية تصغر أو تكبر ـ انظر على سبيل المثال شكل (٣٥) ـ.

---

(١) الغلاف الجوي هو كتلة من الغازات تحيط بالكرة الأرضية تمتد من مستوى سطح البحر إلى (١٨) ألف ميل إلا أن ٩٩٪ من هذه الكتلة موجودة في الأميال الخمسين الدنيا، ووزن الغلاف الجوي حوالي ٥ آلاف مليون مليون طن، يُسلَّط على رؤوسنا منه حوالي ١٥ باوند (رطل) لكل بوصة مربَّعة، والرطل يساوي (٤٥٣) جرام.
انظر: علم الإيمان، للزنداني ١/ ٧٧.
و: وجود الله، للنشواتي ص٧٠ نقلاً عن.
Johnathan Weiner, Planet Earth, Bentam Books, USA 1986, p.93

شكل (٣٥)



موقع نيزك سقط على الأرض في صحراء أريزونا
الأمريكية، يبلغ قطره حوالي ١٢٠٠ متر، وعمقه حوالي
٦٠٠ قدم، ويقدر وزنه بـ(خمسين ألف طن).
قد يعود عهده إلى أكثر من عشرة آلاف سنة

وبما أن الأرض تمر بمدارات ملايين الشهب والنيازك أثناء حركتها في الفضاء، فمعنى هذا أنها معرَّضة لسقوط الملايين منها عليها، ومع ذلك فقد حُفظت الأرض من هذا كله إلا النادر[١].

٢ ـ يعمل كمرآة عاكسة، ويقوم بمنع الإشعاعات الضارة الآتية من الشمس، ولا يسمح إلا للإشعاعات النافعة، مثل الضوء المرئي، والأشعة فوق البنفسجية، وموجات الراديو[٢]، وكل هذه الإشعاعات أساسية للحياة[٣].

لقد تبين لعلماء الفضاء أن الغلاف الجوي يُصفِّي شعاع الضوء الآتي من الفضاء، ويرُّد المؤذي للكائنات الحية ـ انظر الشكل (٣٦) ـ.

يقول العالِم شيفَّر (Schaeffer) عن إشعاعات الشمس القاتلة: وكما تعلّمنا من الكيمياء النووية، ومن دراسة التأثيرات الإشعاعية المختلفة على الجسم البشري، فإن هذه الإشعاعات كافية لو تسنَّى لها الوصول إلى سطح الأرض لأن تدمِّر كل شيء عليها خلال ثانية واحدة... أما إذا كان التعرض الإشعاعي

---

(١) في ٣٠ يونيو [حزيران] عام ١٩٠٨م سقط نيزك في منطقة المستنقعات النائية في شمال سيبيريا الروسية فدمَّر غابات نهر تانجوسكا، ورمى بأشجارها لمسافة ٨٠كم بعيداً عن مواطنها، وتهشمت المدن التي تبعد عن مكان السقوط بـ٢٠٠ كم، وحُجب قرص الشمس بضعة أيام بسبب السحابة القاتمة الناتجة عن انطلاق الدخان والنار على إثر الانفجار، كما تحوّلت غابات المنطقة وجميع ما عليها من بشر وحيوان وجماد إلى جثث وأطلال متفحِّمة، وخرج الماء من باطن الأرض على شكل اندفاعات ونافورات ساخنة مصحوبة بالحمم البركانية المدمِّرة، وذاب الجليد القطبي وأحدث طوفانات هائلة. انظر: وجود الله، للنشواتي ص٦٦.

(٢) المعجزات القرآنية، لهارون يحيى ص٢٢-٢٣.

(٣) فالأشعة فوق البنفسجية التي يُسمح بمرورها بشكل جزئي فقط عبر الغلاف الجوي ضرورية جداً لعملية التمثيل الضوئي في النباتات، ولبقاء الكائنات الحية على قيد الحياة.

محدوداً فإنه سيُهتّك خلايا الجسم البشري، وسيؤدي إلى حروقات، وتقرُّحات مؤلمة، ويتسبَّب في ظهور العديد من السرطانات، كسرطان الجلد والدم والخِصيتين، والأمعاء والعظام وغيرها، هذا عدا عن التشوهات الجنينية التي ستكثر مشاهدتها إذا استمر تعرض سكان الأرض لهذه الأشعة الكونية الفتاكة[1].

٣ ـ يحتفظ بالأكسجين اللازم لبقاء الإنسان والحيوان حتى لا يتسرب إلى الفضاء، فتنعدم الحياة.

٤ ـ يحمي الأرض من برد الفضاء المجمَّد الذي يصل إلى ٢٧٠ درجة مئوية تحت الصفر[2].

هذه بعض وظائف الغلاف الجوي، وهو جزء من السماء الدنيا التي وصفها الله في قول جامع لوظائفها بقوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٢)، لم يجعلها سقفاً محفوظاً بالغلاف الجوي فقط، بل جعلها كذلك بأمور أخرى منها:

**أ ـ الأحزمة المغناطيسية المحيطة بالأرض:**

فقد اكتشف العلماء وجود حزمتين مغناطيسيتين، الأولى على ارتفاع ثلاثة آلاف ومائتين كيلومتر، والأخرى على ارتفاع ستة عشر ألف كيلو متر، تُعرفان بحزامي «فان ألين» (Van Allen)، تقومان بحماية الأرض من الأشعة الكونية التي تحمل جسيمات ذرِّية فتّاكة، وتغيير اتجاهها[3].

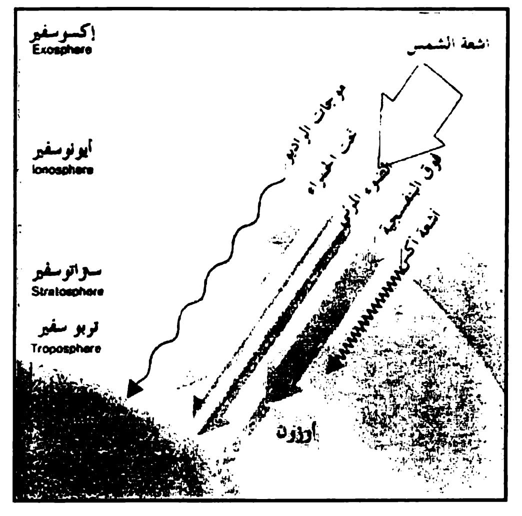
---

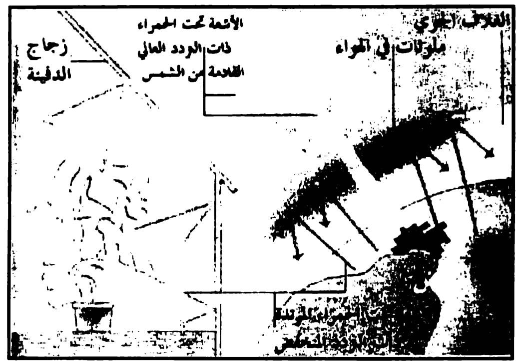
(١) وجود الله، للنشواتي ص٧٠ بتصرف يسير.

(٢) نفسه ص٧١. والمعجزات القرآنية، لهارون يحيى ص٢٢.

(٣) علم الإيمان، للزنداني ١/ ٨٤. وهو بدوره نقلاً عن:
Wallen, Introdution to phyical Gcography, USA, Win Cbrown publishers, 1992, p59

## شكل (٣٦)




خلق الله الغلاف الجوي بصورة تجعله يسمح

للإشعاعات النافعة بالوصول إلى الأرض،

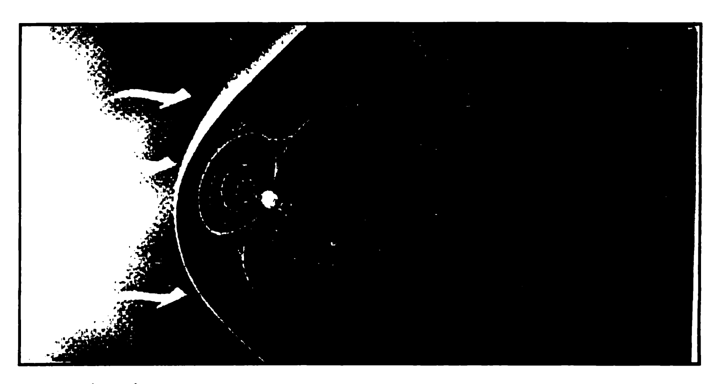
ويرد الإشعاعات الضارة القادمة من الشمس.

يقول علماء الفلك: إن حزام «فان ألن» ـ هو عبارة عن طبقة ناتجة عن حقول الأرض المغناطيسية ـ ... يشكل درعاً واقياً من الإشعاعات الضارة التي تهدد كوكبنا، كالإشعاعات التي تصدر عن الشمس وغيرها من النجوم باستمرار، فهي مميتة للكائنات الحية، ولولا وجود حزام[1] «فان ألن» لكانت الانفجارات العظيمة للطاقة المسماة التماوجات أو الانفجارات الشمسية «التي تحدث بشكل دائم في الشمس» قد دمّرت الأرض.. ويقول أحد الأخصائيين في هذا المجال وهو: د/ هوغ روس: «... ولو لم يكن هذا الدرع موجوداً لما كانت الحياة ممكنة على سطح الأرض، ولا يملك مثل هذا الدرع سوى الأرض، وكوكب المرّيخ الصخري فقط، ولكن قوة حقله المغناطيسي أقل بمائة مرّة من قوّة حقل الأرض المغناطيسي... إن درع «فان ألن» الإشعاعي هو تصميم فريد خاص بالأرض»[2] ـ انظر الشكل (٣٧) ـ .

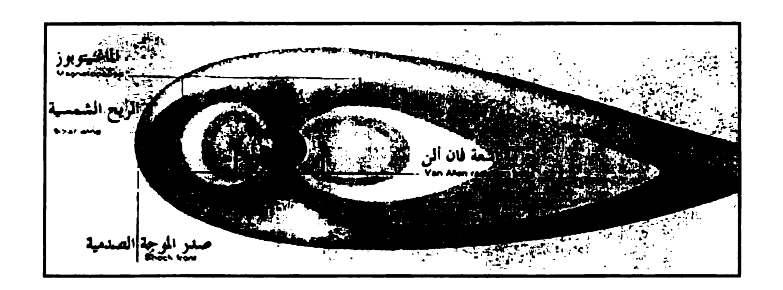
(١) هكذا في الأصل، والصحيح: لولا أن الله سخّر هذا الحزام المسمّى بحزام «فان ألن...».

(٢) المعجزات القرآنية، لهارون يحيى ص٢٥.

## شكل (٣٧)



طبقة الماغناتوسفير تتشكل من حقول الأرض المغناطيسية، وتشكل درعاً واقياً للأرض من الأجرام السماوية والأشعة الكونية القاتلة والجزيئات الضارة... ويشكل حزام (فان ألن) مع هذه الطبقة التي تعلو الأرض بمسافة آلاف الكيلومترات حصناً حصيناً للأرض وما عليها من كائنات حية من الطاقة القاتلة التي قد تصلها من الفضاء.




حزام (فان أَلِن) (يحيط بالكرة الأرضية ويحفظها من كثير من الإشعاعات الضارة)

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٢)

ب ـ السحاب المعلَّق بين السماء والأرض، فقد اكتشف العلماء أنه سبب رئيسي في منع معظم الأشعة الحرارية، طويلة الموجة (تحت الحمراء) من الخروج من جوِّ الأرض، فحُفِظت بذلك من البرد الشديد، وحُفظت حرارتها[1].

عموماً لقد أشار الله عز وجل إلى بعض وظائف الغلاف الجوي وما فيه حيث أقسم بالسماء قائلاً: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴾ (الطارق: ١١) وللآية عدة تفاسير، وهي في مجموعها تشير إلى الإرجاع[2] وتحمل معنى الإرسال[3]، وكلها تنطبق على ما سبق شرحه، ويزيد علماء الفلك قائلين: إن الغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض مكوَّن من عدة طبقات، وكل طبقة لها وظيفتها في إعادة الإشعاعات الضارة ـ التي تتعرض لها ـ إلى الفضاء، أو إرسالها إلى الأرض، وعلى سبيل المثال:

طبقة التروبوسفير (١٣-١٥) كم فوق الأرض، مهيأة لصعود بخار الماء من سطح الأرض، وتكثفه ثم رجوعه مطراً بقدرة الله سبحانه.

وطبقة الأوزون سفير التي تقع على ارتفاع ٢٥ كيلومتراً تعكس الإشعاعات الضارّة، والأشعة فوق البنفسجية الآتية من الفضاء، وتُرجعها إليه.

وطبقة الإينوسفير تعكس موجات الراديو التي تُبث من الأرض، وتُرجعها إلى مناطق مختلفة من العالم، تماماً مثل الأقمار الصناعية[4] ـ انظر الشكل(٣٨).

---

(١) علم الإيمان، للزنداني ١/ ٧٩.

(٢) انظر على سبيل المثال: فتح القدير، للشوكاني ٥/ ٥٦١.

(٣) وهناك من فسّر الرجع بالمطر، انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٦/ ٤٠١.

(٤) أما طبقات الماغنو سفير فإنها تُعيد جُزئيات الإشعاعات النووية التي تصدر عن الشمس وغيرها من النجوم إلى الفضاء قبل أن تصل إلى الأرض.ا.هـ. انظر: المعجزات القرآنية، لهارون يحيى ص٢٦.

## شكل (٣٨)




طبقة التربوسفير (إحدى طبقات الغلاف الجوي) تمكّن بخار الماء الصاعد من سطح الأرض من التكثف والعودة مرة أخرى إليها على شكل أمطار بأمر الله.

طبقة الأوزون في الغلاف الجوي تحجب عن الأرض الأشعة التي قد تدمر الحياة عليها بإعادة الإشعاعات الضارة إلى الفضاء كالأشعة فوق البنفسجية ... وغيرها.

طبقة الأيونوسفير تعكس موجات الراديو وغيرها من الموجات التي تُبثُّ من مراكز الأرض وتسمح بذلك بوصول البث إلى مسافات بعيدة.

طبقات الغلاف الجوي وإسهاماتها في الحفاظ على الحياة في الأرض وقضاء حاجة الخلق.

**ب ـ شمس السماء وقمرها:**

يؤكِّد علماء الفلك أن الكون كله في ظلام دامس، وأن النهار ليس سوى مرحلة أو حالة مؤقتة، تتكررَّ كل يوم على أرضنا، وما شاكلها من كواكب المجموعة الشمسية وغيرها، فلو خرجنا خارج الغلاف الجوِّي المحيط بالكرة الأرضية بعيداً عن الأرض، فسنجد السماوات غارقة في ليل بهيم ـ انظر الشكل رقم (٣٩) ـ رغم وجود الشمس، وبما أن هذا الغلاف محيط بالأرض من كل مكان فإنه يحجب عنا ظلام الكون، فلا نراه أثناء النهار الأرضي، لأنَّه يعمل على تشتيت أشعة الشمس حول الأرض فيكون الضوء والنهار، ويعتقد علماء الفلك أن الليل يشكِّل نسبة ٩٠٪ من الكون الفسيح، وقد أثبتوا هذا بعد غزو الفضاء الخارجي، حيث شاهد رُوَّاد الفضاء الأرضَ، وبقية الكواكب التابعة للمجموعة الشمسية مضاءة في وضح النهار، بينما السماوات من حولها غارقة في ظلام دامس ـ رغم امتلاء الكون بملايين النجوم المتلألئة المتوهِّجة، والأقمار المضيئة المنيرة، لكنها ليست سوى مصابيح لزينة السماوات كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ (الملك: ٥).

ولقد أشار القرآن الكريم إلى أنَّ الأصل في الكون هو السواد الحالك، وأن النهار إنما هو استثناء، واعتبر ذلك دليلاً على وجود الصانع وقدرته التامة.

## شكل (٣٩)







الأرض كما تبدو معلقة في السماء في ظلمات بهيمة

قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ (يس: ٣٧)

قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ (يس: ٣٧) قال ابن عاشور: «والسلخ: إزالة الجلد عن حيوانه،... فمفعول (نسلخ) هنا هو (النهار)...، وعُدِّي السلخ إلى ضمير (الليل) بـ(مِن) فصار المعنى: الليل آية لهم في حال إزالة غشاء النهار عنه، فيبقى عليهم الليل، فشبَّه النهار بجلد الشاة ونحوها يُغطِّي ما تحته منها، كما يغطِّي النهار ظلمة الليل في الصباح، وشبَّه كشف النهار وإزالته بسلخ الجلد عن نحو الشاة، فصار الليل بمنزلة جسم الحيوان المسلوخ منه جلده، وليس الليل المقصود بالتشبيه، وإنما المقصود تشبيه زوال النهار عنه فاستتبع ذلك أن الليل يبقى شبه الجسم المسلوخ عنه جلده، ووجه ذلك أن الظلمة هي الحالة السابقة للعوالم قبل خلق النور في الأجسام النيِّرة لأن الظلمة عدم والنور وجود، وكانت الموجودات في ظلمة قبل أن يخلق الله الكواكب النيرة، والسراجات المنيرة، ويوصِّل نورها إلى الأجسام التي تستقبلها كالأرض والقمر... »[1].

وهكذا خلَق الله الشمس وجعلها كما قال: ﴿ سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ (النبأ: ١٣) ومعها ما أشار إليه بقوله سبحانه: ﴿ وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ (الفرقان: ٦١) وجعلهما في السماء، وجعل فيهما آيات عظيمة، كشف علماء الفلَك عن كثير منها، ومن ذلك قولهم عن الشمس: إنها عبارة عن كرة ضخمة من غازات متَّقدة متوهِّجة من

---

(١) وأكمل ابن عاشور قائلاً: «وإذا كانت الظلمة هي الحالة الأصلية للموجودات فليس يلزم أن تكون أصلية للأرض، لأن الظاهر أن الأرض انفصلت عن الشمس نيِّرة، وإنما ظلمة نصف الكرة الأرضية إذا غشيها نور الشمس معتبرةً كالجسم الذي غشيه جلده، فإذا أُزيل النور عادت الظلمة، فشبه ذلك بسلخ الجلد عن الحيوان».أ.هـ.
التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٢٩ باختصار.

النيران، أهمها غاز الهيدروجين المشتعل، الذي تكثَّف على ذاته، فبدأت بداخلها عمليات هائلة من الاندماج النووي، وهي نجم متوسط، قطرها نحو من (١.٣٩٢.٠٠٠)كم، مليون وثلاثمائة واثنين وتسعين ألف كيلومتر، ولو أننا صففنا على هذا القطر كرات ـ ككرتنا الأرضية ـ لبلغ عددها (١٠٩) مائة وتسع كرات، ولو أننا جمعنا من هذه الكرات لنبلغ بأحجامها حجماً مثل الشمس لجمعنا نحو (١.٠٠٠.٠٠٠) مليون كرة[١]، ... ولو كانت الشمس كوكباً كالأرض، لكان لها ما للأرض من الصيف والشتاء ـ لكنها نور ونار ـ ... وكتلتها ألفا مليون مليون طن، ومحيطها أكبر من محيط الأرض بـ(٣٢٥) مرَّة، وثقلها يُقَّدر بـ(٣٣٢.٩٥٠) أي ثلاثمائة واثنين وثلاثين ألف، وتسعمائة وخمسين مرَّة مقارنة بالأرض.

وتبعد عن الأرض بمسافة قدرها (٩٣.٠٠٠.٠٠٠) ثلاثة وتسعين مليون ميل، ويقول العلماء: إن شمسنا هذه هي النجم الوحيد الصالح لتحقيق حياة الإنسان على الأرض من بين ملايين الشموس غير الصالحة للحياة[٢].

وتبلغ درجة حرارة سطح الشمس ٦١٠٠°م[٣]، ودرجة حرارة ألسنة اللهب الممتدَّة منها تصل إلى مليون درجة مئوية، وتندلع إلى ارتفاع نصف مليون كم ـ انظر الشكل (٤٠) ـ.

---

(١) وفي كتاب الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص٥٧ أن الشمس أكبر من الأرض بمليون ومائتي ألف مرة.

(٢) انظر: العلم يدعو للإيمان، لكريسي موريسون ص٥٦.

(٣) لاحظ أن درجة غليان الماء تساوي ١٠٠ درجة مئوية.

## شكل (٤٠)



ألسنة لهب الشمس التي تندلع إلى مسافة نصف مليون كيلومتر تقريباً

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ (النبأ: ١٣)

وتزداد درجة حرارتها في اتجاه مركز الشمس، لتصل إلى حوالي ١٥ مليون درجة مئوية، ولها مجال مغناطيسي يجذب ما حوله، يمتد إلى ما بعد حدود المجموعة الشمسية ...، وهي تفقد من كتلتها في كل ثانية ما يعادل ٤.٦ مليون طن من المادة على هيئة طاقة[١].. وهي تدور بسرعة هائلة حول نفسها[٢]، وحول مركز مجرّة درب التبَّانة، ومع المجرَّة نفسها.. ومع حركة التوسع العام للكون، قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (يس: ٣٨) وهي تعطي من الطاقة في اليوم الواحد ما يعادل (٤٨٠) سنة من الاستهلاك العالمي للكهرباء، أي أنه في كل ثلاث دقائق تعطى ما يعادل استهلاك العالم من الكهرباء في السنة[٣]، ...

---

(١) وهذا يؤكِّد حتمية زوالها بعد حين إن لم تفن بطريقة أخرى.

(٢) اختلفت البيانات حول سرعة الشمس وكم تقطع في الثانية الواحدة في المراجع التي رجعتُ إليها فآثرت الحديث عن ذلك إجمالاً لا تفصيلاً، ولمن أراد تفصيل ذلك فليُراجع.

أ ـ الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص٥٧-٥٨.

ب ـ مع الله في السماء، للدكتور أحمد زكي ص١٤٩ وما بعدها.

ج ـ وجود الله، للدكتور النشواتي ص٣٩، ٤٤-٤٥.

د ـ معرفة الله، للمرابط الشنقيطي ص٦٣، ص١٠٥-١٠٦.

هـ ـ علم الإيمان، للزنداني ١/ ١٢٣.

و ـ المعجزات القرآنية، لهارون يحيى ص١٨.

ز ـ قدرة الله في الكون، للدكتور زغلول النجار ص٣٦-٣٧.

(٣) ومعلوم أن هذه الكمية لا تأتي إلى الأرض مباشرة، لأنه لو حدث شيء مثل هذا لوصلت درجة حرارة الأرض إلى (٢٤٥)°م، ولكانت الحياة مستحيلة عليها، لكن هذه الطاقة تخترق الغلاف الجوي فتفقد ٣٥٪ من كميتها، وهذه النسبة عبارة عن الأشعة فوق البنفسجية، في حين يقوم بخار الماء بامتصاص الأشعة تحت الحمراء، وبالتالي لا يصل إلى الأرض إلا ما يكفي ويصلُح للحياة عليها للإنسان والحيوان والنبات، وقتل الجراثيم.اهـ.

انظر: معرفة الله، للمرابط الشنقيطي ص١٠٦.

لقد شبَّه علماء الفلك ما يحصل في باطن الشمس لإنتاج الحرارة بما يحدث عند انفجار قنبلة هيدروجينية من تفاعلات نووية، ولاحظوا على سطحها ما أسموه بالاندماج الشمسي الذي يستغرق دقائق... وينتج عنه في الثانية الواحدة ما يزيد على مليار من القنابل الهيدروجينية، ويعتقد علماء الفلك أن أعمار النجوم ـ ومنها نجم الشمس ـ أكثر من (١٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) عشرة آلاف مليون عام.

## ـ وتحدَّث علماء الفلَك عن القمر:

فقالوا: هو عبارة عن قطعة من الأرض، اقتُطعت منها ولا تزال مائعة[1]، ويبلغ قطره نحو (٣٤٧٦) كيلومتراً[2]، وتبلغ مساحة سطحه (٣٨) مليون كم مربع، وتُقدر جاذبيته بسدس جاذبية الأرض،.. ومتوسط بُعد القمر عن الأرض يُقدَّر بحوالي (٣٨٤) ألف كم[3]،.. وهو أقل حجماً من الأرض بـ(٤٩) مرة، وجاذبيته مع جاذبية الشمس تسبِّبان المد والجزر في البحار والمحيطات، ويؤدي دورته حول نفسه في نفس الوقت الذي يكمل فيه دورانه حول الأرض[4] في زمن قدره (٢٩) يوم و(١٢) ساعة و(٧) دقائق، وليس على سطحه ماء ولا هواء، ونحن لا نرى إلا وجهاً واحداً من القمر[5]، وله منازل محسوبة كما قال

---

(١) مائعة: أي بين الصلابة والسيولة.

(٢) وتساوي ٢١٦٠ ألف ميلاً.

(٣) وتساوي ٢٤٠ ألف ميل.

(٤) ودورانه حول الأرض في مدار شبه دائري يتراوح نصف قطره بين ٣٥٦ ألف ـ ٤٠٧ ألف كم.

(٥) انظر: مع الله في السماء، لأحمد زكي ص١١٣-١١٤، ١١٩، وجود الله للنشواتي ص٤٧.

و: معرفة الله، للمرابط الشنقيطي ص٦٩.

و: قدرة الله في الكون، للدكتور زغلول النجار ص٣٥.

تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ[(١)] ﴾ (يس: ٣٩) وكما قال سبحانه عنه وعن الشمس: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ (الرحمن: ٥) وقال: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس: ٤٠).

ويقول علماء الفلك: إن القمر التابع للأرض بسبب دورانه حولها بسرعة كبيرة، فإنه بفعل القوَّة الطاردة المركزية الناتجة عن دورانه معرَّض للانفلات من جاذبية الأرض التي تقيده وتشده إليها،...

ـ وقد لاحظ العلماء بالمراقبة المستمرة بالتلسكوبات العملاقة وجود حركة لولبية للقمر تُبعِده عن الأرض ببطء شديد[(٢)] ـ عندها سيقع فريسة لجاذبية الشمس القوية، التي ستشده إليها، ومن ثمَّ تتلقَّفُه وتحطمه[(٣)]!! ـ.

وبعد أن ذكرتُ شيئاً من الآيات الكونية أقول:

---

(١) العرجونِ القديم هو عذق النخلة المتقوِّس والأصفر لِقدمه ويُبسه. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٤/ ١٩-٢٠

(٢) وفي علم الإيمان، للزنداني ١/ ٢٢٢ «أنه ثبت بالقياس العلمي أن القمر لا يزال يبتعد عن الأرض كل عام أربعة ستيمترات» وقد أخذ الشيخ الزنداني هذه المعلومة من شبكة الإنترنت: مقتطفات من مقابلة، بقلم (بول ريسر) المطابع المتحدة ـ واشنطن، دي سي، من مقابلة مع جارلس سنت، أستاذ علوم الكواكب في جامعة أريزونا في أمريكا.

(٣) ولكن قبل ذلك سيتصدّع القمر ويتشقّق بفعل الشد القوي الذي سيقع عليه من الشمس، ولعل هذا التوقع العلمي هو ما حكاه الله عزوجل بقوله عن علامات الساعة وبداية أحداثها ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ (القيامة: ٧-١٠).

لقد استدل ابن القيم رحمه الله بخلق السماوات وملكوتها، وعلوِّها، وسعتها واستدارتها وعِظَم خلقها، وحُسن بنائها، وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها، ومقاديرها وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربها... استدل بذلك كله على وجود الصانع الخالق لهذا الكون.

كما استدل بعجائب الليل والنهار وأسرارهما على ربوبية الله وحكمته[1]، وغير ذلك مما سنأتي له في تقرير دلالة الأدلة العلمية على وحدانية الله وتوحيده.

ولقد شهد علماء العصر الحديث في شتى العلوم على وجود بداية للكون ومبدئ له، وخالق لقوانينه حتى قال أحدهم ـ وهو إدوارد لو ثر كيسيل:

«..وهكذا توصَّلت العلوم ـ دون قصد ـ إلى أن لهذا الكون بداية، وهي بذلك تثبت وجود الله، لأن ما له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه، ولابد له من مبدئ، أو من محرِّك أوَّل، أو من خالق، وهو الإله... فلابد من التسليم بفكرة الخالق الذي وضع قوانين هذا الكون، لأن هذه القوانين ذاتها مخلوقة، وليس من المعقول أن يكون هنالك خلق دون خالق: هو الله»[2].

**عموماً**: لا شك أن كل ما سبق يدل على وجود خالق مبدئ للكون، مبدع له، عظيم في قدرته وإبداعه، حافظ حفيظ لخلقه، رحيم لطيف بهم ـ كما شهد بذلك علماء العصر الحديث غير المسلمين فيما مرَّ بنا وفيما سيأتي ـ ذاك هو الله رب العالمين القائل: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ (السجدة: ٤) فقد خلق كونه بالحق وللحق فهو الحق،

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة ص٢٠٢، ص٢٠٩، ص٢١٣، ص٢٢٠.

(٢) الله يتجلى في عصر العلم، تأليف، نخبة من علماء أمريكا ص٢٦.

أما تقرير هذا الأمر، وتوضيح وجه الدلالة العقلية في خلق الكون وإبداعه وتدبيره على الله، ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فسيكون بعد الحديث عن آيات الله الكونية في الأرض ودوابِّها[1].

## ثالثاً: من آيات الله الأرضية:

لله آيات في خلق الأرض وفتقها من السماء، وله آيات في استقرارها وتذليلها، واهتزازها وزلازلها، وحركتها ودورانها، وكرويتها، وله آيات أخرى في تقدير أقواتها وإخراج مائها ومرعاها، وإرساء جبالها، وله آيات كذلك في إحيائها وإماتة ما عليها ومن عليها، وآيات في بحارها وأنهارها، وجميع دوابِّها، وغير ذلك من الآيات، وصدق الله في قوله: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ (الذاريات: ٢٠).

ولقد تبين من خلال استقراء وحصر ما أمكن من آيات الله الأرضية أنه يمكن تقسيمها إجمالاً إلى ثلاثة أقسام كما يلي:

أ ـ آيات متعلقة بخلق الأرض، وإبداعها.

ب ـ آيات متعلقة بإعداد الأرض، وتسخيرها.

ج ـ آيات متعلقة بتقدير أقوات الأرض، وإحيائها بعد موتها.

ولنبدأ بالنوع الأول من آيات الله الأرضية ـ مع التأكيد أني سأرجئ الحديث عن دلالة ذلك كله على التوحيد لنهاية هذا المطلب.

---

(١) انظر ص ٨٤٨.

### أ ـ خلق الأرض[1] وإبداعها:

أمر الله رسولَه محمداً ﷺ بدعوة الخلق أجمعين ـ وخاصة الكفار ـ إلى التفكر في بداية خلق الكون كله، ومن ذلك الأرض، فقال سبحانه:﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ (العنكبوت: ٢٠) وقال في آيات أخرى ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠) داعياً إلى النظر في الجبال ونصبها والأرض وتسطيحها.

وكنت قد تحدثت فيما سبق عن أصل خلق الكون ونشأته، وأشرتُ إلى انفتاق السماوات والأرض، بإيجادهما وتمييزهما بالفصل بينهما، ومن ذلك انفصال الأرض عن أجرام السماء ـ التي خُلقت من سديم الدخان ـ ويؤكِّد علماء الفلك أن الأرض وأجرام السماء كانت في الأصل شيئاً واحداً متماسكاً ملتصقاً، ثم حصل الانفصال قبل مليارات السنين، ويقولون: (إن المجموعة الشمسية كانت قطعة واحدة، قبل ٤.٥ مليار سنة[2]... وإن الكون كله كان جُرماً.. واحداً قبل ١٥-٢٠ مليار عام)[3].

---

(١) ذكر أهل العلم بالأرض معلومات عن قطرها ومحيطها وغير ذلك لم أذكرها هنا اختصاراً ويمكن الرجوع إلى: أ ـ قدرة الله في الكون، للدكتور زغلول النجار ص٢٨-٣٣.
ب ـ مع الله في السماء، للدكتور أحمد زكي ص٢٩-٤٠، ٦٩-١٢٠.
ج ـ معرفة الله، للمرابط الشنقيطي ص٦٦-٦٩، ص٨٧-١٠٠.
د ـ وجود الله، للنشواتي ص٤٦. هـ- سلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص٢٢.

(٢) وهناك تقديرات أخرى في كتاب معرفة الله، للمرابط الشنقيطي ص٨٧.

(٣) علم الإيمان، للزنداني ١/ ٢٢٢.

وقد استدل الباحثون في علم الفلَك على أن الأرض خُلقت من سديم (الدخان) وكانت جزءاً من أجرام السماء[١] بالحقائق التالية:

١- الحرارة الشديدة في باطن الأرض، والنيران الملتهبة في جوفها، فهي كأمثال الشمس والنجوم، وباطن معظم الكواكب[٢] ـ انظر الشكل (٤١) ـ.

٢- تشابه العناصر المكوِّنة للأرض مع العناصر المكوِّنة للنجوم والكواكب، كما أكَّدته تحاليل الطيف المنبعث عن الأجرام السماوية.

٣- استمرار تشكل النجوم والكواكب حالياً من دخان (سديم) في السماء ـ كما تشكَّلت الأرض سابقاً ـ.

٤- استمرار تباعد أجرام السماء عن بعضها البعض إلى يومنا هذا، مما يدل على أن الأرض وأجرام السماء كانت أقرب إلى بعضها البعض قبل مليون عام، وكانت أكثر قرباً قبل مليار عام، وهكذا إذا رجعنا القهقري سنصل إلى أن الكون كله كان جسماً متحداً قبل الانفصال[٣] وهذا كله قد سبق إلى تسجيله قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا** ﴾[٤].

---

(١) بل من الشمس نفسها كما يذكر كريسي موريسون في كتابه العلم يدعو للإيمان ص٦٣.

(٢) مما يؤكد وجود حرارة في باطن الأرض عيون الماء الساخن والبراكين ذات الصخور المنصهرة لشدة الحرارة.

(٣) علم الإيمان، للزنداني ١/ ٢٢٠.

(٤) الأنبياء: ٣٠. وقد سبق شرح الآية في ص٧٢٦.

## شكل (٤١)

يُشاهد تحت قشرة الأرض والقمر ومعظم الكواكب منطقة كثيفة مرنة شديدة الحرارة تسمى (الوشاح)، ومنها خرجت وتخرج الحمم البركانية



باطن الأرض وباطن القمر

(تكوين واحد)

وهكذا بقية الكواكب

لقد تمكَّن الباحثون في علم طبقات الأرض وصخورها من تحديد عمر الأرض بشكل تقريبي[1]، وقدَّروا ذلك ما بين (٤٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠-٥٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠)[2] أي ما بين أربعة آلاف وخمسمائة مليون عام إلى خمسة آلاف مليون عام وأكَّدوا أنَّ الأرض كانت قبل أن تتكثَّف وتتصلَّب قشرتها كتلة من الغاز والصخور السائلة[3] ـ كحال الشمس الآن ـ.

**ب ـ إعداد الأرض وتسخيرها:**

لقد تهيأت الأرض وأُعِدَّت لتكون صالحة للحياة من خلال عدة أمور، منها:

١ ـ تسوية حجم الأرض، وقطرها، وسرعتها، ودورانها، وكرويتها، وبُعدها عن الشمس والقمر، وميل محورها وكتلتها، وغير ذلك[4]، بصورة تجعلها الأمثل

---

(١) حيث ثبت علمياً أن لكل عنصر مشع من عناصر الأرض عمراً ثابتاً يخمد بعده، فيتحوَّل إلى معدن غير مشع، فاليورانيوم، على سبيل المثال هو عنصر مشع يتميَّز بنصف عمر إشعاعي طويل جداً قُدِّر بـ(٤٥١٠) مليون سنة، ومع مرور الزمن يتحوَّل إلى رصاص.. وهكذا، وبتحليل الصخور المحتوية على معدن الرصاص واليورانيوم أمكن معرفة عمر الصخور وبالتالي عمر الأرض. أ.هـ. انظر: وجود الله للنشواتي ص٢٤.

(٢) وهناك تقديرات أخرى لعمر الأرض في كتاب الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص٧٧.

(٣) وجود الله، للنشواتي ص٢٣-٢٤.

(٤) انظر تفاصيل ذلك في: أ ـ العلم يدعو للإيمان، لكريسي موريسون ص٥٣-٥٨.

ب ـ الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص٥٧، ٦٢-٦٤.

ج ـ مع الله في السماء، للدكتور أحمد زكي ص٧٣، ٧٤، ٧٦، ٧٨، ٨٠.

د ـ وجود الله، للنشواتي ص٣٤، ١٦٩-١٧٠.

هـ ـ معرفة الله، للمرابط الشنقيطي ص٩٠، ١٣٥.

و ـ الله جل جلاله، لسعيد حوى ص٤٢.

والأنسب بين بقية الكواكب لصلاح الحياة عليها، وفي هذا قال عالمان أمريكيان هما: بريس (Press)، وسيفر (Siever) عن مدى ملاءمة مقاييس الأرض وأبعادها:

«إنَّ كِبَر الأرض هو بالضبط بقدر ما يُفترض أن يكون، ولو كان ذا قيمة أصغر لضعُفت جاذبيتها، ولما استطاعت أن تمسك الغلاف الجوِّي المحيط بها، ولو كان ذا قيمة أكبر لقامت بمسك الغازات السَّامَّة أيضاً، ولتسمَّم غلافها الجوِّي، وبالتالي سوف تنعدم الحياة على سطحها»[1].

٢ ـ تقدير جاذبية الأرض، وقشرتها، وكثافة هوائها، ونسبة أكسجينها وبقية غازاتها، بشكل دقيق جداً، هيَّأها لحياة الإنسان والحيوان[2].

٣ ـ مهد الأرض، وبسطها، وتحقيق قرارها بإرساء الجبال فيها، حتى صارت ذلولاً صالحة للإقامة عليها[3].

---

(١) سلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص٦٢.

(٢) لمزيد من تفصيل الحقائق المذكورة أعلاه ارجع إلى:

أ ـ سلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص٣٣، ٦٢، ٧٣.

ب ـ المعجزات القرآنية، لنفس المؤلف ص٣١، ٦٩، ٨٤.

ج ـ العقيدة في الله، للدكتور الشيخ عمر سليمان الأشقر ص١٦٦.

د ـ علم الإيمان، للزنداني ١/ ٢٦٣. هـ ـ الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص٦٢-٦٦.

و ـ العلم يدعو للإيمان، لكريسي موريسون ص٥٧-٦٥.

ز ـ معرفة الله، للمرابط الشنقيطي ص٦٥، ٦٦، ٦٩، ٧٠، ٧٤، ١٣٥.

ح ـ وجود الله، للنشواتي ص٧٢. ط ـ البينة العلمية، للزنداني ص٩.

(٣) وقد أشار الله في كتابه إلى كثير من إعداده الأرض للحياة كما جاء في:

البقرة: ٢٢، ٣٦، الأعراف: ٢٤، الرعد: ٣، الحجر: ١٩، طه: ٥٣، النمل: ٦١، الزخرف: ١٠، غافر: ٦٤، ق: ٧، الذاريات: ٤٨، نوح: ١٩، الملك: ١٥، النبأ: ٦، الشمس: ٦.

٤ ـ إسكان الماء فيها، وإخراجه من باطنها، وتكوين بحارها ومحيطها، وجَعْلِ ذلك كله بكميات تتناسب مع الحياة على الأرض، يقول كريسي موريسون: «... ولما أخذت الكرة الأرضية، أو الأجزاء المكوِّنة لها، في أن تبرد تدريجياً، حدثت تركيبات، وتكوَّنت خلية العالم، كما نعرفه،... واتحد الأكسجين مع الهيدروجين... وتكوَّن الماء...»[1].

٥ ـ تحديد درجة غليان مائها بحدٍّ معين لِحِكَمٍ عظيمة، وتقدير كثافته بشكل حكيم موزون، وتعيين حرارته النوعية العالية بصورة تجعله مكيِّفاً عاماً للأرض[2].

لقد هُيِّئت الأرض، وجُعلت صالحة للحياة من خلال ما سبق ذكره، ومن خلال أمور أخرى، يمكن توضيحها ذلك كله بالصور والعبارات ذات الأرقام (٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥) الآتية:

---

(١) العلم يدعو للإيمان، لكريسي موريسون ص٦٣-٦٤ بتصرف يسير.

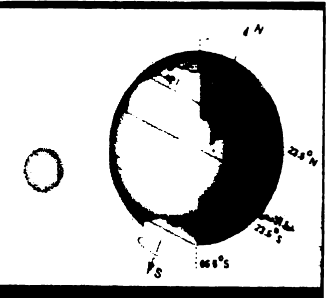
(٢) لمزيد من تفاصيل المعلومات المذكورة أعلاه راجع:

أ ـ الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص٦٥، ٦٧.

ب ـ وجود الله، للنشواتي ص٩٢.

ج ـ علم الإيمان، للزنداني ١/ ٩٦-٩٧، ١/ ٩٩.

## شكل (٤٢)



### ميل محور الأرض

**لو كان محور الأرض أكثر ميلاناً مما هو عليه:**
لكان التفاوت الحراري كبيرا جدا بين ارجاء الأرض المختلفة.

**ولو كان محور الأرض أقل ميلاناً مما هو عليه:**
لحدث نفس التفاوت الحراري الكبير جدا بين أرجاء الأرض المختلفة.

### سرعة دوران الأرض حول محورها:



**لو كانت هذه السرعة أقل مما هي عليه:**
لكان التفاوت الحراري كبيراً جداً بين الليل والنهار.

**و لو كانت هذه السرعة أكبر مما هي عليه:**
لكانت الرياح المتحركة ضمن الغلاف الجوي تهب بسرعة كبيرة جدا. و بالتالي تغدو الحياة مستحيلة تحت تأثير الزوابع والأعاصير و الفيضانات المهلكة.

### قوة الجذب المتبادلة بين الأرض و القمر:



**لو كانت هذه القوة أكبر مما هي عليه:**
لأثرت قوة الجذب العالية في القمر على ظروف الغلاف الجوي و على سرعة دوران الأرض حول محورها و كذلك على ظاهرة المد و الجزر في المحيطات تأثيراً بالغاً.

**ولو كانت هذه القوة أقل مما هي عليه:**
لحدث تغيير كبير وشديد التأثير في الأقاليم المناخية للأرض.

شكل (٤٣)

## كمية غاز ثاني أكسيد الكربون و الماء في الغلاف الجوي



**لو كانت هذه الكمية أكبر مما هي عليه:**
لازدادت حرارة الغلاف الجوي زيادة كبيرة

**ولو كانت أقل مما هي عليه:**
لانخفضت حرارة الغلاف الجوي انخفاضا كبيرا.

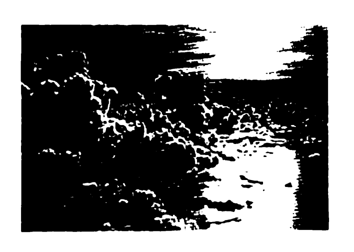
## كمية الأوكسيجين في الغلاف الجوي:



**لو كانت هذه الكمية أكبر مما هي عليه:**
لاحترقت النباتات و المواد الهيدرو كربونية بسهولة كبيرة جدا.

**و لو كانت هذه الكمية أقل مما هي عليه:**
لانعدمت قدرة الأحياء على التنفس.

## سمك طبقة الأوزون:



**لو كانت هذه الطبقة أكثر سمكاً مما هي عليها**
لانخفضت حرارة سطح الأرض انخفاضا كبيرا.

**و لو كانت أقل مما هي عليه:**
لارتفعت حرارة سطح الأرض ارتفاعا كبيرا ولانعدمت المقاومة نهائيا تجاه الأشعة فوق البنفسجية القادمة من الشمس

## شكل (٤٤)

### الجاذبية الأرضية:



**لو كانت الجاذبية الأرضية أقوى مما هي عليه:**



لتسبب ذلك في تراكم المزيد من غاز الأمونياك وغاز الميثان في الغلاف الجوي. وبالتالي صعوبة الحياة على كوكب الأرض.

**ولو كانت أضعف مما هي عليه:**

لتسبب ذلك في فقدان الغلاف الجوي للكثير من الماء. وبالتالي انعدام الحياة على هذا الكوكب.

### بعد الأرض عن الشمس:

**لو كان هذا البعد أكبر مما هو عليه:**

لأصبحت الأرض شديدة البرودة. ولأصيبت الدورة المائية بخلل كبير وبالتالي يلفّ أرجاء هذا الكوكب عصر جليدي.

**ولو كان هذا البعد أقل ممّا هو عليه:**

لاحترقت الأرض بالحرارة القاتلة. ولأصاب دورة الماء في الطبيعة خلل كبير وانعدمت الحياة على هذا الكوكب.

### سمك القشرة الأرضية:



**لو كانت القشرة الأرضية أكثر سمكاً مما هي عليه:**



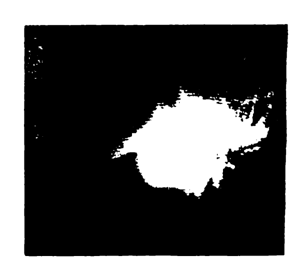


لحدث امتصاص كبير للأوكسيجين من الغلاف الجوي إلى القشرة.

**ولو كانت هذه القشرة أقل سمكاً ممّا هي عليه:**

لانفجرت الحمم البركانية في كل مكان. وبالتالي تنعدم الحياة على هذا الكوكب.

## شكل (٤٥)



### المجال المغناطيسي للأرض:

**لو كان أشد مما هو عليه:**

لسبب رياحاً كهرومغناطيسية شديدة جداً.

**ولو كان أضعف مما هو عليه:**

لضعفت مقاومة الأرض أمام الرياح الشمسية التي هي عبارة عن جسيمات مقذوفة من الشمس. وفي كلتا الحالتين تصبح الحياة مستحيلة على هذا الكوكب

---

**تأثير البيدو:** وهو نسبة الإشعاع الشمسي المنعكس من الأرض إلى الشعاع الواصل إليها من الشمس



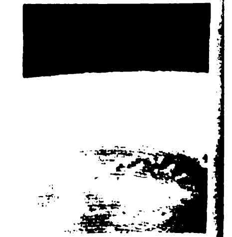
**لو كان أكثر مما هو عليه:**

لعم العصر الجليدي أرجاء الأرض بسرعة كبيرة.

**ولو كان أقل مما هو عليه:**

لبدأت آثار الحرارة الداخلية تظهر علاماتها بارتفاع كبير في الحرارة. وتبدأ الجبال الجليدية في الذوبان أول الأمر وبالتالي تعم الفيضانات كل مكان. ثم يتحول الكوكب إلى جسم محترق.

---



### نسبة الأوكسجين و النيتروجين في الغلاف الجوي:

**لو كانت نسبتها أكثر مما هي عليه:**

لازدادت سرعة الفعاليات الحيوية بصورة تسبب لها ضرراً بالغاً.

**ولو كانت أقل مما هي عليه:**

لأبطأت هذه الفعاليات الحيوية بصورة تسبب لها ضرراً بالغاً أيضاً

إن المتأمل في إعداد وتهيئة الأرض لتكون صالحة للحياة الآدمية، يجزم حتماً بوجود قوة عظمى، مهيمنة، قادرة، حكيمة، عليمة، رحيمة، صاحبها هو الذي سخَّر السماوات بما فيها، والأرض بما عليها، وجعل ذلك كله دليلاً عظيماً وحجة قوية وبرهاناً ناصعاً على وجوده وربوبيته واستحقاقه لتوحيد العبادة، ذاك هو الله الذي سخَّر كل شيء وخاطب عقلاء خلقه[1]، قائلاً: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (البقرة: ٢٩)، وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان: ٢٠)، وقال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ١٣) أي: فيما سخّره الله لكم لعلامات ودلالات على وحدانية الله لقوم يتفكرون في آيات الله وحججه وأدلته، فينتقلون من التفكر إلى الاستدلال بها على التوحيد،[2] قال ابن القيم رحمه الله: «وإذا نظرت إلى الأرض، وكيف خُلقت؟ رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلَقها سبحانه فِراشاً ومهاداً، وذلّلها لعباده، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم، وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم، وأرساها بالجبال فجعلها أوتاداً تحفظها لئلا تميد بهم، ووسَّع أكنافها ودحاها فمدَّها وبسطها، وطحاها فوسَّع من جوانبها، وجعلها كفاتاً للأحياء تضمهم على

---

(١) ولقد أشار الله في كثير من آيات كتابه إلى مظاهر إعداده الأرض للخلق وتهيئتها لهم كما جاء في الرعد: ٢، إبراهيم: ٣٢-٣٣، النحل: ١٢، ١٤، الحج: ٣٦،٣٧،٦٥، العنكبوت: ٦١، لقمان: ٢٩، فاطر: ١٣، الزمر: ٥، الجاثية: ١٢.

وقد سبق شرح كثير منها فيما مرّ معنا من البحث.

(٢) فتح القدير، للشوكاني ٥/ ٨.

ظهرها ما داموا أحياءً، وكفاتاً للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا، فظهرها وطن للأحياء، وبطنها وطن للأموات،...»[1] ثم تكلّم عن آيات الله في الهواء والرياح وتسييرها للفُلك على البحر، وتحدّث عن آيات الله في البحار والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض، وأمطاره النازلة منه، وإيداع مائِه في الأرض، وإخراجه لأنواع الأغذية والأدوية والأقوات...إلخ[2]، واعتبر ذلك كله دليلاً على وجود الصانع الخالق لهذا الكون، وصدق رحمه الله، فتدبُّر آيات الله في الأرض يهدي لباريها ومبدعها، وهذا ما وصل إليه، وشهد به كثير من العلماء المعاصرين، ومنهم على سبيل المثال البروفيسور بروبرت هورتون كاميرون ـ الأستاذ والباحث في جامعة منيسوتا الأمريكية والمتخصِّص في علم القياس والتحليل الرياض، فإنه عندما سُئِل: هل هناك إله؟

**أجاب قائلاً:** «نعم هناك إله، وهو إله عظيم، قوي، حكيم، وهو بالغ الإبداع والتصوير..»[3].

### ج ـ تقدير أقوات الأرض، وإحياؤها بعد موتها:

إن الذي خلق الأرض، وأعدَّها للحياة، وسخَّرها للخلق، هو نفسه القائل: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ (فصلت: ١٠)، والقائل: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ (النحل: ٦٥)، والقائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ (البقرة: ١٦٨).

---

(١) مفتاح دار السعادة ص٢٠٦، وانظر ص٢٢٥-٢٢٦.

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة ص٢٠٦-٢٠٩، ص٢١٠،٢٢٤،٢٢٦،٢٢٩،٢٣١،٢٣٢.

(٣) وجود الله، للنشواتي ص١٧١.

فقد قدَّر فيها أرزاق أهلها من الغذاء، وما يصلحهم من المعاش، وعندما نتأمل أصل ذلك كله نجد أن أكثره ـ إن لم نقل كله ـ يرجع إلى النبات، فهو مصدرٌ لغذاء الإنسان، وبعض متطلباته الأخرى، كالطاقة الحرارية المتولِّدة عن حرق الأخشاب، أو البترول والفحم ومشتقاتها، التي يعود أصلها إلى النبات..

وكصناعة الملابس من القطن والكتان مباشرة، أو من أصواف الحيوان وأوباره وأشعاره، فالحيوان يتغذى على النبات، والإنسان يتغذى على الحيوان، أو يستفيد من إنتاجه...

وكالدَّواء إما مباشرة من بعض النباتات، أو بما يُستخلص منها من دواء... أو مما ينتجه الحيوان الذي يتغذّى على تلك النباتات كعسل النحل.

وكالمسكن، فمن أعواد النباتات وقشها وقصبها صَنع الإنسان وما زال يصنع مساكنه، لتقيه الحرَّ والبرد ومخاطر البيئة من حوله...

كما أن الإنسان في البادية قد صنع خيامه من أصواف وأشعار الحيوانات التي تتغذى على النبات.

ولولا أن الله سخّر النبات لإنتاج غاز الأكسجين أثناء عملية البناء الضوئي لنفد الأكسجين في الجو وما بقي إنسان أو حيوان على قيد الحياة[1]... والنباتات تسحب ثاني أكسيد الكربون فتنقِّي الجو، وتستفيد منه في عملية البناء الضوئي التي تقوم بها الحياة على الأرض، كما أنها تطلق الأكسجين الضروري لحياة الإنسان والكائنات الأخرى... والنباتات كذلك، وهي أيضاً بهجة للناظرين.

---

(١) حيث إنه بدون الأكسجين الذي يساعد على الاشتغال تظل مصادر الوقود كنزاً لا فائدة منه.

إننا نجد أن النبات المتنوِّع والمنتشر على سطح الأرض مزوَّد بالقدرة على العيش في بيئات الأرض المختلفة، متاعاً للناس ولأنعامهم كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝ ﴾ (عبس: ٢٤-٣٢) وبهذا لا يعدم إنسان أو حيوان رزقه أينما كان.

لقد جعل الله الأقوات والأرزاق بالوفرة المناسبة للمخلوقات كلها في البر والبحر، تسد حاجات الجميع رغم تكاثرهم باطراد، واحتياجهم لمزيد من الغذاء.

لقد اكتشف علماء النبات سراً عجيباً في بقاء نوعه وتكاثره لتغطية حاجات الخلق من خلال: أ ـ التكاثر الجنسي[١]. ب ـ التكاثر الخضري (اللاجنسي)[٢].
ج ـ التكاثر بتعاقب الأجيال[٣].

واكتشفوا أيضاً أنَّ هناك مخلوقات مجنّدة ـ من إنسان وحيوان وريح وماء ـ لإنجاز عملية الإخصاب، وتحقيق تكاثر النبات، عن طريق نقل حبوب اللقاح سواء بواسطة الرياح أو الحشرات، أو الطيور، أو الخفافيش، أو النمل، أو البذور، أو غير ذلك[٤].

---

١ - أي عن طريق أعضاء التذكير والتأنيث

٢ - أي عن طريق الأجزاء الخضرية من النبات كالفسائل ونحوها.

٣ - انظر: علم الإيمان، للزنداني ٢/ ٥٥-٦٣.

(٤) انظر: تفاصيل ذلك في: أ ـ العلم يدعو للإيمان، لكريسي موريسون ص١٢٣.
ب ـ المعجزات القرآنية، لهارون يحيى ص٤٦. ج ـ علم الإيمان، للزنداني ٢/ ٦٣-٦٨.
د ـ إعجاز النبات في القرآن الكريم، للدكتور نظمي خليل أبو العطا، مكتبة النور، ط (بدون)، د.ت، القاهرة ـ مصر ص٧٣ وما بعدها.

كما وجدوا أن النبات ينمو بتقدير وإحكام[1]، ليس له مثيل، قال تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾ (الحجر: ١٩) واكتشفوا أن النبات يحمي نفسه، ويحفظ ذاته بإذن الله من الأمراض، والحيوانات، وأنه يتناسب مع البيئات

---

(١) حيث ينمو كل جزء في النبات وفق التقدير الخاص به، فلكل نوع منها جذور وساق وأوراق وأزهار وثمار، يتميز بها عن سائر الأنواع الأخرى... في شكله وصورته وحجمه، ومادته وتركيبه، ولونه وطعمه ورائحته وفي علاقة أجزاء النبات ببعضها، ولولا ذلك التقدير الدقيق الذي تخضع له النباتات في نموها لاختل النمو في أعضاء وأجزاء تلك النباتات، وربما طغى نوع على سائر الأنواع، كما يجرّ ذلك إلى اختلالات الموازين التي تضبط علاقات النباتات بالتربة والماء والهواء والحيوان والإنسان...

إن ذلك التقدير والميزان يبدأ بتقدير ما يُمتص من الماء والهواء والأملاح، فلا يدخل عنصر إلى كل نوع من النبات إلا بالقدر المحدّد الدقيق المناسب لذلك النوع.

وتعمل الموازين عملها بالتحكم فيما يصنعه كل نوع من أنواع النبات وينتجه من تلك المواد التي امتصها.

ويتجلى التقدير المحكم والميزان الدقيق فيما يأخذه ذلك النوع من النبات من المواد التي أنتجها ليصنع منها خلاياه وأنسجته وأعضاءه الخاصة به، فبذرة الفول تُنبت نبات الفول، ونبات الفول يُنتج حبوب الفول، وحبّة القمح تنتج زرع القمح، وزرع القمح يُنتج حبة القمح، ولا يقع خطأ في ذلك، وهكذا سائر أنواع النباتات، مع أن الجميع يُسقى بماء واحد، وينبت في أرض واحدة... وهناك توازن دقيق بين طول ساق النبات وما يتفرع منه من أغصان، وبين عمق الجذر وما يتفرع منه من جذور بما يحقق ثبات النبات وصموده أمام العوامل المهدِّدة لثباته كالرياح والأمطار والحيوان...

وهناك توازن في توزيع وتبادل الأغصان على سوق النبات، وتوزيع الأوراق وتبادلها على تلك الأغصان، بما يحقق التوازن في جسم النبات، ويضمن تعريض المصانع الخضراء في الأوراق لضوء الشمس الضروري لتلك المصانع.أ.هـ

انظر: علم الإيمان، للزنداني ٢/ ٧٠-٧٢ باختصار وتصرف يسير.

الجافة، والباردة، والظليلة، والمفتقرة إلى المواد المعدنية[١]، وهو شفاء ورحمة، وبه تقوم الحضارات، وتتزيَّن الحدائق والجنات.

لقد اكتشف الباحثون أن النبات عندما يقوم بعمليات البناء الضوئي فإنه:

أ ـ يغذِّي نفسه.

ب ـ ينتج فائضاً يكفي لتغذية كل حيوان على وجه الأرض[٢].

وهكذا نجد أن جميع النباتات والغابات والأعشاب وكل قطعة من الطحلب وكل ما يتعلّق بحياة الزرع تبني نفسها من الكربون والماء على الأخص... وهذا كله من باب تقدير أقوات الأرض وإحيائها بعد موتها، قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[٣].

وإن مما اكتشفه الباحثون مما يتعلق بتقدير أقوات الأرض، أنه مع تكاثر عدد سكان الكرة الأرضية، واستغلال الأرض في زرع المحصولات دون انقطاع، سوف تُستنفد العناصر المخصِّبة للتربة، ومن أهمها النيتروجين الذي يتكون منه العنصر النتروجيني في أغذيتنا... وإذا استنفد فسيقلُّ الغذاء على الأحياء... وبدون النتروجين لا يمكن أن ينبت أي نبات من النباتات الغذائية... لولا إعادة تعويضه، وتجديده في الأرض بمخصِّبات عديدة منها:

---

(١) لمعرفة تفاصيل ذلك كله انظر: علم الإيمان، للزنداني ٢/ ٧٣-٩١.

(٢) انظر: علم الإيمان، للزنداني ٢/ ٩٣-٩٧.

(٣) الحج: ٥، ونحوها في فصلت: ٣٩. وللشيخ الزنداني شرح علمي للآية في كتابه علم الإيمان ٢/ ٣٢٩.

أ ـ نشاط جراثيم (بكتيريا) معينة تسكن في جذور النباتات البقلية[١]..

ب ـ عواصف الرعد والبرق أثناء نزول الأمطار، فكلما ومض برق في السحاب الممطر وحَّد بين قدر قليل من الأكسجين وبين النيتروجين فيسقط المطر إلى الأرض كنتروجين مركب... فيعوِّض ما نقص، وتكثر الخيرات، وتزيد الأقوات[٢].

... وبعد أن ذكرتُ طَرَفاً من الحقائق العلمية عن أهمية النبات في غذاء الإنسان والحيوان، وتقدير أقوات الخلق، أقول: إن الذي خلق الكائنات الحية في الأرض عَلِم أنها ستحتاج إلى الغذاء، فأوجد النبات (أصل الأقوات) بعد أن قدّر أسباب وجوده من تراب وهواء وشمس وماء وغير ذلك، وجعل الأقوات كافية للخلق أجمعين، لولا سوء تصرُف بعض البشر الذي يوقعهم في مجاعات مهلكة، ففي الوقت الذي تُتْلَفُ فيه كميات هائلة من الأغذية في البحر يموت أناس من سوء التغذية أو انعدامها. وهكذا مرّت بنا آيات في النبات تشهد لكل عاقل بأنها من صنع رب خالق بارئ مصوِّر، حكيم عليم خبير، رزّاق لطيف بديع، مريد هادي جامع حافظ، واحد لا شريك له[٣].

وإننا إذا نظرنا إلى النباتات ـ غير العاقلة ـ وتأمّلنا في تنقيتها الهواء من غاز ثاني أكسيد الكربون الذي يطلقه الإنسان والحيوان أثناء الزفير، وإطلاقها

---

(١) العلم يدعو للإيمان، لكريسي موريسون ص٧٨.

(٢) وقد تمكن علماء النبات حالياً من اكتشاف طرق إنتاجية للنتروجين بكميات كبيرة جداً، حيث تمكنوا من تحويل الغاز الجامد (النتروجين) إلى مخصِّب (سماد) يوضع في التربة فيزيد من خصوبتها، وبالتالي تزيد الأرض من أقواتها.

انظر: العلم يدعو للإيمان، لكريسي موريسون ص٧٩-٨٠.

(٣) انظر: علم الإيمان، للزنداني ٢/ ١٠٠-١٠١.

الأكسجين الذي يحتاجان إليه، وتعاون الجميع على إبقاء نسب هذه الغازات في الجو مناسبة ثابتة.

وإذا تأمّلنا كيف صارت الحيوانات والنباتات المطمورة في طبقات الأرض مصادر للطاقة كالبترول والفحم ومشتقاتها،... وتأمّلنا كيف تنتقص الأرض من الأجساد الميتة للكائنات الحيَّة، لتصبح سماداً للأرض.

وإذا نظرنا إلى الغابات التي تحترق بين آونة وأخرى، فتتجدّد حيويتها ونشاطها بالاستفادة من مخلّفات الاحتراق، فإذا بها أكثر خصوبة، وأوفر إنتاجاً..

وإذا تدبَّرنا في التكامل بين الفطريات والنباتات[1]، والتعاون بين البكتيريا والبقوليات، والتعاون الوثيق بين الحشرات والحيوانات من جهة، والنباتات من جهة أخرى، لوجدنا أن ذلك كله يؤدي إلى توفير الغذاء والأقوات للأحياء.

إننا إذاً:

تأمّلنا في ذلك كله بعينٍ فاحصة بصيرة، وفؤادٍ واعٍ، وفطرة سليمة، لأيقنّا بوجود قوّة مدبِّرة مريدة وراء كل ذلك، قال ابن القيم ـ داعياً إلى التعرف على آيات الله في إخراج أقوات الأرض ـ «ثم تأمل الحكمة الإلهية في إخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه، متلاحقة شيئاً بعد شيء، متتابعة، ولم يخلقها كلها جملة واحدة، فإنها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل، وفاتت المصالح التي رُتِّبت على تلاحقها وتتابعها، فإن كل فصل وأوان يقتضي من الفواكه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر، فهذا

---

(١) لمعرفة حقيقة وتفاصيل ذلك يُراجع: علم الإيمان، المزنداني ٢/ ١٠٠.

حار، وهذا بارد، وهذا معتدل، وكلٌ في فصله موافق للمصلحة، لا يليق به غير ما خُلق فيه، ثم إنه سبحانه خلق تلك الأقوات مقارِنة لمنافع أُخر من العصف والخشب والورق والنور و... وغيرها من منافع النبات والشجر غير الأقوات كعلف البهائم، وأداة الأبنية والسفن والرِّحَال والأواني وغيرها.. ثم إخراج تلك الثمار على اختلاف أنواعها وأشكالها ومقاديرها، وألوانها وطعومها وروائحها، ومنافعها، وما يُراد منها، ثم تأمَّل أين كانت مستودَعةً في تلك الخشبة وهاتيك العيدان، وجُعلت الشجرة لها كالأم... فسل الجاحِد: من تولّى تقدير ذلك وتصويره، وإبرازه وترتيبه شيئاً فشيئاً، وسَوْقِ الغذاء إليه في تلك العروق اللطاف التي يكاد البصر يعجز عن إدراكها، وتلك المجاري الدِّقاق.

فمن الذي تولّى ذلك كله؟ ومن الذي أطلع لها الشمس، وسخَّر لها الرياح؟ وأنزل عليها المطر، ودفع عنها الآفات...»[1]؟

**عموماً**: لقد اعتبر الله عزوجل نباتات الأرض وجناتها المتنوِّعة آيات للعقلاء فقال سبحانه: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ[2] يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: ٤).

---

(١) مفتاح دار السعادة ص٢٣٢-٢٣٣ باختصار.

(٢) صنوان: أي عدة أشجار في أصل واحد، ومنبت واحد، الصنو النظير والفسيلة المتفرعة مع غيرها من أصل شجرة واحدة.

وغير صنوان: أي كل شجرة على حدتها، مستقلة عن الأخرى، فليس في منبت واحد. انظر: تفسير السعدي ص٤٣٧.

بل اعتبر نزول الماء من السماء وإخراج النبات، والحبّ المتراكب، والنخيل، وجنات الفواكه المتنوِّعة بذلك الماء دلائل كافية على وحدانيته ووجوب توحيده لقوم يؤمنون، فقال سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا[1] قِنْوَانٌ[2] دَانِيَةٌ[3] وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ[4] ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٩).

ودعى خلقه للاعتراف بربوبيته وألوهيته بناءً على رزقه لهم ـ من فوقهم ومن تحت أرجلهم ـ وتسخيره أقوات الأرض لهم، فقال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (فاطر: ٣) قال السعدي رحمه الله: «يأمر تعالى جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم، وهذا شامل لذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناءً، وبالجوارح انقياداً، فإنَّ ذكر نعمه تعالى داعٍ لشكره، ثم نبَّههم على أصول النعم وهي:

---

(١) طلعها: هو الكفري والوعاء قبل ظهور القنو منه، فيخرج من ذلك الوعاء (الذي تنشأ فيه عذوق الرطب.

(٢) قنوان: هو عذوق النخل.

(٣) دانية: قريبة سهلة التناول.

(٤) وينعه: وقت اطلاعه ونضجه وبلوغه.

انظر: تفسير السعدي ص٢٦٧.

الخلق والرزق، فقال: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله، نتج من ذلك أن كان ذلك دليلاً على ألوهيته وعبوديته، ولهذا قال: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أي: تُصرفون عن عبادة الخالق الرزاق لعبادة المخلوق المرزوق»[1].

لقد نزَّه الله نفسه عن كل شرك أحدثه المخلوق، المرزوق من نبات الأرض وأقواتها، فقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس: ٣٦).

وكما دعى ابن القيم والسعدي إلى التعرف على آيات الله ودلائل وجوده ووحدانيته في خلق النبات وتوفير الأقوات، وقرَّرا ذلك، فقد قرَّر نفس الحقيقة وتوصّل إليها بعض علماء العصر الحديث المختصين بالنبات، منهم الدكتور لسترجون زمرمان[2] حيث قال: «... لا يكفي أن يكون هنالك ضوء ومواد كيماوية وماء وهواء لكي ينمو النبات، إن هنالك قوّة داخل البذرة تنبثق في الظروف المناسبة، فتؤدِّي إلى قيام كثير من التفاعلات المتشابكة المعقّدة، والتي تعمل معاً في توافق عجيب... والحق أنه النظام الرائع، والجمال الذي ليس له مثيل، ولا حدود،... ـ ثم تساءل بعد أن ذكر شيئاً من علم الوراثة في النبات

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٤٦.

(٢) وهو أخصائي التربة وفسيولوجيا النبات ـ حاصل على الدكتوراه من جامعة بوردو ـ أخصائي المحافظة على التربة بالولايات المتحدة الأمريكية ـ أستاذ الزراعة والرياضيات بكلية غوشن ـ عضو الجمعية العلمية لدراسة التربة بأمريكا.
انظر: الله يتجلى في عصر العلم، تأليف نخبة من علماء أمريكا ص١٠٣.

وصفاته وقوانينه التي تحكمه ـ فقال: فمن الذي قدّر وأوجد تلك القوانين العديدة، التي تتحكَّم في وراثة الصفات، وفي نمو النبات؟... ومن أين جاءت النباتات الأولى؟ أو بعبارة أخرى: كيف خُلق النبات الأول؟ ثم قرَّر ما نصُّه:

نحن لا نستطيع أن نصل بعقلنا الطبيعي ومنطقنا السليم إلى أنَّ هذه الأشياء قد أنشأت نفسها بنفسها! أو نشأت هكذا بمحض المصادفة! ولابد لنا من البحث عن خالق مبدع، ويُعتَبر التسليم بوجود الخالق أمراً بديهياً تفرضه عقولنا علينا»[١] ثم ختم كلامه قائلاً: «إنه كلما ازددتُ دراسةً وتعمقاً في معرفة طبيعة التربة والنباتات، ازداد إيماني بالله، وسجدتُّ له إعجاباً وتقديساً»[٢]، وما أقرب كلامه هذا من قول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ (الإسراء: ١٠٧)، وقوله سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر: ٢٨).

إن خلق النبات وتقدير الأقوات لدليل كافٍ على استحقاق ربها لكمال الحب مع التعظيم والتذلل، ومن هنا أنكر سبحانه وتعالى على المعرضين عن عبادته فقال: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ[٣] ﴾ (النمل: ٦٠) وقرّر أن أكثر الكفار الذين يرون آيات الله في

(١) نفسه ص١٠٤-١٠٥ باختصار.

(٢) الله يتجلى في عصر العلم ص١٠٦ بتصرف يسير.

(٣) أي يعدلون به غيره، ويُسوُّون به سواه فينحرفون بذلك عن طريق الحق والإيمان ويتجاوزونه، تفسير السعدي ص٦٦٠، التفسير الميسر لنخبة من العلماء ص٣٨٢.

نباته لن يؤمنوا فقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ ﴾ (الشعراء: ٧، ٨).

## رابعاً: من آيات الله في دوابِّ الأرض:

وردت عدة آيات قرآنية تتحدَّث عن دوابِّ الأرض، وتبيِّن كثرتها وانتشارها على البسيطة، وتذكر أصل خلقها من الماء، وصَور حركاتها ومشيها[١]، وتنص على مشابهتها لبني آدم ومماثلتها لهم[٢]، وضمان الله رزقها[٣] كإياهم.

وتَضَمَّن كلام الله آيات أُخر تشير إلى أن وجود دوابِّ الأرض وتنوعها يُعتبر من آيات الله الدَّالَّة عليه، من ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾[٤] فهي أمارات كافية لتحقيق اليقين بباريها، كما جاء في قوله سبحانه ـ مخاطباً البشر ـ : ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (الجاثية: ٤).

---

(١) كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النور: ٤٥).

(٢) كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (الأنعام: ٣٨). ومعنى ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ أي في خلق الله لها ورزقه إياها، ونفوذ مشيئته وإرادته فيها، وهي مثل البشر في تجانس الخلق بينها، وحاجاتها إلى الطعام والشراب والحياة، ولها إسهام ووظائف لقيام هذه الحياة على الأرض... انظر: تفسير السعدي ص٢٥٣.

(٣) كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ (هود: ٦) ونحوها في العنكبوت: ٦٠.

(٤) الشورى: ٢٩، ونحوها في البقرة: ١٦٤، ولقمان: ١٠.

ولقد تكلَّم طائفة من الأوائل عن بعض آيات الله في دوابِّ الأرض وطيورها[1]، ثم جاء المتخصِّصون في علوم الحيوان، والطير، والحشرات، والجراثيم( المخلوقات الدقيقة) والأحياء البحرية وغيرها في العصر الحديث، فكشفوا عن آيات الله فيها ـ بغير قصد طبعاً ـ وشرحوا منها شيئاً كثيراً.

وإذا كان القرآن قد أشار لبعض آيات الله في الأنعام والطيور، ولحوم البحار، ودعى لتدبر ذلك، والاستدلال به على الخالق البديع الرزاق الحافظ الهادي، الرحمن الرحيم، فإن العلم الحديث قد بيَّن وفصَّل الكثير من الحقائق في عالم الأحياء من أصغر دابَّة وحتى أكبرها.

إن لله آيات في خلق دوابِّ الأرض البرية والبحرية والجوية، في مكوِّناتها وأشكالها وخصائصها ومميزاتها، وله آيات في طريقة غذائها وتنفُّسها وتكاثرها، وله آيات أخرى في تحديدها لمساكنها وبناء بيوتها، وهجرتها، وتغذية صغارها، وله آيات في هدايتها لما يصلح لها ويُصلح حياتها.

وحتى تتضح لنا تلك الآيات، رأيت تقسيم هذه الفقرة إلى الأقسام الثلاثة التالية:

**أولاً**: من آيات الله في دوابِّ الأرض الجوية (الطيور).

**ثانياً**: من آيات الله في دوابِّ الأرض البرية.

**ثالثاً**: من آيات الله في دواب الأرض البحرية.

---

(١) كالجاحظ في كتابه (الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير) والغزالي في كتابه: (الحكمة في مخلوقات الله). وابن القيم في كتابيه: (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل). و(مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة).

ولنبدأ بالنوع الأول من الآيات:

## أولاً: من آيات الله في دواب الأرض الجويَّة:

هناك آيات تتعلَّق بطيور السماء التي تدبُّ على الأرض، أشار القرآن إليها، وجاء علماء العصر الحديث ـ المتخصِّصون ـ فكشفوا أسراراً كثيرة عجيبة عما ألمح إليه القرآن الكريم، من ذلك:

### أ ـ تحليق الطيور، وهجرتها:

دعى الله خلقه لتأمُّل بقاء الطيور معلَّقة بين السماء والأرض، صافَّات الأجنحة أو قابضات لها دونما سقوط، ففي ذلك آيات للباحثين عن الحق، الراغبين بالإيمان، حيث قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل: ٧٩)، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾[1].

رغم أنَّ جمال الطيور وأشكالها المتناسقة الألوان تعتبر دليلاً كافياً على إبداع مصوِّرها وكمال قدرته سبحانه وتعالى[2] ـ انظر الشكل (٤٦) ـ.

---

(١) الملك: ١٩. ونحوها في النور: ٤١.

(٢) قد شرح ذلك ابن القيم في مفتاح دار السعادة ص٢٥٤-٢٥٥.

## شكل (٤٦)


﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا
سبحانه بل له ما في
السموات والأرض كل له
قانتون ﴾ البقرة ١١٦

إلا أن خلقها على هذه الصفة التي تمكنها من الطيران يدل على أن خالقها عليم خبير قدير، فلقد اكتشف علماء الطيور أن من أسباب طيرانها:

١- شكل جسمها الانسيابي.

٢- بسطة أجنحتها المزوَّدة بالريش.

٣- عظامها المجوَّفة الخفيفة.

٤- الأكياس الهوائية الموجودة بين أحشائها، فهي متعلقة بالرئتين، وتمتلئ بالهواء عند الطيران فيخف وزن الجسم.

٥- وجود الهواء الذي تسبح فيه الطيور.

لقد كشف العلم أن الطيور الصَّافَّة تعتمد في طيرانها على التيارات الهوائية المساعدة، التي تنشأ إما من اصطدام الهواء بعائق ما، أو من ارتفاع أعمدة من الهواء الساخن... ووجد العلماء أن غالبية الطيور تتحلَّى بخصائص منها:

خفة الوزن[1]، ومتانة البناء، وعلو كفاءة قلبها ودورة دمها وجهازها التنفسي، ودقة اتزانها، واكتشفوا أيضاً أن الطيور الصَّافَّة تتميَّز عن سائر الطيور باختصار حجم عضلات صدورها، مع قوة الأوتار والأربطة المتصلة بأجنحتها حتى تستطيع بسطها فترات طوال من دون جهد كبير، وأن الطيور ذات الأحجام الصغيرة تعتمد في طيرانها على الرفيف، فإنها تضرب بجناحيها إلى أسفل وإلى الأمام لتوفير الدفع والرفع اللازمين لطيرانها، ثم تقبض أجنحتها، ولكنها تظل طائرة بقوة اندفاعها المكتسبة....

---

(١) مع استثناء طيور الحدأة والنسر ونحوها من الطيور فهي ثقيلة الوزن.

وهكذا يتظافر البناء التشريحي، والتكوين الهندسي للطيور بكافة أنواعها على تحقيق طيرانها في السماء، وتوجيه أجسامها، وحفظ توازنها...

ولا زال الباحثون في عالم الطيور حتى اللحظة في حيرة من توجه آلاف الطيور في جوِّ السماء إلى بلاد بعيدة، مهاجرةً لمسافات تبلغ آلاف الكيلومترات ـ وأحياناً فوق البحار ـ ثم عودتها إلى أوطانها، بل إلى أعشاشها، من غير أن تضيع في الفضاء الواسع؟![1] أو تضل طريقها فوق المحيطات الخالية من العلامات.

بل لقد قام بعض العلماء الأمريكيين بأخذ عدة طيور من مدينة إلى مدينة أخرى، بعيدة عنها عدة ساعات في الطائرة، بعد أن وضعوها في صناديق مظلمة، ثم أطلقوها، فعادت تلك الطيور بعد فترة قصيرة إلى مواطنها الأصلية، ولم يعرف العلماء سر قدرتها على عودتها، ومعرفة طريقها!!

### ب ـ خصائص بعض الطيور ومميزاتها:

لقد مُيِّزت بعض الطيور واختُصت بأمور تمكنها من الحياة الأفضل في بيئاتها، من ذلك:

---

(١) انظر:

أ ـ العلم يدعو للإيمان، لكريسي موريسون ص١١٣-١١٤.

ب ـ الكون والإنسان بين العلم والقرآن، تأليف بسَّام دِفْضَع، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، دمشق ـ سورية ص٢٣٥ وما بعدها.

ج ـ آيات الله في النحل... الطيور... البغال، لمحمد عثمان، دار الراشدين، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م دمشق ـ بيروت ص٤٣ وما بعدها.

١ ـ قدرتها العالية للوصول لأهدافها، فالبومة تستطيع أن تبصر الفأر الدافئ... وهو يجري على العشب البارد مهما تكن ظلمة الليل...، وللصقور بصرٌ تلسكوبي يحقق لها إبصار الهدف مهما بعُد.

وللخفاش نظام اتصالات لتحديد الأهداف في الظلام بشكل مدهش، فقد تبيَّن من خلال سلسلة تجارب قام بها العلماء على هذا النوع من الطيور، أنه قادر على الوصول لهدفه ـ سواء كان فريسة أو مسكناً ـ وذلك كما يلي:

ـ في أُولى هذه التجارب تُرك الخفاش في غرفة مظلمة تماماً، ووُضعت ذبابة في إحدى زوايا الغرفة كفريسة له، ووُضِعت كاميرا ليلية لمراقبة الوضع، وما إن بدأت الذبابة بالطيران حتى تحرَّك الخفاش بغاية الخفة نحوها، وانقضَّ عليها، فاستنتج العلماء من هذه التجربة أن الخفاش يتمتع بحاسة إدراك حادَّة جدّاً حتى في الظلام الحالك.

ـ لكنهم تساءلوا: هل حاسة الإدراك هذه لها علاقة بحاسة السمع؟ أم أن هذا المخلوق يرى في الظلام؟

للإجابة على ذلك قاموا بتجربة أخرى، حيث وضعوا حشرتين في زاوية من زوايا الغرفة نفسها، وغطّوهما بصحيفة، وعندما أُطلق الخفاش اتجه مباشرة لالتهامهما رغم عدم رؤيته لهما، فمهارة الخفاش الإدراكية لا علاقة لها بحاسة الرؤيا.

ـ تابع العلماء تجاربهم على الخفاش، فقاموا بتجربة جديدة في دهليز طويل، حيث وُضِع خفاش في إحدى الزوايا، ومجموعة من الفَراش في الزاوية الأخرى،

ووُضِعت حواجز متعامدة مع الجدران الجانبية، يحتوي كل منها على ثقب كبير بما يكفي لمرور الخفاش منه ـ ولكن هذه الثقوب لم تكن متعامدة، بل كانت موجودة في كل حاجز بمكان يختلف عن الآخر.

أي أنه يجب على الخفاش أن يسلك طريقاً متعرِّجاً ليجتازها.

بدأ العلماء المراقبة عندما حرَّروا الخفاش في هذا الدهليز الغارق في الظلام، لقد دُهِشوا عندما تبيَّن لهم اجتياز الخفاش للجدران والثقوب بسهولة، حيث تمكن من تحديدها جميعها والوصول لصيده.

ثم قام العلماء بتجربة أخيرة لاكتشاف مدى حساسية الإدراك عند الخفاش، حيث جهّزوا نفقاً طويلاً مظلماً بأسلاك فولاذية، يبلغ قطر كل منها ٠.٠٦ ملم ـ أي بقدر سماكة خط هذا القلم الذي نحرر به الرسالة ـ وجعلوها تتدلَّى بشكل عشوائي من السقف....

وراقبوا رحلة الخفاش لهدفه، فوصل إليه دون أن يلمس أيّاً من هذه العوائق، رغم ضآلتها.

ـ لقد أظهرت الأبحاث التي تلت هذه التجارب أن لدى الخفاش قدرة بالغة على الإدراك، تتعلَّق بنظام خاص به، يعتمد على صدى ذبذباته الصوتية، حيث يتمكن الخفاش من خلال هذا النظام من تحديد خارطة البيئة التي يعيش فيها، وتحديد المسافات بينه وبين أهدافه... إنه يصدر حوالي (٢٠٠.٠٠٠) دائرة صوتية في الثانية الواحدة، ولديه قدرة عظيمة على تحليل كل الأصوات المنعكسة... ووجد الباحثون من خلال تجاربهم على الخفاش أنه إن طار لمسافة (٥٠-٧٠) كم متجوِّلاً في عدد من المناطق، بعيداً عن مسكنه، فإن

بإمكانه أن يعود بخط مستقيم لمأواه قبل بزوغ الشمس بقليل، لأنه لا يرى في الضوء مطلقاً[١].

إن علماء الطيور يؤكدون على ما أثبته الواقع من أنها لا تمتلك معرفة سابقة بالمواقع عند هجرتها إليها، أو بأماكن غذائها عند بحثها عنه.

فكيف اهتدت إلى ذلك كله؟!

وكيف اهتدى الحمام الزاجل لحمل رسائل البشر إلى مسافات طويلة بسرعات هائلة[٢]؟!

وليس هذا فسحب، بل لا يزال العلماء في حيرة أمام طائر «الزرزور المهاجر» والعائد لوطنه بعد فترة.

فمن عادة هذا الطائر حرصه على النظافة لبدنه[٣] وعُشِّه، إلى درجة كبيرة تشبه التعقيم الطبي، لقد تبين للعلماء أنه يعود إلى عشه القديم كل عام، بعد

---

(١) التصميم في الطبيعة، لهارون يحيى، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، بيروت - لبنان ص٧٤-ص٧٩ باختصار، نقلاً عن:

أ- سمر مارياتوروس (بحث علمي حول الخفافيش)، بوسطن، المطابع الأكاديمية الوطنية، أيلول ١٩٩٦م، ص١٩٢، ١٩٥.

ب- دونالد غريفن (هندسة الحيوانات) سان فرانسيسكو، جامعة روكفلر، فريمان، ص٧٢،٧٥.

ج- مارلين توتال (إنقاذ خفافيش أمريكا الشمالية المحاصرة) المجلة الجغرافية، آب ١٩٩٥، ص٤٠، ولابن القيم كلام عن الخفافيش في كتابه مفتاح دار السعادة ص٢٥٦.

(٢) حيث تقطع مسافة (٦٠٠) ميل في اليوم الواحد. انظر: آيات الله في النحل... الطيور...، لمحمد عثمان ص٥١.

(٣) حيث يقضي وقتاً طويلاً في رشِّ جسمه بالماء، وطرد أيّة حشرة تتسلّل إلى ريشه. المرجع السابق ص٥٠.

غياب طويل في الشتاء، يكون عشه المهجور حينها قد امتلأ بالميكروبات والفطريات والطفيليات، ولاحظوا أن ذكور هذا الطائر تقوم أثناء فصل الربيع بالتقاط بعض أوراق النباتات، ورصها بنظام حكيم في عشها، وحياكتها بطريقة عجيبة، وعند دراستهم لذلك تبين لهم أن طائر الزرزور هذا يختار أربعة وثلاثين نوعاً من أوراق النباتات الموجودة في بيئته والتي تبلغ ثلاثة وستين نوعاً، وتبين لهم أنه يُفضِّلُ منها تسعة أنواع فقط يقوم بوضعها في عشه قبل العودة إلى العيش فيه مرة أخرى، وعند إجرائهم عدة فحوصات وتجارب على هذه الأوراق اكتشفوا أنها تحتوي على مواد تقاوم البكتيريا، وتَحُدُّ من القمل الذي يغزو ريش الطيور، ووجدوا أن هذه النباتات تحتوي على نسبة عالية من الأبخرة المؤلَّفة من غازات طيارة ذات خواص تعقيمية طبية طبيعية.

فمن الذي علَّم الطير كل ذلك وهداه إليه؟!

فهل كان هذا كله عن طريق المصادفة؟ أم أنها إرادة خالق مبدع قادر مريد!!!

**٢ ـ تشكيل مناقيرها بما يناسب تناولها لطعامها:**

جُعلت مناقير الطيور بصورة مناسبة لخلقها، ولنوع الطعام الذي خُصِّص لها، حسب بيئتها التي حوتها، وإذا كان ابن القيم رحمه الله قد تحدَّث عن شيء من آيات الله في سيقان الطيور وأعناقها ومناقيرها ليتناسب ذلك كله مع بيئة طعامها وطريقة تناولها لطعامها، فإن العلماء المعاصرين يتعجّبون من:

أ ـ الطائر المسمَّى (أبو ملعقة)، فله منقار سابر دقيق، وفي مقدمته مصفاة للطين، لأن طعامه في الوحل.

ب ـ الطائر المسمَّى (الحسون)، فمنقاره ساحق للحبوب لأنها طعامه المفضَّل.

ج ـ الصقر الذهبي، فمنقاره حاد معقوف، يستطيع بواسطته أن يمزق اللحم، طعامه الأوحد.

د ـ نقّار الخشب، فمنقاره كالإزميل، وله أعصاب قوية في رقبته[1]، لنقر الأخشاب، فطعامه في سوق الأشجار ـ انظر الشكل(٤٧) ـ.

### ٣ ـ تعاونها وتكاملها لنماء الزرع وخدمة الإنسان:

تبيّن من خلال ملاحظة بعض الطيور كالغراب والبوم والخفاش، أنها تقدم خدمة كبرى للفلاّح في مزرعته، فإذا كان الفلاّح يحرث، ويبذر، ويسقي، ويُنقّي الأعشاب المحيطة بزرعه، فإنه يعجز عن إبادة الحيوانات التي تفتك بزرعه صباحاً ومساءً كالجرذان والفئران والحشرات... إلخ، فجُعِل غذاء البومة في ذلك كله لتقوم بدورها في الظلام الدامس، فإذا بقي شيء مما يؤذي النبات أو البذور كالفراش ونحوه من الحشرات التي تبيض في الأرض، فتضرّ الزرع ببيضها الذي قد يتحول إلى ديدان آكلة للنبات، تلقّاه الخفاش فإن غذاءه الفراش وغيره، فإذا بقي شيء من الآفات التي أفلتت من البوم والخفاش، أو ظهرت الديدان في التربة، أُرسل عليها الغراب لأكلها وتنقية التربة طوال النهار.

ـ فهل تخصيص أرزاق هذه الطيور بهذه النوعية من الحشرات الضارة بالزرع، وبهذه الكيفية جاء عبثاً؟!

ـ وهل تسخير هذه الطيور للإنسان لخدمته، وتحقيق توازن البيئة كان بغير قصد؟! أم أنَّ هناك إرادة حكيمة لرحمن رحيم؟!

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم ص٢٥٤-٢٥٦.
و: التصميم في الطبيعة، لهارون يحيى ص١٤٦.

**شكل (٤٧)**



نقّار الخشب اختصه الله بمنقار كالإزميل على غير مناقير الطيور الأخرى، وزاده أعصاباً قوية في رقبته ليتمكّن من حفر بيته في الأشجار بسهولة

## ثانياً: من آيات الله في دواب الأرض البرِّيَّة:

أشار ابن القيم إلى كثرة دواب الأرض البرِّيَّة من البهائم والوحوش وغيرها، وهي على كثرتها لا يبدو منها إلا القليل لِحِكَمٍ عظيمة أرادها بارئها[1]، والذي يهمنا هنا هو عرض شيء من آيات الله فيها، ولنبدأ بما نصَّ عليه كلام الله:

### أ ـ ألبان الأنعام ولحومها:

الأنعام نعمة من الله، وفيها آيات تدل على بارئها، وتستحق أن يُشكر عليها، قال تعالى مخاطباً كلَّ ذي سمع وبصر وعقل ممن يتنعّمون بنعمة الأنعام: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس: ٧١-٧٣) وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ (النحل: ٦٦).

لعلماء الغذاء والنبات والحيوان كلام نفيس عن الحقائق العلمية التي تضمنتها الآية الثانية، وقبل أن أشرح ذلك، أذكر أهم ما قاله المفسرون عن معناها:

فقد اختلفوا في ذلك، بسبب اختلافهم في فهم مدلولات بعض ألفاظها، حيث تصوّر بعضهم أن لفظ ﴿ مِنۢ بَيْنِ ﴾ جاء للتبعيض، أي من بعض الفرث، أو من بعض الدم، بينما رأى آخرون أنها مكانية، أي من مكانٍ بين الدم والفرث، وخلاصة ما قالوه أن:

---

(١) من ذلك: ليأنس الإنسان في حياته ومحل قراره.

١ ـ الفرث هو مصدر الدم واللبن، أي يخرج الدم من الفرث، ويخرج اللبن من الفرث كذلك[١].

٢ ـ مكوِّنات اللبن تُستخلص من الفرث، ثم تستخلص من الدم[٢]، وهذا يوافق ما جاء به العلم الحديث، فلفظ ﴿ خَالِصًا ﴾ الوارد في الآية يدل على أن مواد اللبن تخلص من بين الدم، بعد أن خلصت من الفرث[٣]، وأن اللبن لا يستصحب لون الدم ولا رائحة الفرث[٤]، أو حمرة الدم وقذارة الفرث[٥]، أو خالصاً عن شائبة ما في الدم والفرث من الأوصاف[٦].

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي، تأليف ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عُمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت٧٩١)هـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، بيروت ـ لبنان ٢/ ٤١١. و: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٢٤١.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ١٠/ ١٢٤-١٢٥. و: تفسير أبي السعود المسمّى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (٨٩٨-٩٥٢)هـ مكتبة ومطبعة محمد علي صُبيح، ط(بدون)، د.ت ـ مصر. و: زاد المسير، لابن الجوزي ٢/ ٥٦٨. حيث قال: «الفرث ما في الكرش، والمعنى أن اللبن كان طعاماً، فخلص من ذلك الطعام دم، وبقي فرث في الكرش، وخلص من ذلك الدم اللبن الخالص». أ.هـ بتصرف يسير.

(٣) أشار إلى هذا الطبري بقوله: «خلص من مخالطة الدم والفرث فلم يختلطا به». انظر: جامع البيان ١٤/ ١٥٩.

(٤) تفسير البيضاوي ٢/ ٤١١. و: تفسير البغوي المسمَّى معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (٤٣٣-٥١٠)هـ حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، الرياض ـ السعودية ٥/ ٢٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ١٠/ ١٢٥. وفتح القدير، للشوكاني ٣/ ٢٤١.

(٦) حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين، للعلامة الشيخ أحمد الصاوي المالكي، مذيّلاً بلباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، أشرف تصحيحه صدقي محمد جميل، دار الفكر، ط(بدون)، ١٩٩٣م/ ١٤١٤هـ بيروت ـ لبنان ٢/ ٣٩٣.

هذه أهم الأقوال التي قالها المفسرون في معنى الآية، وقبل أن أذكر التفسير العلمي لها، أقول:

لقد ذكر علماء الغذاء المعاصرون أن الإنسان يحتاج لحفظ حياته إلى أغذية تتألف من المواد البروتينية، والمواد الدهنية، والأملاح المعدنية، والفيتامينات.

والبروتينات منها الكاملة ومنها الناقصة، وإن أعظم مصدر للبروتينات هو اللحم واللبن، وإن المواد الدهنية هي أغنى الأغذية في إنتاج الحرارة والطاقة، ومن أعظم مصادرها: السَّمن والزبدة واللبن واللحم، كما أن أهم أنواع الفيتامينات موجودة في اللحم واللبن.

وهذا كله مصدره الأنعام (الإبل ـ البقر ـ الغنم).

ويقول العلماء: إن هذه الأنعام هي وحدها ـ من بين جميع الحيوانات اللبونة ـ التي تنتج اللبن باستمرار، وبكثرة، حتى لو فُطِم عنها رضيعها، وهي وحدها التي تجمع بين هذه الخصائص، وبين القدرة على الحرث والحمل والجر، فهي آكلة عشب بسيط، يسيرة التغذية في نفسها، لكنها مخازن عظيمة، ومصانع دائبة لأهم أنواع الغذاء لغيرها.

وكان من المتوقع عقلاً أن تنتج هذه الأنعام ـ التي كل غذائها العشب والتبن والشعير ونحوه[1] ـ مادة نشوية سكرية، ولا تنتج لحماً ولا لبناً ولا سمناً ولا شحماً، فكيف تم ذلك؟! وما هي مراحل تكوين اللبن الخالص السائغ؟

يقول المتخصصون في ذلك ـ باختصار ـ : يتم تكوين اللبن في الأنعام بالتنسيق المحكم والتدرج الدقيق بين الجهاز الهضمي، والجهاز الدوري، والجهاز

---

(١) آيات الله في النحل... الأنعام...، لمحمد عثمان عثمان ص١٦-١٩ باختصار.

التناسلي، عن طريق الغدد اللبنية في الضروع وغيرها من الأجهزة، حيث جعل الله لكل جهاز وظيفة وأعمالاً خاصَّة يقوم بها، فينتج في نهاية المطاف اللبن، الخالص، السائغ للشاربين....

**وتتم عملية تكون اللبن من المراحل التالية:**

١ ـ الهضم بأنواعه[١]... ابتداء من تقطيع مواد العلف بالمضغ وخلطها باللعاب... ومروراً بالمعدة، ثم اجترار الكتلة الغذائية من الكرش إلى الفم لإعادة مضغها وخلطها باللعاب، ثم إعادة بلعها إلى المعدة لتتحلَّل السكريات والبروتينيات.... وغير ذلك من العمليات .... التي تحوِّل العلَف إلى فرث... وبانتقال الفرث إلى الأمعاء الدقيقة تستمر عملية الهضم من خلال إنزيمات هاضمة في الأمعاء والبنكرياس والعصارة الصفراء في الكبد.

وبهذا يتم تحليل الأطعمة المحتوية على الجزئيات المعقَّدة جداً إلى جزئيات بسيطة.... ويتحوَّل الفرث الصَّلب بعد هضمه في الأمعاء إلى فرث رائق[٢].

٢ ـ الاستخلاص من بين الفرث: حيث تقوم الخملات[٣] في الأمعاء الدقيقة بامتصاص المواد الغذائية المحلَّلة، بعدة طرق[٤]... وتصل هذه المواد إلى داخل

---

(١) ويشمل: الهضم الحركي، والكيماوي، والميكروبي (بواسطة خمائر الميكروبات الموجودة في كرش الأنعام).

(٢) يمكن تحريكه داخل الأمعاء بسهولة كما يفعل الجزَّار عند تخلصه من فرث الأمعاء.

(٣) هي عبارة عن بروزات أو نتوءات تغطي سطح بطانة غشاء الأمعاء الدقيقة لكي تزيد من سطح الامتصاص، ويبلغ طولها في الأبقار حوالي ١٧م٢.

(٤) منها: الأسموزية أو الانتشار، والنفاذية لاختلاف الشحنات الكهربية، وبالفعل الحيوي للأنسجة الطلائية أي بالاختيارية.

الأوعية الدموية الصغيرة، الواقعة تحت النسيج الطلائي[١]، ومنها إلى الأوعية الدموية الأكبر، فتدخل في تيار الدورة الدموية.

٣ ـ الاستخلاص من بين الدم: حيث يقوم الدم بنقل هذه المواد الغذائية إلى جميع خلايا الجسم، والتي منها خلايا الضروع، فيتم فيها امتصاص مكوِّنات الحليب من بين الدم.

٤ ـ تصنيع اللبن في الضرع: بعد وصول جميع مكوِّنات اللبن الأساسية إلى الضرع ـ وخاصة إلى الغشاء القاعدي للخليَّة اللبنية، حيث يأخذ كل مكوِّن طريقه عبرها ليصل إلى القسم المناسب داخل الخلية[٢]، وتجري عليه جميع عمليات التصنيع.. فيخرج من الجهة العليا للخلية مادَّةً جديدة تُشكِّل مع المواد الأخرى الناتجة لبناً سائغاً للشاربين.

وهكذا تنتهي رحلة تصنيع اللبن في خلايا صغيرة جداً لا تُرى إلا بالمجاهر الحديثة، ليكون رزقاً للعباد.

لقد تبيّن لنا مما سبق أن مكوِّنات اللبن تُستخلص بعد هضم الطعام من بين الفرث، وتجري مع مجرى الدم لتصل إلى الغدد اللبنية في ضروع الإناث، التي تقوم بدورها باستخلاص مكوِّنات اللبن من بين الدم، دون أن تبقى أي آثار في اللبن في من الفرث أو الدم، وتضاف إليه في حويصلات اللبن مادة سكر اللبن

---

(١) أي تحت الأمعاء المغطّاة بالخملات.

(٢) علم الإيمان، للزنداني ٢/ ٣٤٣-٣٥٠ باختصار.

نقلاً عن عدة مراجع عربية وأجنبية ـ مقروءة ومرئية ـ أشار إليها في فهرس المصادر والمراجع، ص٥٥٩-٥٦٠.

والدهن التي تجعله سائغاً للشاربين، وهكذا يتجمع اللبن في كيس الثدي انتظاراً لحَلْبِه وقت الحاجة والطلب[١].

فمن علَّم محمداً الأمين ﷺ من بين سائر البشر في زمن الجاهلية قبل ١٤٠٠ عام تقريباً أن اللبن يُستخلص بعناية ودقة ويُصفَّى بتمييز واختيار، وتضاف إليه مواد معينة لتحقيق حلاوته وطيب نكهته ليلتذَّ شاربوه ويهنأوا بطعمه ورائحته، وتنمو أبدانهم بغذائه ومنتجاته!!

### ب ـ آيات وآيات في حيوانات وحشرات:

لا تزال آيات الله تترى في جميع مخلوقاته، ومن ذلك ما يتعلق بالحيوانات التالية:

١ ـ الخيل التي أقسم الله بها[٢]، وامتنَّ على خلقه بإنعامه عليهم بتسخيرها[٣]، فلها من الصبر والثبات وتحمل المتاعب والشدائد ما ليس لغيرها ـ وخاصة الجواد العربي كما شهد به الباحثون الغرب[٤] ـ.

وبإمكانها قطع المسافات الطويلة دونما أكل أو شرب[٥]، وهي من الحيوانات التي يتحقق شِفاؤها من المرض والجروح سريعاً.

---

(١) علم الإيمان، للزنداني ٢/ ٣٣٩-٣٥٤ باختصار. و: آيات الله في النحل.. والأنعام..، لمحمد عثمان عثمان ص١٧-١٩ باختصار. و: الكون والإنسان، لبسام دِفْضَع ص٢٣٠-٢٣١.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ (العاديات: ١-٥).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: ٨).

(٤) انظر: آيات الله في النحل... الخيل.. لمحمد عثمان ص٦٣-٦٤.

(٥) يُذكر في هذا أن الجواد العربي المسمَّى (النجمية) حملت عام ١٩٢٩ جنديًّا مقتولاً إلى الكويت قاطعة به مسافة ٢٨٥ كيلو متراً في ظرف ثلاثة أيام، من دون أكل ولا شرب، في فصل الصيف حيث بلغت درجة الحرارة آنذاك ٥٢°م في الظل. انظر: المرجع السابق ص٦٣-٦٤.

يقول كريسي موريسون إنك «إذا تركت حصانك العجوز وحده، فإنه يلزم الطريق مهما اشتدت ظلمة الليل، وهو يقدر أن يرى ولو في غير وضوح»[١].

٢ ـ الإبل: لم تكن دعوة الله لعقلاء خلقه إلى تأمل خلق الإبل وصفاتها دونما قصد وحكمة[٢]، فبالإضافة إلى فوائدها في الركوب والحرث والجر والحمل ومنافعها في لحمها ولبنها ووبرها وجلودها، فإن فيها آيات أُخرى وحقائق علمية، كشف الباحثون عنها، وألَّفوا في شأنها المؤلفات[٣].

لقد اختُصَّت الإبل من بين سائر الحيوانات بعدة خصائص جعلت منها سفينة الصحراء فعلاً، منها:

– تحملها العطش الشديد[٤].

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص١١٤.

(٢) قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية: ١٧).

(٣) يمكن الرجوع إلى: أ ـ آيات الله في النحل.. الأنعام..، لمحمد عثمان ص٢٠-٢٦.

ب ـ نظرات وحقائق علمية مدهشة في الإبل، للدكتور محمد مصطفى مراد الحموي (طبيب بيطري) دار الشوكاني، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، صنعاء ـ اليمن ص٤٢-٥١.

(٤) من الأسباب التي تجعلها تتحمل ذلك (كما يقول علماء الحيوان المعاصرون) باختصار:

أ – وجود السنام. ب – وجود أكياس مائية مرافقة للكرش.

ج – تحكُّمها بخروج الماء مع البول حيث تحبس أكثر قدر منه حتى لا يخرج معه.

د – تحكُّمها بخروج الماء مع البراز حيث تحبس أكثر قدر منه حتى لا يخرج معه.

هـ – قلة التعرُّق فيها. و – حجم معدتها المركَّبة واتساعها.

ز – قدرتها على امتصاص الرطوبة من هواء الجو.

ح – انخفاض عدد مرّات تنفسها في الدقيقة مما يقلل بخار الماء الخارج من جسدها.

ط – اختيارها المقصود للنبات أكثر رطوبة عند رعيها.

ي – قدرتها على شرب الماء المالح. وغير ذلك، انظر: المرجع السابق ص٤٢-٤٤.

- والحرارة العالية[١].

- والجوع الشديد، والتعب والإجهاد.

ولقد تبيَّن للعلماء أن أخفاف البعير وكَلْكَلِ صدره تعتبر مواداً عازلة للكهرباء تحميه من الصواعق الكهربائية التي قد تصله من السحب الممطرة[٢]، وأنه ليس له مرارة، مما يساعده على تناول كميات كبيرة من الغذاء، ولساعات طويلة فيصمد للسفر، كما تساعده هذه الخاصية على تكوين قدر كبير من احتياجاته للشحوم والدهون، وبصفة خاصة في السنام، لتساعده على تحمل الظروف الشاقة في مواسم الجفاف والمجاعة، وتبيَّن للباحثين أن بإمكان الجمل الصبر على الماء لمدة شهرين متتاليين إذا كان الغذاء غضاً رطباً، أو أسبوعين إن كان جافاً[٣].

وأنَّ للإبل مقدرة عظيمة على تحويل النباتات الشوكية القليلة الغذاء جداً إلى مواد غذائية هامَّة، وذات فائدة كبيرة جداً[٤].

(١) اكتشف العلماء أن الإبل عكس الإنسان فدرجة حرارتها غير ثابتة كالإنسان، بل هي متغيرة انخفاضاً وارتفاعاً حسب أحوالها وبيئتها، فهي في الصباح الباكر تكون ما بين (٣٤-٣٥)° م، وعند الظهيرة ترتفع إلى (٤١-٤٢) ولو كان هذا في الإنسان لتعرض للاحتباس الحراري الذي يؤدي إلى الموت. وهناك عوامل أخرى جعلت الإبل تتحمل الحرارة العالية. انظر: المرجع السابق ص٤٥-٤٩.

(٢) طبعاً إلا أن يشاء الله شيئاً آخر.

(٣) الكون والإنسان، لبسام دفضع ص٢٣٢-٢٣٤ باختصار.

(٤) من المعروف في تغذية الحيوان أنه لا يمكنه أن يبني جسمه أو يُنتج الحليب الكامل الغذاء إلا إذا قُدِّمت له أعلاف كافية، ومحتوية على المكوِّنات الرئيسية للحليب، وهذا كله يختلف مع الإبل التي تتغذَّى على شوك الصحراء قليل الفائدة قليل الكمية، فتحوله إلى بروتين حيواني نحصل عليه على هيئة لحم وحليب ووبر وغيره... ا.هـ. المرجع السابق: ص٢٣٤.

لقد اكتشف أخصائيوا الإبل حقائق علمية مدهشة في خفافها، وسنامها، ودمها، وضروعها، وحليبها، وآلية بلعها، وجهازها التنفسي، وجلدها، وعيونها، وهيكلها العظمي، وأسلوب رعيها، وغير ذلك[١]، مما يدل على إبداع خالقها، وعلمه السابق لبيئتها، ورحمته بها وبالمستفيدين منها[٢].

**٣ ـ الزرافة:** تُعدُّ الزرافة بطولها الفارع (٥ أمتار) واحدة من أكبر الحيوانات على وجه الأرض، وأطولها، إلا أن هذا الحجم الكبير والطول العجيب يتطلبان نظاماً دورانياً فريداً للدماء في جسدها.. حيث يرتفع الدماغ فوق القلب بمترين ـ انظر الشكل (٤٨) ـ وهذا يتطلب بُنية غير عادية للقلب، لذلك خُلق قلب الزرافة قويّاً بما يكفي لضخ الدم تحت ضغط (٣٥٠) ملم زئبقي. هذا النظام القوي لو كان في الإنسان العادي كان من الممكن أن يقتله.

لقد وجد الباحثون أنه يوجد في الزرافة نظام دموي دوري يشبه حرف U (باللغة الإنجليزية)، في المنطقة الواقعة ما بين الرأس والقلب ـ انظر الشكل السابق ـ يتكوَّن من الأوعية الصاعدة والنازلة، حيث تقوم السوائل التي تتدفَّق في الأوعية بالاتجاه المعاكس بموازنة نفسها، مما يحمي هذا الحيوان من ارتفاعات خطيرة في ضغط الدم التي قد تسبب نزيفاً داخلياً...

---

(١) كجهازها البولي.

(٢) انظر: تفاصيل ذلك في نظرات وحقائق علمية مدهشة عن الإبل، للدكتور محمد الحموي ص٩-٤٠.

## شكل (٤٨)



جعل الله قلب الزرافة قادراً على ضخ الدماء لأعلاها ـ حيث يصل ارتفاعها إلى خمسة أمتار ـ تحت ضغط ٣٥٠ ملليمتر زئبقي، ولو كان ذلك للإنسان لقتله .

قال تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (النمل: ٨٨)

وتبيَّن لهم أن الخطر الأكبر الذي تتعرض له الزرافة، هو الانحناء الذي تقوم به عند حاجتها لشرب الماء، ففي هذه اللحظة يرتفع الضغط المرتفع أصلاً بما يكفي ليسبب نزيفاً داخلياً، إلا أن الزرافة لا تعاني من ذلك، فقد وقاها خالقها من هذا النوع من الخطر، بأن جعل لها سائلاً خاصّاً هو السائل المخِّي الشوكي الذي يوجد أيضاً في الدماغ والعمود الفقري، حيث يقوم بتوليد ضغط معاكس ليمنع حدوث تمزُّق الأوعية الشعرية، كما يدعم هذا التوازن صماماتٌ في القلب تعمل باتجاه واحد، وتنغلق عندما يخفض الحيوان رأسُه، حيث تقلِّل هذه الصمّامات من تدفق الدم[١]، لتتمكن الزرافة من خفض رأسها، والنَّهَل من الماء بأمان[٢]...

يدل هذا كله على أن خالقها حكيم حفيظ رؤوف لطيف!!

أكتفي بما سبق بيانه من آيات عن الحيوان، وهناك آيات أُخرى في حيوانات أُخر كالتمساح، والعقاب، والثعلب، والفئران، والقنافد، وغيرها، فلتُراجع في موضعها[٣].

آيات أخرى تتعلق بحنان الحيوانات والطيور بصغارها وحمايتها لها ورعايتها كذلك، والصور الآتية فيها تعبير صادق عن مدىٰ الحب والعطف القائم بين الحيوانات، ـ انظر الأشكال (٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢) ـ.

---

(١) ولمواجهة ارتفاع ضغط الدم أيضاً جعل الله سماكة الجلد في الساقين والقدمين مضاعفة على غير جسدها كله.

(٢) التصميم في الطبيعة، لهارون يحيى ص١٦٢ باختصار وتصرف.

(٣) انظر: أ ـ مفتاح دار السعادة، لابن القيم. ب ـ العقيدة في الله، للدكتور عمر الأشقر.
ج ـ العلم يدعو للإيمان، لكريسي موريسون. د ـ آيات الله في النحل.. البغال، لمحمد عثمان.
هـ ـ براهين وأدلة إيمانية، لعبدالرحمن الميداني. و ـ الكون والإنسان، لبسام دفضع.
ز ـ حقائق علمية في القرآن عن الحيوان، إبراهيم محمود، المكتب الجامعي الحديث، ط (بدون)، د.ت، الإسكندرية ـ مصر.

**شكل (٤٩)**



حنان الأمهات بأبنائها قبس من صفات الرحمن الرحيم

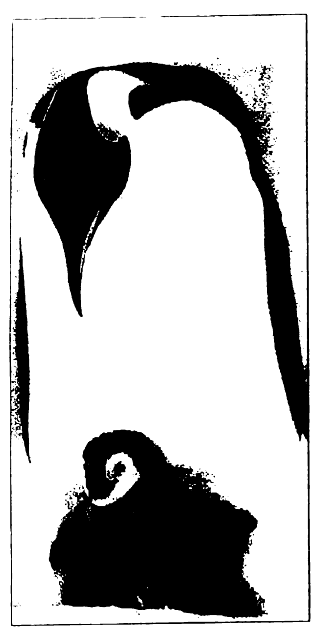
## شكل (٥٠)



حماية الأمهات لأبنائها

فطرة الله التي غرسها في الحيوانات

قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (الأنعام: ٣٨)



يقف البطريق على قدميه لمدة أشهر لحمل وحماية صغيره من البرد



تحمل أنثى التمساح صغارها في فمها لنقلهم أو حمايتهم.

# شكل (٥١)



حيوانات في البر والبحر والجو تحمل صغارها لإبعادها عن الخطر

## شكل (٥٢)



يروي الدجاج البري نفسه بالماء أولاً، ثم يبلل ريشه بذلك لينقله إلى صغاره، ويستمر على هذا الحال لمدة شهرين، حتى يتمكن صغاره من الاعتماد على نفسها في إرواء ظمئها.



تقوم أنثى اللقلق بحمل الماء في بلعومها لإرواء صغارها

وأما آيات الله في الحشرات فهي أكثر من أن تُحصى وتُستقصى، ومنها على سبيل المثال ما حكاه الباحثون عن:

١ ـ **الزنبور:** فهو بعد اصطياده للجندب (النطَّاط) يحفر حفرة في الأرض، ويخزُ الجندبَ في مكان ما، حتى يفقد وعيه ـ لكنه يعيش كنوع من اللحم المحفوظ ـ وأنثى الزنبور تضع بيضها في نفس الحفرة، ثم تقوم بدفن بيضها مع الجندب الذي فقد وعيه، فإذا فقست بيوضها، وجدت غذاءها لحماً طريّاً محفوظاً... رغم رحيل الأم، وموتها بعد تجهيز غذاء أولادها[1]!!

فمن علَّمها هذا كله؟! لا شك أنه عليم خبير رزَّاق.

٢ ـ **الذباب:** لو لم يكن الذباب آية من آيات الله لما ضرب الله به المثال لتوضيح عجز وضعف آلهة المشركين، قال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ (الحج: ٧٣) لقد اكتشف الباحثون في علم الحشرات مما يتعلق بالنصف الثاني من الآية السابقة أن الذباب مزوَّد بغدد لعابية طويلة، وغنية جدّاً باللعاب، وأنه بمجرَّد أن يأخذ شيئاً من الطعام، سرعان ما يُفرز عليه كمية كبيرة من اللعاب تحوِّله من فوره إلى مادة أخرى[2]، فإذا أخذ الذباب شيئاً ما علينا، وأردنا استرداده بعينه منه فلا نستطيع ذلك أبداً.

فمن أدرى محمداً ﷺ بهذا!!

---

(١) العلم يدعو للإيمان، لكريسي موريسون ص١٢٩. وانظر: الله جل جلاله، لسعيد حوى ص٧٢.

(٢) آيات الله في النحل... الذباب...، لمحمد عثمان ص١٥.

ويقول المختصون بدراسة حياة الذباب: لو أن عمر الذبابة كان عدة أعوام بدلاً من عدة أسابيع أو أشهر لزادت أفراد هذه الأمة زيادة تملأ البر والبحر والجو، ولهلكت معها الحياة، فذبابة البيت بعد سبعة أيام من تفقيسها تصير قادرة على الطيران، ووضع البيوض، وتبيض أكثر من مائة بيضة في دفعة واحدة، وتبيض مثلها كل عشرة أيام، والذبابة الواحدة تُنسِل تسعة أجيال في المتوسط، فإذا أحصينا سلالة ذبابتين ذكراً وأنثى، فربما يبلغ تعدادها في هذه الفترة (٣٣٥.٩٢٣.٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠) أي ثلاثمائة وخمسة وثلاثين مليار، وتسعمائة وثلاثة وعشرين مليون، ومائتي ألف ذبابة، ولو قُدِّر لهذه الذرية كلها أن تعيش، وينتشر الذباب في الأرض، لغزت هذه الحشرة الأرض وأهلكتها.

والذبابة الواحدة تنقل أكثر من ثلاثين نوعاً من جراثيم الأمراض، وتحمل معها ما يقارب من خمسة ملايين جرثومة[1]!!

أو ليس الذي خلقها فسوَّى هو الذي قدَّر فهدى، وقال: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر: ٤٩).

وقال أيضاً: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢)!!

**٣ ـ العنكبوت:** في القرآن سورة كاملة تُسمَّى سورة العنكبوت، ضرب الله فيها مثلاً لآلهة المشركين بالعنكبوت، الضعيف الحقير.

وقال فيها: ﴿ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤١).

---

(١) الكون والإنسان، لبسام دفضع ص٢٢٨ باختصار.

وقد سبقت الإشارة إلى حال بيوت العنكبوت[1].

ويبقى أن أضيف هنا ما ذكره الباحثون في علم الحشرات عن هذه الحشرة العجيبة، فقد ذكروا أن العنكبوت الأنثى هي التي تغزل البيت، ثم بعد التلقيح تفترس الذكر، بل وتأكل أولادها، والأولاد يأكل بعضهم بعضاً، فهو بيت متداعٍ[2].

وصدق الله في وصفه، وقوله: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٣).

وهي خمسة وثلاثون ألف نوع، تضمُّها عشر فصائل، منها العنكبوت الطائر، ومنها العناكب المائية التي تصنع لنفسها عُشّاً على شكل منطاد (بالون)، من خيوط بيت العنكبوت، وتُعلِّقه بشيء ما، تحت الماء، ثم تُمسك ببراعة فقاعة هواء في شعرٍ تحت جسمها، وتحملها إلى الماء، ثم تُطلِقها تحت العُش، ثم تكرِّر هذه العملية حتى ينتفخ العش، وعندئذ تلد صغارها وتربيها، آمنة عليها من هبوب الهواء!!

إن الذي ألهمها هذا العمل، من صُنع نسيج بيتها بشكله الهندسي المتقن بلا خطأ، ولا تعلُّم، ولا تعليم، ولا مدرسة[3]، لهو ﴿ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[4].

---

(١) راجع ص٣٦٧.

(٢) آيات الله في النحل.. العنكبوت...، لمحمد عثمان ص٥٦.

(٣) آيات الله في النحل... العنكبوت...، لمحمد عثمان ص٦٠-٦١.

(٤) الحجر: ٨٦، ونحوها في يس ٨١.

وكما أن لله آيات في العناكب فله آيات في النحل، والنمل، والبعوض، وغيرها[١]، وحسبنا ما سطَّرته البنان، لمن أراد البيان.

## ثالثاً: من آيات الله في دوابِّ الأرض البحرية:

البحر يُغطِّي ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، وعليه فلا عجب أن تكثر دوابُّه، وتتعاظم آياته، ولقد أُلِّفت في ذلك المؤلَّفات[٢]، وحسبنا هنا أن نذكر النموذجين التاليين:

### أ ـ ثعابين الماء المهاجرة:

فلقد كشف العلم الحديث عن وجود ما يُسمَّى بثعابين الماء في البِرَك والأنهار، حيث تقوم هذه الثعابين المائية حال اكتمال نموِّها بالهجرة من أوروبا إلى الأعماق السحيقة جنوبي برمودا، ـ وذلك عبر المحيط الأطلنطي الشمالي في ظلمات البحار ـ وهناك تبيض وتموت، أما صغارها تلك التي لا تملك وسيلةً لتعرف بها أي شيء عن مواطن آبائها وأمهاتها، فإنها تعود أدراجها، وتجد طريقها

---

(١) يذكر كريسي مريسون في كتابه العلم يدعو للإيمان ص١٦١ (أن الحشرات ليست لها رئتان كما للإنسان، ولكنها تتنفس عن طريق أنابيب، وحين تنمو الحشرات وتكبر لا تقدر تلك الأنابيب أن تجاريها في نسبة تزايد حجمها، ومن ثم لم توجد حشرة قط أطول من بضع بوصات، ولم يطل جناح حشرة إلا قليلاً، وبهذه الصورة التي تكوَّنت بها الحشرات، وكان جهازها التنفسي وطريقها في التنفس، لم توجد حشرة ضخمة... ولولا وجود هذا الضابط الطبيعي لما وُجد إنسان على ظهر الأرض... ولكانت الزنابير والعناكب بحجم الأسود والفيلة).أ.هـ. بتصرف يسير.

(٢) انظر: على سبيل المثال: مفتاح دار السعادة، لابن القيم ص٢٦١.

إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمهاتها، ومن ثم إلى كل نهر أو بُحيرة أو بِركة صغيرة، مقاوِمةً التيارات المائية القوية، ثابتةً أمام العواصف البحرية، مغالبةً للأمواج المتلاطمة على كل شاطئ، فإذا اكتمل نموها في مواطن آبائها دفعها قانون خفي إلى الرجوع حيث كانت، لتعود نفس الرحلة والهجرة وتضع بيوضها حيثما وضعتها أمهاتها، فمن الذي يدفعها لذلك كله!! ومن الذي يعلِّمها ويهديها!! ولماذا[1]!!.

### ب ـ الأسماك الكهربائية والسونارية:

اصطلح علماء الأسماك على تسمية نوع معين منها بسمك (الحنكليس)، ويبلغ طول هذا السمك مترين تقريباً، ويعيش في نهر الأمازون، وقد اكتشف العلماء أن لهذه السمكة طاقة كهربائية صاعقة، وأن ثلثي جسمها مغطى بأعضاء كهربائية، فهي تحمل ما بين (٥٠٠٠-٦٠٠٠) خمسة آلاف إلى ستة آلاف صفيحة كهربائية، هذه الصفائح يمكن أن تولِّد شحنة كهربائية بمقدار (٥٠٠) فولت لكل (٢ أمبير)، تَستخدم هذه السمكة خاصيتها الكهربائية لغرض الدفاع عن نفسها، والهجوم على عدوِّها، وبإمكانها أن تقتل فريستها بالصعقة الكهربائية، حيث يمكن للصعقة الواحدة أن تقتل بقرة لمسافة مترين، وسرعة الشحنة الكهربائية المتولِّدة من هذه السمكة تصل إلى (٢-٣/ ١٠٠٠) ثا أي من جزأين إلى ثلاثة أجزاء من ألف جزء من الثانية[2]، فهي سريعة جداً وفي لمح البصر أو هي أقرب.

---

(١) العلم يدعو للإيمان، لكريسي موريسون ص١٢٠ بتصرف.

(٢) التصميم في الطبيعة، لهارون يحيى ص٨١.

ـ وبالمقابل هناك أسماك أخرى تُسمى أسماك الدُّلْفين، بإمكانها المعرفة الدقيقة، والتحديد الدقيق لكل ما حولها ـ وإن بعُد ـ وعلى سبيل المثال بإمكان سمكة الدلفين التمييز بين قطعتين مختلفتين من النقود، تحت الماء في ظلام دامس، وعلى بعد ميلين (٣ كم) تقريباً، وليس هذا عن طريق النظر، فالبحر شديد الظلام كما أسلفنا، ولكن اكتشف العلماء أن لهذا النوع من الأسماك نظام تحديد خاص عن طريق الصدى، مَرْكَزُهُ في جمجمتها، يقوم بجمع معلومات مفصَّلة عن شكل الشيء، وحجمه، وبُنيته، وسرعته[1]. ـ انظر الشكل (٥٣) ـ.

وهذا يشبه تماماً جهاز السونار الذي يستخدمه أطباء البشر لمعرفة أوصاف الجنين وعمره، أو حال الأجهزة والأعضاء الداخلية الباطنة في جسم المريض.

**عموماً**: إن لله آيات وآيات، في دوابِّ البحار والمحيطات، سواء في خلق كائناتها، أو أشكالها، أو ألوانها ـ أو خصائصها ومميزاتها وطريقة عيشها وتكاثرها... إلخ ذلك، مما لو أعمل العقلاء فيه عقولهم، وسخَّروا طاقاتهم وأوقاتهم وأجهزتهم لاكتشاف أسراره لوجدوا ما لا يعد ولا يحصى من دلائل الخالق وصفاته في جميع مخلوقاته.

---

(١) نفسه ص٨٦.

شكل (٥٣)



أسماك الدولفين .. آية من آيات الله حيث أن بإمكانها اكتشاف قطعتين معدنيتين والتمييز بينهما تحت الماء في ظلام دامس على بعد ميلين عنها

وصدق سيسل هامان[١] في قوله:

«أينما اتجهت ببصري في دنيا العلوم، رأيت الأدلة على التصميم والإبداع، على القانون والنظام، على وجود الخالق الأعلى... إن هناك ما لا يُحصى من نعم الله وإفضاله يُسبغها على عباده، وهي تنتظر من الإنسان أي يفتح عينيه لكي يراها... إنني أعتقد بوجود الله، وأعتقد أنه هو القدير، الذي خلق الكون وحفظه، وليس ذلك فحسب، بل هو الذي يرعى دُرَّة خلقه، ـ الإنسان ـ ... وكان الأجدر بالبشر أن يدركوا أن هذه المستكشفات ليست إلا أدلة ناطقة على وجود إله مدبِّر أعلى، وراء هذا الكون»[٢].

**... وبعد:**

فقد مرَّ بنا فيما سبق شيء من دلائل وحدانية الله وتوحيده، في الكون (بسمائه وأرضه وبحره) بما فيه من كائنات حية أو نباتية أو غيرها، فكيف كان هذا كله دليلاً على وحدانية الله ووجوب توحيده؟

وكيف يمكن تقرير ذلك عقلياً؟

هذا ما أشرحه بالتفصيل في الفقرة الأخيرة من هذا المطلب:

---

(١) هو عالم بيولوجي ـ حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة بوردو ـ أستاذ في جامعة كنتاكي وجامعة سانت لويز سابقاً ـ أستاذ في كلية آسبوري ـ أخصائي في تقسيم الطفيليات الحيوانية.أ.هـ.

انظر: الله يتجلى في عصر العلم ص١١٩.

(٢) نفسه ص١١٩-١٢٠ باختصار وتصرف يسير.

## دلالة الآيات الكونية على وحدانية الله وتوحيده:

تبيَّن لنا من كل ما سبق شرحه عدة حقائق كونية، من أهمها أن:

١- الكون حادث ومخلوق، وليس أزليًّا.

٢- الكون موزون ودقيق، وليس عشوائياً.

٣- الكون عظيم وبديع، ومحكم ومقصود، وليس عبثياً أو اتفاقاً.

٤- الكون بمن فيه وما فيه في تمام الرعاية والعناية والهداية، وليس مهمَلاً.

٥- الكون مترابط متناسق متكامل من ذرّته حتى مجرّته، وليس العكس أبداً.

وكل النتائج السابقة تدل على وحدانية الله ووجوب توحيده في ربوبيته وألوهيته، وجميع أسمائه وصفاته، ويمكن توضيح ذلك بتقسيم هذه الفقرة إلى النقاط الآتية:

**أولاً**: دلالة إبداع الكون ورعايته على ربوبية الله.

**ثانياً**: دلالة الظواهر الكونية على أسماء الله وصفاته.

**ثالثاً**: دلالة انتظام الكون ووحدته على وحدانية الله.

**رابعاً**: استدلال القرآن على توحيد الألوهية بربوبية الله للأكوان.

ولنبدأ بالنقطة الأولى:

## أولاً: دلالة إبداع الكون ورعايته على ربوبية الله:

الإبداع للشيء هو إيجاده على غير مثال سابق[1]، والربوبية للشيء تعني خلقه ومُلكه وتدبير أمره، ومن هنا يمكن القول: إن في خلق الكون وإبداعه، ودوام

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ١/ ٢٠٩.

العناية به ـ لدليلاً على أن خالقه ومالكه ومصَّرف شؤونه هو الله القائل عن نفسه: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (البقرة: ١١٧)، ويمكن تقرير ذلك بعد المقدمات السّت الآتية:

## المقدمة الأولى: حدوث الكون وحياة الكائنات (دلالة الخلق والاختراع):

إذا سلّمنا بكل الحقائق السابقة عن خلق الكون وما فيه من آيات سماوية وأرضية وحيوانية، فيلزم أن نسلِّم بالنتيجة التي تؤدي إليها كل تلك الحقائق وهي وجود خالق للعالَم بنواميسه التي تحكمه، وهذا أمر بدهي، فاستنتاج قضية وحقيقة من قضايا أو حقائق أخرى مسألة يقبلها العقل[1].

إننا نرى في هذا الكون حوادث عديدة عظيمة (فغيث ينزل، وزهر يتفتح، وطفل يولد، وإنسان ينمو ويكبر، وآخر يمرض ثم يهلك، وأجسام تُبنى وتتركب، وأُخرى تتحلّل... وأوليات للمادة تُشكِّل ذرّاتها، ومن الذرّات تتكون الجزئيات، ومنها تتكون العناصر ثم المركبات، ثم الأجسام المادية المشاهدة المحسوسة... وأوليّات في السماء تُشكّل غازاتٍ، ومن هذه الغازات تتكوَّن المجرات، ومن المجرات تتشكّل مجموعات مجرّات، ولكل من هذه الكائنات ساعة ميلاد، ويوم هلاك[2]... في الأرض مليارات من الأحياء، حتى «التربة

---

(١) فمثلاً لإثبات أن مجموع زوايا المثلث تساوي ١٨٠ درجة، لا يُعد برهاناً على ذلك قياسها، أو أن الأستاذ أخبرنا بها، إنما الذي أثبت ذلك هو استخلاص هذه الحقيقة والبرهنة عليها من حقائق أخرى تُسمّى المعطيات أو مقدمات البرهان.

(٢) الفيزياء ووجود الخالق، للأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس، مجلة البيان، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، الرياض ـ السعودية ص٤٦-٤٧ باختصار وتصرف.

الخصيبة فهي تربة حيَّة يعيش فيها وعليها عدد لا يُحصى من الكائنات الدقيقة من حيوان ونبات... وقد يصل عدد هذه الكائنات إلى بضعة بلايين في الجرام الواحد من التربة»[١].

إن العقل السليم والمنطق السوي الذي جعلنا ندرك كل ما سبق وغيره من حوادث عظيمة ليحكم بوجود مُحدِث فاعل مريد مختار لذلك كله.

وإدراكنا لقدرة الإنسان على القيام بالعديد من الأعمال والمشاريع الضخمة، كالسدود العملاقة وناطحات السحاب ونحوها... أو اختراع أجهزة دقيقة كالمذياع والتلفاز والحاسوب والهاتف المحمول وغيرها.. هو نفس المنطق الذي يجعلنا ندرك أن هذا الكون الفسيح، بقوانينه البالغة الدِّقة، وما يحتويه من حيوانات ونباتات وبشر، لابد له من خالق مبدع حكيم[٢].

وإن ما نراه من اختراع جواهر الأشياء الموجودة، وإيجادها بعد العدم، ليعتبر من أقرب الأدلة على وجود خالق للكون، فهي تدل بداهة على وجود من اخترعها، فالعلم بحدوث هذه المخلوقات، وعدم قِدمها، وأزَليَّتها، حاصل بالضرورة من طريق الحسِّ، والخبر الصادق أي من طريق (العقل والنقل).

يقول ابن تيمية رحمه الله: «نفس حدوث الحيوان والنبات والمعدن والمطر والسحاب ونحو ذلك معلوم بالضرورة، بل مشهود لا يحتاج إلى دليل، وإنما يُعلم بالدليل مالم يُعلم بالحس وبالضرورة»[٣].

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم، لنخبة من علماء أمريكا ص ١٠٤.

(٢) وجود الله بالدليل العلمي والعقلي، للنشواتي ص١٦٠ بتصرف.

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٢١٩.

وقد سبقه إلى مثل هذا القول ابن رشد رحمه الله[١] وزاد على ذلك قوله:

«وأما دلالة الاختراع فيدخل فيها وجود الكائنات، ووجود السماوات، وهذه الطريقة تُبنى على أصلين موجودين بالقوَّة في جميع فِطَر الناس:

**أحدهما**: أن هذه الموجودات مخترَعة، وهذا معروف بنفسه في الحيوان والنبات... فإنا نرى أجساماً جمادية ثم تحدث فيها الحياة، فنعلم قطعاً أن هاهنا مُوجداً للحياة، ومنعماً لها ـ وهو الله تبارك وتعالى ـ.

وأما السماوات فنعلم من قِبَل حركاتها التي لا تفتُر أنها مأمورة بالعناية بما هاهنا، ومسخَّرةٌ لنا، والمسخَّر مأمورٌ، مخترَعٌ مِنْ قِبَل غيره ضرورة»[٢].

---

(١) هو: محمد بن أحمد بن رشد المالكي، أبو الوليد، الفيلسوف، ولد سنة ٥٢٠هـ، من أهل قرطبة، عني بكلام أرسطو وترجمه إلى العربية، تفقّه وبرع وسمع الحديث، وأتقن الطب، وأقبل على الكلام والفلسفة حتى صار يُضرب به المثل، له ذكاء مفرط، له عدة مؤلفات، منها: (مناهج الأدلة في عقائد الملة) و(بداية المجتهد ونهاية المقتصد) في الفقه، ويلقب بابن رشد الحفيد، توفي سنة ٥٩٥هـ، في صفر، بمراكش.
انظر: شذرات الذهب، مج٢، جزء٤، ص٣٢٠.
و: الأعلام: للزركلي ٥/ ٣١٨.

(٢) سبب تفريق ابن رشد بين الحيوان والنبات وبين السماوات في طريق إدراك حدوثها هو علمنا بحدوث الحيوان والنبات عن طريق الحِسِّ والمشاهدة، أما حدوث السماوات والأرض ونحوهما مما لم نشاهد حدوثه فإننا نقف على حدوثها من طرق أخرى غير الحس والمشاهدة، كطريق التسخير والعناية، وما هي عليه من نظام وإتقان وإحكام وتقدير وتدبير... إلخ.
قال تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ (الكهف: ٥١).

**وأما الأصل الثاني**: فهو أن كل مختَرَعٍ فله مخترِع، فيصبح من هذين الأصلين أن للموجودات فاعلاً مخترِعاً له»[١].

**عموماً**: لكلام ابن رشد وابن تيمية عن دليل الخلق والاختراع[٢]. أصل في كتاب الله، فقد جاء التنبيه على ذلك في عدة مواضع، منها:

قوله تعالى: ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ (الطور: ٣٦) حيث دلّت هذه الآية على حاجة المخلوق (الكون) إلى خالقٍ ضرورة، وقد سبق شرحها[٣].

وغير ذلك من الآيات[٤] التي تتحدَّث عن خلق الله للكون، وعن حدوث الذوات وصفاتها مما سنأتي عليه في ما يلي:

---

(١) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملّة وبيان ما وقع فيها بسبب التأويل من الشُّبَه المزيّفة والبدع المضلة، ضمن فلسفة ابن رشد، لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد، دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٣٩٨هـ، بيروت ـ لبنان ص٦١، بتصرف.

(٢) قد يُعبَّر عن دلالة الخلق والاختراع بعبارات أخرى مثل:

أ ـ العجز والنقص والافتقار.

ب ـ الحدوث والإمكان في الذوات والصفات.

انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية ٣/ ٢٦٥.

و: مجموع الفتاوى، (له أيضاً) ٢/ ٩-١٢.

و: الرد على المنطقيين، (له أيضاً) ص٣٤٥.

و: شرح العقيدة الاصفهانية، تقديم حسنين مخلوف، دار الكتب الإسلامية، ط١، د.ت ـ القاهرة ص١٦.

(٣) راجع ص٥٣٥.

(٤) كما في سورة النور ٤٣-٤٥.

ومما يجدر التنبيه عليه هنا أن دليل الخلق والاختراع المذكور هنا قد يُساق لتقرير الافتقار إلى مسبِّب الأسباب في وجود الموجودات[١]، لإبطال التسلسل في المؤثِّرات، بمعنى: أن الدلالة السابقة لاتتم إلا بإثبات بطلان تسلسل الأسباب، التي جعلها الخالق واسطة في وجود المحدَثات إلى ما لا نهاية، فالإنسان مثلاً سبب وجوده والداه، وكذلك الشأن في الوالدين، فلو تسلسل الأمر إلى ما لا نهاية لكان في ذلك شبهة تقدح في الحاجة إلى الخالق، بيد أن هذه الشبهة ظاهرة البطلان عند جميع العقلاء، بل هي معلومة الفساد بالضرورة[٢].

ومن هنا أمر النبي ﷺ بالاستعاذة بالله تعالى، وعدم الاسترسال مع الفكر عند تساؤل الإنسان عمَّن خلق الله!! وضرورة الانتهاء عن ذلك، والتوقف عن هذه الوساوس الشيطانية، فقد صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «**يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله، ولينته**»[٣] وفي رواية: «**لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خَلَقَ اللهُ الخلْق، فمن خلَق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنتُ بالله**»[٤].

---

(١) وقد عبّر بهذه العبارة (مسبِّب الأسباب...) ابن خلدون في مقدمته. انظر: مقدمة ابن خلدون، لعبدالرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨) هـ تحقيق علي عبدالواحد وافي، مطبعة لجنة البيان العربي، ط٢، ١٩٦٦م، القاهرة ـ مصر. ص٤٩٠

(٢) الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، لسعود العريفي ص٢٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في ٣/ ١١٩٤في كتاب بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده، برقم ٣١٠٢عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في ١١٩/١ في كتاب: الإيمان، باب: بيان الوسوسة في الإيمان، برقم ٢١٢/ ١٣٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي رواية: «**فإن فعلتم فقولوا: الله قبل كل شيء، وهو كائن بعد كل شيء، وهو خالق كل شيء**»[١] ولا خالق له سبحانه وتعالى، وليس أمْرُ النبي ﷺ للناس بعد الاسترسال في البحث عن خالقِ الله سبحانه وتعالى حجراً على العقول، بل هو ما يفرضه المنطق، ويحكم به العقل[٢]، وهو أيضاً رحمة للناس لئلا يفكروا فيما تعجز عنه عقولهم.

---

(١) انظر: الأسماء والصفات للبيهقي، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي النيسابوري (٣٨٤-٤٥٨) هـ، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، بيروت ـ لبنان ص ٢٤-٢٥.

(٢) وقد علّل ابن تيمية أمر النبي ﷺ بالاستعاذة ـ كما جاء في الحديث ـ بأنه برهان واستعاذة في نفس الوقت ـ وليس معناه أن النبي ﷺ سكت عن بيان البرهان الذي يبطل فساد التسلسل والدور حيث قال: «إن النبي ﷺ أمر بطريقة البرهان حيث يؤمر بها ودلّ على مجاميع البراهين التي يرجع إليها غاية نظر النظار، ودلَّ من البراهين على ما هو فوق استنباط النُّظار، والذي أمر به هنا في دفع هذا الوسواس ليس من الاستعاذة فقط، بل أمر بالإيمان، وأمر بالاستعاذة، وأمر بالانتهاء..» ثم بيّن ذلك من وجوه عِدَّة حاصلها: أولاً: أن الشبهات القادحة في العلوم الضرورية لا يمكن الجواب عنها بالبرهان وأن غاية البرهان أن ينتهي إليها، فإذا وقع الشك فيها انقطع طريق النظر والبحث، وإذا تبيّن هذا فالوسوسة والشبهة القادحة في العلوم الضرورية لا تُزال بالبرهان، بل متى فكّر العبد ونظر، ازداد ورودها على قلبه، وقد يغلب الوسواس حتى يعجز عن دفعه عن نفسه... وهذا يزول بالاستعاذة بالله، فإن الله تعالى هو الذي يُعيذ العبد ويجيره من الشبهات المضلة. ثانياً: أن النبي ﷺ لم يأمر بالاستعاذة وحدها، بل أمر العبد أن ينتهي عن ذلك مع الاستعاذة، إعلاماً بأن هذا السؤال هو نهاية الوسواس، فيجب الانتهاء عنه، إذ ليس هو من البدايات التي يزيلها ما بعدها، فإذا وصل العبد إلى غاية الغايات، ونهاية النهايات، وجب وقوفه، فإذا طلب بعد ذلك شيئاً وجب أن ينتهي. ثالثاً: أن النبي ﷺ أمر العبد أن يقول: «آمنت بالله».. فهذا من باب دفع الضر الضار بالضر النافع، فإن هذا القول إيمان، وذِكْرُ الله يُدفع به ما يُضادُّه من الوسوسة القادحة في العلوم الضرورية الفطرية. انظر الأدلة العقلية... للعريفي ص٢٢٤، ودرء تعارض العقل والنقل ٣/ ٣٠٨،٣٠٩، ٣١١.

**وخلاصة القول:** كما قال ابن تيمية رحمه الله: «ومعلوم بضرورة العقل أن المحدَث لابد له من محدِث، وأنه يمتنع تسلسل المحدِثات، بأن يكون للمحدِث محدِث، وللمحدِث محدِث، إلى غير غاية، وهذا يُسمَّى تسلسل المؤثِّرات والعِلل والفاعلية، وهو ممتنع باتفاق العقلاء... ومعلوم أن المحدَث الواحد لا يحدث إلا بمحدِث، فإذا كثُرت الحوادث وتسلسلت، كان احتياجها إلى المحدِث أَوْلَى، فكلها محتاجة إلى محدِث، وذلك لا يزول إلا بمحدِث لا يحتاج إلى غيره، بل هو قديم أزلي بنفسه ـ سبحانه وتعالى ـ»[1].

وإذ قد تبيَّن بطلان التسلسل في العِلل فينبغي التنبُّه إلى أن انتهاء المحدَثات إلى محدِث لا يكون هو محدَثاً، يَلزم منه أن حدوثها مترتبة على أسبابها لم يكن من فعل تلك الأسباب استقلالاً، بل هو أيضاً من خلق الله وفعله بتلك الأسباب، وإنما كان خلقُها وإحداثُها أوَّلاً مباشَراً مجرَّداً عن السبب، ثم صار خلقُها وإحداثُها بعد ذلك مرتَّباً على أسباب مخلوقة أيضاً[2].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٦/ ٤٤٥.

(٢) كما في قوله ﷺ: «لا عدوى ولا صفر ولا هامة» فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء، فيخالطها البعير الأجرب فيجربها، فقال رسول الله ﷺ: «فمن أعدى الأول» سبق تخريجه في ص ٧٢. وصفر: الشهر كانوا يتشاءمون به، وقيل غير ذلك.
وقد علَّق ابن حجر على الحديث بقوله: «وهو جواب في غاية البلاغة والرشاقة، وحاصله: من أين جاء الجرب الذي أعدى بزعمهم؟ فإن أُجيب من بعير آخر، لزم التسلسل، أو سبب آخر فليفصح به، فإن أُجيب بأن الذي فعله في الأول هو الذي فعله في الثاني ثبت المدَّعي، وهو أن الذي فعل ذلك بالجميع هو الخالق القادر على كل شيء، وهو الله سبحانه وتعالى».
انظر: فتح الباري ١٠/ ٢٤٢. و: بدائع الفوائد، لابن القيم ٤/ ١٢٧. و: الأدلة العقلية، للعريفي ص٢٢٥.

## المقدمة الثانية: ترجيح بعض الممكنات وتخصيصها (دلالة الإرادة والتخصيص):

لو تأمَّلنا في حال الكون الذي خُلق عليه لعلمنا إمكانية أن يُخلق على حال آخر، أو بصفات أخرى، فإنه يجوز عقلاً أن يكون كل جزء من العالم على خلاف صورته وصفته وحالته التي هو عليها الآن، فكونه حاليّاً على هذه الصورة التي هو عليها يحتاج إلى مخصِّص يخصِّصها بالوجود، دون غيرها من الصفات والأحوال الممكنة الأخرى[1].

فإن كان هذا الكون من الممكِنات، فكل ممكن يمكن أن يكون موجوداً، ويمكن أن يكون معدوماً، ويمكن أن يكون على صفة، ويمكن أن يكون على صفات كثيرة لا تُعدُّ، ويمكن أن يكون في زمان، ويمكن أن يكون في أزمنة أخرى، ويمكن أن يكون في مكان، ويمكن أن يكون في أمكنة أخرى، ويمكن أن يكون بمقدار، ويمكن أن يكون بمقادير أخرى، وبالتالي فكل جزء من أجزاء هذا الكون تنطبق عليه هذه المعاني.

فإذا كان من بين هذه الممكِنات كلها يُختار دائماً واحدٌ، هو الأحكم والأحسن والأكثر نظاماً، والأصلح والأنفع لبني آدم، ولو كان غيره لكان الخلل والفوضى، فلابد إذاً من وجود إرادة علياً رجَّحت أحد وجوه الاحتمال والإمكان[2].

---

(١) المرجع السابق

(٢) الله جل جلاله، لسعيد حوى ص٤١.

قال ابن تيمية رحمه الله في حديثه عن دلالة الإرادة والتخصيص: «...فالعالَم بما فيه من تخصيصه ببعض الوجود دون بعض، دالٌّ على مشيئة فاعله، وعلى حكمته أيضاً ورحمته، المتضمِّنة لنفعه وإحسانه إلى خلقه.

وإذا كان كذلك فقولنا: إن ما سوى هذا الوجه جائز، يُراد به أنه جائز ممكن في نفسه، وأن الرب قادر على غير هذا الوجه، كما هو قادر عليه، وذلك لا ينافي أن تكون المشيئة والحِكمة خصَّصت بعض الممكنات المقدورات دون بعض»[1].

ولقد أشار الله عزوجل في كتابه إلى دليل الإرادة والتخصيص في أكثر من آية من ذلك على سبيل المثال:

أ ـ قوله تعالى: عن الظِّل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾[2] فبإرادة الله وتخصيصه جُعل الظِّل ممدوداً، ولو شاء لجعله ساكناً متوقفاً.

ب ـ قوله سبحانه: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ الآيات، إلى قوله جلَّ شأنه عن ماء الشرب: ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٠-٧٠).

فتخصيص الله وإرادته قدَّرت خلق الناس على ما هم عليه الآن من الصفات والأحوال، وقدَّرت ظهور النبات في الأرض وقيامه عليها، وقدرت حلاوة مياه

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٩/ ١١١-١١٢.

(٢) الفرقان: ٤٥، وللرازي استدلال ممتاز بالآية على وحدانية الله لا يتسع المقام لشرحه، نكتفي بما سبق، انظر مفاتيح الغيب ٢٤/ ٧٧-٧٨.

السحاب، ولو شاء الله لكان على غير ما هو عليه الآن، ولكان الزرع هشيماً لا يُنتفع به، ولكانت المياه مالحة لا يطيق شربها أحد.

ج - قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝ ﴾ (الملك: ١٦، ١٧).

فلولا إرادة الله وتخصيصه باستقرار الأرض لكان اضطرابها وهلاك الكفار، ولولا إرادته المقتضية إمهال الكفار، وتخصيصه لبقائهم لأرسل عليهم ريحاً أهلكتهم جميعاً.

وغيرها من الآيات التي تتحدث عن الممكنات والاحتمالات في شأن ترجيح المخلوقات وتخصيصها بناء على إرادة خالقها، الفعَّال لما يريد[1].

قال عبد الرحمن الميداني (نظماً) عن دلالة الإمكان أو الإرادة والتخصيص لبعض الممكنات على الذات الإلهية:

| | |
|---|---|
| لقد كان يمكن ألا نكون | ويمكن إيجاد أبدالنا |
| وكم صورةٍ نحن نُزهى بها | أتتنا وليست بحتم لنا |
| وكم صورةٍ في الوجود الكبير | نرى غيرها أبداً ممكنا |
| وكم ممكنات تساوَتْ فما | يرى العقلُ كائنها أوْزَنَا |
| وليس لكائنها ميزةٌ | تُرجِّحه من هنا أو هنا |
| فمن ذا الذي رجَّح الممكنات | فأوجَدَها واقعاً معلَنا |

---

(١) كما في القصص: ٧١-٧٢، والمؤمنون: ١٨، والانفطار: ٨.

تبــــصّرتُ بالحــــدَث البـــــاهرِ
فأمنــــــتُ بالخــــالق القــــادر
وفي الممكنـــات لأهـــل النَّظَـــر
روائـــــع آيـــــات رب البــــشر[1]

## المقدمة الثالثة: إحكام المخلوقات (دلالة الاتقان والتقدير)[2].

لاحظنا من آيات الله الكونية السابق شرحها أن جميع المخلوقات - صغيرها وكبيرها - تفعل الشيء الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، وعلى الوجه الذي ينبغي، وفي هذا يقول كريسي موريسون: «إن مئات الآلاف من الخلايا تبدو كأنها مدفوعة لأن تفعل الشيء الصواب، في الوقت الصواب، وفي المكان الصواب، والحق أنها طائعة»[3].

وحال العقلاء مع غيرهم في رؤية ما في الكون من حكمة وإبداع، كحال مهندسَين، وقفا أمام بناء جميل، فكلاهما يستوي في كونه يعرف كل ما في البناء من أجزاء، من معرفته بكيفية الترتيب إلى معرفته بكيفية التركيب، إلا أن أحدهما جزم بأن هذا البناء قد كان دون أن توجد خبرة وإرادة وقدرة وإبداع وحكمة، وذوات تقوم بها هذه الأشياء، والآخر حكم على البداهة بأن مهندساً عالماً حكيماً... قد أظهر هذا البناء، وأحكمه وأبدعه.

---

(١) براهين وأدلة إيمانية ص٤٧٧.

(٢) وقد يُسمَّى دلالة القصد أو الغاية أو النظام كما جاء في الفلسفة القرآنية، للعقاد ص١١٥.

(٣) العلم يدعو للإيمان ص١٠٤.

وحقيقة أن الكون كلما تكشَّف لنا أكثر كلما دل على خالقه بصورة أكبر[١]، فكل ما فيه من آيات ـ سبق شرحها، أو لم يتسع المقام لسردها ـ تدل على اتصاف خالقه بالحكمة والإبداع[٢].

ولئن كان الناس يُعجبون بلوحَة رسَّام بديعة الألوان والتصوير والتعبير، ويحكمون لصاحبها بصفة الإبداع، فماذا يقولون عن جمال الكون في نجومه وسمائه، وشمسه وقمره، وسحبه وبحاره، ومطره وأنهاره، ووروده وأزهاره، وصخوره وجباله[٣]...إلخ.

وبماذا يُعبِّرون عن جمال الطيور واخضرار الأشجار، وروعَة الطبيعة كلها[٤]ـ.

وبما يصفون من وَصَفَ نفسه بأبلغ الوصف فقال: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ (الأنعام: ١٠١)!!

إن القصد والغاية أو النظام الذي نلحظه في الكون كله أو ما يسمى بـ(الإتقان والتقدير) فيه، واضح وشامل لكل شيء في هذا الوجود ـ ابتداء من

---

(١) الله جل جلاله، لسعيد حوى ص٨٢-٨٣ باختصار.

(٢) وانظر: المرجع السابق ص٨٤-٨٩ حيث ضرب المؤلف عدة أمثلة على ذلك.

(٣) وانظر: العلم يدعو للإيمان، لكريسي موريسون ص١٣٥ وما بعدها.

(٤) مما قاله سيد قطب عن جمال الطبيعة ودلالتها على خالقها: «والجمال في تصميم هذا الكون مقصود كالكمال، بل إنهما اعتباران لحقيقة واحدة، فالكمال يبلغ درجة الجمال... ومشهد النجوم في السماء جميل جمالاً يأخذ بالقلوب، وهو جمال متجدِّد، تتعدَّد ألوانه بتعدد أوقاته، ويختلف من صباح إلى مساء، ومن شروق إلى غروب، وكله يأخذ بالألباب... وجمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود...».

في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٣٣-٣٦٣٤.

أصغر المخلوقات وأخفاها حتى أكبرها وأجلاها ـ سواء كانت جمادات أو نباتات أو حيوانات أو غيرها.

ولقد أشار الله في كتابه إلى هذه الدلالة، وإلى ما في العالم كله من نظام دقيق وإحكام مقصود بإتقان وإحسان لا مثيل لهما أبداً، ومن تلك الإشارات على سبيل الإجمال قوله تعالى:

أ ـ ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ (الملك: ٣).

ب ـ ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (السجدة: ٧).

ج ـ ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (النمل: ٨٨).

د ـ ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر: ٤٩).

هـ ـ ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢). وغيرها من الآيات[١].

ومن تلك الآيات التي جاءت على سبيل التفصيل قوله تعالى:

أ ـ ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾[٢].

ب ـ ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[٣].

---

(١) كما في الرعد: ٨، والطلاق: ٣، والأعلى: ٢-٣.

(٢) الذاريات ٧، وقد سبق ذكر معنى (الحبك) ص ٦٦١.

(٣) الحجر: ١٩، وللرازي كلام في تفسيرها قريب مما ذكره أهل العلم في عصرنا مما سبقت الإشارة إليه. انظر: مفاتيح الغيب ١٩/ ١٣٦.

ج ـ ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (المؤمنون: ١٨).

د ـ ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (الشورى: ٢٧).

فهذه الآيات وأمثالها[١] تحمل دلالة قوية واضحة على وجود الخالق الحكيم البديع، المتقن المقدِّر، وتشير إليه سبحانه وتعالى فللكون نظام دقيق وناموس حكيم، ثابت دونما تغيير[٢]، يدل على المهيمن عليه.

## المقدمة الرابعة: العناية[٣] بالمخلوقات وهدايتها: (دلالة العناية والهداية).

إن كل متأمِّل للمخلوقات بشكل عام يرى أنها ليست كوماً عشوائياً من الموجودات ـ فكما أنها لم تُخلق عبثاً، وهي محكمة ومبدعة ترتيباً وتركيباً، بصورة بليغة تدل على أن وراءها غاية ـ فهي أيضاً لم تُترك هملاً دونما رعاية وعناية، أو تسيير وتيسير وهداية، بشكل مقصود، بل كلها ـ حقيرها وجليلها ـ تلقى حظّاً

---

(١) كما في يس ٣٧-٤٠، والمرسلات ٢٠-٢٣.

(٢) من الوجوه الحسنة التي يُعبَّر بها عن دليل الإتقان ما ذكره بعض المتكلمين من الاستدلال ببقاء الكائنات على رقيها، في حين أن الصناعات البشرية تأخذ في الترقِّي، وما ذلك إلا لارتباط ذلك بترقِّي صانعيها في العلم، فبقاء العالم على كمال صنعته وإتقانها، وعدم تدرجه في ذلك من النقص نحو الكمال، يدل على كمال صانعه وأزليته وربوبيته. انظر: دلائل التوحيد، للقاسمي ص٥٥. و: الأدلة العقلية، للعريفي ص٢٣٦.

(٣) العناية: مصدر عنى يعني عناية، بمعنى قصد، وللفظ عني معان أخرى من أدقها الاهتمام والإتقان ونحو ذلك. انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٤/ ١٤٦.

كبيراً ونصيباً وافراً من الرعاية والهداية، وأكثر ذلك وأعظمه إنما هو للإنسان، فقد سُخِّر له كلُّ ما في السماوات والأرض، وأُسبِغت عليه النعم ظاهرة، وباطنة، وفُضِّل على كثير من المخلوقات تفضيلاً ـ ومن ذلك تفضيله بنعمة العقل التي يتمكن بها من تسخير الكون بمن فيه وما فيه، إننا نجد ظاهرة العناية بالإنسان تتجلَّى في كل شيء، ومنها على سبيل المثال ما يتعلق بالنباتات، ففي ثمارها غذاء للإنسان، وسيقانها لصناعة كثير من أثاث حياته، وبناء منزله، وإشعال ناره، وزهرها له وللنحل الذي يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه للغذاء والدواء، والنباتات قد تكون غذاء للأنعام التي تمد الإنسان باللحم واللبن، وتزوِّده بالصوف والوَبَر والشَّعَر، وتُبلِّغُه إلى بلدان لم يكن بالغها إلا بشق الأنفس.

والنباتات هي مصدر لاستخراج دواء الإنسان وتصنيعه، وأساس لوقوده في الماضي والحاضر[1].

وهكذا تتضح عناية الخالق بالإنسان والحيوان والنبات وجميع المخلوقات ـ بدون استثناء ـ.

وحقيقة إنَّ كلَّ عاقل يشعر ويشهد بوجود هذه العناية والرعاية التَّامَّة، فكل الموجودات متوافقة مع بعضها من جهة، وكلها مسخَّرة للإنسان متوافقة معه من جهة أخرى، ألا تدل هذه العناية للخلق على أنها من قِبَل فاعلٍ قاصد لذلك مريد؟

لقد توافقت كل المخلوقات مع الإنسان ـ أرقاها وأعقلها ـ كالليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، والأمطار والأنهار، والأرض والبحار، والحيوان والنبات، وأعضاء الأبدان والحيوان، وغير ذلك.. وعُلِم بالفطرة والبديهة هذا

---

(١) الله جل جلاله، لسعيد حوى ص٩٦ بتصرف.

التوافق، ولا يجحد ذلك إلا مكابر، يقول ابن رشد: «كما أن الإنسان إذا نظر إلى شيء محسوس ـ كالنبات المشار إليه على سبيل المثال ـ ، فرآه قد وُضِع بشكل ما، وَقَدْرٍ ما، ووَضْعٍ ما، موافق في جميع ذلك للمنفعة الموجودة في ذلك الشيء المحسوس، والغاية المطلوبة، حتى يَعْترف أنه لو وُجد بغير ذلك الشكل، وبغير ذلك الوضع، أو بغير ذلك القدر، لم توجد فيه تلك المنفعة، عَلِم على القطع أن لذلك الشيء صانعاً صنَعَهُ، ولذلك وافق شكلُه وقدرُه ووضِعه تلك المنفعة، وأنه ليس يمكن أن تكون موافَقَةُ اجتماع تلك الأشياء لوجود المنفعة بالاتفاق»[1].

وإذا كان ابن رشد قد ضرب لذلك مثلاً برجل رأى حجراً على الأرض على صفة معينة واستدل بدلالة شكلها ووضعها وقدرها على صانعٍ لها، فإنا نضرب لذلك مثلاً بالهاتف المحمول، فإنه في حجمه وشكله وقدره، ودِقَّته، وأنواعه، وغاية صُنعه ليدل دلالة قاطعة على صانعه وعنايته به، وعلى كثير من صفاته، وكذلك الأمر في الكون كله ـ بل هو أعظم ـ فإذا تبصَّرنا فيه وكرَّرنا ذلك، «علمنا على القطع أنه ليس يمكن أبداً أن تكون هذه الموافَقة التي في جميع أجزاء العالم للإنسان والحيوان والنبات بالاتفاق، بل ذلك من قاصد قَصَدَهُ، ومريد أراده، وهو الله ـ عزوجل ـ وعُلِم على القطع أن العالَمَ مصنوع، وذلك أنه يُعلم ضرورة استحالة أن توجد فيه هذه الموافقة لو كان وجوده على غير صانع، بل عن الاتفاق»[2].

عموماً لقد ذكر الله عز وجل في كتابه آيات تشير إلى دليل العناية ـ خاصَّة بالإنسان ـ ، ومن تلك الآيات قوله سبحانه:

---

(١) الكشف عن مناهج الأدلة، لابن رشد ص٦٠.

(٢) الكشف عن مناهج الأدلة ص٩٨.

أ - ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾

(النبأ: ٦-١٦).

ب - ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

(عبس: ٢٤-٣٢).

ج - ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾

(النازعات: ٢٧-٣٣).

وغير ذلك من الآيات[1] التي تتحدث عن تسخير الكون للإنسان، سبق شرح أكثرها في سياق الحديث عن تفرد الله بالربوبية وأنه مولى كل نعمة[2].

وكما أن ظاهرة عناية الخالق بمخلوقاته، ورعايته لها واضحة تماماً، فإن ظاهرة الهداية كذلك جليَّة وشاملة لكل إنسان وحيوان وجماد ونبات، فهي

---

(١) كما في سورة الفرقان ٦١، والشمس ١-٧.

(٢) راجع ص٢٨٣.

عامَّة لكل مخلوق ـ من أصغر المخلوقات حتى أكبرها، ومن أبسط الأشكال إلى أعقد المظاهر..

إنها تنتظم شئون الكون كلّه: من الإلكترونات في الذَّرة، إلى الذَّرة نفسها، إلى العناصر المكوِّنة للمواد، إلى الأرض... إلى المجرات الكونية.

وهي موجودة في كل خليَّة من خلايا الكائنات الحيَّة، وكل جهاز من أجهزتها..

فنحن نلاحظ هداية كل ما سبق إلى الأنفع والأصلح والأحكم في شأنها، المحقق لغاية خلقها، ولا شك أن هدايةً بلا هادٍ أمر غير مقبول عقلاً ولا علماً ولا حِسّاً.

ولقد أخبر الله في كتابه عن هدايته للخلق في غير ما آية، من ذلك:

أ ـ قوله سبحانه آمراً محمداً ﷺ أصلاً، وأمتَه من بعده تبعاً:

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾

(الأعلى: ١-٣).

ب ـ وقوله عز وجل على لسان موسى عليه السلام: ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه: ٥٠).

ج ـ وقوله عن كل نفس إنسانية خلَقَها: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾

(الشمس: ٨).

وغير ذلك من الآيات.

قال الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾: «فيه للعلماء أوجه لا يُكذِّب بعضُها بعضاً، وكلها حق، ولا مانع من شمول الآية لجميعها، منها: ... أنه:

١ ـ أعطى كل شيء نظير خلقه في الصورة والهيئة، كالذكور من بني آدم أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجاً، وكالذكور من البهائم أعطاها نظير خلقها في صورتها وهيئتها من الإناث أزواجاً... ثم هدى الجميع لطريق المنكح الذي منه النَّسل والنماء...

وهدى الجميع لسائر منافعهم من المطاعم والمشارب وغير ذلك[١].

٢ ـ أعطى كلَّ شيء صلاحَه، ثم هداه إلى ما يُصلحه[٢]...

٣ ـ أعطى كلَّ شيء صورتَهُ المناسبة له، فلم يجعل الإنسان في صورة البهيمة، ولا البهيمة في صورة الإنسان، ولكنه خلق كلَّ شيء على الشكل المناسب له[٣].

٤ ـ أعطى كلَّ شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع... وغيرها، كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة، غير نابٍ عنه[٤]...

٥ ـ أعطى الخلائق كل شيء يحتاجون إليه، ثم هداهم إلى طريق استعماله...»[٥].

---

(١) وهذا مروي عن عن ابن عباس والسدِّي وسعيد بن جبير.

(٢) وهذا مروي عن الحسن وقتادة.

(٣) وهذا مروي عن مجاهد ومقاتل وعطية وسعيد بن جبير.

(٤) وهذا مروي عن الضحاك.

(٥) أضواء البيان ٤/ ٤١٧-٤١٩ باختصار.

ثم قال ـ رحمه الله ـ : «.. وفي هذه الأشياء المذكورة في معنى الآية الكريمة براهين قاطعة على أنه جلَّ وعلا رب كل شيء، وهو المعبود وحده جلَّ جلاله..»[١].

## المقدمة الخامسة: تسخير[٢] الكون وتدبيره (دلالة التسخير والتدبير):

يمكن القول إن تسخير الكون وتدبيره، هو من باب عناية الله بمخلوقاته[٣]..

وحقيقة إنه إذا تأملنا في الكون كلِّه وجدناه بجميع أجزائه مقهوراً، مسيَّراً، مدبَّراً، مسخَّراً، تظهر عليه آثار القهر والاستعلاء لمسيِّره، وتتجلَّى فيه شواهد القدرة والقيومية والهيمنة لمالكه، فهو خاضع ذليل لخالقه، مهيَّأٌ لاستفادة الإنسان منه على أحسن وجه وأكمله، مما يدل دلالة قاطعة على وجود مصرِّف لشئونه، مدبِّر لأمره، ممسك بمقاليده.

إن العقل والأحاسيس ومِنْ قَبْل ذلك فطرة الإنسان كلها تشهد بذلك، وهذا ما بيَّنه الله ـ عزوجل ـ بقوله سبحانه: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الشورى: ١٢) وقوله: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٤).

---

(١) نفسه ٤/ ٤١٩.

(٢) التسخير هو: السياقة إلى الغرض المختص قهراً، والمسخَّر هو المقيَّض للفعل، والسُّخري هو الذي يُقهر فيتسخَّر بإرادته. انظر: مفردات الراغب ص٢٢٧.

(٣) الفرق بين دلالة التسخير والتدبير وبين دلالة الإتقان والتقدير أن الأولى تدل على الخالق من جهة الخضوع الكوني العام لسيطرة قاهرة سيطرة تامَّة، لا تملك الخروج عليها ذرَّة واحدة، وتتمثل في هذه السيطرة في السنن والنواميس الكونية الدقيقة التي تسير عليها العوالم دونما تخلُّق، فهي دلالة من جهة القهر، لها تعلق بصفة القدرة والجبروت للخالق، بينما دلالة الإتقان والإحكام متعلقة بصفات العلم والحكمة واللطف والخبرة. انظر: الأدلة العقلية، للعريفي ص٢٣٨.

ومن هنا أَمَرَ الله رسوله ﷺ باستفسار المشركين عن مدبِّر أمر العالم كله، لانتزاع ما في فطرتهم وما رسخ في قلوبهم عن ذلك، وتقرير مدبِّر الكون، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ (يونس: ٣١) فجاء جوابهم مقرِّراً الحقيقة العظمى في ذلك ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ وهنا أنكر عليهم عدم تقواه، مادام الأمر كذلك بقوله: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

لقد نبَّهنا الله في كتابه إلى دلالة التسخير والتدبير للكون في غير ما آية، من ذلك قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (لقمان: ٢٠)، وقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل: ١٢)، وقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ (إبراهيم: ٣٢)، وقوله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ (الملك: ١٥) وقوله في شأن الأنعام: ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الحج: ٣٦) وفي شأن الطير ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل: ٧٩).

إن دلالة التسخير والتدبير واضحة في الكون كله في السحاب الذي وصفه الله بقوله: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... إلى أن قال: ... وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٤)، وفي البحر كما قال تعالى: ﴿ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً

﴿تَلۡبَسُونَهَا﴾ (النحل: ١٤)، وفي أرزاق الخلق أجمعين ـ وخاصة البشر ـ في بسط ذلك لبعضهم، وتقديره[١] للبعض الآخر كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ (الزمر: ٥٢) وهذا من أعظم الأدلة على وجود مسخِّر مدبِّر للأرزاق، قال الرازي رحمه الله: «إنا نرى الناس مختلفين في سعة الرزق وضيقه، ولابد له من سبب، وذلك السبب ليس هو عقل الرجل وجهله، لأنا نرى العاقل القادر في أشد الضيق، ونرى الجاهل المريض الضعيف في أعظم السعة، وليس ذلك أيضاً لأجل الطبائع والأنجم والأفلاك، لأن في الساعة التي وُلد فيها ذلك المُلك الكبير... قد وُلد فيها أيضاً عالَم[٢] من الناس، وعالم من الحيوانات غير الإنسان، ويولد أيضاً في تلك الساعة عالم من النبات، فلما شاهدنا حدوث الأشياء الكثيرة في تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة في السعادة والشقاوة، علمنا أنه ليس المؤثِّر في السعادة والشقاوة هو الطالع»[٣] وأنه لابد من مؤثِّر مدبِّر مسخِّر، ذاك هو الله رب العالمين.

## المقدمة السادسة: الغاية من خلق الكون:

إن هذا الكون المشتمل على أعداد هائلة من المخلوقات، والقوانين، والموازين، والمقاييس، والتوازنات التي لا يمكن حصرها، والتي تحكم كوكبنا الذي نعيش عليه، وتحكم المجموعة الشمسية التي ننتمي إليها، والمجرَّة التي

---

(١) أقصد بالتقدير هنا ما يقابل البسط وهو التضييق والإقلال.

(٢) العالَم بالفتح ما يُعلم به، مثل الخاتم الذي يُختم به،... ويُسمَّى كل صنف من المخلوقات عالمًا لأنه عَلَمٌ وبرهان على الخالق تعالى. انظر: النبوات، لابن تيمية ص٢٦٨.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢٥١ باختصار.

نتبعها، والكون برِمَّته... والتي وُجِدت وأُعدَّت بشكل خاص، لتحقيق حياة الإنسان على الأرض، وتأمين ذلك، واستمراره إلى حين، إن هذا كله ليدل على أن هذا الكون لم يخلق مصادفة ولغير هدف وغاية.

بل لابد من حِكمة في خلقه، وغاية عظيمة في إيجاده، وفي هذا يقول البروفيسور بول ديفيس (الأخصائي بالفيزياء الفلكية): «تبدو القوانين الفيزيائية كنتائج لتخطيط على مستوى عظيم من الذكاء... ولابد من غاية لوجود هذا الكون»(١) ويقول الباحث الرياضي البروفيسور روجرينزو: «أودُّ أن أقول صراحة: إن للكون هدفاً من الوجود، ولا مكان أبداً للخطأ في هذا التكوين»(٢) فإذا كان الكون قد خُلق لغاية وهدفٍ سام، وبهذه الدقة من الإعجاز والصواب و الذكاء، فهل يُعقل ألا يكون له خالقاً له كمال صفات العظمة والحكمة والحق!

وبعد أن فرغت من شرح المقدمات السِّت الماضية أقول: تتضح دلالة الآيات الكونية على وحدانية الله وتوحيده من خلال الفقرات الثلاث الآتية:

## أولاً: دلالة إبداع الكون ورعايته على ربوبية الله:

أتساءل، ويتساءل معي قارئ البحث:

---

(١) سلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص١٣ نقلاً عن:
Uper force: The Search For a Grand Unified Theory, Of Nature, Davies
بمعنى: القوة الخارقة: البحث عن النظرية الكبرى الموحدة لنشوء الطبيعة، نيويورك، سايمون وشوستر، ط١٩٨٤م، ص٢٤٣.

(٢) سلسلة المعجزات، لهارون يحيى ص١٣ نقلاً عن:
(Show Me God, Wheeling) F, Heeren ١٩٩٥ il Searchlight P.٢٠٠.

من هذا الذي فعل كل ما سبق ؟

من الذي أحدث الكون وأحيا الكائنات؟

ومن الذي رجَّح بعض الممكنات وخصَّصها؟

ومن الذي أحكم المخلوقات وأبدعها ؟

ومن الذي اعتنى بها وهداها؟

ومن الذي سخَّر الكون ودبَّره.

هناك احتمالات أربعة للرد على مجموع التساؤلات السابقة، فإما:

١ ـ أن يكون الكون قد خُلق من غير شيء ـ من العدم ـ وهذا مستحيل عقلاً، كما سبق تفصيل القول فيه في قواعد الإيمان العقلية[1]، ولأنه لكل معلول عِلَّة، ولكل سبب مسبِّب.

٢ ـ أن يكون الكون قد خلق نفسه، وهو محال، لأن العلة غير المعلول، إذ من المستحيل أن يكون الشيء هو علَّة ومعلولاً (أي خالقاً ومخلوقاً) في نفس الوقت ولنفس الحدث، ولأن الكون (السماوات والأرض) ليست ذوات عاقلة، حتى يصدر عنها الخلق، فالخالق لابد أن يكون عليماً سميعاً بصيراً... إلخ الصفات اللازمة لكل خالق أو صانع...

٣ ـ أن يكون الكون من خلق الإنسان، وهذا محال عقلاً، لأن الإنسان مخلوق، والمخلوق لا يَخْلُق، أي أن المعلول لا يكون علة ومعلولاً في نفس الوقت، كما تقدم، ثم إن الإنسان عاجز عن ذلك في واقع الحال، بل هو عاجز عن خلق

---

(١) راجع ص٥٣٤.

نفسه[١]، بل عاجز عن خلق ذبابة[٢] أو ذرَّة، وبالتالي فهو أعجز عن خلق الكون، أو شيء منه.

٤ ـ وبناءً على كل ما تقدم لم يبق إلا أن يكون الكون من خلق خالق، مخالف له، أزلي، غير متسلسل[٣] وغير حادث، ليس لوجوده ابتداء.

ذاك هو الله الذي أخبرنا أنه خلق السماوات والأرض، وهو المالك لهما، المدبِّر لكل ما فيهما كما جاء في قوله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ (الحديد: ٤).

وقوله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (الحديد: ٥).

وقوله عز وجل: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ (السجدة: ٥)، وغيرها من الآيات.

لقد اعترف المشركون بأحقيته ووحدانيته في خلق السماوات والأرض وتدبيره لذلك[٤]، ولم يثبت أن أحداً من البشر وآلهتهم ادعى خلق الكون أو

---

(١) راجع احتمالات خلق الإنسان، ص٦٥٧.

(٢) كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ (الحج: ٧٣).

(٣) لأن التسلسل في العلل والمؤثرات مستحيل عقلاً كما سبق شرحه ص ٦٥٤.

وانظر: الفيزياء ووجود الخالق (مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين)، للأستاذ الدكتور/ جعفر شيخ إدريس ص٤٩.

(٤) راجع ص ٢٦٤ حيث تكلّمت عن اعتراف المشركين بربهم ورب الكون.

شارك الله في ذلك[1]، ولم يقل أحد من السابقين الهالكين: إن الكون قائم بنفسه، مخلوق بذاته بل «إن خلق الكون على هذا النحو، الذي يبدو منه القصد، ويتضح فيه التدبير، ويظهر فيه التناسق المطلق، الذي لا يمكن أن يكون فلتة أو مصادفة، مُلجئ بذاته إلى الإقرار بوجود الخالق الواحد، الذي تتضح وحدانيته بآثاره، ناطق بأن هناك تصميماً واحداً متناسقاً لهذا الكون، وإرادة قاصدة، لا يفوتها القصد في الكبير ولا في الصغير»[2].

يقول ابن القيم رحمه الله: «تأمل العبرة في موضوع هذا العالَم، وتأليف أجزائه، ونظمها على أحسن نظام، وأدَلّه على كمال قدرة خالقه، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال لطفه، فإنك إذا تأمّلت العالَم وجدته كالبيت المبني المعد، فيه جميع آلاته، ومصالحه، وكل ما يُحتاج إليه... ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق، حكيم قدير عليم، قدّره أحسن تقدير، ونظّمه أحسن نظام...»[3].

لقد كشف الله لنبيه إبراهيم عليه السلام مظاهر عظمته في خلق الكون فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ (الأنعام: ٧٥)، فالأصل أن تدفع الكون بنظر واعتبار صاحبها أن يدفع ذلك إلى تحقيق اليقين برب العالمين.

---

(١) قال تعالى نافياً مشاركة أحد من الخلق في إبداع الكون (السماوات والأرض) وخاصة الإنس والجن ومعبوداتهم: ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ (سبأ: ٢٢)، وقال: ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ (فاطر: ٤٠)، وقال: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ (لقمان: ١١).

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٥/ ٢٦٥٦.

(٣) مفتاح دار السعادة ص٢١٢-٢١٣ باختصار.

ذكر الرازي رحمه الله كلاماً نفيساً في معنى الآية فقال: «وهنا دقيقة علمية هي أن نور جلال الله تعالى لائح غير منقطع ولا زائل البتَّة، والأرواح لا تصير محرومة عن تلك الأنوار إلا لأجل حجاب، وذلك الحجاب ليس إلا الاشتغال بغير الله تعالى، فإذا كان الأمر كذلك فبقدر ما يزول ذلك الحجاب يحصل هذا التجلي...»[1] ثم ذكر وجوهاً وأقوالاً لتعليل مجيء فعل الرؤية بصيغة المضارع (نُري) دون الماضي (أَرَيْنا) وكان مما قال:

«الوجه الثاني: .... نقول إنه ليس المقصود من إراءة الله إبراهيم ملكوت السماوات والأرض هو مجرَّد أن يَرَى إبراهيم هذا الملكوت، بل المقصود أنه يراها فيتوسل بها إلى معرفة جلال الله تعالى وقُدسه وعلوِّه وعظمته، ومعلوم أن مخلوقات الله وإن كانت متناهية في الذوات وفي الصفات، إلا أن جهات دلالتها على الذوات والصفات غير متناهية... ـ والحق ـ أن معلومات الله تعالى غير متناهية، ومعلوماته في كل واحد من تلك المعلومات أيضاً غير متناهية،... فثبت أن دلالة ملك الله تعالى وملكوته على نعوت جلاله وسمات عظمته وعزته غير متناهية...»[2].

وكان مما قاله للرازي أيضاً: «القول الثاني: أن هذه الإراءة كانت بعين البصيرة والعقل، لا بالبصر الظاهر والحِسِّ الظاهر[3]... فجميع مخلوقات الله

---

(١) مفاتيح الغيب ١٣/ ٣٥.

(٢) نفسه ١٣/ ٣٥-٣٦ بتصرف.

(٣) وذكر ثماني حجج للقائلين بهذا القول.
انظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ١٣/ ٣٦-٣٧.

تعالى دالَّة على وجود الصانع وقدرته، باعتبارٍ واحد وهو أنها محدَثة ممكنة، وكل محدَثٍ ممكن فهو يحتاج إلى االصانع، وإذاً عرف الإنسان هذا الوجه الواحد فقد كفاه في الاستدلال على الصانع، وكأنه بمعرفة هاتين المقدمتين ـ أي ملكوت السماوات والأرض ـ قد طالع جميع الملكوت بعين عقله، وسمع بأذن عقله شهادتها بالاحتياج والافتقار، وهذه الرؤية رؤية باقية غير زائلة البتَّة، ثم إنها غير شاغلة عن الله تعالى، بل هي شاغلة للقلب والروح بالله...»[1] وقال رحمه الله في تفسير بقية الآية وهي قوله تعالى: ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ (الأنعام: ٧٥): «اختلفوا في الواو... وذكروا فيه وجوهاً:

**الأول**: الواو زائدة، والتقدير: نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ليستدل بها ليكون من الموقنين.

**الثاني**: أن يكون هذا كلاماً مستأنفاً لبيان عِلَّة الإراءة، والتقدير: وليكون من الموقنين نريه ملكوت السماوات والأرض.

**الثالث**: أن الإراءة قد تحصل وتصير سبباً لمزيد من الضلال كما في حق فرعون، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ (طه: ٥٦)، وقد تصير سبباً لمزيد الهداية واليقين ـ كما في حق إبراهيم عليه السلام ـ فلما احتملت الإراءة هذين الاحتمالين، قال تعالى: في حق إبراهيم ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ بمعنى: إنا أريناه هذه الآيات ليراها ولأجل أن يكون من الموقنين لا من الجاحدين...

---

(١) نفسه ١٣/ ٣٧.

واليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشبهة بسبب التأمل... واعلم أن الإنسان في أول ما يَستدل فإنه لا ينفك قلبه عن شك وشبهة من بعض الوجوه، فإذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت صارت سبباً لحصول اليقين، وذلك لوجوه:

**الأول**: أنه يحصل لكل واحد من تلك الدلائل نوع تأثير وقوّة فلا تزال القوة تتزايد حتى تنتهي إلى الجزم.

**الثاني**: أن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكة فكثرة الاستدلال بالدلائل المختلفة على المدلول الواحد جار مجرى تكرار الدرس الواحد، فكما أن كثرة التكرار تفيد الحفظ المتأكَّد الذي لا يزول عن القلب، فكذا هاهنا.

**الثالث**: أن القلب عند الاستدلال كان مظلماً جداً فإذا حصل فيه الاعتقاد المستفاد من الدليل الأول امتزج نور ذلك الاستدلال بظلمة سائر الصفات الحاصلة في القلب، فحصل فيه حالة شبيهة بالحالة الممتزجة من النور والظلمة، فإذا حصل الاستدلال الثاني امتزج نوره بالحالة الأولى، فيصير الإشراق واللمعان أتم ... فكذلك العبد كلما كان تدبره في مراتب مخلوقات الله تعالى أكثر كان شروق نور المعرفة والتوحيد أجلى، إلا أن الفرق بين شمس العلم وبين شمس العالم أن شمس العالم الجسماني لها في الارتقاء والتصاعد حدٌّ معين لا يمكن أن يُزاد عليه في الصعود، وأما شمس المعرفة والعقل والتوحيد فلا نهاية لتصاعدها، ولا غاية لازديادها...»[1].

---

(١) مفاتيح الغيب، للرازي ١٣/ ٣٨ باختصار.

وبناء على كل ما سبق، وحتى يزداد يقين الخلق بالخالق، أكثر الله من ذكر آياته الكونية، وحث على النظر فيها. واعتبر كثير من المفسرين قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس١٠١) وغيرها من الآيات المتعلقة بخلق الكون[١]، بسماواته المحكمة المحفوظة[٢] المرفوعة[٣]، وأَرَضِيه المفروشة الممهودة[٤] المقرورة[٥]، بجناتها المتنوِّعة[٦] ودوابها المتعددة[٧]، باختلاف ليلها ونهارها[٨] والظلمات والنور[٩]، وبما في البحر وعليه من آيات[١٠]، اعتبروا ذلك كله دعوة صريحة من الخالق لتدبر دلائل وجوده، ووجوب توحيده[١١] بل إنه سبحانه أَمَرَ بالبحث فيها والاستدلال بها عليه، حتى لا يُتوهم أن الحق هو الجبر المحض كما قال الرازي في تفسير الآية السابقة[١٢].

(١) كما في البقرة: ١٦٤، والشورى: ٢٩، والجاثية: ٣-٤.

(٢) كما في الأنبياء: ٣٢.

(٣) كما في النازعات: ٢٨، والغاشية: ١٨.

(٤) كما في الذاريات: ٤٨.

(٥) كما في غافر: ٦٤.

(٦) كما في الرعد: ٤.

(٧) كما في الشورى: ٢٩.

(٨) كما في فصلت: ٣٧.

(٩) كما في الأنعام: ١.

(١٠) كما في الشورى: ٣٢-٣٣.

(١١) قد سبق الاستدلال على ذلك بأقوال المفسرين في تضاعيف الرسالة في أكثر من مكان.

(١٢) انظر: مفاتيح الغيب ١٧/ ١٣٥.

ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى عقلاً إلا بالتفكر في مخلوقاته، كما يتضح من قوله ﷺ: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله عز وجل»[١].

وهذه المخلوقات أو الدلائل الكونية «إما أن تكون من عالم السماوات أو من عالم الأرض... ولا شك أن الله سبحانه وتعالى، أكثر من ذكرها في القرآن المجيد، فلهذا السبب أجمل قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، ولم يذكر التفصيل، فكأنه نبَّه على القاعدة الكلية، حتى أن العاقل يتنبَّه لأقسامها، وحينئذ يشرع في تفصيل حِكمة كل واحدة منها، بقدر القوة العقلية والبشرية...»[٢]. فيصل إلى غاية الخلق، وصدق الله في قوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: ٤) فيشهدون لخالق الكون بربوبيته المطلَقة له ولهم، فيغفر ذنوبهم كما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «بينما رجل مستلقٍ على فراشه، إذ رفع رأسه فنظر إلى السماء والنجوم، فقال: أشهد أن لك ربّاً وخالقاً، اللهم فاغفر لي، فنظر الله إليه، فغفر له»[٣].

---

(١) أخرجه: الطبراني في الأوسط ٧/ ١٧١، برقم ٦٣١٥، عن ابن عمر رضي الله عنهما، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ١٣٦، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة ٤/ ٣٩٧: (وبالجملة فالحديث بمجموع طرقه حسن عندي) وقد ذكره برقم ١٧٨٨.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي ١٧/ ١٣٥-١٣٦.

(٣) ذكره البيضاوي في تفسيره ١/ ٣١٣، والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ٤١٠ والقرطبي في الجامع ٤/ ٣١٤ والحديث سنده ضعيف لضعف عبد الله بن جعفر. انظر: كتاب حسن الظن بالله، لأبي بكر عبد الله بن محمد، المعروف بابن أبي الدنيا (٢٠٨-٢٨١)هـ، حقق وعلق عليه وخرج أحاديثه مخلص محمد، دار طيبة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، الرياض ـ السعودية ص١٠٣.

عموماً لقد تحدَّث ابن القيم رحمه الله عن كثير من دلائل وحدانية الله وتوحيده في هذا الكون، في بعض كتبه كما سبقت الإشارة إليه، وخاصَّة ما ورد في كتابه مفتاح دار السعادة حيث تحدَّث عن الأجرام الفلكية والكواكب والأرض وعجائب الليل والنهار والبحار، وآيات الله في خلق السماء والشمس والقمر، ثم استنبط[(١)] من ذلك كله وجود الصانع القديم[(٢)]، وقال بعد ذلك: «قد شهدت الفِطر والعقول بأن للعالم ربّاً، قادراً حليماً، عليماً رحيماً، كاملاً في ذاته وصفاته، لا يكون إلا مريداً للخير لعباده، مجرياً لهم على الشريعة، والسُّنَّة الفاضلة العائدة باستصلاحهم، الموافقة لما ركَّب في عقولهم، من استحسان الحَسَن، واستقباح القبيح، وما جبل طباعهم عليه، من إيثار النافع لهم، المصلح لشأنهم، وترك الضار المفسد لهم»[(٣)].

---

(١) يذكر ابن تيمية رحمه الله الفرق بين برهان الآيات والبرهان الاستنباطي بقوله: «والفرق بين الآيات وبين القياس (يعني به الاستنباط المنطقي) أن الآية هي العلامة، وهي الدليل الذي يستلزم عين المدلول كما أن الشمس آية النهار، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ (الإسراء: ١٢)، فنفس العلم بوجود الشمس يوجب العلم بوجود النهار... وكذلك آيات الرب تعالى، نفس العلم بها يوجب العلم بنفسه المقدسة تعالى، لا يوجب علماً كليّاً مشتركاً بينه وبين غيره، والعلم بكون هذا مستلزماً لهذا هو جهة الدليل، فكل دليل في الوجود لابد أن يكون مستلزماً للمدلول...». انظر: مجموع الفتاوى ٩/ ١٤٣-١٤٤ باختصار.

وملخص ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية هو أن النتيجة التي يؤدي إليها البرهان المنطقي هي أنه لابد للكون من خالق، أو محدِث، أو مسبِّب، لكنه لا يدلك على عين هذا الخالق، أي أنه لا يدلك على أن هذا الخالق هو الله تعالى... بينما الآيات تدلك على عين الخالق سبحانه، كما يدلك صوت إنسان تعرفه على عينه، وكما يدلك شعاع الشمس على عينها.. انظر: الفيزياء ووجود الخالق، لجعفر إدريس ص٥١.

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة ص٢٠٢-٢٢١.

(٣) مفتاح دار السعادة ص٣١٧.

وبعد أن قررّت دلالة إبداع الكون ورعايته على ربوبية الله أختم هذه الفقرة بشهاداتٍ لبعض أكابر علماء عصرنا الحديث في بعض العلوم الدنيوية على وجود رب لهذا الكون يرعاه بعد أن خلقه ـ ولا شك أن شهاداتهم وهم متخصِّصون في علوم الحياة الدنيا، وأقوالهم التي صدرت عنهم بعد دراسة وبحث للكون بما فيه على مدار عشرات السنين، لا شك أنها أصدق وأقوى وأوثق الشهادات على وحدانية الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وعلى ضرورة إحقاق حق التوحيد الذي لأجله قامت السماوات والأرض، وسينهار الكون كله لمجازاة أهله المحسنين، ومعاقبة الجاحدين:

١ ـ يقول عالم الرياضيات أينشتاين ـ مؤكِّداً عُسر الإحاطة بآيات الله الكونية، ثم مقرِّراً حتمية الإيمانِ بالله ـ: «إن العقل البشري مهما بلغ من سمو الإدراك والتفكير عاجز عن الإحاطة بالكون، ولا يمكن أن يدرك أكثر من الطفل الذي يدخل مكتبة كبيرة تضم عدداً ضخماً من الكتب المختلفة، بلغات متعددة، فهو يعلم أن هناك أشخاصاً قد كتبوا مثل تلك الكتب، ولكن لا يعرف من كتبها، ولا كيف كتبها، ولا يعرف اللغات التي كُتبت بها.

والطفل يلاحظ أن هناك طريقة معينة في ترتيب الكتب، ونظاماً خفياً لا يدركه هو، ولكنه يعلم بوجوده عِلماً مبهماً، فذلك شبيه بموقف العقل البشري من الله، مهما بلغ ـ أي العقل ـ من العظمة والسمو..»[1].

وسأله مرة أحد الصحفيين:

---

(١) القرآن وعلم النفس (النفس في المنهج القرآني) ٤/ ١٣٦، للدكتور عبدالعلي الجسماني، وانظر: الله أو الدمار، لسعد جمعة، دار الكتاب العربي، ط(بدون)، د.ت، الأردن ص٢٣٧.

هل تؤمن بالله؟

فأجاب اينشتاين قائلاً:

«ليس أمام أحد إلا ذلك، وإلا فلينظر إلى السماء، وليسمع موسيقاها الرياضية، وليقل لي بعد ذلك: من هو ذاك الموسيقار المهندس[1] العظيم وراء كل شيء، وكل نفس، وكل عقل، .... فالمسألة أوسع نطاقاً من عقولنا المجرَّدة»[2].

٢ ـ يقول الفيلسوف والكاتب الفرنسي باسكال ـ معلِّلاً كلَّ ما يدور في الكون ـ «كل شيء غير الله لا يشفي لنا غليلاً»[3].

٣ ـ يقول بيلوتان: «الله هو... الأصل والمرجع لكل حياة»[4].

---

(١) يجد القارئ في الأقوال المنقولة عن علماء الكون والطبيعة حول قضية الإيمان بوجود الله بعض تعبيرات ومفاهيم لا يصح إطلاقها على الله عزوجل ـ كالمذكور أعلاه ـ وهذا بحسب ما استقر لدى علماء العقيدة الإسلامية لأنه لا يجوز أن يُوصف الله عزوجل إلا بالصفات اللائقة بجلاله سبحانه، وقد أثبتناها كما وردت في أقوالهم للأمانة العلمية والدقة في ذلك، وحتى نتخذ منها قنطرة للوصول إلى الإيمان بالله ـ ولو أخطأ هؤلاء في فهم ذات الله وصفاته أو التعبير عن ذلك كما ينبغي لجلال وجهه وحقيقته، ولنا في ذلك مستند من القرآن كما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الطور: ٣٥)، ونحوها في الأنعام: ١٩، فقد أطلق الله لفظ (شيء) للتوصل إلى إثبات وجود الخالق وهو الله سبحانه وتعالى.

ولكن يجب بعد التوصل إلى ذلك التقيد بالأسماء والصفات الواردة في الكتاب والسنة، ويحرم بعدها وصف الله أو تسميته بما لم يثبت شرعاً أو لا يليق بذاته العلية.

(٢) القرآن وعلم النفس، للجسماني ٤/ ١٣٦، وانظر: الله أو الدمار، لسعد جمعة ص٢٣٧.

(٣) دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي ١/ ٤٨٢.

(٤) نفسه ١/ ٤٨٣ بتصرف.

٤ ـ يقول لا منيه: «الكلمة التي تجحد الخالق تُحرق شفة المتلفظ بها»[١] إشارة منه لضلال الجاحدين بالله غير المنتفعين بآياته.

٥ ـ يقول وولز أوسكار لندبرغ ـ عالم الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية[٢]: «أما المشتغلون بالعلوم، الذين يرجون الله، فلديهم متعة كبرى، يحصلون عليها كلما وصلوا إلى كشف جديد في ميدان من الميادين، إذ أن كلَّ كشف جديد يدعِّم إيمانهم بالله، ويزيد من إدراكهم وإبصارهم لأيادي الله في هذا الكون»[٣].

٦ ـ يقول العلاَّمة الاقتصادي برودون: «إن ضمائرنا قد شهدت لنا بوجود الله قبل أن تكشفه لنا عقولنا»[٤].

٧ ـ يقول مومنيه في بحثه الذي أصدره في مجلة الكوسموس الفرنسية، وأثبت فيه وجود الخالق: «إذا افترضنا بطريقة تعلو عن متناول العقل، أن الكون خُلق اتفاقاً بلا فاعل، مريد مختار، وأن الاتفاقات المتكررة توصَّلت إلى تكوين

---

(١) نفسه ١/ ٤٨٢.

(٢) وهو حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة جونز هونكنز ـ أستاذ فسيولوجيا الكيمياء بجامعة منيسوتا ـ أستاذ الكيمياء الحيوية الزراعية بنفس الجامعة ـ عميد معهد هو رمل منذ سنة ١٩٤٩م ـ عضو ورئيس جمعيات عديدة لدراسة الطعام وتركيبه الغذائي ـ مؤلِّف سلسلة كتب تركيب الدهون والليبيدات الأخرى ـ نَشَر كثيراً من البحوث العلمية. انظر: الله يتجلى في عصر العلم، لنخبة من علماء أمريكا ص٣٠.

(٣) نفسه ص٣٢.

وقارن قوله بقوله تعالى عن القرآن: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٩).

(٤) دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي ١/ ٤٨٣ مادة أله، وانظر ردّه على من اتهمه بالإلحاد في نفس الجزء والصفحة.

رجل، فهل يُعقل أن الاتفاقات والمصادفات تكوِّن كائناً آخر مماثلاً له تماماً في الشكل الظاهري، ومبايناً له في التركيب الداخلي، وهو المرأة، بقصد عمارة الأرض بالناس، وإدامة النسل فيها، ألا يدل هذا وحده على أن في الوجود خالقاً، مريداً، مختاراً، أبدع الكائنات، ونوّع فيها، وغرز في كل نوع غرائز، ومتّعه بمواهب يقوم بها أمرُه، ويرتقي عليها نوعه»[1].

عموماً لقد أنكر بعض فلاسفة الغرب وعلمائهم العقلاء على الذين نظروا إلى آيات الله في كونه وغفلوا عما وراءها، حتى قال أحدهم: «إن العالم في حقيقة أمره يزيد عجائبنا ولا يحلُّها، هذا الفلكي بعلمه ودقته وحسابه ورصده وآلته، ماذا صنع؟ أبان بأن ملايين النجوم في السماء بالقوة المركزية بقيت في أماكنها، أو أتمّت دورتها، كما أن قوّة الجاذبية في العالم حفظت توازنها، ومنعت تصادمها، ثم استطاعوا أن يزنوا الشمس والنجوم، ويُبيِّنوا حجمها وسرعتها وبعدها عن الأرض، فزادونا عجباً.

ولكن ما الجاذبية؟ وكيف وُجِدت؟ وما القوّة المركزية؟ وكيف نشأت؟ وهذا النظام الدقيق العجيب كيف وُجد؟

أسئلة تخلَّى عنها الفلَكي لما عجز عن حلها.

وأبان الجيولوجي لنا من قراءة الصخور كم من ملايين السنين قضتها الأرض حتى بردت؟ وكم آلاف من السنين مرّت عليها في عصرها الجليدي، وكيف غُمرت بالماء؟ وكيف ظهر السطح؟ وأسباب البراكين والزلازل.

---

(١) نفسه ١/ ٤٨٥-٤٨٦ وانظر: براهين أشهر الفلاسفة الأقدمين والمحدثين على وجود الله في ١/ ٤٨٣-٥٠٤. و: انظر أيضاً: شبه الملحدين من الفلاسفة في ١/ ٥٠٤-٥١٦. و: انظر كذلك: نظريات الماديين في خلق الكون والأنواع ١/ ٥١٧-٥٣١.

وكذلك فعل علماء الحياة في حياة الحيوان، وعلماء النفس في نفس الإنسان، ولكن هل شرحوا إلا الظاهر، وهل زادونا إلا عجباً؟

سلهم كلُّهم بعد السؤال العميق الذي يتطلَّبُهُ العقل دائماً وهو:

من مؤلِّف هذا الكتاب المملوء بالعجائب التي شرحتم بعضها، وعجزتم عن أكثرها؟!

أتأليف ولا مؤلِّف، ونظام ولا منظِّم، وإبداع ولا مبدع؟!

مَنْ أنشأ في هذا العالم الحياة وجَعَلها تدبُّ فيه؟ من عَقْلُهُ الذي يُدبِّره»[1] لا شك أنه الله خالق كل شيء.

وهكذا تظافرت كل الاستدلالات والشواهد والشهادات السابقة[2] لتثبت لنا (عقلياً) دلالة إبداع الكون ورعايته على ربوبية الله وحده، ويبقى أن أشرح دلالة الظواهر الكونية على أسماء الله وصفاته كما يلي:

## ثانياً: دلالة الظواهر الكونية على كثير من أسماء الله وصفاته:

يذكر ابن القيم أن الله تعالى «تعرَّف على خلقه بأنواع التعرفات، ونصب لهم الدلالات، وأوضح لهم البينات ليتحقق فيهم قوله تعالى: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[3].

---

(١) الله أهل الثناء والمجد، د/ ناصر بن مسفر الزهراني ص٥٢٠، ولم يذكر المؤلف قائل العبارة.

(٢) ولمزيد من الشهادات.

انظر: الله أهل الثناء والمجد، د/ ناصر الزهراني ص٥١٩-٥٢٣.

(٣) الأنفال: ٤٢. وانظر: مفتاح دار السعادة ص٢٠٣.

يقول: إن لله الأسماء الحسنى: «ولكل اسم من أسمائه أثر من الآثار في الخلق والأمر، لابد من ترتبه عليه كترتب المرزوق والرزق على الرازق، وترتب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم، وترتب المرئيات والمسموعات على السميع والبصير، ونظير ذلك في جميع الأسماء ... وإن اسمه الخالق يقتضي مخلوقاً، والبارئ يقتضي مبروءاً، والمصوِّر يقتضي مصوَّراً..»[1] وصَدَقَ رحمه الله فإننا:

١- لو تأمَّلنا في بعض مظاهر الكون وأحوال مخلوقاته مما سبق شرحه لوجدنا:

أن في حركة الكون ودقة نظامه واتزانه دون اصطدام مجرته ونجومه وكواكبه، وكذا سرعة الأرض بانتظام دونما خلل، وإمساكها لمن عليها وما عليها، وموقعها المناسب جداً في المجموعة الشمسية ومجرَّة درب التبانة، لصلاح الحياة عليها، وتهيئة غلافها الجوِّي والكواكب الأخرى المحيطة بها لحماية المخلوقات عليها وفيها، لو تأملنا في ذلك كله، وتأملنا في سقف السماء المحفوظ، وقوانين شمسها، وقمرها الموزونة المحكمة لأيقنَّا بصفات عديدة لخالق الكون كالحفظ والرحمة والرأفة واللطف، وغير ذلك، «فالآثار تدل على الأسماء، والأسماء تدل على الصفات، والصفات تدل على الذات»[2].

٢- ولو تفكَّرنا في تكوين الشمس وحجمها وموقعها وسيرها ونظامها لرأينا آثار القوَّة والقدرة التي رفَعْتها، وأشْعَلَتْها وحرَّكتها، فدلَّنا ذلك على القوي القادر، المهيمن العظيم.

---

(١) نفسه ص٢٩٩ بتصرف.

(٢) الله جل جلاله، لسعيد حوّى، ص١٢١.

ولو تفكَّرنا في إحكامها وإتقان دورانها واتجاهها، وتقدير مسافاتها عن الأرض، لشهدت عقولنا بأن خالقها حكيم بديع، مقدِّر مقتدر، له مشيئة، وفعَّال لما يريد.

ولو تعقَّلنا ما يُحدثه هذا السراج من آثار في حياتنا على أرضنا لشهدنا أنه من صنع خبير عليم بحاجات الأرض وأهلها[1].

٣- ولو تدبَّرنا في إعداد الأرض لتصلح لحياة الإنسان من حيث خلقها وصفاتها، وخصائص هوائها وتربتها، وإسكان الماء في جوفها، وإخراجه من باطنها، أو إنزاله من سُحبها، لإنبات نباتها للإنسان... والحيوان، لو تأمَّلنا في ذلك كله، وتأملنا أيضاً في تسخير الله الأرض للإنسان بما أودع فيها من خيرات وثروات، وما دبَّ عليها من بهيمة الأنعام والطيور، وما جرى في بحارها من كائنات اللحم الطري وغيره، وما استقر في قيعانها من الأنهار من حلية وزينة، لتأكَّد لنا أن الذي فعل ذلك كله إن هو إلا رحمن رحيم، رزَّاق عليم كريم، محيي مميت، غني عن العالمين.

٤- ولو أمعنَّا النظر في دوابِّ الأرض: في جمال الطيور وهجرتها، وهدايتها لما يَصلح لها، ويُصلحها في حياتها، وتفحَّصنا في خصائصها ومميزاتها التي اختصها الله بها ليسهل طيرانها.

لو فكَّرنا في ذلك، وتفكّرنا أيضاً فيما اختص الله به الحيوانات والحشرات ـ مما سبق عرضه من آيات وغيرها ـ لأدركنا أن خالق هذا الكون كله إن هو إلا بديع بارئ مصوِّر هادٍ للخلق أجمعين.

---

(١) علم الإيمان، للزنداني ١/ ١٢٦ بتصرف وزيادة.

٥- ولو أعملنا عقولنا في الهواء الذي خلقه الله لتتنفَّس به الأحياء، ويوزن بضغطه ضغط السوائل في أجسادنا[١].

فتُحفظ علينا حياتنا، لشهد لنا ذلك الإحكام والإنعام في خلقه متناسباً مع حاجات الإنسان والحيوان على أنه من صنع الحكيم المنعم الوهاب.

وإن التقدير البديع في كثافة الهواء الموجود في الغلاف الجوي لإحراق الشهب والنيازك قبل وصولها للأرض يؤكد أنه من صنع الحافظ اللطيف، البر الرحيم، الخبير العليم...

وإن حركة الرياح وتلقيحها للنبات لإخراج الثمر، والسحب لإنزال المطر، وتسييرها السفن الشراعية، وحمل الهواء للطائرات ليدل على أنه من تدبير العليم بمصالح عباده، ذي الفضل العظيم...

٦- ولو نظرنا باعتبار إلى آيات الله في المياه لعرفنا واستنبطنا بعقولنا الكثير من أسمائه وصفاته، فلا شك أن الذي قدَّر حياة الكائنات الحية على سطح الأرض علم احتياجها إلى الماء فخلقه لها، وأخرجه من باطنها كما قال تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَنْهَا﴾ (النازعات: ٣١).

وعلم أن الماء يتعفَّن فملَّح مياه البحار حتى لا تأسن، وعلم أن سكان القارات الأرضية بحاجة إلى المياه العذبة، فسخَّر الشمس لتبخير مياه البحار والأنهار، وسخَّر الرياح لرفع البخار، وسوق السحب إلى خلقه في كل مكان لإنزال الأمطار.

---

(١) انظر المرجع السابق ١/ ٧٧.

وعلم أن الأرض تتضرَّر بنزول الماء كتلة واحدة ـ وكذلك ما عليها من خلق ـ فأنزله على شكل قطرات، وعلِم أن بقاءه على سطحها يفسد الحياة فسلكه ينابيع في الأرض، بعيداً عن الجراثيم التي تمحقه، ـ وحتى لا يُعيق السير عليها، والزراعة فيها ـ ثم أمدّ خلقه بتلك المياه عبر العيون والآبار، حيث لا تتوفَّر الأنهار وعلم وجود مناطق لا تصلحها أولا تكفيها الأمطار فأجرى الأنهار إليها، وجعل هذا الجريان وسيلةً للانتقال، ومانعاً من تعفنها.

ألا يدل ذلك كله على أنه من صنع رحيم بعباده، رازق لهم، وبالإجمال ألا يدل ذلك كله على الحي القيوم.

لقد أُحكمت سرعات الرياح، وتوزيع الحرارة في طبقات الجو بما يسمح بتكوين السحب، وإبقائها قريبة من الأرض دون انفلاتها، وأُحكمت خصائص طبقات الأرض بما يسمح بنفوذ المياه دون غورها قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ (الملك: ٣٠).

تلك آثار رحمة الله التي تدل على قدرته وقوَّته، وعلمه وخبرته، وحكمته[1] وصدق في قوله: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (التين: ٨).

ومن هنا دعى الله خلقه وحثّهم على تأمل مظاهر إحكامه وإبداعه ورحمته وعلمه، وإرادته وفعله في جميع مخلوقاته، في أكثر من آية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ

(١) علم الإيمان، للزنداني ١/ ١١٦.

سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ (النبأ: ٦-١٦) وغيرها من الآيات سبقت الإشارة إليها.

إن الآيات السابقة لا تخبرنا بأن هناك أرضاً وجبالاً وأزواجاً... إلخ، فهذه كلها أمور نشهدها ونعرفها ـ المسلم والكافر على حد سواء ـ إنما القصد أنها تدعونا إلى التفكر في إبداع خلقها، ومن الذي أبدعها؟ وما واجب الإنسان تجاه بديع السماوات والأرض؟

إن للمخلوقات لدلالة على صفات خالقها، وقد أشارت كثير من آيات القرآن إلى ذلك، ومنها على سبيل المثال:

أ ـ قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (الطلاق: ١٢) فدلّت الآية على قدرة الله وعلمه.

ب ـ قوله سبحانه: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام: ٥٩) فدلّت على شمول علم الله وكماله.

ج ـ قوله جل شأنه: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (النمل: ٨٨)

وقوله: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (السجدة: ٧)

وقوله: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (التين: ٤-٨)، فدلّ ذلك كله على حكمة الحكيم الذي خلق هذا الكون والإنسان.

د ـ قوله عز من قائل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ (الحج: ٦٣-٦٥)، لقد ذُيِّلت هذه الآيات بأسماء الله الدالة على صفاته التي تتناسب مع موضوعها، فأكّدت أن مدبّر الكون (الله) هو اللطيف الخبير، الغني الحميد، الرؤوف الرحيم.

وهكذا نجد الظواهر الكونية دالّة على أسماء الله وصفاته ـ كما سبق شرحه، وهي كذلك تدل على صفاته الذاتية وأسمائه العلية من جانب آخر.

يقول سعيد حوى[1]، رحمه الله:

---

(١) هو: سعيد بن محمد بن ديب حوّى، ولد في حماة عام ١٣٥٤هـ الموافق ١٩٣٥م، وينتهي نسبه إلى الرسول ﷺ، من أبرز الدعاة الإسلاميين المنتمين إلى جماعة الإخوان المسلمين،... درس على يد عدد كبير من المشايخ والأساتذة، منهم محمد الحامد شيخ حماة، ومصطفى السباعي،...، حاضر وخطب في سوريا والسعودية والكويت والإمارات... وأمريكا وألمانيا وغيرها من البلدان، سُجن لمدة خمس سنوات، وألف في السجن (الأساس في التفسير) وعدداً من كتبه الأخرى... توفي عام ١٤٠٩هـ الموافق ١٩٧٩م. من أهم مؤلفاته سلسلة الأصول الثلاثة (الله جل جلاله) و(الرسول ﷺ) و(الإسلام) وغيرها من الكتب. انظر: تتمة الأعلام، للزركلي ١/ ٢٠٧-٢٠٩.

«فإن لله أسماءً حسنى بعضها صفة فعل[١]، وبعضها صفة معنى[٢]، وبعضها صفة سلبية[٣]، وبعضها صفة جلال أو جمال أو كمال، وكل ذلك تدل عليه الظواهر الكونية بشكل مباشر أو بشكل ضمني.

وبما أن الكون من آثار الله، وحوادثُه من آثاره كذلك، ... فآثار الله تدل على أسمائه، وأسماؤه تدلنا على صفاته، وصفاته تدلنا على ذاته، وتوضيح ذلك كما يلي:

- ظاهرة القِدم وحدوث العالَم تدل على اسم الله: الأول الخالق.
- ظاهرة الحياة تدل على اسم الله: المحيي والبارئ والمميت.
- ظاهرة الهداية تدل على اسمي الله: الهادي والمضل.
- ظاهرة الإبداع تدل على اسم الله: البديع.
- ظاهرة الإجابة تدل على اسم الله: المجيب.
- ظاهرة الإنعام تدل على اسم الله: المنعم المعطي.

---

(١) وهي الصفة المتعلقة بقدرة الله في الممكنات كالخلق والإحياء والإماتة... إلخ.

(٢) كالصفات المتعلقة بوجود الذات مثل قولنا إن الله سميع بصير.. إلخ.

(٣) صفات السلب هي ما دل على كمال الضد، وهي الصفات التي تدل على سلب مالا يليق به سبحانه، كالوحدانية، فإنها تنافي التعدد فتسلب عن الله ما ينافي الوحدانية، قال تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝ ﴾ (الإخلاص: ٣-٤).
وكقوله سبحانه: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (البقرة: ٢٥٥) فإنها تدل على تدل على كمال حياته وقيوميته. وغيرها من الآيات.
انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ص١٠٦-١٠٩، وص١٢٠-١٢١.

- ظاهرة الوحدة في الكون وعدم التباين فيه، أو وجود أي خلل فيه ـ وسنأتي لشرحها بالتفصيل[١] ـ تدل على اسم الله: الواحد، الأحد»[٢].

وهكذا في بقية الظواهر الكونية:

- فظاهرة الإعزاز والإذلال للمخلوقات تدلاّن على اسمَي الله: المعز والمذل.

- وظاهرة ثبات القوانين في الكون تدل على اسم الله: المهيمن.

- وظاهرة وجود المخلوقات تدل على اسمَي الله: القادر والمقتدر.

- وظاهرة ترتيب الأشياء بعضها وراء بعض تدل على اسمَي الله: المقدم والمؤخِّر.

- وظاهرة صدور الذنب من العبد ثم ندمه على ذلك تدل على أسماء الله: التواب والغفار والعفو.

- وظاهرة الانتقام تدل على اسم الله: المنتقم.

- وظاهرة النفع والضرر تدل على اسمي الله: النافع والضار.

- وظاهرة إمهال الله للمخالفين عن أمره تدل على اسمي الله: الصبور والحليم.

وهكذا فما من ظاهرة كونية صغيرة أو كبيرة، خفية أو جلية ـ إلا وتدل على صفة لله واسم من أسمائه، غير أن دلالة الظواهر على الأسماء والصفات تختلف باختلاف المتعلَّق، واختلاف الارتباط: فمنها ما يدل على صفات الفعل، ومنها ما يدل على صفات الذات الوجودية.

---

(١) انظر ص٨٨٠.

(٢) الله جل جلاله، لسعيد حوى ص١٢٢-١٢٣ بزيادة يسيرة.

ومنها ما يدل على صفات الذات السلبية، وكلها تدل على موجود.

والحقيقة أنه بإمكاننا معرفة الصفات الوجودية بصفات الفعل، والصفات السلبية بصفات الفعل أيضاً، ومعرفة الذات بكل الصفات.

وخلاصة القول: أن كل الظواهر التي نراها في الكون تدل على أربع صفات وجودية لله، وترجع إليها، وهي: العلم ـ والإرادة ـ والقدرة ـ والحياة.

فلولا القدرة ما كان هذا الكون، ولولا تخصيص الإرادة الأشياء على ما هي عليه ما كان هذا الكون، ولولا العلم ما كان شيء، فأي جزء من أجزاء العالَم يدل على علمٍ سبَق، وإرادة خصّصت، وقدرة أبرزت، ومن لوازم اتصاف ذات بالعلم والإرادة والقدرة، أن يكون لها حياة[1].

والظواهر كلها تشير إلى أن هذه الذات المتصفة بما سبق ـ كاملة منزَّهة عن كل نقص.

والظواهر كلها تشير إلى موجود متصف بهذه الصفات.

موجود لا بداية له، فهو الأول ـ كما سبقت الإشارة إليه.

---

(١) ومما لا شك فيه أن جميع صفات الله تؤول إلى صفتي الحي القيوم، قال ابن أبي العز الحنفي: «... فعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليهما ترجع معانيها، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، فلا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة، وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته، فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال أتم انتظام». انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص١٢١-١٢٢.

ولا نهاية له، فهو الآخر.

ولا ند له، فهو الواحد.

ولا مشابه له، فهو القدوس.

ولا حاجة به لأحد، فهو القيوم.

إنه موجود متصف بالقدرة فهو قادر، وبالحياة فهو حي، وبالسمع فهو سميع، وبالبصر فهو بصير، وبالكلام فهو متكلِّم، وبالعلم فهو عليم، وبالإرادة فهو مريد، وبالرحمة فهو رحيم ... إلخ.

ومقتضي كثرة أفعال الله التي هي أثر عن العلم والإرادة والقدرة، أن تكون لله أسماء كثيرة، ـ ولكن الأدب مع الله ألا نسميه إلا بما سمَّى به ذاته بالوحي الثابت، لأنه لا يعرف جلاله إلا هو، ولكي لا ننسب إلى الله ما لا يليق به[1]... فلا نسميه إلا بما سمّى به نفسه ـ أو سماه به رسوله ﷺ أعرف الخلق به.

**وختاماً أقول:**

إنه ما من اسم من هذه الأسماء الحسنى أو غيرها مما لم أتعرض لشرحه، أو مما استأثر الله به إلا وفي الكون ظاهرة تدل عليه، أو يصل العقل إليه[2]، وما من شك أنه إذا اجتمعت دلالة العقل مع دلالة النص واتفقا على بيان اسم من أسماء

---

(١) وفي الحديث عن النبي ﷺ: **«الخير كله بيديك والشر ليس إليك»** أخرجه مسلم في ١/ ٥٣٤-٥٣٥، في كتاب: صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل، برقم ٢٠١/ ٧٧١ عن علي بن أبي طالب. وأول الحديث: أنه كان إذا قال إلى الصلاة قال: **«وجهت وجهي للذي...»**.

(٢) الله جل جلاله، لسعيد حوى ص١٢١-١٢٤ باختصار.

الله، أو صفة من صفاته في الكون، فذلك برهان سلامة العقل وحَقِّية النص، وتأكيد لتوافق العقل مع النقل.

ومجموع ما سمَّى الله به ذاته يُطلق عليه لفظ «الأسماء الحسنى» قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

ولقد أشار الله في كتابه إلى بعض الصفات الواجبة له تعالى، والتي يقتضيها كمال ألوهيته، حيث تحدث سبحانه عن:

- وجوده عز وجل[2].
- وقدمه وبقائه[3]، ومخالفته للحوادث[4].

---

(١) الأعراف: ١٨٠، ونحوها في الإسراء: ١١٠، وطه: ٨.

(٢) كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: ٢-٤). وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (المؤمنون: ٧٨-٨٠).

(٣) كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد: ٣). وقوله: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ (القصص: ٨٨)، ونحوها في الرحمن: ٢٦-٢٧.

(٤) كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص). وقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ (الشورى: ١١).

ـ وقيامه بنفسه[١]، ووحدانيته[٢]، وقدرته[٣]، وإرادته[٤]، وعلمه[٥]، وحياته[٦].

---

(١) كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥). وقوله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف: ٥١). وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ (النحل: ٥١-٥٣). وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٧٣، ٧٤).
ونحوها في الأنبياء: ٢١-٢٥، والمؤمنون: ٨٤-٩٢، والنمل: ٥٩-٦٤.

(٣) كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ (الحج: ٥-٧). وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ (ق: ٣٨). ونحوها في الكهف: ٥١، الفرقان: ٥٣-٥٤، والنور ٤٣-٤٥.

(٤) كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢). وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ (الكهف: ٨٢). ونحوها في الإسراء: ١٦، والنساء: ٢٦-٢٨، والتكوير: ٢٩.

(٥) كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ﴾ (سبأ: ٢).

ونحوها في التغابن: ٤، ولقمان: ١٦، والأعراف: ٨٨-٨٩، ويونس: ٦١، والمجادلة: ٧.

(٦) كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ﴾ (غافر: ٦٥)، ونحوها في البقرة: ٢٥٥، وآل عمران: ١-٤.

ـ وسمعه وبصره[١]، وكلامه[٢] جلَّ شأنه، وجَمَعَ عدداً من أسمائه في بعض السُّوَر[٣].

كما أوحى الله إلى نبيه ﷺ بتسعة وتسعين اسماً[٤]، ليست هي كل ما ورد من أسماء الله تعالى[٥]، بل هناك زيادة في الصفات كما جاءت به الأحاديث[٦]،

---

(١) كقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: ١). وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ (العلق: ١٤)، ونحوها في طه: ٤٣-٤٦، وغافر: ١٩-٢٠.

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٤)، ونحوها في البقرة: ٢٥٥، وآل عمران: ١-٤.

(٣) كما في قوله تعالى في سورة الحشر: ٢٢-٢٤: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

(٤) صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «لله تسعة وتسعون اسماً، من حفظها دخل الجنة، وإن الله وتر يحب الوتر» رواه مسلم في ٤/ ٢٠٦٢، في كتاب الذكر والدعاء: في أسماء الله تعالى...، برقم ٥/ ٢٦٧٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وللحديث روايات أخرى عند مسلم في ٤/ ٢٠٦٣.

(٥) لأن جلال الله لا يتناهى، وأفعاله لا حدود لها.

(٦) كقوله ﷺ: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد.. المنَّان، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام...» الحديث. أخرجه أبو داود في سننه ٢/ ١٦٧، في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، برقم ١٤٩٥م، عن أنس بن مالك، وقال الألباني في صحيح أبو داود ١/ ٢٧٩: صحيح.

وهناك قواعد تتعلق بأسماء الله وصفاته أشار إليها أهل العلم.

انظر: كتاب أسماء الله وصفاته، للدكتور/ عمر سليمان الأشقر.

وهناك أسماء استأثر الله بها، كما يدل على ذلك الدعاء، الذي جاء فيه: «**واستأثرت به في علم الغيب عندك...**»[١].

... وبعد أن شرحتُ دلالة الظواهر الكونية على كثير من أسماء الله وصفاته، أقول:

كما أخبر الله في كتابه، على لسان رسوله ﷺ عن بعض أسمائه وصفاته عزوجل، وشهدت آيات الله الكونية على ذلك، فقد شهد أيضاً علماء الغرب المعاصرون بكثير من ذلك ـ استنباطاً من أبحاثهم ودراستهم، ـ منهم:

١ ـ إدوارد لوثر كيسيل (أخصائي علم الحيوان والحشرات) حيث شهد لله بالخلق والإبداع، وقال بعد كلام طويل عن المخلوقات والكائنات:

«وكلما استرسلتُ في دراستي للطبيعة والكون،.... قوي إيماني... فالعمليات والظواهر التي تهتم العلوم بدراستها، ليست إلا مظاهر وآيات بينات على وجود الخالق المبدع لهذا الكون»[٢].

---

(١) أخرجه ابن حنبل في مسنده ١/ ٥٦٦ برقم ٤٣١٩/ ٧٧٣ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. والحاكم في مستدركه ١/ ٥٠٩ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه فإنه مختلف في سماعه عن أبيه، وقال الذهبي: وأبو سلمة لا يُدرى من هو، ولا رواية له في الكتب الستة، وقال الألباني في تخريجه لأحاديث «شرح العقيد الطحاوية» ص١٠٨: «صحيح، وإن أعلَّه الذهبي لجهالة أبي سلمة، وتبعتُه عليه برهة من الزمن، ثم تبين لي فيما بعد أن أبا سلمة هذا ثقة معروف، وأن إسناده متصل صحيح، في تحقيق أجريته عليه، لا أظن أحداً سبقني إليه، أودعته في الأحاديث الصحيحة» (١٩٩) أ. هـ.

(٢) الله يتجلى في عصر العلم، لنخبة من علماء أمريكا ص٢٩.

٢ ـ بول كلارنس إبرسولد «أستاذ الطبيعة الحيوية»[١]، حيث شهد لله بالوجود الذاتي والقدرة، وغير ذلك، وقال بعد حديثه بأن الله ليس بمادة: «وعلى ذلك فإن لله وجوداً ذاتياً، وهو الذي تتجلَّى قدرته في كل شيء، وبرغم أننا نعجز عن إدراكه إدراكاً مادِّياً، أو وصفه وصفاً مادِّيّاً، فهنالك ما لا يُحصى من الأدلة المادية على وجوده تعالى، وتدل أياديه في خلقه على أنه العليم الذي لا نهاية لعلمه، الحكيم الذي لا حدود لحكمته، القوي إلى أقصى حدود القوَّة»[٢].

٣ ـ أندروكونواي إيغي (عالم فسيولوجي)[٣] حيث شهد لله بعدة صفات تَوصَّل إليها بعد دراساته وبحوثه وتحليلاته المنطقية على منهج الفلاسفة ـ فقال:

«لقد درستُ صفات الله دراسة مطوَّلة على أساس التحليل المنطقي الذي قام به الفلاسفة، وأمكن باستخدام المنطق الوصول إلى أن لله صفات معينة...

---

(١) وهو حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا، مدير قسم النظائر والطاقة الذرية في معامل أوك ريدج ـ عضو جمعية الأبحاث النووية والطبيعة النووية.
انظر: المرجع السابق، ص٣٣.

(٢) نفسه ص٣٥.

(٣) وهو من العلماء الطبيعيين ذوي الشهرة العالمية ـ عمل رئيساً لقسم الدراسات الفسيولوجية والصيدلية بجامعة نورث وسترن من عام ١٩٢٥-١٩٤٦م، وأستاذاً في كلية الطب، ووكيلاً لها في جامعة ألينوى من عام ١٩٤٦-١٩٥٣م، وعمل بعد ذلك أستاذاً للفسيولوجيا ورئيساً لقسم العلوم الإكلينيكية بكلية الطب بجامعة شيكاغو أ.هـ.
انظر: الله يتجلى في عصر العلم، لنخبة من علماء أمريكا ص١٣٣.

منها: الله أبدي، خالد، لطيف (ليس مادياً)، ليس حادثاً، قدُّوس، طيِّب، يعلم الشرَّ ولكنه ليس شرِّيراً[١]، ولا يريد الشر[٢]، لا يكره الأشياء[٣]، حق، عليم، محب، مريد، منزَّه عن الشهوات والنزوات، أصل الفضائل جميعاً»[٤].

٤ ـ جورج إيرل دافيز (عالم الطبيعة) حيث شهد لله بالوحدانية وأنه ليس له كفواً أحد، فقال:

«إن كل ذرة من ذرَّات هذا الوجود تشهد بوجود الله، وإنها تدل على وجوده حتى دون حاجة إلى الاستدلال بأن الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها... وإنني أُفضِّل أن أومن بإله غير مادي خالق لهذا الكون، تظهر فيه آياته، وتتجلَّى فيه أياديه، دون أن يكون هذا الكون كفواً له»[٥].

---

(١) هكذا قال: (ليس شريراً) وهذه الصفة وإن كانت صفة سلب لكنها لا تليق بالله تعالى.

(٢) هكذا قال (ولا يريد الشر) وعندنا في شريعتنا لا ينسب الشر إلى الله وإن كان يريد الشر ولا يحبه، لأنه قد يريده لحكمة، ومن الأدب مع الله ألا ننسب الشر إليه، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء: ٨٠) فنسب الشفاء إلى الله ولم ينسب المرض إليه. ونحن لا ننسب الشر إلى الله لأن الشر باعتبار مصدره خير، وإن كان شراً باعتبار محله، فإذا شرع الله ـ مثلاً ـ قطع يد السارق، فهو خير باعتبار أنه صدر من الله، لأن الله عزوجل لا يشرع إلا ما فيه مصلحة وحكمة، وإن كان ذلك شراً باعتبار محله، وهي اليد المقطوعة، وهذا يقال: في المرض، والفقر، والكفر وغير ذلك.

انظر: تعليقنا على مثل هذه العبارات في ص ٦٧٨.

(٣) الصحيح أنه سبحانه يحب الإيمان ويرضاه، ويكره الشرك والكفر ولا يرضاه لعباده.

(٤) الله يتجلى في عصر العلم، لنخبة من علماء أمريكا ص١٣١.

(٥) نفسه ص ٣٦-٣٧ بتصرف واختصار.

٥ ـ رسل لويل مكستر[١] (أستاذ علم الحيوان) حيث قال بعد حديثه عن آيات الله في الطيور، ودور العقل في تحقيق الإيمان بالله: «والحقيقة التي لا شك فيها، والتي لا تستطيع النظريات المادية أن تنتقص منها، هي أن الإله الذي يصل إليه الإنسان بفكره ودراسته لهذا الكون هو نفس الإله الذي تتحدث عنه الكتب السماوية»[٢].

## ثالثاً: دلالة وحدة الكون على وحدانية الله وتوحيده:

كنتُ قد أشرتُ في الأدلة العقلية الافتراضية[٣] إلى دلالة دليل التمانع والتوارد[٤] على وحدانية الله وتوحيده، وأتحدث هنا عن ظاهرة وحدة الكون ودلالتها على ربه الواحد.

لقد أدركنا من تسلسل البحث، ومن ذكر صفات الله السابق استنباطها من الأدلة الكونية، أن وحدانية الله ووجوب توحيده نتيجة منطقية وحتم لازم لا مناص منه، ولا يحتاج إلى برهان آخر، بل إن التعدد والإشراك بالله هو الذي يفتقر إلى دليل، كما قال تعالى للمشركين: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ

---

(١) وهو حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة إلينوي ـ أستاذ علم الحيوان ورئيس القسم بكلية هويتن ـ عضو الجمعية العلمية بإلينوي ـ رئيس المؤسسة العلمية من سنة ١٩٥١ ـ ١٩٥٤ ـ متخصص في دراسة الأنسجة والعناكب والتطور.ا.هـ.

انظر: المرجع السابق ص ٤٩.

(٢) نفسه ص٥١.

(٣) راجع ص ٤٠٦.

(٤) وهو المتعلق بقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

صَـٰدِقِينَ ﴾[١]، ومع هذا فإن الدارس لهذا الكون يرى فيه وحدة تامة مترابطة متناسقة متكاملة، مما يدل دلالة كاملة على أن ذاتاً واحدة بعلم واحد، وإرادة واحدة، وقدرة واحدة، قد أوجدته وصرَّفت شئونه، وتتضح وحدة الكون من أمور كثيرة منها:

**١ ـ الأصل الواحد لخلق الكون:**

سبقت الإشارة إلى أن الكون كله خُلق من أصل واحد هو السديم كما عبَّر عنه العلماء المعاصرون، أو الدخان.. كما سبق إليه القرآن الكريم، وخُلق في لحظة واحدة بكلمة (كن) من خالقه، فكان في الوجود، وهو ما عبَّر عنه علماء العصر الحديث بـ(لحظة الانفجار العظيم)، وقالوا: «إن وحدة البدء لنشأة الكون تؤكِّد وحدة خالقه سبحانه وتعالى»[٢].

**٢ ـ القانون الواحد الذي يحكم الكون:**

تبيَّن لنا من كل ما سبق شرحه في الأدلة الكونية أن الكون كلَّه يسير وفق قانون واحد متزن، منتظم، دقيق، بليغ، عام لكل المخلوقات، ليس فيه تناقض ولا خلل، ولا ازدواجية ولا اضطراب، ولا تغيير ولا تحويل ولا تبديل، وهكذا هو لملايين السنين الماضية، كما كشفته الحسابات الفلكية لعلماء الفضاء، وكما هو مشاهد في الواقع المحسوس ابتداء من أصغر مخلوق وحتى أكبر موجود في هذا الكون.

---

(١) النمل: ٦٤، ونحوها في البقرة: ١١١.

(٢) الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن، للدكتور عبد العليم عبد الرحمن خَضِر، الدار السعودية، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، جدة ـ السعودية ص ١٠٨.

### ٣ ـ التكامل في أجزاء هذا الوجود:

فقد لاحظنا سابقاً تكامل الشمس مع المجموعة الشمسية وكذا تكامل الشمس مع القمر لتهيئة الأرض لصلاحها للمعاش، وتكامل البحار والأنهار مع الشمس والرياح لسُقيا الخلق، وتكامل الطيور والحشرات مع الهواء لتلقيح النبات، وتكامل الإنسان مع الطير لقيام الزرع، وتكامل الشجر مع البشر لتنقية الهواء، ولاحظنا تكامل بهيمة الأنعام مع الأنام لتوفير حاجاتهم من طعام وشراب ولباس وسكن وحرث... إلخ، ولاحظنا أيضاً تكامل أجهزة الهضم في الإنسان والحيوان لتحقيق الغذاء، وتوفير الحليب، وبناء الأجسام..

وهكذا خلق الله كونه متكاملاً في ليله ونهاره، وشمسه وظلاله، وحرِّه وبرده، وذَكَرِه وأنثاه.. إلخ.

### ٤ ـ التناسق والترتيب في أحوال الكون:

تغرب الشمس فيسطع القمر، ويرحل الليل فيسفر الصباح، ينزل المطر فتجري الأنهار، النهار للمعاش، والليل للراحة والسكن، لكلٍّ ميزات وخصائص وهدف ووظيفة، ولكل شيء في الوجود فائدة ليست لغيره، ليقوم الكون، وتصلح الحياة، ويعيش الإنسان.

لقد رتَّب الله الكون ونسَّقه ليكمل بعضه البعض، وليأتي اللاحق بدور ليس للسابق، هذه سنة الله في كل موجود، هناك تناسق بين كل زوجين اثنين ابتداء من الإلكترون والبروتون اللذان يدوران حول نواة الذرَّة (أصغر شيء في الوجود) وانتهاء بالأرض والقمر اللذان يدوران حول الشمس (أكبر شيء في المجموعة الشمسية).

هناك تناسق وترتيب بين الضوء والحرارة، والإشعاعات والموجات، وتناسق بين القوة المغناطيسية الكهربائية وقوى الجاذبية للأجرام، وتناسق عجيب بين أبعاد كواكب المجموعة الشمسية عن الشمس بنسبة عددية واحدة، متكررة، وتناسق بين الأوزان الذرية للعناصر الأصلية للكون[١].

... **وبعد**: ألا يدل ذلك كله على رب واحد استحق أن يكون إلهاً واحداً؟؟

إن الوحدة في أصل الكون، والوحدة في قانونه وناموسه الذي يحكمه، والوحدة في تكامل أجزائه، وتناسق وترتيب أحواله، كل ذلك يدل دلالة قاطعة على وحدانية خالقه ومدبِّره سبحانه وتعالى وصدق الله في قوله: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ (الأنبياء: ٢٢) وقد سبق شرح الآية مع غيرها فلتراجع في موضعها، ورحم الله ابن القيم القائل ـ بعد سرده لشيء من آيات الله في الكون، وتأليف أجزائه: «... ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالَم مخلوق لخالق... قدّره أحسن تقدير، ونظّمه أحسن نظام، وإن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين، بل الإله واحد، لا إله إلا هو... فالكون مثل البدن يستحيل أن يكون المدبِّر له روحان متكافئان متساويان، ولو كان كذلك لفسد وهلك... هذا من المحال في أوائل العقول وبداية[٢] الفِطَر، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا...»[٣].

---

(١) لمعرفة تفاصيل ذلك انظر الله جل جلاله، لسعيد حوى ص١٠٢.

(٢) هكذا في الأصل (وبِدايَة الفِطَر) ولعل الأصوب وبَدائِهِ الفطر.

(٣) مفتاح دار السعادة ص٢١٢-٢١٣ باختصار.

وانظر: كتاب التوحيد، للزنداني ص٢٣٧-٢٤٢.

وما دام الله هو الرب الواحد، ذو الجلال والكمال والعلو في أسمائه وصفاته، فقد استحق توحيد العبادة، وهذا ما قرّره الله في كتابه كما يتضح من النقطة الرابعة والأخيرة في هذه الفقرة:

## رابعاً: استدلال القرآن على توحيد الألوهية بربوبية الله للأكوان:

لآيات الربوبية دلالة على توحيد الألوهية، ولقد استدل القرآن بالأول على الثاني، وأكثر من ذلك، ـ تارة بصورة مجملة، وتارة أخرى بصورة مفصّلة ـ .

حيث ذيّل الله كثيراً من آيات الربوبية بما يشير إلى ضلال المشركين في بُعدهم عن التوحيد، أو يُعجِّب من انصرافهم عن حقيقته، وغفلتهم عن آياته، ويدعوهم للتفكير فيها، والاستدلال بها على ألوهيته، والاهتداء إليه، فهي كما قال سبحانه: ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (الفرقان: ٦٢)، وقد سبق شرح ذلك كله.

وختم آيات أخرى بالدعوة الصريحة إلى الإيمان به، عن يقين، بل أَمَرَ بعبادته وتقواه، وإخلاص ذلك له وحده، وحذَّر من السجود لغيره من المربوبات، وحكم بالسجود له وحده لا سواه.

ولقد تبيَّن من خلال حصر آيات التوحيد المتعلقة بربوبية الله للأكوان، واستقرائها لغرض معرفة منهج القرآن في عرض أدلة توحيد العبادة، أنه سلك مسلكين في ذلك:

**المسلك الأول:** الاستدلال بربوبية الله المطلقة لكل شيء «بمعناها العام الشامل للخلق والملك والتدبير» على استحقاق الله وحده لتوحيد العبادة، ومن ذلك:

أ ـ ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الأنعام: ١٦٤)، فلفظ (ربّاً) في الآية جاء بمعنى (إلهاً)[1] حيث أمر الله نبيه ﷺ بالاستنكار والتعجيب من أن يكون له مطلوب سوى الله عزَّوجل، وهذا يتضمَّن عبادة الله دون شك، ولقد أقام الدليل على ذلك في بقية الآية بقوله: ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾، إذ كل ما سوى الله تعالى مربوب، فلا يصلح للربوبية، ولا يستحق الألوهية.

ب ـ ما ورد في قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون: ٥٢) وقال في موضع آخر: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٩٢) حيث رتَّب الأمر بالتقوى والعبادة بناءً على وصف نفسه بالربوبية للخلق.

ج ـ ما نصَّ عليه قوله جل وعلا: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ (ص: ٦٥-٦٦) حيث علَّل استحقاقه لتوحيد الألوهية بربوبيته للسماوات والأرض وما بينهما، وبكمال عزه ومغفرته سبحانه وتعالى.

د ـ ما ثبت في قوله عزَّ من قائل: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾ (مريم: ٦٥).

---

(١) قال الشوكاني: «الاستفهام في: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا ﴾ للإنكار، وهو جواب على المشركين لما دعوه إلى عبادة غير الله، أي: كيف أبغي غير الله رباً مستقلاً، وأترك عبادة الله، أو أجعل شريكاً لله فأعبدهما معا...». فتح القدير ٢/ ٢٦٠.

**المسلك الثاني:** الاستدلال بتفاصيل معنى الربوبية، أو آحادها على توحيد الألوهية، ومن ذلك:

**أ ـ الاستدلال بخلق الله للكون والكائنات على استحقاقه للعبادة:** كما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ (الأنعام: ١٠٢) وقوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (غافر: ٦٢) وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ٢١)، وكما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (البقرة: ١٦٣، ١٦٤) حيث ذكر بعض المفسرين أنها تصديقاً من الله لنبيه ﷺ، واحتجاجاً له على ما يدعو إليه من توحيد العبادة، وذلك أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ... ﴾ إلخ الآيات[1]، طلب المشركون من النبي ﷺ حجة وبرهاناً على هذه الدعوى فأنزل الله الآية التي بعدها ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ... ﴾ إلى قوله: ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2].

---

(١) أي ما جاء في سورة البقرة: ١٦٣.

(٢) انظر على سبيل المثال: جامع البيان، للطبري ٢/ ٧٣-٧٤. و: الكشاف، للزمخشري ١/ ٢٣٦. و: تفسير المراغي ٢/ ٣٤.

ومن الآيات التي استدل الله فيها بإيجاده الخلق على استحقاقه لتوحيد العبادة، ما جاء في قوله سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (فصلت: ٣٧) وغيرها من الآيات التي استدل الله بها على ألوهيته[١]، ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن بعضاً من عباد الله العقلاء قد استدلوا بخلق الله لهم أو لغيرهم على استحقاقه للعبادة، من هؤلاء إبراهيم[٢] وصالح[٣] وإلياس[٤]، وموسى عليهم السلام[٥]، وصاحب يس[٦]، وصاحب الجنتين[٧].

وهكذا كان تفرد الله بخلق الكائنات دليل استحقاقه لتوحيد العبادات.

يقول الشنقيطي رحمه الله: «ومن كثرة الآيات الدالة على إقامة البرهان القاطع المذكور على توحيده ـ جل وعلا ـ عُلِم من استقراء القرآن أن العلامة الفارقة بين من يستحق العبادة ومن لا يستحقها هو كونه خالقاً لغيره، فمن كان خالقاً لغيره فهو المعبود بحق، ومن كان لا يقدر على خلق شيء، فهو مخلوق محتاج، لا يصح أن يُعبد بحال»[٨].

---

(١) كما في آل عمران: ٦.

(٢) كما جاء في سورة الشعراء: ٧٩-٨١.

(٣) كما جاء في سورة هود: ٦١.

(٤) كما جاء في سورة الصافات: ١٢٥-١٢٦.

(٥) كما جاء في سورة طه: ٤٩-٥٠.

(٦) كما جاء في سورة يس: ٢٢.

(٧) كما جاء في سورة الكهف: ٣٧-٣٨.

(٨) أضواء البيان ٧/ ٣٦٦ حيث ذكر ذلك في تفسير الآية: ٣ من سورة الأحقاف.

وقد أكّدت السُّنَّة الصحيحة استحقاق الرب للعبادة بناء على خلقه للعباد، فعن ابن مسعود[1] رضي الله عنه قال: سألتُ النبي ﷺ: أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: **«أن تجعل لله نِداً وهو خلقك»** قلتُ ـ أي ابن مسعود ـ إن ذلك لظلم عظيم[2].

والشاهد هنا قول النبي ﷺ **«وهو خَلَقَك»** فإنه دليل على استحقاق الله عزّوجل للإفراد بالعبادة، ونبذ الأنداد ـ الشركاء ـ وقد قرنه ﷺ بذكر الشرك ليبيِّن بعظمة دلالته وظهورها عظمة هذا الذنب وظهور قُبحه ـ خاصَّة بعد اعتراف العبد بأن الله خالقه[3].

ومن هنا اعتبر الله شرك العبادة الذي يقع من بعض خلقه أمراً منكراً عظيماً، كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان: ١٣) وغيرها من الآيات[4] وحكم بعدم مغفرة الشرك[5]، وخلود أهله في

---

(١) هو: أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، حليف بني زهرة، أسلم قديماً، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة.. إمام، حبر، فقيه الأمة، هاجر الهجرتين، وشهد بدراً والمشاهد كلها... وروى علماً كثيراً.. حدّث عنه كثير من الصحابة، قال الذهبي عنه: «كان معدوداً في أذكياء العلماء». انظر: الإصابة، لابن حجر ٤/ ١٢٩. و: سير أعلام النبلاء، للذهبي ١/ ٤٦١ وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري في ٤/ ١٦٢٦ في كتاب: التفسير، باب فلا تجعلوا لله أنداداً ... برقم ٤٢٠٧ عن ابن مسعود رضي الله عنه، ومسلم في ١/ ٩٠ في كتاب: الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب برقم ٤١/ ٨٦.

(٣) راجع الأدلة الفطرية على التوحيد ص٢٤١.

(٤) كقوله تعالى: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج: ٣١)، وكما جاء في سورة النساء: ٤٨، ١١٦.

(٥) كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء: ٤٨).

نار جهنم[١]. بعد حرمانهم دخول الجنة، جزاء شركهم بالله من لم يخلق ذرَّة أو شعرة، ولا يستحق أيَّ صورة من صور العبادة.

**ب ـ الاستدلال بملك الله للمخلوقات على أحقيته بتوحيد الألوهية:**

من البدهي أن صانع الشيء هو الأحق بامتلاكه، وكذا خالق المخلوق يملك ما خلَق، ومن هنا استدل القرآن بامتلاك الله لمخلوقاته الملك التام المطلق، وانفراده بذلك، استدل به على وجوب توحيده في عبادته، ومن ذلك:

١ ـ ما جاء في قوله سبحانه ـ على لسان محمد ﷺ مما علَّمه الله أن يقوله: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ (النمل: ٩١).

والشاهد فيها قوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ قال ابن جرير في معنى الآية: «ولرب هذه البلدة الأشياء كلها ملكاً له، فإياه أُمِرتُ أن أعبد، لا من لا يملك شيئاً»[٢].

٢ ـ ما ورد في قوله تعالى ـ بعد ذكره لخلق الإنسان ومراحل تخلُّقه ـ ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (الزمر: ٦).

---

(١) كما هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ (المائدة: ٧٢).

(٢) جامع البيان ٢٠/ ٣١ وقال: «فخصَّها بالذكر ـ يقصد مكَّة ـ دون سائر البلدان وهو رب البلاد كلها لأن أراد تعريف المشركين من قوم رسول الله الذين هم أهل مكة بذلك نعمته عليهم... وإن الذي ينبغي لهم أن يعبدوه هو الذي حرَّم بلدهم، فمنع الناس منهم، وهم في سائر البلاد يأكل بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً..».

لقد كان الكفار يعترفون لله بمُلكه للكون، ويُفردونه في ذلك، فأكَّد الله عزوجل اعترافهم، ليستدل به على توحيد الألوهية، حيث استدل بما أقرُّوا به وهو الانفراد بالملك، على ما أنكروه وهو قول (لا إله إلا الله) وعبادته بناءً على ذلك فدلَّ هذا دلالة قطعية على أن معناها لا معبود بحق إلا الله، وإن عُبد غيره فبباطل، ثم أنكر عليهم غاية الإنكار انصرافهم عن الحق في توحيد العبادة مع ظهور موجباته وقيام برهانه، بقوله ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أي عن عبادة الله وتوحيده[1].

٣ ـ ما جاء في تفسير قوله تعالى ـ مخاطباً المشركين ـ : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الروم: ٢٨) قد سبق شرح الآية[2]، والذي يهمنا هنا هو تعليق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عليها بقوله: «يقول ـ تعالى ذكره ـ إذا كان الواحد منكم ليس له من مماليكه شريك فيما رزقه الله، بحيث يخاف ذلك المملوكَ كما يخاف السادة بعضُهم بعضاً، فكيف تجعلون لي شريكاً هو مملوكي، وتجعلون شريكاً فيما يختص بي من العبادة والمخافة والرجاء، حتى تخافوه كما تخافوني؟

ومن المعلوم أن ملك الناس بعضِهم بعضاً ملك ناقص، فإن السيد لا يملك من عبده إلا بعض منافعه، لا يملك عينه، وهو شبيه بمِلك المستأجر بعض منافع أجيره،...

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٥/ ١٥٣.

(٢) راجع ص٢٥١.

فإذا كان هذا المِلك الناقص لا يكون المملوك فيه شريكاً للمالك، فكيف بالمِلْك الحق التام لكل شيء؟ مِلك المالك للأعيان والصفات، والمنافع والأفعال، الذي لا يخرج عن ملكه شيء بوجه من الوجوه، ولا لغيره ملك مفرد، ولا شريك في ملك، ولا معاوَنةٌ له بوجه من الوجوه.

كيف يُسوَّغ في مثل هذا أن يُجعل مملوكُه شريكَه بوجه من الوجوه؟»[1].

ج ـ **الاستدلال بتدبير[2] الله للكون على توحيد العبادة:** التدبير للكون وتصريف شئونه يشمل: الإحياء والإماتة والإنعام للخلق، والنفع والضر والهداية والرزق لهم... إلخ.

وبالعموم تدخل فيه كل أفعال الله وصفاته الفعلية كالمعز والمذل والمنتقم، والمبدئ والمعيد، والخافض والرافع، والمقدِّم والمؤخر،... إلخ.

وقد استدل الله في كتابه على استحقاقه توحيد الألوهية بتدبيره للكون كله من مبتدئه حتى منتهاه، استدل على ذلك بصفة التدبير إجمالاً واستدل كذلك بمعانيه آحاداً.

فمن الآيات التي وردت على سبيل الإجمال ما سبق شرحه في تفسير قوله تعالى ـ مخاطباً المشركين ـ ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ (يونس: ٣١-٣٢) فقد استدل الله باعترافهم له بتدبير

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٣٨٩-٣٩٠.

وانظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين ٧/ ٣٨٩ وما بعدها.

(٢) التدبير: مشتق من دبر، أصله الدال والباء والراء، وهو آخر الشيء وخلفُه، وما تصير إليه عواقب الأمور وأواخرها أ.هـ. انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٢/ ٣٢٤ مادة دبر.

الكون على وجوب تقواهم لمدبِّره ومصرِّف شئونه، وأكَّد على ربوبيته لهم، وأحقيته في ذلك.

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (الرعد: ٣٣) والمعنى ـ كما يقول الرازي ـ : أنه تعالى قادر على كل الممكِنات عالم بجميع المعلومات، من الجزئيات والكليات، وإذا كان كذلك كان عالماً بجميع أحوال النفوس، وقادراً على تحصيل مطالبها، من المنافع ودفع المضار[١]، فهو الأحق بالعبادة دون معبودات الكفار.

والقائم ـ كما يقول الشوكاني ـ : هو الحفيظ والمتولِّي للأمور، وأراد سبحانه نفسه، فإنه المتولِّي لأمور خلقه المدبِّر لأحوالهم، بالآجال والأرزاق وإحصاء الأعمال...

والجواب محذوف، أي: أفمن هو بهذه الصفة كمن ليس بها من معبوداتكم ـ أيها الكفار ـ التي لا تنفع ولا تضر[٢].

وخلاصة المقال أن مقصود الآية: أفمن هو بهذه الصفة وهذا الحال -ثم لم يوحِّدوه ولم يمجِّدوه، وجعلوا له شركاء ـ هل يستوي في استحقاق العبادة مع الآلهة التي يعبدها المشركون وهي لا تتصف بشيء من ذلك إطلاقاً[٣]؟

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩/ ٤٤.

(٢) فتح القدير ٣/ ١١٦.

(٣) جامع البيان، للطبري ١٣/ ١٥٨-١٥٩.

وقد حُذف الجواب في الآية اكتفاء بعلم السامع بما ذُكر عما تُرك ذكره.

وكما استدل القرآن على توحيد الإلهية بصفة التدبير بمعناها الشامل بشكل عام، فقد استدل كذلك على ذلك بآحاد ومفردات معاني التدبير بشكل جُزئي مفصَّل كما يلي:

**١ ـ إعداد الأرض وتهيئتها للحياة:**

سبق شرح آيات الله في خلق الأرض وتهيئتها لتكون صالحة للحياة عليها، ومن هنا استدل الله بذلك على استحقاقه للعبادة في أكثر من آية، منها على سبيل المثال:

ـ ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ (الزخرف: ١٠).

ـ وقوله سبحانه: ﴿ **وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾[١].

قال السعدي في تفسير الآية الأولى: «... ذَكَر ـ الله ـ من الأدلة الدالة على كمال نعته واقتداره، بما خلقه لعباده في الأرض التي مهَّدها، وجعلها قراراً للعباد، يتمكنون فيها من كل ما يريدون... وجعل منافذ بين سلاسل الجبال المتصلة، تنفذون منها إلى ما ورائها من الأقطار ﴿ **لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾ في السير في الطرق... والاعتبار بذلك والادِّكار فيه»[٢] ورجاء اهتداء الخلق إلى توحيد خالقهم[٣].

---

(١) الأنبياء: ٣١، ونحوها ١٥-١٦، والنمل: ٦١.

(٢) تفسير السعدي ص ٨٣٦ بتصرف يسير.

(٣) التفسير الميسر لنخبة من العلماء ص٣٢٤.

ولأهمية هذا الدليل وقوّة دلالته على توحيد الألوهية فقد استدل به كل من نوح[١]، وإبراهيم[٢]، وموسى[٣]، عليهم سلام الله في محاجتهم لأقوامهم.

**٢ ـ تصريف الليل والنهار، واختلاف أحوالهما:**

من آيات الله الكونية، خلْق الليل والنهار، واختلاف أحوالهما من نور إلى ظلام والعكس، ومن حرٍّ إلى برد والعكس، ومن حركة إلى سكون والعكس... إلخ، ومن هنا فقد استدل الله بذلك على وجوب عبادته وحده كونه مدبِّر هذا كله، فقال سبحانه: ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** ﴾ (الفرقان: ٦٢).

وقال: ﴿ **قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾** ﴾ (القصص: ٧١-٧٣).

وفي آيات أخرى أكّد الله عزوجل أن اختلاف أحوال الليل والنهار مدعاة لتقوى مدبِّر ذلك ـ وهو الله سبحانه ـ فقال: ﴿ **إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ** ﴾ (يونس: ٦).

---

(١) كما جاء في سورة نوح: ١٩-٢٠.

(٢) كما جاء في سورة البقرة: ٢٥٨.

(٣) كما في سورة طه: ٥٣.

بل أكدَّ في آية أخرى أن ذلك مدعاة لتحقيق الإيمان، فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النمل: ٨٦).

فأمر بناءً على كل ما سبق بإفراده بالتوحيد، وأوجب الإخلاص له في ذلك، وقال: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[١].

لقد تأمل إبراهيم عليه السلام في ملكوت السماوات والأرض الذي كَشَفه الله له، وتفكَّر في تدبير الله لأشد الكواكب إضاءة في السماء، وكذا قمرها وشمسها[٢] وما يتعلق بذلك من ليل ونهار ونور وظلام، فلم يتمالك بعد رؤيته لآثار ربوبية الله لهذه المخلوقات العظيمة، ودلائل ذلك على وحدانيته ووجوب توحيده في ألوهيته إلا أن يعلن لقومه براءته من شركهم بالله، وإخلاصه توحيد ربه، نافياً انضمامه للمشركين أو موافقته لهم على شركهم،

---

(١) غافر: ٦١-٦٥.

وانظر: فاطر: ١٣.

(٢) انظر الآيات ٧٥-٧٧ من سورة الأنعام.

قائلاً: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

### ٣ ـ إرسال الرياح وإنزال الأمطار لعدة منافع:

ـ وهذا التدبير أيضاً مما استدل الله به على وجوب عبادته، حيث قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ

---

(١) الأنعام: ٧٨-٧٩. وقد أشار ابن كثير رحمه الله إلى اختلاف المفسرين في هذا المقام ـ أي مقام إبراهيم عليه السلام ـ هل هو مقام نظر أو مناظرة... فذكر عن ابن عباس أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير، ثم قال ـ أي ابن كثير ـ : «... والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذا المقام كان مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام...» أ.هـ. تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٣٩.

وقد وافقه الشنقيطي واحتمل أن يكون قول إبراهيم عليه السلام ﴿ هَٰذَا رَبِّى ﴾ على معنيين:

الأول: ﴿ هَٰذَا رَبِّى ﴾ أي على الحقيقة لأنه كان يظن ذلك كما رُوي عن ابن عباس أن إبراهيم كان في مقام نظر.

الثاني: ﴿ هَٰذَا رَبِّى ﴾ أي: أهذا ربي في زعمكم الباطل، بمعنى أنه حذف أداة استفهام الإنكار، لأنه جازم بعدم ربوبية غير الله.

ثم قال: «والقرآن يبين بطلان الأول وصحة الثانية. أما بطلان الأول، فالله تعالى نفى كون الشرك الماضي عن إبراهيم في قوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ١٣٥ من البقرة، وغيرها من الآيات، ونفيُ الكون الماضي يستغرق جميع الزمن الماضي، فثبت أنه لم يتقدم عليه شرك يوماً ما.

وأما كونه جازماً بعدم ربوبية غير الله، فقد دل عليه ترتيب قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ إلخ «بالفاء» على قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ (الأنعام: ٨٣). والعلم عند الله». أ.هـ.

انظر: أضواء البيان ٢/ ٢٠١ بتصرف يسير.

بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[١] قد سبق الحديث أن المقصود بالشكر هو عبادة الله تعالى فليُراجع في موضعه.

ـ وقال سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٢].

حصر أكثر المفسرين وفهموا من مقصود الآية أنها خاصة بالمؤمنين، إلا أن ذلك لا يمنع من حملها على معنى آخر متعلق بالكفار، فيكون معناها:

«إن في ذلك لآيات لقوم يُنتظر ويُتوقَّع منهم الإيمان بعد مشاهدتهم وتأملهم تلك الآيات».

ـ ومن الآيات المتعلقة بتدبير الله للكون وسقياه الكائنات الحيَّة قوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٠) وغيرها من الآيات.

إننا نجد أن الله عزوجل لم يعتبر إرسال الرياح وإنزال الأمطار دليلاً لاستحقاق العبادة فقط، بل لقد أمر بإخلاص توحيده والتوجه إليه بناء على ذلك كما جاء في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

---

(١) الروم: ٤٦، ونحوها في يس: ٣٣-٣٦، والشورى: ٣٢-٣٣.

(٢) الأنعام: ٩٩، ونحوها في ١٤١ من نفس السورة.

رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (غافر: ١٣، ١٤) مع تقريره سبحانه وتعالى بقاء أكثر المشركين على كفرهم رغم رؤيتهم مظاهر تدبير الله للكون، ودلالة ذلك على مدبِّره كما يتضح من قوله سبحانه:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الشعراء: ٧، ٨) وإخباره أن الكفار يتجاوزون الحد بذلك قائلاً: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (النمل: ٦٠) أي يتجاوزون عبادته إلى غيره.

لقد نزَّه الله نفسه عن كل شرك أحدثه الخلق في حقِّه، كونه مدبِّر الرياح ومرسلها، بل مدبِّر الكون كله ـ مستنكراً على المشركين غفلتهم عن آياته تلك، فقال متسائلاً وسائلاً كل ذي لب:

﴿ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النمل: ٦٣).

### ٤ ـ إحياء الكائنات وإماتتها:

استدل الله على وجوب عبادته بإحيائه للخلق وإفنائهم:

ـ جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾[1] للإشارة إلى أن المحيي المميت، هو المستحق الحقيقي للعبادة الحقَّة، دون غيره ممن قال تعالى عنهم أنهم ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان: ٣).

---

(١) الأعراف: ١٥٨، والدخان: ٨.

- وفي قوله سبحانه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى: ٩) فالولي الحق، والسيد المطاع هو القادر على كل شيء، ومن ذلك إحياء الموتى.

وغير ذلك من الآيات التي لقَّن الله سبحانه فيها النبي ﷺ أن يعلل عبادته لربه بقوله: ﴿ فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ (يونس: ١٠٤) وقد سبق شرحها[١].

- والآيات التي دعى الله فيها خلقه لإعمال عقولهم وأفكارهم للاستدلال بتوفيه للأنفس وقبضه للأرواح أو إرسالها إلى أجل مسمَّى على ألوهيته وحده، كما قال ابن جرير - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الزمر: ٤٢) حيث قال: «ومن الدلالة على أن الألوهية لله الواحد القهَّار خالصة دون كل ما سواه، أنه يميت ويحيي ويفعل ما يشاء، ولا يقدر على ذلك شيء سواه»[٢].

٥ - كما استدل الله عزوجل على فريضة توحيده في عبادته بأمور أخرى تتعلق بتدبيره لشئون خلقه ومن ذلك إنعامه عليهم بالنعم كلها - ومن ذلك الأنعام والأرزاق، وقد سبق شرح هذا فليُراجع في موضعه[٣].

---

(١) راجع ص٢٦٠.

(٢) جامع البيان ٢٤/ ١٣.

(٣) انظر ص٢٨٣.

٦ ـ واستدل أيضاً بقدرته على النفع والضر[١]، وهدايته للمخلوقات إلى ما قدَّره لها بعد أن خلقها فسوّاها[٢]، وهدايته كذلك لبعض خلقه إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم[٣]، وفيما سبق شرحه الكفاية.

وبهذا أكون قد انتهيتُ من شرح دلالة الحقائق الكونية على وحدانية الله وتوحيده، وبالتالي أكون قد أنهيت هذا الفصل الذي يتحدث عن (منهج القرآن في الاستدلال على التوحيد بالأدلة العقلية) حيث تناولت فيه:

الأدلة العقلية البدهية على وحدانية الله وتوحيده.

واستدلال القرآن على التوحيد بنقض الشرك، وإبطال عبادة الشركاء.

والأدلة العقلية الافتراضية على وحدانية الله وتوحيده.

وأدلة التوحيد العقلية المستنبطة من الأحداث التاريخية الحِسِّية.

وأدلة التوحيد العقلية المستفادة من الحقائق العلمية.

وبقي أن أتحدث عن:

**«أساليب وخصائص المنهج القرآني في عرضه لأدلة التوحيد النفسية والعقلية».**

وهذا ما أشرحه بالتفصيل في الباب الثاني.

---

(١) كما جاء في سورة الأنعام: ١٧، ويونس: ١٠٧، والإسراء:٦٧، والزمر: ٣٨.

(٢) كما جاء في سورة الأعلى: ١-٣.

(٣) كما جاء في سورة البقرة: ١٨٥، والأنعام:٧١ ،٨٠، وإبراهيم: ١٢، والحج: ٣٧، والبلد: ٨-١١.

# الباب الثاني

## أساليب وخصائص المنهج القرآني

## في عرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية

**ويشتمل على فصلين:**

**الفصل الأول:** أساليب القرآن في عرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية.

**الفصل الثاني:** خصائص أدلة التوحيد القرآنية.

# الفصل الأول

## أساليب القرآن في عرض أدلة التوحيد

**ويتكون من مبحثين:**

**المبحث الأول:** أساليب القرآن البلاغية في تقرير التوحيد والدعوة إليه.

**المبحث الثاني:** أساليب القرآن النفسية في تقرير التوحيد والدعوة إليه.




# الفصل الأول

## أساليب القرآن في عرض أدلة التوحيد

### تمهيد:

لتكون الفكرة واضحة، والكلمة فصيحة، والعبارة متناسقة، والتركيب قويّاً، وحتى يتحقق الانسجام بين اللغة والمعنى، لابد لذلك كله من اتخاذ أساليب معينة، وهذا ما فعله القرآن الكريم في عرضه لأدلة التوحيد، وقبل أن أشرح ذلك أشير إلى أنه قد سبق تعريف لفظ (أساليب) لغة واصطلاحاً[1]، وأُعيد هنا ذكر التعريف المختار بإضافة ذلك إلى القرآن الكريم.

فالأساليب القرآنية في عرض أدلة التوحيد تعني: «الطرق والمذاهب التي وردت في كلام الله، وانفرد بها في اختيار الألفاظ وتأليف العبارات للدعوة إلى الإيمان بالله والدفاع عن التوحيد».

لقد جاء كلام الله كما قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾

(الزمر: ٢٣).

---

(١) راجع ص ٣٨ وما بعدها.

وكانت لغة القرآن وأسلوبه البالغ الغاية في الحُسن وسيلة أخرى من وسائل الإقناع بالإيمان بالله وحده، ومنهجاً قوياً لتحضير عقول الناس ونفوسهم، وجذبها لتلقي دعوة التوحيد والاستسلام لها[1].

إننا نجد أن القرآن قد حقق ـ بشكل عام ـ الغَرَضين المهمين من أغراض الكلام العربي ذي البلاغة العالية، وهما:

**الغرض الأول:** إفهام المتلقي ما يريد المتكلم التعبير عنه.

**الغرض الثاني:** إمتاعه بصورة جمالية يشتمل عليها الكلام، وذلك بأساليب تحقق قبول المضمون الفكري ـ الذي دلَّ عليه الكلام ـ والقناعة به، وتدفع لاعتقاده والعمل بمقتضاه.

ولقد تبيَّن لنا من كل ما سبق في هذا البحث أن القرآن الكريم قد حشد ما لا يعد ولا يحصى من الأدلة الفطرية النفسية، والأدلة العقلية بشتى أنواعها ـ البدهية والافتراضية والتاريخية والعلمية وغيرها ـ على وحدانية الله ووجوب توحيده، وقدَّمها بصورة تتناسب مع أفكار المخاطَبين وأحوالهم فخاطب: العربي البدوي الأمي، والحضري المدني، والجاهل والمتعلم، والعالِمَ والمحقِّق والباحث، والطبيب والكيميائي، وغيرهم... من أرباب العلوم الحديثة ورُوَّادها، وتناسبت أدلته التوحيدية مع السابقين واللاحقين، والعرب والعجم، رغم تباينهم فكرياً وعقدياً، وعلمياً واجتماعياً، ورغم تباعدهم زماناً ومكاناً «وتميّز بشموله في مخاطبة قوى

---

(١) أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة، للدكتور حَمَدْ بن ناصر بن عبد الرحمن العمَّار، مركز الدراسات والإعلام، دار أشبيليا، ط٢، ١٤١٨هـ/١٤١٨م، الرياض، السعودية، ص ٢٩ - ٣٠ بتصرف وزيادة.

الوعي الإنساني كلها: خاطب العقل.. ودرَّبه على بعض المعادلات الفكرية، واستخدم الأدلة البرهانية، والاستدلالات العقلية، والمقايسة، والمقارنة،.. وخاطب النفس من الداخل، واستخرج مكنونها، وأثار خواطرها، وسبَرَ أغوارها، وجيَّش مشاعرها، وحرَّك العواطف، ونمَّى الأحاسيس.. ووضع الإنسان على الجادَّة..»[1].

وحسبنا دليلاً على ذلك كله نجاح القرآن بإقناع كثير من الذين توجه خطابه إليهم بدعوة التوحيد، وتحقق إيمانهم بالله وحده خلال فترة زمنية وجيزة في عصر النبوة، وما بعده من سائر العصور إلا من أبى من المشركين وكفار أهل الكتاب[2] ومن نحى نحوهم، على أنَّ عدم إيمان هؤلاء وأمثالهم، إنما كان دافعه البغي وجحود الحق بعد وضوحه.

ولو لم يكن القرآن متميزاً بأسلوبه الأخّاذ للألباب لما شهد بعض المنصفين الغرب ـ فضلاً عن أصحاب اللسان العربي ـ لكلام الله بالجمال والجاذبية وقوة الحجة وغير ذلك، حيث:

ـ قال المستشرق (سيل): (إن أسلوب القرآن جميل وفيَّاض، ومن العجب أنه يأسر بذلك أذهان المسيحيين، فيجذبهم إلى تلاوته، سواء في ذلك الذين آمنوا به أم الذين لم يؤمنوا به وعارضوه).

---

(١) من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، د/ معتصم بابكر مصطفى، (كتاب الأمة)، العدد ٩٥، السنة الثالثة والعشرون، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر، ص٢٢-٢٥ بتصرف واختصار (والعبارة مقتبسة من تقديم الأستاذ عمر عبيد حسنة للكتاب والكاتب).

(٢) انظر: القرآن والنظر العقلي (رسالة ماجستير)، فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل، المعهد العالي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية (٧)، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، هيرندن ـ فيرجينيا ـ أمريكا ص١٦١.

ـ وقال (هرشفليد): «ليس للقرآن مثيل في قوة إقناعه، وبلاغته وتركيبه..».

ـ وقال المستشرق (ليون): «حَسْب القرآن جلالةً ومجداً أن الأربعة عشر قرناً التي مرَّت عليه، لم تستطع أن تخفف ولو بعض الشيء من أسلوبه الذي لا يزال غضّاً كأن عهده بالوجود أمس»[١].

لقد درس القرآنَ جماعةٌ من المستشرقين بقصد الطعن فيه لحساب دولهم المستعمِرة، لكن المنصفين منهم لم يلبثوا أن فارقوا دينهم ودخلوا في دين الله، بعد أن عرفوا أنه الدين الحق، وأن كلام الله هو الكلام الذي لا مثيل له[٢].

وبما أن عقيدة التوحيد تتبوَّأُ القمة في مجال أركان الإيمان فإن الوحي الإلهي الذي قدَّم أدلة وحدانية الله لم يجعلها مجموعة من العلوم التي رُصَّت في كتاب الله، ثم قُدمت للناس للمعرفة النظرية فقط، بل كان هَمُّ هذا الوحي وعِمَاده ـ بعد تقرير الحق الذي جاء به ـ هو كيف يغرس هذا الحق في النفوس؟ وكيف يعلِّق به القلوب؟ وكيف يُفتِّح أقطارها له؟ وكيف يُبقيها عليه وإن تعرَّضت للفتن؟ وكيف يبقى هو فيها وإن زاحمه الباطل وضيَّق عليه الخناق بصنوف المحْرِجات..؟

إن القرآن الكريم بأسلوبه الفريد يرد كل ضال إلى الصواب، إنه يثير الهامد من الإحساس، ويخترق أسوار الغفلة، وينفذ إلى صميم القلب، ثم يَقِفُه راغباً أو راهباً بإزاء ما يريد!![٣]، وصدق الله في قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ

---

(١) كتاب التوحيد، تأليف عبدالمجيد عزيز الزنداني، ص٧.

(٢) انظر: طائفة من الذين أسلموا في المرجع السابق، ص٢٥٧-٢٦٣. وسنذكر بعضهم فيما يأتي معنا من البحث ص ٩٤٨.

(٣) نظرات في القرآن، للشيخ محمد الغزالي رحمه الله، مؤسسة الخانجي، ط (بدون) ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م، مصر ـ القاهرة ص١٢٠-١٢٦ باختصار وتصرف.

لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ (الكهف: ٥٤)، والقائل: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا ﴾[1]، و ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام: ٦٥)، و ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الأحقاف: ٢٧) إلخ الآيات التي تؤكد بسط الله لأدلة التوحيد وإبداعه أساليب عرضها للخلق أجمعين.

إننا نلمس نجاح القرآن في تحليل النفسيات والتدرج معها لانتزاع اعترافها بعقيدة التوحيد من باطنها، وندرك نجاحه كذلك في حوار العقول وإلجائها للاعتراف بكبرى اليقينيات الإيمانية ـ قضية الإيمان بالله وحده لا شريك له ـ.

فكيف تحقَّق لكلام الله كل ما سبق؟

وما الأساليب الحكيمة التي اتخذها في سبيل ذلك؟

لقد تبيَّن من خلال استقراء أدلة التوحيد السابق شرحها أن القرآن الكريم اعتمد في صياغتها وعرضها على جوانب بلاغية أدبية من ناحية، وجوانب نفسية وجدانية من ناحية ثانية، وهذا ما أشرحه بالتفصيل في هذا الفصل المكوَّن من المبحثين الآتيين: «مع ملاحظة أني لن أشرح كثيراً من الآيات السابق شرحها فيما مضى معنا من البحث».

**المبحث الأول: أساليب القرآن البلاغية في تقرير التوحيد والدعوة إليه.**

**المبحث الثاني: أساليب القرآن النفسية في تقرير التوحيد والحث عليه.**

---

(١) الإسراء: ٤١، ونحوها في القرآن: ٥٠.

# المبحث الأول

## أساليب القرآن البلاغية في تقرير التوحيد والدعوة إليه

تحدث العلماء السابقون عن إعجاز القرآن البياني المتعلق بفصاحته وبلاغته[١] وتحدَّث ابن عاشور في مقدمته العاشرة عن مبتكرات القرآن في أساليبه البديعة التي خالف بها ما تعارف عليه العرب، وفاقهم في ذلك[٢].

وأشار السعدي في القاعدة السادسة من قواعد تفسير القرآن إلى طريقة كلام الله في تقرير التوحيد ونفي ضده[٣] ـ سبق الحديث عن كثير منها بالتفصيل فيما مرَّ معنا من هذا البحث ـ.

والذي يهمنا هنا أنه تبيَّن من خلال استقراء ما أمكن حصره من آيات القرآن المتعلقة بوحدانية الله وتوحيده أن كلامه عزوجل اشتمل على عدة أساليب

(١) منهم: أ ـ الباقلاني المتوفى سنة (٤٠٣)هـ في كتابه إعجاز القرآن).
ب ـ الجرجاني المتوفى سنة (٤٧١)هـ في كتابه (دلائل الإعجاز)
ج ـ الزمخشري المتوفى سنة (٥٣٨)هـ في كتابه (الكشاف).
د ـ الإمام يحيى بن حمزة اليمني المتوفى سنة (٧٠٥)هـ في كتابه (الطراز).
هـ- القزويني المتوفى سنة (٧٣٩)هـ في كتابه (الإيضاح).
و ـ ابن القيم المتوفى سنة (٧٥١)هـ في كتابه (الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن).
ز ـ السيوطي المتوفى سنة (٩١١)هـ في كتابيه (الإتقان ومعترك الأقران).

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٩٩-١٢٨.

(٣) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن، تأليف العلامة المحقق الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مكتبة المعارف، ط (بدون)، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ـ الرياض ـ السعودية، ص١٧-١٨.

بلاغية أدبية بلغت الغاية في البلاغة والدلالة على الذات الإلهية وتقرير التوحيد، وشكَّلت بمجموعها مع بقية آيات القرآن الكريم الإعجاز البلاغي لكلام الله، وحقَّقت الإمتاع النفسي والإقناع الذوقي لقارئها وسامعها، إضافة إلى أسرها للعقول، واستثارتها للعواطف، وفتحها لباب الخيال الواسع.

لقد بلغت نصوص التوحيد القرآنية كل ما سبق وغيره من خلال اشتمالها على أسس البلاغة العالية الآتية:

**الأساس الأول:** الجمال المؤثر في النفس الإنسانية، المفطورة على الميل إلى الأشياء الجميلة، وحُبِّها، والارتياح لها، والتأثر بها، والانفعال السار بمؤثراتها.

**الأساس الثاني:** كون الكلام في مفرداته وجُمله غاية في الفصاحة وفق ضوابط وقواعد ومنهج اللسان العربي، ولا يخلو هذا الأساس من مؤثرات جمالية أيضاً.

**الأساس الثالث:** كون الكلام بليغاً، أي: مطابقاً لمقتضى حال المخاطب به فرداً كان أو جماعة، ولا يخلو هذا أيضاً من مؤثرات جمالية[1] ويمكن توضيح ذلك كله والتأكيد عليه من خلال المطالب الثلاثة الآتية:

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تأليف الإمام أبي بكر عبدالقاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت٤٧١)هـ، صحح أصله الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد محمود التركي الشنقيطي، ووقف على تصحيح طبعه محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، بيروت ـ لبنان ص٣٥-٣٧.

و: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليماني (ت٧٠٥)هـ، تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، بيروت ـ لبنان ص٢٠-٢١، و ص١٢٠-١٢٧.

# «المطلب الأول»

# «استخدام القرآن لأدوات علم المعاني[1] وقواعده[2]»

**علم المعاني اصطلاحاً هو:** علم المقاصد المفهومة من جهة الألفاظ المركّبة لا من جهة إعرابها...

أو هو العلم بأحوال الألفاظ العربية المطابقة لمقتضى الحال من الأمور الإنشائية والأمور الطلبية وغيرهما[3].

والقرآن الكريم قد تفنن باستخدام هذا العلم في تقرير التوحيد والأمر به، ونقض الشرك والنهي عنه، وذلك بالأساليب الآتية:

---

(١) المعاني: جمع معنى كمضارب ومَقَاتل، والمعنى مَفْعَل، وهو مشتق من قولهم «عناه أمر كذا» إذا أهمه، وقيل لما نفهمه من الكلام «معنى» وهو التفسير والتأويل، والمصدر منه «عناية». لسان العرب، لابن منظور ٩/ ٤٤٦ مادة عنا.

(٢) من المعلوم أن علوم البلاغة العربية الثلاثة (المعاني ـ البيان ـ البديع) إنما نشأت بعد نزول القرآن بفترة، واصطلح علماء البلاغة العربية على أدوات وقواعد معينة لهذه العلوم جعلوها مقياساً للكلام العربي البليغ. وهذا ما سبق إليه كلام الله عموماً، وفي عرض أدلة التوحيد خصوصاً كما سيتضح لنا في المطالب الثلاثة التي تضمنها هذا المبحث.

(٣) الطراز، للإمام يحيى بن حمزة ص١٠، باختصار. وانظر: الإيضاح في علوم البلاغة، لجلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني (ت ٧٣٩) هـ، قدّم له وبوّبه وشرحه الدكتور علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال، ط٢، ١٩٩١م، بيروت ـ لبنان ص٣٧-٤١. وانظر: جواهر البلاغة، للهاشمي. و: البلاغة تاريخ وتطبيق، للدكتور أحمد مطلوب.

## أولاً: أسلوب الخبر[١]:

**الخبر اصطلاحاً**: هو ما دخله الصدق أو الكذب، أو هو ما احتمل التصديق أو التكذيب، أو هو: كلام مفيد بنفسه إضافة أمر من الأمور إلى أمر من الأمور نفياً أو إثباتاً[٢].

وقال الشوكاني: الخبر هو ما يصح أن يدخله الصدق والكذب لذاته[٣].

ولتوجيه الخبر عدة أغراض ذكرها أهل العلم بالبلاغة العربية[٤]، منها: الإعلام، والوعظ، والله عز وجل قد أخبر عن وحدانيته وأعلم خلقه بذلك من خلال:

**أ ـ الخبر المجرَّد**: أو الإخبار الابتدائي الخالي من المؤكِّدات، كقوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (البقرة: ١٦٣)، وقوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ (الزخرف: ٨٤).

وكذا معظم الآيات التي تتحدث عن تسبيح الكون لله وسجوده وقنوته له سبحانه، أو تتحدث عن مُلك الله لكل ما في السماوات والأرض وعبادة الملائكة

(١) الخبر لغة: النبأ، أو العلم، وهو مشتق من الخبار، وهي الأرض الرخوة لأن الخبر يثير الفائدة كما أن الأرض الخبار تثير الغبار إذا قرعها الحافر ونحوها. لسان العرب لابن منظور ٤/ ١٢ مادة خبر.

(٢) المحصول في علم أصول الفقه، للرازي ٤/ ٢١٧.

(٣) إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، للشوكاني ص٨٥.

(٤) انظر: علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع)، تأليف أحمد مصطفى المراغي، دار القلم، ط (بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان ص٤٦.

له كقوله عز وجل: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الأنبياء: ١٩،٢٠) وغيرها من الآيات.

وهذا النوع من الإخبار الخالي من المؤكِّدات اللفظية أو المعنوية أو الأسلوبية إنما يكون حال خلو ذهن المخاطَب من نقيض الخطاب وضِدِّه، وليس عنده شك أو إحجام عن قبول الخبر، فحالُ المخاطب لا يستدعي أيَّ نوع من أنواع التأكيد اللغوي.

**ب ـ الخبر المؤكَّد**[1]: من المعلوم أن مشركي العرب وكفار الجاهلية قد شكُّو في وحدانية الله وخاصة ألوهيته، وتعجَّبوا من دعوة التوحيد، وأحجموا عن القبول بذلك، فاحتاج الأمر إلى تأكيد الكلام عند مطالبتهم بتوحيد الله سبحانه وتعالى بعدة مؤكِّدات استقر عليها اللسان العربي، بغرض إعلام المخاطَب أن المخاطِب له يقول كلاماً جازماً، قاصداً لما يدل عليه كلامُه، متثبِّتاً منه، لا يقوله عن توهم أو ثرثرة أو تضليل أو اختراع أو نحو ذلك.

**ومن هذه المؤكدات القرآنية:**

---

(١) التوكيد لغة: شد السرج على ظهر الدابة بالسُّيُور حتى لا يسقط، وتُسمَّى هذه السُّيُور تواكيد وتآكيد، ومن هذا المعنى اللغوي أُخِذ لفظ (التوكيد) لتقوية صدق الكلام الخبري، بما يؤكِّده من ألفاظٍ.

لسان العرب، لابن منظور ١/ ١٦٩ مادة أكد.

واصطلاحاً هو: اللفظ الموضوع لتقوية ما يُفهم من لفظ آخر. المحصول، للرازي ١/ ٢٥٨.

وانظر: التعريفات، للجرجاني ص٣٤.

١ ـ التأكيد بـ(إن) و(أن) كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[1] وقوله: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

٢ ـ التأكيد بإن واللام المزحلقة[٣]: كقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ (إبراهيم: ٣٩). وقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٤٢) وقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ (الحج: ٥٩).

٣ ـ التأكيد بأنَّ واللام والقَسَم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ ﴾ (الصافات: ١-٥).

٤ ـ التأكيد بأساليب القصر مثل:

أ ـ أسلوب النفي والاستثناء كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٦٢)، وقوله: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣١).

---

(١) الحج: ٧٥، ونحوها في لقمان: ٢٨، وغافر: ٢٠، وغيرها كثير في القرآن.

(٢) النور: ٢٠، ونحوها في البقرة: ٢٣٥، والمائدة: ٣٤، وغيرها كثير.

(٣) اللام المزحْلَقة: هي لام الابتداء حينما تُزحلق عن صدر الجملة، وهي تُزحْلَق بعد (إنَّ) المكسورة عن صدر الجملة، فتدخل على الخبر. انظر: شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك، لقاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي، المصري، الهمداني (٦٩٨-٧٦٩)هـ، على ألفية الإمام: أبي عبدالله محمد جمال الدين بن مالك (٦٠٠-٦٧٢)هـ، مكتبة التراث، ط٢٠، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، القاهرة ـ مصر، ١/ ٣٦٢.

و: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تأليف الإمام أبي محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف ابن أحمد بن عبدالله بن هشام، الأنصاري، المصري (٧٠٩-٧٦١)هـ، حققه وبوّبه: ح. الفاخوري، دار الجيل، ط١، ١٤٠٩-١٩٨٩م، بيروت ـ لبنان ١/ ٢٧٧-٢٨١.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦).

ب ـ أسلوب القصر بـ(إنما)[1] كقوله سبحانه ـ آمراً محمداً ﷺ ـ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ١٩) وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (النساء: ١٧١).

ج ـ أسلوب القصر بـ(إنما) مع النفي والاستثناء (أي اجتماع الأسلوبين السابقين في موضع واحد) كقوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (طه: ٩٨).

د ـ أسلوب القصر بـ(أنما) كقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2].

قال الزمخشري: «إنما لقصر الحكم على شيء، أو لقصر الشيء على حكم، ... وقد اجتمع المثالان في هذه الآية...

وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي إلى رسول الله ﷺ مقصور على استئثار الله بالوحدانية»[3].

---

(١) (إنما) و(أنما) أصلهما (إنّ) و(أنّ) ضُمت إليهما (ما) الزائدة للتأكيد، فكفّتهما عن العمل، وهيّأتهما للدخول على الجُمل الفعلية، فهما يدخلان على الجملتين الاسمية والفعلية، وبضم (ما) إليهما اجتمع في لفظيهما مؤكّدان، إذ أصلُهما يفيد التأكيد بضم (ما) إليهما.

انظر: أوضح المسالك، لابن هشام ١/ ٢٨١-٢٨٢.

(٢) الأنبياء: ١٠٨، ونحوها في فصلت: ٦.

(٣) الكشاف ٣/ ١٣٩ باختصار.

هـ ـ أسلوب القصر بالتقديم والتأخير: كقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[1] فتقديم المفعول ﴿ إِيَّاكَ ﴾ أفاد قصر العبادة على الله وحده، وأصل الجملة نعبدك.

و ـ أسلوب القصر بتعريف طرفي الجملة: كقوله تعالى على لسان محمد ﷺ مخاطباً كفار عصره: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (الشورى: ١٠) فتعريف الخبر ﴿ رَبِّى ﴾ أفاد أنه مقصور على المبتدأ، أي الربوبية مقصورة على الله تعالى، ونحو ذلك ما جاء في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (طه: ٩٨) فقوله: ﴿ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تعريف بالله أفاد قصر الألوهية على الله وحده، ونحو ذلك ما جاء في قوله سبحانه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ (الأنعام: ١) فقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ تعريف بالله أفاد قصر الخالقية عليه سبحانه، وأكَّد ذلك.

٥ ـ التأكيد ببعض الأحرف التي تضاف في الكلام، وهي أحرف زائدة إذا حُذِفت من الكلام لم ينقص شيء من المعنى الأصلي المراد، فيكون إيجادها في الكلام لغرض التوكيد، وهي حروف عدة[2]، منها الباء الجارَّة الداخلة على فاعل كفى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ٧٩).

---

(١) الفاتحة: ٥. وانظر: الكشاف، للزمخشري ١/ ٥٦.

(٢) انظرها مع أحكامها وأحكام غيرها من مفردات وحروف اللغة العربية في: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تأليف الإمام أبي محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري (ت٧٦١)هـ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، بيروت ـ لبنان. وانظر كذلك: أوضح المسالك، لنفس المؤلف، ٣/ ٥-٦٠، ٣/ ٢٦١-٢٨٧، ٤/ ٦٦-٩٩، ٤/ ١٢٤-١٣٣.

و: الإتقان، للسيوطي ١/ ٤٦١، و: معترك الأقران، لنفس المؤلف، ٢/ ٤٢ وما بعدها.

عموماً المؤكِّدات اللغوية العربية التي أكَّد الله بها وحدانيته في كتابه الكريم عديدة، وحسبنا من الأساليب الخبرية ـ سواء المؤكِّدة أو غير المؤكِّدة ـ أن الله تعالى أخبر وأكَّد:

أ ـ أنه قد شهد بنفسه على وحدانيته في ألوهيته سبحانه وتعالى: ـ ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ٧٩) ـ وشهد كذلك بعد شهادته الملائكة الذين لا يحصي عددهم ويعرف قدرهم إلا الله، كما شهد أهل العلم بذلك فقال سبحانه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ١٨).

ب ـ أنَّ رسله جميعاً قد وحَّدوه ودعوا إلى توحيده في ألوهيته، وكان لسان حالهم ومقالهم جميعاً: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل: ٣٦) قال تعالى مخاطباً محمداً ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1].

ج ـ أنه قد حكم وأمر وقضى بتوحيده في ألوهيته، قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ (الإسراء: ٢٣) وقال: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٤٠).

وعموماً فقد جاءت أخبار القرآن كلها: «لتقرير التوحيد ونفي ضده بما يكفي ويشفي من الأساليب الخبرية الحسنة ـ تارة بإقرار توحيد الألوهية وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له،.. وتارة بالإخبار أن الفِطرة والعقول

---

(١) الأنبياء: ٢٥، ونحوها في النحل: ٢.

السليمة كلها اتفقت على هذا الأصل، الذي هو أصل الأصول كلها،... وتارة بتمدح الإله نفسَه والثناء عليه سبحانه بتفرده بصفات العظمة والمجد والجلال والكمال والعلو، وأنَّ من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه أحد أحق من أُخلصت له القلوب والأعمال الظاهرة والباطنة،... وتارة بذكر محاسن التوحيد، وأنه الدين الوحيد الواجب شرعاً وعقلاً وفطرة، على جميع العبيد، وتارة بذكر مساوئ الشرك وقُبحِهِ، واختلال عقول أصحابه بعد اختلال أديانهم، وتقليب أفئدتهم، وكونهم أضل من الأنعام سبيلاً، وتارة بذكر ما رتب عليه من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، والحياة الطيبة في الدور الثلاث، وما رتب على ضده من العقوبات العاجلة والآجلة، وكيف كانت عواقب المشركين أسوأ العواقب وشرها.

وبالجملة فكل خير عاجل وآجل فإنه من ثمرات التوحيد، وكل شر عاجل وآجل فإنه من عواقب الشرك، والله أعلم»[1].

هكذا عبَّر السعدي رحمه الله عن طريقة القرآن وأساليبه في تقرير التوحيد ونفي ضده، وقد شرحت أكثر ما قال فيها مرَّ معنا من البحث.

لقد أُشبع القرآن الكريم بأخبار التوحيد والموحِّدين والشرك والمشركين، حتى شمل في آياته أخبار إبليس واعترافه لله بالربوبية، وإقسامه به، وتضمن كذلك اعتراف فرعون ـ الذين نازع الله في ربوبيته وألوهيته ـ وإيمانه به، ساعة غرغرته بالموت ولات حين مندم، وحين لا ينفع الإيمان.

---

(١) القواعد الحسان في تفسير القرآن، للسعدي ص١٧-١٨ بتصرف.

## ثانياً: أسلوب الطلب[1]:

**الطلب اصطلاحاً:** استدعاء مطلوب غير حاصل في الاعتقاد وقت طلبه من المخاطَب[2]. وهو أنواع في القرآن الكريم، فمنه: الاستفهام، ومنه الأمر والنهي، وتوضيح ذلك كما يأتي:

### النوع الأول: الاستفهام[3]:

**الاستفهام اصطلاحاً:** هو طلب الإفهام والإعلام بشيء لم يكن معلوماً من قبل، لتحصل فائدة علمية مجهولة لدى المستفهِم[4].

والاستفهام الوارد في القرآن الكريم ليس من هذا القبيل، إنما هو استفهام العالِم بالشيء مع علمه به، لعدة حِكَم وأغراض، كالتقرير، والإنكار، والمبالغة في الاستحقار أو التعظيم أو غيرها...، ومما جاء في كتاب الله من الاستفهامات المتعلقة بالتوحيد الأنواع الآتية:

---

(١) الطلب لغة: محاولة وجدان الشيء وأخذه. لسان العرب، لابن منظور ٨/ ١٧٧ مادة طلب.

(٢) علم المعاني ـ البيان ـ البديع، للدكتور عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط (بدون)، د.ت بيروت ـ لبنان ص٦٦.

(٣) الاستفهام لغة: طلب الإفهام، والفهم هو تصور المعنى من لفظ المخاطب. لسان العرب، لابن منظور ١٠/ ٣٤٣ مادة فهم، التعريفات، للجرجاني ص١٦٩.

(٤) الفوائد المشوِّقة إلى علوم القرآن، لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية، (٦٩١-٧٥١)هـ بإشراف لجنة تحقيق التراث، منشورات دار ومكتبة الهلال، ط(بدون)، ١٩٨٧م، بيروت ـ لبنان ص٢٢٤.

وانظر: فن البلاغة، للدكتور عبدالقادر حسين، عالم الكتب، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، بيروت ـ لبنان ص١٢٢.

### أ ـ الاستفهام التقريري:

المراد به تقرير المخاطَب بما يخاطبه المتكلم، كقوله تعالى على لسان يوسف ـ مخاطباً صاحبي السجن ـ: ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ (يوسف: ٣٩) فمقصود يوسف عليه السلام من استفهامه لهما هو إثبات الخيرية المطلقة لله وحده دون غيره من الأرباب المزعومة، وحَمْلُ صاحبَي السجن (المخاطَبَيْن) على الإقـرار بذلك والاعتراف به، كونه قد استقر عندهما العلم به، أو هو أمر باستطاعتهما معرفته فكرياً إن لم يكن حِسِّيّاً، فالله وحده قهار لجميع الأرباب المزعومين والمربوبات المخلوقة.

وهناك آيات أخرى جاء فيها الاستفهام التقريري فيما يتعلق بتوحيد الله[1]، وأكتفي بما سبق بيانه.

### ب ـ الاستفهام الانكاري:

يُراد به الانكار على المخاطَب كونه وقع في أمر لا يصح أن يقع فيه أو منه، ومن ذلك ما جاء في قوله سبحانه ـ مخاطباً المشركين الذين زعموا لله الولد، وقالوا ببنوّة الملائكة لله ـ : ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ﴾ (الإسراء: ٤٠) وقوله تعالى: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (الصافات: ١٥٣، ١٥٤)، فقد أنكر الله عليهم جعلهم الملائكة إناثاً، وقولهم إنهم بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

---

(١) انظر سورة الأعراف: ١٧٢، والنحل: ١٧، والأنبياء: ٦٦-٦٧.

لقد جاء الاستفهام الانكاري في هاتين الآيتين لنفي اتخاذ الله الملائكة لنات له، وتكذيب القائلين بهذا القول[1]، مع الانكار عليهم كيف أثبتوه؟ وكان الواجب عليهم أن ينفوه، قال الزمخشري: «هذا خطاب للذين قالوا: «الملائكة بنات الله» والهمزة للانكار، يعني: أفخصّكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون، ولم يجعل فيهم نصيباً لنفسه، واتخذ أَدْوَنَهُم وهي البنات»[2].

ويمثل هذا الاستفهام الانكاري جاءت آيات أخرى لإنكار الشرك والكفر الواقع من المشركين والكفار[3].

### ج ـ الاستفهام التقريعي والتوبيخي:

**التقريع هو:** توجيه اللوم والعتاب الشديد الموجع. وأصل القرع الضرب[4] والاستفهام التوبيخي قد يُوجَّه للتوبيخ على فعل شيء غير حسن في نظر موجِّه الاستفهام، أو ترك فعل كان ينبغي القيام به في نظر موجِّه الاستفهام، وقد ورد كثير من ذلك في كلام الله المتعلق بالإيمان به كقوله عز وجل ـ رداً على فرعون عندما أدركه الغرق وأعلن إيمانه بالله قائلاً: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ (يونس: ٩٠) فردَّ الله

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز، للجرجاني ص٩٨-٩٠. و: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني ص١٣٧. و: الفوائد المشوِّقة إلى علوم القرآن، لابن القيم، ص٢٢١.

(٢) الكشاف ٢/ ٦٢٥.

(٣) كما في سورة الأنعام: ١٤، ١٤٣، يونس: ٥٩، النمل: ٦٣. وانظر دلائل الإعجاز، للجرجاني ص٨٩-٩٠.

(٤) لسان العرب، لابن منظور ١١/ ١٢١ مادة قرع، ١٥/ ١٩٨ مادة وبخ.

عليه باستفهام تقريعي وتوبيخي بقوله: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (يونس: ٩١) حيث عاتبه عتاباً شديداً على ما كان منه سابقاً من ادّعاء تفرده بالربوبية والألوهية، وتركه ما كان يجب عليه من توحيد الله في ربوبيته وألوهيته.

ومن الآيات التي جاء فيها الاستفهام التقريعي والتوبيخي ما جاء في قوله عزوجل ـ مخاطباً الكفار يوم القيامة ـ : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ (يس: ٦٠-٦٢) فقد وبّخ الله أهل جهنم بهذا الاستفهام التوبيخي على ما كان منهم في الدنيا من طاعة للشيطان وعصيان لربهم الرحمن.

### د ـ الاستفهام التعجُّبي[1] أو التعجيبي:

وهو ما صدر من متعجِّب، لغرض إثارة العَجَب عند من يُخاطَبُ به، أو يتلقاه.

---

(١) التعجب لغة: من العُجْب، وهو إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده، انظر: لسان العرب، لابن منظور، ٩/ ٥١ مادة عجب.

واصطلاحاً: حيرة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء، وليس هو سبباً في ذاته... أو هو انفعال النفس لزياد وصف في المتعجَّب منه أو هو استعظام أمر ظاهر المزية خافي السبب.

انظر: تاج العروس، للزبيدي ٢/ ٢٠٧ مادة: عجب.

و: التعريفات، للجرجاني ص١٤٧.

و: المعجم الوسيط ص٥٨٤.

وقد صَدَرَ عن الله عز وجل ـ وليس من صفاته سبحانه أن يتعجب تعجب استغراب واستبعاد، نظراً إلى سابق علمه تعالى بكل ما يحدث من عباده قبل حدوثه، وعِلْمِه بحال جميع خلقه وصفاتهم وخصائصهم النفسية والسلوكية[1] ـ.

فمما جاء في نصوص التوحيد القرآنية قوله تعالى ـ مخاطباً المشركين ـ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٨) فالاستفهام في هذه الآية استفهام تعجيبي فيه معنى التوبيخ والتلويم والتأنيب والتقريع، فالمعنى: أن كفركم بالله مع كونكم كنتم أمواتاً وعدماً فأحياكم ولم تُحيُو أنفسكم، أمر ينبغي أن تعجبوا منه قبل غيركم، وأمر يتعجب منه كلُّ العقلاء من أهل الرشد، فحالكم يثير التعجب والاستغراب، كيف يصدر من ذوي عقول وأفكار[2]؟!

### هـ ـ الاستفهام العتابي[3] المستعمَل في النهي:

العتاب يكون لإظهار عدم الارتياح لسلوك ما، فعلاً كان أو تركاً، وقد يُستخدم للدلالة عليه أسلوب الاستفهام للتخفيف من توجيهه وتوجيعه،

---

(١) ما ورد في بعض الأحاديث النبوية من نسبة العجب إلى الله عزوجل فهو ليس على الحقيقة لأن العجب الذي يعني انفعال النفس من أمر عظيم خفي سببه لا يجوز على الله، وإسناده له تعالى في بعض الأحاديث مؤوّل بصفة تليق بكماله مما يعلمه هو كالضحك والتبشبش والرضا عن العبد أو المثوبة له ونحو ذلك. انظر: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، للعلامة الشيخ أحمد البنا ٢/ ٤٠٩.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني ص١٣٩-١٤٠.

(٣) العَتْبُ لغة: المَوْجِدة، وعَتَبَ عليه.. أي وجد عليه.. وعاتبه معاتبةً وعتاباً: لامه، والعتْب والعُتبان: لومك الرجل على إساءة كانت له إليك. لسان العرب، لابن منظور ٩/ ٢٩ مادة عتب.

والتلطف بنفس الموجّه له، ومع أن الله عزوجل قد استفهم استفهامات الانكار والتقريع ـ كما سبق بيانه ـ إلا أنه سبحانه في بعض آيات القرآن التوحيدية قد عاتب كل كافر معرض عن الله الذي خلقه وأنعم عليه، محذراً إياه من الاغترار به، وبحلمه عليه، ومن ذلك ماجاء في قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾ (الانفطار: ٦-٨) قال سيد قطب إنها: «لمسة عتاب مبطَّنة بالوعيد، لهذا الإنسان الذي يتلقّى من ربه فُيُوض النعمة في ذاته وخِلقته، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها، ولا يعرف لربه قدره، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة»[1] ففي الآية استفهام عتابي[2] من الله لكل إنسان معرضٍ عن التوحيد والعبادة، غير مؤدٍّ لله حق نعمة الخلق والتسوية والتعديل، وحُسن تركيب الصورة.

### و ـ الاستفهام التسهيلي والتخفيفي:

وهو ما كان لأمر سهل خفيف ليِّن، ودلَّت قرينة الحال أو قرينة المقال على ما أراد المتكلِّم التعبير عنه[3]، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى عن الكفار: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ (النساء: ٣٩) أي: أن الإيمان أمر سهل يسير، لا ثِقل فيه على النفوس التي تحررت من موانع الهداية واستجابت للحق فأعانها الله عليه ويسّره لها[4].

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٤٥.

(٢) وسماه ابن القيم في الفوائد المشوقة ص٢٢٥ استفهام تعجب.

(٣) البلاغة العربية، للميداني ١/ ٢٨٥.

(٤) وفي الكشاف للزمخشري ١/ ٥٤٣: أي: «وأي تبعة ووبال عليهم في الإيمان والانفاق في سبيل الله، والمراد الذم والتوبيخ، وإلا فكل منفعة ومفلحة في ذلك...» أ.هـ.

**ز ـ استفهام التهديد والوعيد:** ومثاله قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المرسلات: ١٦)؟ فقد جيء به لغرض تهديد ووعيد كل من أصرَّ على كفره وشركه بعد بلوغ دعوة التوحيد إليه، وأنّ مصيره مصير أمثاله ممن سبقه[1].

ونحو ذلك ما جاء في قوله تعالى لكل الكفار المعاندين ـ مما سيحدث يوم القيامة ـ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾[2] وغيرها من الآيات.

**ح ـ الاستفهام التكثيري:** وهو ما صُدِّر بـ (كَمْ) الخبرية، التي يُعبَّر بها عن الكثرة، كقوله تعالى مبيِّناً كثرة الهالكين من الكفار وقراهم في الحياة الدنيا[3]: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ (الأعراف: ٤) أي: كثير من القرى أهلكناها مع أهلها بسبب إعراضهم عن التوحيد والإيمان بالله.

**ي ـ استفهام الأمر:** قد يتلطَّف المتكلِّم بالمخاطَب فيوجِّه له الأمر بأسلوب الاستفهام، كما في قوله سبحانه: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (هود: ١٤) وقوله: ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ (الأنبياء: ٨٠) وقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني ص ١٣٦.

(٢) البقرة: ٢١٠، ونحوها في يونس: ١٠٢.

(٣) والقصد من هذا الاستفهام التكثيري التهديد للمشركين المعرضين عن التوحيد كما تدل عليه الآية السابقة لهذه الآية، قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ٣).

بَصِيرٌۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ٢٠) والمقصود من كل ما سبق: أسْلِموا لله، واشكروا له بتوحيده في عبادته، فيكون المراد الدعوة إلى الإسلام بطريقة الاستفهام المستعمل في التحضيض[1].

**ي ـ استفهام الترغيب**: الترغيب من المعاني التي تُستعمل للدلالة عليها صيغة الأمر، وبما أن الاستفهام يستعمل في الأمر فكذلك يُستعمل في الترغيب، وهذا ما جاءت به بعض آيات القرآن التوحيدية كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (الصف: ١٠، ١١) أي: ارغبوا في هذه التجارة العظيمة الرابحة.

**ك ـ استفهام التمني والترجّي**: حيث يتمنى المتمنِّي أمراً يرى أنه متعذّر الحصول عليه، أو بعيد المنال والوصول إليه، وقد يُعبِّر المتمنِّي لذلك عن تمنِّيه بأسلوب الاستفهام، ومن هذا ما يتمناه الكفار يوم القيامة من قولهم بعد انكشاف حقيقة أمر التوحيد وما آلت إليه الحقائق المذكورة في كلام الله ـ القرآن الكريم ـ : ﴿ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ ﴾ (الأعراف: ٥٣) أي: نتمنى أن يكون لنا شفعاء أو نُرد إلى حياة الابتلاء لنؤمن بالله وحده[2]، ونعمل غير الذي كنا نعمل من سيئ الأعمال والأقوال.

---

(١) الإيضاح، للقزويني ص١٣٣، ١٣٦. و: التحرير والتنوير، لابن عاشور ٣/ ٥٨.

(٢) يدل على أن المقصود بالعمل الصالح المذكور في الآية هو الإيمان بالله ما جاء في قوله تعالى في سورة الشعراء: ١٠٢ على لسان الكفار: ﴿ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

م ـ **استفهام الاكتفاء**: ويُستعمل لبيان الاكتفاء بالشيء، وهذا كثير في كتاب الله، فمنه قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (الزمر: ٦٠) أي يكفيهم عقاباً لهم على شركهم وعدم إيمانهم بالله وحده مثواهم في جهنم يوم الدين.

مع ملاحظة أن استفهامات الآيتين المذكورتين يصح أن يكون من الاستفهام المستعمل في التهديد والوعيد والترغيب السابق الحديث عنه.

وثمة استفهامات أخرى ذُكرت في القرآن الكريم على لسان بعض رسل الله، وهم يدعون أقوامهم المشركين إلى التوحيد[2]، ونكتفي بما سبق بيانه[3].

---

(١) العنكبوت: ٦٨، ونحوها في الزمر: ٣٢.

(٢) كاستفهام الانكار من هود لقومه: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ (هود: ٢٨). واستفهام التقريع والتوبيخ من إبراهيم لقومه: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ (الصافات: ٩٥). واستفهام التقرير الواقع منه لقومه قائلاً عن أصنامهم: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ (الشعراء: ٧٢، ٧٣). واستفهام العرض للتلطف مع المدعو كقول موسى لفرعون: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ (النازعات: ١٨، ١٩). واستفهام التهكم والسخرية من إبراهيم لأصنام قومه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ (الصافات: ٩١، ٩٢). وانظر: البلاغة العربية لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ١/ ٢٥٨-٣٠٣.

(٣) ذكر ابن القيم استفهامات أخرى تتعلق بموضوعنا منها:

أ ـ الاستفهام للمبالغة في الاستحقار، كقوله سبحانه ـ معلماً رسوله ﷺ أن يقوله للكفار ـ ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا... ﴾ (الأنعام: ١٤).

ب ـ الاستفهام للمبالغة في التعظيم، كقوله عز وجل: ﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا... ﴾ (النمل: ٦١).

ج ـ الاستفهام للمبالغة في بيان الخساسة كقوله سبحانه ـ على لسان إبراهيم مناظراً لقومه ـ: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ (الأنبياء: ٦٦). انظر: الفوائد المشوِّقة إلى علوم القرآن ص٢٢٢-٢٢٣.

**النوع الثاني: الأمر[١] والنهي[٢]:**

**الأمر اصطلاحاً هو:** استدعاء الفعل بالقول على وجه الاستعلاء[٣]، وتدل عليه عدة صيغ كلامية، منها: فعل الأمر ـ المضارع الذي دخلت عليه لام الأمر ـ اسم فعل الأمر ـ المصدر النائب عن فعل الأمر ـ الجمل الخبرية التي يُقصد بها الأمر والطلب لا الإخبار[٤].

---

(١) الأمر لغة: نقيض النهي.. واحد الأمور.. والأمر: الحادثة. لسان العرب ١/ ٢٠٤ مادة أمر.

(٢) النهي لغة: المنع، وسُمِّي العقل نُهْيَة: لأنه يمنع صاحبه عن الوقوع فيما يخالف الحق والصواب. لسان العرب ١٤/ ٣١٤ مادة نهي.

(٣) روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، تأليف موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (٥٤١-٦٢٠)هـ قدم له وحققه وعلق عليه الدكتور عبدالكريم بن علي بن محمد النملة، مكتبة الرشد، ط٣، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، الرياض ـ السعودية ٢/ ٥٩٤.

وانظر: الكاشف عن المحصول، لشمس الدين محمد بن محمود الأصفهاني ١/ ٢٣٨.

ـ يلاحظ في التعريف أمران:

**الأول:** أن القيد الوارد بالتعريف وهو (على سبيل الاستعلاء) للدلالة على أن علو الأمر في الواقع ليس بشرط، بل شرطه عَدُّ الأمر في نفسه عالياً سواء كان عالياً في الواقع أو لا.

**والثاني:** أن الأمر حقيقة في القول المخصوص باتفاق العلماء، والجمهور على أن الأمر مجاز في الفعل، كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ (هود: ٩٧) أي فعله، من باب إطلاق السبب على المسبب.

انظر: إرشاد الفحول، للشوكاني ص١٦٤-١٦٥.

(٤) انظر أمثلة ذلك في:

أ ـ الوجيز في أصول الفقه، للدكتور زيدان ص٢٩٢.

ب ـ البلاغة العربية، للميداني ١/ ٢٢٨.

وترد صيغة الأمر لمعانٍ كثيرة[١].

**والنهي اصطلاحاً هو:** القول الإنشائي الدال على طلب كف عن فعل، على جهة الاستعلاء[٢]، وتدل عليه عدة صيغ كلامية منها: الفعل المضارع الذي دخلت عليه (لا) الناهية ـ والتعبير بلفظ يدل على نفي الحل. أو يدل بمادته على النهي والتحريم، وقد يأتي النهي باستعمال صيغة الأمر الدالة على النهي[٣] لعدة معان[٤].

وللأمر والنهي مباحث وأحكام مفصلة في كتب الأصول.

**- وقد ورد في كتاب الله من صيغ الأمر بالتوحيد الأنواع الآتية:**

**النوع الأول:** ما جاء بصيغة فعل الأمر، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ... ﴾ (البقرة: ٢١) وقوله عز وجل: ﴿ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (الأعراف: ٢٩) وقوله عز وجل: ﴿ فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ ﴾ (النجم: ٦٢) وغير ذلك كثير.

---

(١) مثل: الوجوب، والندب، والإباحة، والتهديد، والإرشاد، والتأديب، والتعجيز، والدعاء، والامتنان، والإكرام، والإهانة، وغير ذلك.

انظر: روضة الناظر، للمقدسي ٢/ ٥٩٧-٥٩٩.

(٢) إرشاد الفحول، للشوكاني ص١٩٢.

(٣) انظر تفاصيل ذلك في: الميسر في أصول الفقه الإسلامي، للدكتور إبراهيم محمد سلقيني، دار الفكر، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، بيروت ـ لبنان ص٣٤٢-٣٤٣.

(٤) مثل: التحريم، والكراهة، والتحقير، والإرشاد، والتحذير، وبيان العاقبة، واليأس، وغير ذلك.

انظر المرجع السابق ص٣٤٣.

**النوع الثاني:** ما جاء بصيغة المضارع المقرون بلام الأمر، كقوله تعالى ـ مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ... ﴾ (الفتح: ٨، ٩) وقوله عز وجل: ﴿ ... فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٦).

وقوله سبحانه: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣).

**النوع الثالث:** ما جاء بصيغة المضارع فقط وقُصد به الأمر: كقوله تعالى: ﴿ ... تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ... ﴾ (الصف: ١١)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ... ﴾ (التغابن: ٩) أي: آمنوا بالله واعملوا صالحاً يكفر عنكم سيئاتكم.

**النوع الرابع:** ما صُدِّر بلفظ «قل» وقُصِد به إقامة التوحيد والإعلان به كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ (الإخلاص)، وقوله عز وجل آمراً رسولَه محمداً ﷺ أن يخاطب به المشركين: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ (الزمر: ٦٤) وغيرها من الآيات كثير.

– وورد في القرآن الكريم من صيغ النهي عن الشرك عدة أنواع منها:

**النوع الأول:** ما جاء بصيغة الفعل المضارع الذي دخلت عليه «لا» الناهية، كقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٢) وقوله

سبحانه: ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (النساء: ٣٦) وقوله عز وجل: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الروم: ٣١) وغيرها من الآيات.

**النوع الثاني:** ما جاء بصيغة النهي الدال على التحريم، كقوله تعالى ـ آمراً رسوله ﷺ أن يعلنه للمشركين ـ : ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[1].

**النوع الثالث:** ما جاء بصيغة التحريم[2]، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ... ﴾ (الأعراف: ٣٣).

**النوع الرابع:** ما جاء بصيغة التحريم والنهي عن الشرك بـ «لا» الناهية، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا.. ﴾ (الأنعام: ١٥١).

**النوع الخامس:** ما جاء بصيغة جملة خبرية يُقصد بها النهي، كقوله تعالى عن لقمان عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[3].

---

(١) الأنعام: ٥٦، ونحوها في غافر: ٦٦.

(٢) أي التحريم الدال على النهي عن الشرك.

(٣) لقمان: ١٣ ونفهم من الآية أنها جاءت للنهي عن الشرك، والإخبار بما وعظ به لقمان ابنه.

## ثالثاً: أسلوب التعريف[1]:

**التعريف لغة**: مقابل التنكير، والمعرفة هي ما دلّت على شيء بعينه[2].

---

(١) جاء في كتاب التعريفات للجرجاني ص٦٢.

أ ـ **التعريف**: عبارة عن ذكر شيء تستلزم معرفته معرفة شيء آخر.

ب ـ **التعريف اللفظي**: هو أن يكون اللفظ واضح الدلالة على معنى، فيفسَّر بلفظ أوضح دلالة على ذلك المعنى، كقولك الغضنفر الأسد.

(٢) سماها أهل النحو بالمعارف، يتم التعريف بها، وهي سبعة كالآتي:

أ ـ الضمير، إما للمتكلم مثل (أنا ـ نحن) أو للمخاطب مثل (أنت ـ أنتما)، أو الغائب مثل (هو ـ هي ـ هما ـ هن...) أو لمخاطب تارة ولغائب أخرى، وهو الألف والواو والنون، كقوما وقاما، وقوموا وقاموا، وقمن. وللضمائر أقسام وأحكام.

ب ـ العلم وهو نوعان: شخصي مثل ( محمد ـ أبي ذر ـ بهاء الدين) وجنسي كقولك (الأسد أجرأ من الثعلب) فـ(أل) للجنس.. وللعلم ـ سواء الشخصي أو الجنسي ـ مسمّيات وأقسام وأحكام.

ج ـ اسم الإشارة مثل (هذا ـ هذه ـ أولئك ... إلخ) والمشار إليه إما واحد أو اثنان أو جماعة، وكل واحد منها إما مذكر أو مؤنث، ولكل نوع أدوات وأحكام.

د ـ الاسم الموصول، وهو ضربان: حرفي مثل (أنَّ ـ أنْ ـ كي ـ ما ـ لو) واسمي مثل (الذي ـ التي ـ اللذان ـ اللتان...) وللاسم الموصول أحكام عدة.

هـ ـ المحلى بأل (المعرّف بأل)، وهي إما جنسية مثل ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٨)، أو عهدية مثل: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ (المزمل: ١٦)، وقد تكون زائدة مثل ـ (اللات ـ الآن..) ولها مباحث عدة.

و ـ المضاف إلى غير الضمير من المعارف السابقة مثل (حذاء المرأة ـ كتاب الرجل).

ز ـ النكرة المقصودة في النداء، مثل (يا رجل) تخاطب رجلاً بعينه.

انظر: أوضح المسالك، لابن هشام ١/ ٧٢-١٤٩ باختصار. و: شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، لنفس المؤلف، تحقيق ح. الفاخوري، دار الجيل، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، بيروت ـ لبنان ص١٥٢-١٧٦. و: الطراز، لابن حمزة ٢/ ٨-١٤.

ولها أدوات وأغراض ودواعي معينة[1].

وللنكرة والمعرفة أحكام متعددة، ذكرها أهل النحو والبلاغة[2].

والقرآن الكريم قد بلغ غاية الفصاحة والبلاغة في استخدام هذا الأسلوب في سياق تعريفه برب العالمين، وحديثه عن وحدانيته ووجوب توحيده عزوجل، «فمجيء لفظ في القرآن معرفةً، ومجيء لفظ آخر نكرة، ومجيء لفظ آخر معرفة في موضع ونكرة في موضع آخر، لم يكن مصادفة في القرآن، إنما هو مقصود في كل موضع، وجيء به على تلك الحالة لينسجم مع السياق الذي ورد فيه ويتناسق معه.

وإن التعبير القرآني إذا وضع اسماً معرفة في مكان، ونكرة في مكان آخر، إنما فعل ذلك لحكمة يعلمها الله، وسِرٍّ تقتضيه اللغة، وهدفٍ يقصده المعنى، ومناسبةٍ يتطلبها السياق... ولو حاولنا وضع أحد اللفظين مكان الآخر لاختل تناسق الآية، وزال الترابط في صياغة ألفاظها.

كذلك لو جاء التعبير القرآني بمعرفة من نوع معين وبلفظ خاص، وخطر بالذهن تغييره بمعرفة أخرى، وبلفظ مغاير، لحصل تبديل في المعنى، وانحراف في النظم، وتبدُّل للغرض المقصود، وضياع للهدف المنشود»[3].

---

(١) انظر دواعي اختيار المعرفة (المعارف) في:الطراز، لابن حمزة ٢/ ١٣، البلاغة العربية، للميداني ١/ ٤١١-٤٥٠.

(٢) انظرها في شرح قطر الندى وبل الصدى، تصنيف أبي محمد عبدالله جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت٧٦١)هـ، مطبعة السعادة، ط١١، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، مصر ص٩٣-١١٦. وغير ذلك مما سبقت الإشارة إليه من المراجع.

(٣) صفاء الكلمة في التعبير القرآني، للدكتور عبدالفتاح لاشين، دار المريخ، ١٩٨٣م، الرياض ـ السعودية ص٤٣.

لقد تفنّن القرآن الكريم ـ وهو يسوق أدلة التوحيد ويصوغها ـ في التعريف بالله وتأكيد وحدانيته، واستخدم في سبيل ذلك عدة معارف لغوية، لعدة أغراض وأهداف مقصودة، وأكتفي هنا بضرب المثال التالي:

قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (الأنعام: ٩٥-١٠٠).

عند التأمل في هذه الآيات نجد أنها اشتملت على عدة معرفات لغوية بلاغية، بلغت غاية الحسن والفصاحة في الدلالة على المراد منها، وتأكيد وحدانية الله ووجوب توحيده حيث جاء فيها:

١ ـ ضمير المتكلم الوارد في قوله تعالى: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ وقوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾[1].

٢ ـ ضمير الغائب المكرر في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ ﴾ وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن ... ﴾ وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً .. ﴾.

٣ ـ العلَمية الخاص به كما يتضح من لحفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهَ ﴾ وتكراره أكثر من مرة، وذكره للفظ ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

٤ ـ اسم الإشارة كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾.

٥ ـ الاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِى ﴾ في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ ... ﴾ وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم ... ﴾ وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً .. ﴾.

٦ ـ التعريف بـ(أل) المضافة إلى لفظ (عزيز ـ عليم) وهي هنا أل العهدية المتعلقة بلفظ الجلالة المذكور في بداية الآيات.

٧ ـ التعريف بالإضافة كما جاء في إضافة لفظ (سبحان) إلى الهاء في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾.

وهكذا عرّف الله نفسه وتعرّف إلى خلقه في كل الآيات السابقة بكل المعرِّفات البلاغية اللغوية لعدة أغراض ودواعي فـ :

---

(١) ونحوها في سورة طه ١٢-١٤.

أ ـ اختيار ضمير المتكلم في قوله: ﴿ فَصَّلْنَا ﴾ و﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ بصيغة الجمع لأن المقام يدعو لذلك، فحديث الله عن أفعاله في الكون وإنزاله للقرآن العظيم، وتفصيله لآياته، وإخراجه سبحانه لكل أنواع النبات من الأرض، ثم إخراجه لكل أخضر وحب متراكب من النبات مما يعجز الإنسان عن أدنى شيء منه، كل هذا يتناسب معه ضمير المتكلم الفاعل، بنون الجمع «نا»، للإشعار بعظمة الرب سبحانه وتعالى، ووجوب تعظيمه.

ب ـ ضمير الغائب المكرر ﴿ هُوَ ﴾، إنما جاء وتكرر لأن سياق الآيات يستلزم ذلك، فقوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ﴾ و﴿ أَنشَأَ ﴾ و﴿ أَنزَلَ ﴾ بصيغة الحديث عن الغائب تناسب معه ضمير الغائب «هو» فلا يصح في هذه الأفعال التي جاءت بصيغة الماضي أن يُستخدم معها ضمير المتكلم أو المخاطب وما لا يتلاءم معها.

**ويمكن القول أيضاً:**

أن مقصود الآيات بذكر ضمير التعريف ﴿ هُوَ ﴾ المبالغة في قصر الأفعال المذكورة فيها على فاعلها وتأكيد اختصاصه بها عز وجل[1].

ج ـ اختيار لفظ العلمية ﴿ ٱللَّهَ ﴾ الذي هو علَم على الذات المقدسة عز وجل، وتكراره لذلك أكثر من مرة، ثم التعريف بأنه ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ جاء لأغراض منها:

**أولاً**: إرادة إحضار المتحدَّث عنه في ذهن المتلقي باسمه الخاص به «الله» ليمتاز عما سواه، ويتأكد استشعار المخاطَب به وتذكُّره له، وخاصة بعد أن اعترف الكفار بربوبية الله عز وجل للكون كله بمن فيه وما فيه.

---

(١) انظر: الطراز، للإمام يحيى بن حمزة ٢/ ١٣-١٤.

**ثانياً**: إرادة الاشعار بعظمة المتحدَّث عنه وعن أفعاله في الكون «الله» سبحانه وتعالى.

**ثالثاً**: إرادة التلذذ بذكر اسم المتحدّث عنه لأنه محبوب «الله» عز وجل.

د ـ اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ جاء:

**أولاً**: لغرض الإيجاز وتفادي التكرار للفظ «الله» أو غيره من الأسماء الحسنى.

**ثانياً**: لغرض تمييز المتحدّث عنه أكمل تمييز يُحضره في ذهن المتلقّي ـ كما يُفهم من إضافة (ذلك) إلى ميم الجمع (المخاطبين) ـ وذلك للمبالغة في تعيينه سبحانه وتعالى.

**ثالثاً**: لغرض التعبير عن ارتفاع منزلته جلّ في علاه، باستعمال اسم الإشارة (ذلك) الذي يشار به إلى البعيد.

**رابعاً**: لغرض تنزيل وجود الله ـ وهو غائب عن الأنظار لا يدرك بالحواس ولا يُحاط بالعلوم سبحانه وتعالى ـ منزلة ما يُدرك بالحواس والأبصار.

هـ ـ اختيار الاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِى ﴾ وتكراره جاء لأغراض ودواعي منها:

**أولاً**: لغرض الوصف بما تضمنته صلة الموصول (أي وصف الله بأفعاله في الكون).

**ثانياً**: لزيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام، وغرض الآيات هنا هو تقرير وحدانية الله في ربوبيته وألوهيته عز وجل.

**ثالثاً**: لإرادة التفخيم والتعظيم للذات العلية الموصوفة، للإشارة إلى مكانته العلية الرفيعة، وفعله العظيم في الكون، من تسخير النجوم، والإنشاء لبني آدم من نفس واحدة، وإنزال الماء من السماء، وغير ذلك...

## رابعاً: أسلوب التجزئة والتكامل:

قد يأتي القرآن بأدلة توحيد جزئية، تعتمد على وقائع جزئية، وكل جزء يصلح أن يكون دليلاً لوحده، قائماً بذاته، ويتكون من مجموع هذه الأجزاء دليلٌ كليٌّ على وحدانية الله ووجوب توحيده، وفائدة هذا الأسلوب «تحقيق التكامل في الدلالات بين الأشباه والنظائر في البيان القرآني» من خلال تخصيص كل صنف من الأشباه والنظائر في النص بتعبير يُفيد معنى خاصًّا، وهذا التعبير يصلح اطّراده في سائر الأشباه والنظائر.

وبتوزيع التعبيرات ذوات الدلالات المختلفات على الأشباه والنظائر يحصل الاستغناء عن إعادة كل شبيه ونظيرٍ عدة مرات بعدد هذه التعبيرات، للإتيان به في كل مرَّة مقترناً بواحد منها حتى استغراقها.

وفي هذا الاستغناء إيجاز رائع، واقتصاد في التعبير من جهة، ومسرَّة لنباهة الأذكياء من جهة أخرى، وتخلُّص من الركاكة التي يجلبها التكرير في طريقة التعبير من جهة ثالثة...

كما أن فيه تكامل التعبيرات فيما بينها في أداء المقصود من دلالاتها المختلفات...، ومن أمثلة ذلك كله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (النمل: ٥٩-٦٤).

ففي هذه الآيات يضع المولى عز وجل مقارنات بينه كخالق مدبِّر للكون بمن فيه وما فيه، وبين معبودات المشركين على اختلاف شركهم وآلهتهم، فيظهر بعد ذلك افتقار شركاء الكفار إلى خصائص الربوبية، التي لا يملكون منها شيئاً وبالتالي عدم استحقاقهم أي شيء من معاني العبودية على سبيل الوحدانية أو الشراكة مع الله سبحانه.

عموماً قد سبق شرح الآيات والتعليق عليها[1]، والذي يهمنا هنا أن الله تعالى ذيّل كل الآيات السابقة تقريباً بتعقيب مبدوء باستفهام إنكاري تعجيبي من شرك المشركين، وبعده نوع بيان يتعلق بمذهبهم الباطل:

---

(١) راجع: ص ٣٠٣.

١- فبعد المجموعة الأولى جاء قوله تعالى: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ يَعۡدِلُونَ ﴾.

٢- وجاء بعد المجموعة الثانية قوله سبحانه: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.

٣- وبعد المجموعة الثالثة جاء قوله عز وجل: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾.

٤- وجاء بعد المجموعة الرابعة قوله جل شأنه: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾.

٥- وبعد المجموعة الخامسة جاء قوله تباركت أسماؤه: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.

وإن المتأمل لهذا النص يلاحظ أن كل تعقيب من هذه التعقيبات الخمسة صالح لأن يُعمَّم على كل المجموعات من الأسئلة التي تُطرح على المشركين، وقد أغنى ذكر كل واحدٍ منها بعد آيته عن ذكر سائرها معه، ودلَّت قرينة كون هذه التعقيبات من الأسئلة والاستفهامات واردة في مناظرة واحدة، على أن التعقيبات قد أُريد منها صلاحيتها لأن تكون عامَّة.

واقتضت فَنِيَّةُ الأداء البياني ألا تُكرَّر مع كل مجموعة، وأن يُذكر واحدٌ منها عقب مجموعة معيَّنة.

ولو تكرّرت لضعُفت بلاغة النص، وكذلك لو أُخِّرت وجاءت على صيغة تعقيب واحد متتابعِ الـجُمل، ـ وهذا هو محل الشاهد ـ فقد دلَّ هذا النص

القرآني على فائدة أسلوب التجزئة في تحقيق التكامل الإبداعي في أساليب البيان القرآني المجيد[١].

ونفس الأمر متحقِّق في آيات أخرى من كتاب الله[٢]، وأكتفي بما سبق.

## خامساً: أسلوب الانتقال في الاستدلال:

الانتقال في الاستدلال هو أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان آخذاً فيه، لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأوَّل، أو فهم ذلك لكنه قصد إلى المغالطة والهروب من التسليم. ومن أمثلة ذلك ما حكاه الله عزوجل عن إبراهيم عليه السلام في مناظرته للنمرود كما في قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

نلاحظ في الآيات أن النمرود قال لإبراهيم عليه السلام عندما قال له: ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ ﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ ثم دعا بمن وجب عليه القتل فأعتقه، ومن لا يجب عليه فقتله، فعلم الخليل أنه لم يفهم مقصوده بالإحياء والإماتة، أو أنه فهم ذلك وغالط فيه، وإنما أراد إبراهيم عليه السلام أن الله يحيي ويميت بغير آلة، لا يحيي ويميت كذلك إلا هو.

---

(١) انظر: البلاغة العربية لعبدالرحمن الميداني ٢/ ٣٣٩-٣٤٣ بتصرف.

(٢) انظر: ما جاء في سورة النحل ١٠-١٥.

فانتقل عليه السلام إلى استدلال آخر أكبر من الأول لا يجد النمرود له وجهاً يتخلص به منه، فقال الخليل: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ فانقطع النمروذ في حجته وبُهت، ولم يمكنه أن يقول: «أنا الآتي بها من المشرق، لأن من هو أَسَنّ منه يُكَذِّبه»[1].

## سادساً: أسلوب التعميم ثم التخصيص:

ذِكر الخاص بعد العام[٢] من أسباب الإطناب، والتعميم هو أن تذكر قضية عامَّة، تؤدي إلى إثبات الدعوى بإجمالها، ثم يتعرض المستدل إلى جزئيات القضية، فيبرهن على أن كل جُزئِي منها يؤدي إلى إثبات الدعوى المطلوب إثباتها، أو أنها في مجموعها تؤدي إلى إثبات الدعوى[٣].

وفائدة ذكر الخاص بعد العام التنبيه على فضله، حتى كأنه ليس من جنس العام أو نوعه، تنزيلاً للتغاير في الصفات منزلة التغاير في الذات، ومثال ذلك في القرآن الكريم ما جاء في حوار موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ مع فرعون في دعوتهما إياه إلى التوحيد ـ قال تعالى على لسان فرعون ـ : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ

---

(١) المشوّق إلى علوم القرآن، لابن القيم ص ١٧٨.
و: الإتقان، للسيوطي ٢/ ١٠٥٩-١٠٦٠.
و: انظر: معترك الأقران، للسيوطي ١/ ٣٥١.

(٢) المراد بالعام هنا ما كان شاملاً في معناه لمقابله وغيره، لا العام والخاص في مصطلح علم أصول الفقه.

(٣) المعجزة الكبرى، للشيخ محمد أبو زهرة ص٣٥١.

فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ (طه: ٤٩-٥٥)، فالملاحظ من الآيات أن موسى عليه السلام استدل على ربوبية الله بخلقه لكل شيء وهدايته له إلى ما يُصلحه ويَصلح له بشكل عام، ثم استدل على نفس الأمر بجزئيات ومفردات معاني الخلق والربوبية كتمهيد الأرض، وسلْكِ سُبُلها، وإنزال الماء من السماء، وإخراج أزواج النبات المتنوع، وغير ذلك... ثم ختم النص بما يتناسب مع جُزئياته ويجمعها بذكر أن الهدف من ذلك كله هو كما قال تعالى: ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ وهناك آيات أخرى من هذا القبيل[1] وحسبنا ما ذكرناه أعلاه.

## سابعاً: أسلوب التذييل:

**التذييل هو:** تفعيل من قولهم ذيّل كلامه إذا عقّبه بكلام بعد كمال غرضه منه.

**والتذييل اصطلاحاً هو:** تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها توكيداً لمنطوقها أو لمفهومها، ليظهر المعنى لمن لم يفهمه، ويتقرر عند من

---

(١) انظر: معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، للدكتور محمد صالح مخيمر، دار الكتاب الثقافي، ط (بدون)، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، إربد ـ الأردن ص١٠٦-١٠٧.

فهمه[1]، وقد جاء في القرآن كثيراً ـ خاصة في الآيات التي ختمها الله بذكر أسمـائه وصفاته، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ١٨) وقوله عن المجادِلة لرسول الله ﷺ في شأنها مع زوجها: ﴿ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (المجادلة: ١) وقوله: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور: ٢٢).

وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (المائدة: ٧٣) وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (النحل: ٢٠) وغيرها من الآيات التي ذيَّلها الله ببعض أسمائه وصفاته كل واحدة منها تعتبر تذييلاً وتعقيباً لما قبلها مشتملاً لمعناها مؤكِّداً لمنطوقها ومفهومها، وذلك من التناسب بين آيات القرآن أو ما يُسمى بعلم المناسبات حيث استخدم القرآن الكريم ذلك لتقرير وحدانية الله في كثير من الآيات.

## ثامناً: أسلوب التكرار:

التكرار أو التكرير ـ بشكل عام ـ يكون لهدف معيَّن كتقرير المكرَّر وتوكيده وإظهار العناية به..، ويكون لوظيفة أدبية كتأكيد المعاني وإبرازها، وغير ذلك من الدواعي البلاغية[٢]، وهو يقع في القرآن على وجوه، وله أدوات وأساليب

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ٢/ ٨٦٩.

(٢) انظر: الفوائد المشوّقة إلى علوم القرآن، لابن القيم ص١٥٩-١٦٧، و: الطراز، لابن حمزة ٢/ ٩٤-١٠١.

معينة[١]، والذي يعنينا هنا ما يتعلق بآيات التوحيد، فقد كرَّر الله بعض نصوص التوحيد القرآنية لِحِكَم أرادها سبحانه، ومن هذه النصوص:

أ ـ قوله تعالى ـ مخاطباً الإنس والجن الذين جحدوا نِعَمهُ وكفروا بها وبه سبحانه ـ : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ١٣) كررها في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة، للتنبيه إلى كثرة نعمه ووجوب شكره عليها بتوحيد عبادته، إضافة إلى ما في ذلك من تأثير فنِّي جمالي، مستطرف مستعذب، واستثارة لدوافع النفس، وتهييج لعواطفها ومشاعرها لجمال السياق والتعبير القرآني[2].

ب ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ ﴾ (الشعراء: ٨-٩) في سورة الشعراء ثماني مرات أولاها جاءت عقب بيان تكذيب الذين كذبوا خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وبما جاء به عن ربه، ثم جاءت كل مرة من المرات الباقيات عقب عرض قصةٍ من قصص المكذبين الأولين، فكان لكل مرة منها ما يدعو لتكرارها من القصة التي جاءت قبلها، فإذا تعدّد المقتضي حَسُن إعادة ذكر العبارة نفسها.

---

(١) مثل تكرار: أ ـ كلمة مع أختها.

ب ـ فاصلة تكرر على نمط واحد.

ج ـ قصة مع اختلاف صياغتها.

د ـ بعض الأوامر والنواهي... إلخ. انظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، للدكتور عبدالعظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، القاهرة ـ مصر ١/ ٣٢١ وما بعدها. و: من أساليب التربية في القرآن الكريم، للدكتور عثمان قدري مكانسي، دار ابن حزم، ط١ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، بيروت ـ لبنان، ٤٦٩ وما بعدها.

(٢) الطراز، لابن حمزة ٢/ ٩٥.

ولهذا التكرار ـ المذكور في الآية ـ عدة فوائد، منها: ما سبقت الإشارة إليه من تمكين المعنى وتأكيده في نفس المتلَقّي كما في تكراره سبحانه للفظ ﴿ رَبَّكَ ﴾ وبعض أسمائه كقوله ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ لترسيخ مفهوم الربوبية وبعض أسمائه وصفاته سبحانه في نفس المخاطَب.

ج ـ قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ (آل عمران: ٢٦، ٢٧) فقد كرَّر سبحانه في هذه الآيات مظاهر ربوبيته في الكون، وتدبيره له وتصرفه في جميع مخلوقاته ـ سواء بمنحه بعض ملكه لمن يشاء ونزعه ممن يريد، أو إعزازه لمن يشاء وإذلاله لمن يريد، أو إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل، وغير ذلك ـ كرر هذا ليدل على كمال قوته وقدرته وعموم مشيئته وللإشارة إلى عظمته سبحانه وتعالى.

وهكذا جاءت آيات القرآن بأسلوب التكرير للنصوص والمعاني، وخاصة في مايتعلق بالحقائق العقدية والأمور الغيبية المراد تقريرها وتثبيتها في الأذهان ـ وأهمها حقيقة التوحيد ـ وليس أدل على ذلك من تكرار جملة: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ ؟! خمس مرات في سورة (النمل)[1]، وتكرار دعوات الأنبياء أقوامهم إلى التوحيد أربع مرات في سورة (هود) ومرَّتين في سورة (المؤمنون) سواء بلفظ ﴿ أن لَّا

(١) انظر الآيات: ٦٠-٦٤.

تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ (هود: ٢٦)، أو عبارة: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾[1]، وغيرها كتكرار لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهَ ﴾ آلاف المرات في القرآن كله، وتكرار لفظ ﴿ وَٰحِدٌ ﴾ ومشتقاته عدة مرات، وتكرار كثير من الاسماء والصفات في خواتيم كثير من الآيات، وتكرار مظاهر ربوبية الله، ودلائل ألوهيته وكماله في أسمائه وصفاته، وتكرار لفظ (بسم الله الرحمن الرحيم) عشرات المرات، وتكرار قصص الأنبياء ومشاهد دعواتهم أقوامهم إلى التوحيد. كرَّرها بصوَرٍ وعبارات وأساليب مختلفة متميزة مؤثرة، كل ذلك في سبيل تقرير التوحيد في نفوس العبيد وأفئدتهم.

ولا شك أن لهذا التكرار أثراً بارزاً في نفسية الإنسان المخاطَب وعقلِه فقد بيَّنت دراسات علماء النفس المعاصرين أهمية التكرار في عملية التعليم[2]، وإسهامه في غرس المفاهيم والحقائق المراد ترسيخها، وتحقيق القناعة بها، بل وإيصال المرء إلى التعلق والارتباط الدائم بها.

وأكدّت كذلك أثر التكرار في بث التخوف الدائم من شيء ما، وحمل النفس على بُغضه والحذر منه، والنفور من طريقه أو تشويقها لأمر معيَن، ودفعها لحبه، والسعي إليه، وهذا ما سبق إليه كلام الله ـ القرآن الكريم ـ في مجال إقامة التوحيد والقضاء على الشرك في النفوس والعقول.

لقد كرَّر القرآن عبارة ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ (المرسلات: ١٥) ـ أي: بالله واليوم الآخر وبالنبي وما جاء به ـ ، كرَّرها عشر مرات في سورة المرسلات للتخويف من الشرك والتكذيب بما جاء به الرسل، ودفع الخلق للابتعاد عن ذلك.

---

(١) هود: ٥، ٦١، ٨٤، والمؤمنون: ٢٣،٣٢.

(٢) انظر: أصول علم النفس، للدكتور أحمد عزت راجح ص ٢٠٩ وما بعدها.

وكرر آيات الوعد والوعيد، وأحوال الموحِّدين والمشركين يوم النشور، ونعيم الجنة وجحيم النار، وغير ذلك كرّره عشرات المرات، كل هذا لتحقيق الإيمان بالله بشكل خاص، والإيمان ببقية أركان الإيمان بشكل عام، ولحكم أخرى[1].

عموماً لقد ناسب تكرار القرآن لنصوص التوحيد العقدية ـ سواء الخبرية أو الإنشائية، بلفظها أو بمعناها، بالكلمات أو الحروف أو الأفعال، وبالتفنن في الصيغ والأساليب[2] ـ لقد ناسب ذلك كله واقع الكفار لما ألفوه وتعوّدوا عليه من تكرار الشرك ومظاهره في حياتهم حتى صار معتقَداً راسخاً في نفوسهم وعقولهم، وسلوكاً في أقوالهم وأفعالهم، نتيجة وراثتهم ذلك عن آبائهم وأجدادهم، وممارستهم له لمئات السنين في عصور الجاهلية واعتيادهم عليه، فلم يكن من السهل عليهم التخلص من مظاهر الشرك ومعتقداته، وهذا ما عاناه الأنبياء على مدار التاريخ من أقوامهم حيث لاقوا صعوبة في إقناعهم بالتوحيد الذي هو حق الله على العبيد، حتى أذن الله بهداية من تداركته رحمة الله وفضله.

## ثامناً: أسلوب الالتفات:

الالتفات في اللغة: تحويل الوجه عن أصل وضعه الطبيعي إلى وضع آخر[3]، وفي اصطلاح البلاغيين هو التحويل في التعبير الكلامي من اتجاه إلى آخر، أو هو

---

(١) انظر ذلك في كتاب: (من أساليب التربية في القرآن الكريم)، للدكتور عثمان قدري مكانسي ص ٤٦٩-٤٧٧.

(٢) انظرك تفاصيل ذلك في: قواعد التفسير (جمعاً ودراسة)، للدكتور خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفّان، ط١، ١٤٢١هـ ـ الجيزة ـ جمهورية مصر العربية ٢/ ٧٠٠-٧١٥.

(٣) لسان العرب، لابن منظور ١٢/ ٣٠١، مادة لفت.

نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، أي من التكلم أو الخطاب أو الغيبة... إلخ، مع أن الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريقة المختارة أولاً دون التحول عنها[1].

والالتفات من الأساليب البلاغية ذات اللطائف النفسية، وهو فنٌّ بديع من فنون القول[2]، يحقق الشيء الكثير من الاقتصاد والإيجاز في العبارة، وتطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر والملال، وغير ذلك من الفوائد، وله شروط معينة، ويشتمل على ست صور[3]، وقد استخدمه القرآن كأحد الأساليب البلاغية لتقرير التوحيد وإقامته في النفوس، ومن ذلك أسلوب:

**أ ـ الانتقال من التكلم إلى الخطاب، مثل: قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾** (يس: ٢٠-٢٣) فقوله: **﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾** معطوف على محذوف دلَّ عليه حرف العطف (الواو) والمطويُّ المحذوف يُمكن تقديره بأن نقول:

---

(١) انظر: الطراز، لابن حمزة ٢/ ٧١، و: الإتقان، للسيوطي ٢/ ٩٠٢.

(٢) ويقول الميداني: (يُشبهه تحريك آلات التصوير السينمائي بنقلها من مشهد إلى مشهد آخر في المختلفات والمتباعدات التي يُراد عرض صُور منها، ومفاجأة المُشاهِد بالقطات منها متباعدات. اهـ. انظر: البلاغة العربية، للميداني، ١/ ٤٨٠.

(٣) انظر تفاصيل ذلك كله في: الطراز، لابن حمزة ٢/ ٧١-٧٥. و: الإتقان للسيوطي ٢/ ٩٠٢ وما بعدها. و: البلاغة العربية، للميداني ١/ ٤٧٩ وما بعدها.

قالوا له: أتؤمن بما جاء به هؤلاء المرسلون، وتعبد الرب الذي يدعون لعبادته؟

قال: نعم، أؤمن بما جاءوا به، وأعبد ربي، وما لي لا أعبد الذي فطرني؟!

ثم انتقل من التكلم إلى الخطاب فقال لهم: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فخاطَبَهُم، مع أن مقتضى الظاهر أن يقول: وإليه أُرجع يوم الدين ليحاسبني ويجازيني، كما يُرجع إليه سائر الناس وأنتم منهم.

فأوجز في العبارة، وأشعرهم بأسلوب غير مباشر أنهم قد كان عليهم أن يؤمنوا بالله الخالق كما آمن هو، لأنهم سيُرجعون إليه يوم الدين، وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم.

ب ـ الانتقال من التكلم إلى الغيبة: كما في قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ ﴾ (الدخان: ١-٦) فقد بدأ الأسلوب في هذا النص على طريقة حديث المتكلِّم عن نفسه ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ - إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ - أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ - إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾.

وبعد ذلك انتقل إلى أسلوب الحديث عن الغائب خلافاً لمقتضى الظاهر فقال: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

وفائدة هذا الالتفات التذكير بربوبية الله، والتوطئة لذكر بعض صفاته، التي هي من مقتضيات ولوازم كونه ربّاً، مع الإيجاز والاقتصار في العبارة.

ج ـ **الانتقال من الغيبة إلى الخطاب**: كما في قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ (الفاتحة: ١-٥).

جاء النص في مطلع السورة جارٍ على أسلوب الحديث عن الغائب لأن الاسم الظاهر من قبيل الغيبة، وبعد ذلك انتقل إلى أسلوب الخطاب: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وفائدة هذا الالتفات التحول من موضوع الثناء على الله عزوجل إلى موضوع التوجه له بالعبادة والدعاء، فالثناء يحسُن فيه الإعلام العام، وهذا يلائمه أسلوب الحديث عن الغائب، والعبادة والدعاء يحسن فيهما مواجهة المعبود المدعو بالخطاب.

ومن أمثلة الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا[1] ۝ ﴾ (مريم: ٨٨-٨٩).

بدأ الحديث عمَّن افترى على الله وزعم اتخاذه الولد، بأسلوب الحديث عن الغائب خطاباً للمؤمنين ثم وجَّه الخطاب للمفترين فقال لهم: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾.

**وفائدة هذا الالتفات تحقيق غرضين:**

**الأول**: تثبيت المؤمنين على عقيدة تنزيه الله عما لا يليق به سبحانه من اتخاذ الولد.

**الثاني**: تأنيب المفترين على الله بأنهم ارتكبوا أمراً بالغ النكارة والفظاعة والشناعة. مع الاقتصاد والإيجاز في العبارة.

---

(١) سبق ذكر معناها ص٣٣٤.

وهكذا استخدم القرآن الكريم أسلوب الالتفات في تقرير التوحيد والدعوة إليه[1]، واستخدم أسلوباً آخر يمكن شرحه من خلال الفقرة التالية:

## عاشراً: أسلوب المدح والذم:

**المدح لغة:** نقيض الهجاء وهو حسن الثناء[2].

**واصطلاحاً:** هو الثناء بالصفات الحميدة على شيء ما «أو الثناء باللسان على الجميل الاختياري قصداً»[3].

والمديح تعبير عن الرضا بما يصدر عن الغير من أعمال أو أقوال أو غيرها مما تُسرُّ وتُحمد، وهو دفع يُشجِّع الممدوح على التزام ذلك، ويوحِي للآخرين بأن يكونوا مثله[4].

**والذم لغة:** نقيض المدح.. وهو اللّوم في الإساءة، وأذممتُ فلاناً خلاف أحمدتُهُ[5].

---

(١) لمعرفة المزيد مما يتعلق بأسلوب الالتفات انظر: إعجاز القرآن، للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣) هـ دار إحياء العلوم، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، بيروت ـ لبنان ص ١٤٨-١٥٢.

(٢) لسان العرب، لابن منظور ١٣/ ٤٩ مادة مدح.

وانظر: المعجم الوسيط ص٨٥٧.

(٣) التعريفات، للجرجاني ص٢٠٧.

(٤) من أساليب التربية في القرآن، للدكتور عثمان مكانسي ص١٣٩.

(٥) لسان العرب، لابن منظور ٥/ ٥٨ مادة ذمم. وانظر: أساس البلاغة تأليف جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، بيروت، ص٢٤٤.

**واصطلاحاً**: إعابة الشيء أو الشخص، وإظهار أخطائه ومثالبه، ويكون للتعبير عن السخط وعدم الرضا، ليتجنب الناس الوقوع في الأمر المذموم(١).

والقرآن الكريم ـ في سبيل تقريره التوحيد ودعوته إليه ـ قد امتدح الإيمان بالله، وأثنى على الموحِّدين، وبارك كل ما يتعلق بذلك، وذمَّ الشرك والمشركين وما يؤول إليه حالهم، وهذا أسلوب قرآني تميَّز به كلام الله في كثير من آياته ليتجه الخلق لتوحيد الخالق، ويحذروا من الإشراك به سبحانه وتعالى.

ومن ذلك قوله تعالى مادحاً التوحيد والدعاة إليه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (فصلت: ٣٣).

وقوله عن إبراهيم عليه السلام مادحاً إياه على توحيده، ومُثنياً على منهجه وطريقته وعاقبته في الدارين: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

(النحل: ١٢٠-١٢٢)،

ذكر أهل التفسير عدة معان للفظ ﴿ أُمَّةً ﴾ ومما ذكروه ـ مما يتعلق بالموضوع ـ أنه «كان أمة وحده في الدين، لأنه لم يكن في وقت بعثته موحِّد لله غيره، فهو الذي أحيا الله به التوحيد، وبثَّهُ في الأمم والأقطار، وبنَى له مَعْلَماً عظيماً، وهو الكعبة، ودعا الناس إلى حجه لإشاعة ذكره بين الأمم»(2).

---

(١) انظر: من أساليب التربية في القرآن، للدكتور عثمان مكانسي ص١٤٤.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٣/ ٢٥٤.

ومعنى ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ أي: مطيعاً له: و﴿ حَنِيفًا ﴾ الحنيف هو المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق.

ولهذا كلّه امتدح الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ مؤكّداً بقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، وامتدحه أيضاً في سورة الصافات[1]، كما امتدح موسى وهارون وإلياس لإيمانهم بالله وحده[2]، وامتدح الفتية الذين آمنوا بربهم في سورة الكهف[3]، وامتدح كل موحّد ممن وصفهم الله بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ (الفرقان: ٦٨)، وامتدح أيضاً عاقبتهم في جنات الخلود والنعيم المقيم على ما كان منهم من التوحيد والعمل الصالح فقال: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٧).

وبالمقابل ذم الله الشرك وأهله، فقال عن الشرك: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان: ١٣).

وقال عن المشركين: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩) وأخبر أن طريقهم هو: ﴿ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ (الحج: ١٢).

---

(١) انظر الآيات: ٨٣-١١٣.

(٢) انظر: الآيات ١١٤-١٣٢ من نفس السورة.

(٣) الكهف: ١٣-١٤.

وذكر أنهم: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٥).

لقد ذم الله الكفار على كفرهم، وذمَّ جوارحهم التي لا ينتفعون بها في معرفة الحق والاهتداء بها إلى نور التوحيد ـ سواء أسماعهم أو أبصارهم أو عقولهم أو غير ذلك ـ وذمَّ معبوداتهم الباطلة التي لا تنفع ولا تضر[1]، وذمَّ منهجهم في الإشراك بالله، كما ذمَّ أيضاً عاقبتهم يوم القيامة فقال: ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (التحريم: ٩).

وهكذا هو منهج القرآن وأسلوبه في تحرير الرقاب من رقِّ العبودية والذل لغير الله، ورفعها إلى مقام التوحيد وكرامة التعبد لله سبحانه وتعالى، إنه يمتدح أعظم حقيقة قام لأجلها الكون كله، ويذم أقبح جريمة تستوجب الخلود في نار جهنم.

## حادي عشر: أسلوب السخرية:

**السُّخرية**: الهُزء، وسَخِر منه وبه: هَزِئ، ويكون الهُزء من الإنسان وقولِه وعملِه[2]، وقد هزئ القرآن الكريم وسخر من الكفر والكافرين ـ في أكثر من موضع.

وقد تبيَّن أنَّ أساليب سخرية القرآن من الشرك والمشركين جاءت لعدة أغراض منها:

---

(١) بل ضرها أقرب من نفعها.

(٢) لسان العرب، لابن منظور ٦/ ٢٠٢-٢٠٣ مادة سخر.

١ - التنقيص والاحتقار لمعبودات المشركين الباطلة من دون الله.

٢ - كبح جماح المشركين، ودمغ شركهم.

٣ - فضحهم، وبيان هوانهم على الله، وضلالهم.

٤ - تحذير الموحّدين من الاتصاف بصفاتهم.

٥ - الرد على ادِّعاءاتهم وتخرصاتهم.

وغير ذلك(١).

**ويمكن التدليل على ما سبق بالمثالين التاليين:**

**أولاً**: قوله تعالى على لسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ ساخراً من كفار قومه وأصنامهم بعد أن طلبوه ليتحققوا من تكسيره لمعبوداتهم، ويقرروه بذلك، وسألوه قائلين ـ كما سجّل القرآن ـ : ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ (الأنبياء: ٦٢) ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (الأنبياء: ٦٣-٦٧).

لو تأملنا في رد إبراهيم عليه السلام على قومه وقوله لهم: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ وقوله: ﴿ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ وقوله: ﴿ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ ودقّقنا النظر في سخريته منها ومنهم في قوله: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا

(١) انظر: من أساليب التربية في القرآن، للدكتور عثمان مكانسي ص١٥١ وما بعدها.

تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ثم تسفيهه لعقولهم قائلاً: ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ لوجدنا أن سخريته ﷺ تضمَّنت استدراج قومه إلى بيان الحقائق التالية:

أ ـ فقدان معبوداتهم للنطق ولأي مظهر من مظاهر الحياة، فهي جماد لا حِراك فيها.

ب ـ عجزها عن النفع والضر لعابديها ولمن سواهم، فهي ضعيفة حقيرة.

ج ـ ضلال عابديها في عقولهم، وظلمهم لأنفسهم، فهم غافلون عن الحق، بعيدون عنه.

هكذا بيَّن إبراهيم عليه السلام حقيقة الأصنام وجهالة عُبَّادها، وهكذا هو أسلوب القرآن في تقرير التوحيد ونقض الشرك وإبطال عبادة الشركاء، ولو لم يكن منه إلا هذا الأسلوب الساخر لبيان ذلك لكفى.

**ثانياً**: قوله تعالى ساخراً مستهزئاً بالكفار الذين يلهثون وراء أهوائهم في عبادة آلهتهم الباطلة ـ في سياق خطابه لرسول الله ﷺ ـ: ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الفرقان: ٤٣، ٤٤).

تضمنت سُخرية الله من الكافرين الساخرين من التوحيد، المستهزئين به، عدة أمور، يمكن بيانها بعد معرفة معنى الآية، فقد قال الزمخشري: إن المقصود بها أنهم «لا يُلقون إلى استماع الحق أذناً، ولا إلى تدبره عقلاً»[1]، وأن الكفار

(١) الكشاف، للزمخشري ٣/ ٢٨٧.

يجعلون آلهتهم الشيءَ الذي يهوَوْنَ عبادته، والذي يحبون أن يكون لهم إلهاً لمجرد الشهوة لا لأنه مستحق للإلهية،... فهم الذين اتخذوا هواهم إلهاً لهم، واتخذوا آلهة لأجل هواهم[1].

إن أسلوب القرآن الساخر من هؤلاء المشركين في الآية المذكورة آنفاً يفيد:

١- شمول الذم للمشركين وشركهم، وبقية فواحشهم ومنكراتهم.

٢- التيئيس من اهتدائهم، لغلبة الهوى على عقولهم - إلا أن يشاء الله -.

٣- التحذير من حُسن الظن بهم في قدرتهم على إدراك الدلائل والحجج الإيمانية.

٤- نفيُ أثر سماعهم لما يُلقى إليهم من الرسول ﷺ عبر وحي القرآن والسنة، وهو فهم الحق والعمل به.

٥- نفيُ تعقلهم لدلائل الآيات القرآنية، والكائنات الكونية على وحدانية الله وتوحيده.

٦- تشبيههم بالأنعام في عدم الانتفاع بالمواعظ رغم سلامة الحواس.

٧- الحكم عليهم بأنهم أضل من الأنعام ما داموا على طريق الشرك، لأن الأنعام تفقه ما تسمعه من أصوات الزجر ونحوها، من رُعاتها وسائقيها وهؤلاء ليسوا كذلك تجاه مرشدهم وسائسهم محمد ﷺ[2].

قال الرازي متسائلاً: لم جُعلوا أضل من الأنعام؟

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٩/ ٥٩-٦٠ باختصار.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٩/ ٥٩-٦١.

**الجواب: من وجوه:**

**أحدها:** أن الأنعام تنقاد لأربابها والذي يعلفها ويتعهدها، وتُميِّز بين من يُحسن إليها، وبين من يُسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم، ولا يميزون بين إحسانه إليهم، وبين إساءة الشيطان إليهم الذي هو عدو لهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يحترزون من العقاب الذي هو أعظم المضار.

**وثانيها:** أن قلوب الأنعام كما أنها تكون خالية من العلم فهي خالية من الجهل، الذي هو اعتقاد المعتقد على خلاف ما هو عليه مع التصميم. وأما هؤلاء فقلوبهم كما خلت عن العلم فقد اتّصفتِ بالجهل، فإنهم لا يعلمون، ولا يعلمون أنهم لا يعلمون، بل هم مُصِرُّون على أنهم يعلمون (وهذا سمي بالجهل المركب).

**وثالثها:** أن عدم علم الأنعام لا يضر بأحد، أما جهل هؤلاء فإنه منشأ للضرر العظيم، لأنهم يصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجاً.

**ورابعها:** أن الأنعام لا تعرف شيئاً ولكنهم عاجزون عن الطلب[1]، وأما هؤلاء الجهال فإنهم ليسوا عاجزين عن الطلب، والمحروم من طلب المراتب العالية إذا عجز عنه لا يكون في استحقاق الذم كالقادر عليه التارك له لسوء اختياره.

**وخامسها:** أن البهائم لا تستحق عقاباً على عدم العلم، أما هؤلاء فإنهم يستحقون عليه أعظم العقاب.

---

(١) هكذا في الأصل (ولكنهم عاجزون) ولعل الأصوب (ولكنها عاجزة).

**وسادسها:** أن البهائم تسبح الله تعالى.. كما قال سبحانه: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ (الإسراء: ٤٤) وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (الحج: ١٨) وإذا كان الأمر كذلك فضلال الكفار أشد وأعظم من ضلال هذه الأنعام.اهـ.[1].

وهكذا كان أسلوب السخرية القرآني المتضمن لذم الكفار ومعبوداتهم وسيلة لغوية بلاغية أدبية صريحة لتبغيض الشرك إلى النفوس والتنفير منه، وتحبيب التوحيد إليها والدعوة إليه ضمناً إن لم يكن صراحة كما في الآية الآنفة الذكر.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٢٤/ ٧٦ بتصرف.

# «المطلب الثاني»

# «استخدام القرآن لأساليب علم البيان[(١)]»

عرّف علماء البلاغة علم البيان بقولهم هو: علم يبحث في كيفية تأدية المعنى الواحد بطرق تختلف في وضوح دلالتها، وتختلف في صورها وأشكالها، وما تتصف به من إبداع وجمال، أو قُبح وابتذال، عن طريق: التشبيه والتمثيل، والكناية والتعريض، والحقيقة والمجاز[(٢)].

وقد استخدم القرآن ذلك ـ وخاصة في مجال إبرازه لقضية التوحيد ومزاياه، وبيانه لقُبح الشرك وما يتعلق به، جامعاً في ذلك بين الإقناع العقلي والإمتاع النفسي، وأكتفي هنا بذكر ثلاثة نماذج استخدمها القرآن الكريم كالآتي:

## أولاً: أسلوب التشبيه وضرب الأمثال (الأقيسة العقلية):

استعمل القرآن الكريم في عرضه لأدلة التوحيد النفسية والعقلية أساليب القياس بضرب الأمثال، ولا شك أن أفضل الأقيسة ما أنزلها الله في كتابه الكريم[(٣)] قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ (الشورى: ١١٧).

---

(١) البيان في اللغة: الوضوح والظهور، يقال: بان الشيء بياناً إذا اتضح وظهر. لسان العرب، لابن منظور ١/ ٥٦٢ مادة بين.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني ص١٨٧. و: الطراز، لابن حمزة ١/ ١٠.. وانظر: البلاغة الواضحة (البيان ـ المعاني ـ البديع)، تأليف: تأليف علي الجارم، ومصطفى أمين، الناشر: دار المعارف، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان ص١٨ وما بعدها.

(٣) انظر: في ذلك رسالة الماجستير للباحث وليد بن على بن عبد الله الحسيني، بعنوان (القياس في القرآن الكريم والسنة النبوية)، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، الرياض ـ السعودية.

ولاشك أيضاً أن رسل الله قد جاءوا بالبراهين الواضحة والقياس الصحيح، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (الحديد: ٢٥).

والقياس الصحيح هو الميزان المنزّل من الله تعالى، والذي يَستدل به العقلُ على المطلوب، ويتمكن به من معرفة التماثل والاختلاف بين الشيئين، وبالتالي إشراكهما في الحكم.

وكما أنه لا يمكن أبداً أن يختلف الكتاب والميزان، فلا يمكن أيضاً أن يختلف نص ثابت عن الرسل وقياس صحيح ـ سواء كان قياساً عقليّاً أو قياساً شرعيّاً.

وضرب المثل هو القياس العقلي بعينه، فإنه مأخوذ من المثال، وهو النموذج الذي يُقاس عليه، لوجود المماثلة والمشابهة بينه وبين ما يُقاس عليه[1].

وضرب المثل هو تقديره وصياغته، أو إنشاؤه وابتكاره، وجمعه في القلب واللسان[2].

إذاً القياس هو ضرب الأمثال، وضرب الأمثال هو القياس، ويكون ضرب الأمثال المعنوية[3] على نوعين هما نوعا القياس كالآتي:

---

(١) انظر: الأمثال في القرآن الكريم، للدكتور محمد جابر الفيَّاض، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، الرياض ـ السعودية ص٢٧-٣٤. ـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية (١٢)، قضايا الفكر الإسلامي، هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية.

(٢) الفتاوى لابن تيمية ١٦/ ٤١. وانظر: نفس المرجع ١٤/ ٥٤.

(٣) الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، لسعود العريفي ص١١٦.

**النوع الأول: الأمثال المعيَّنة:**

وهي التي يقاس فيها الفرع بأصل معيَّن، موجوداً أو مقدّراً، وهي من جنس قياس التمثيل، حيث يُجمع بين المتماثلين بالصفات المعتبرة في الحكم المقصود إثباته أو نفيه(1).

**النوع الثاني: الأمثال الكُلِّية:**

وهي من جنس قياس الشمول، وذلك ـ كما يقول ابن تيمية ـ : «من جهة مطابقة المفرد المعيَّن للمعنى العام الشامل للأفراد، فإن الذهن يرتسم فيه معنى عام يماثل الفرد المعيَّن، وكل فرد يماثل الآخر، فصار هذا المعنى يماثل هذا، وكل منهما يماثل المعنى العام الشامل لهما»(٢).

قال ابن تيمية: «وينبغي أن يُعرف أن مدار ضرب المثل ونصب القياس؛ على العموم والخصوص، والسَّلب والإيجاب، فإنه ما من خبر إلا وهو إما عام أو خاص، سالب أو موجب، فالمعيَّن خاص محصور، والجزئي خاص غير محصور، والمطلق إما عام وإما في معنى الخاص»(٣).

عموماً يمكن القول: أن كثرة الأمثال القرآنية تجعله غنيّاً بالأقيسة العقلية الدالَّة على المطالب العقدية، قال ابن القيم: «وقد أرشد الله تعالى عباده إلى القياس في غير موضع من كتابه... وضَرَب الأمثال وصرّفها في الأنواع المختلفة، وكلها

---

(١) نفسه ص١١٧-١١٨.

(٢) مجموع الفتاوى ١٤/ ٥٨. وانظر: الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، لسعود العريفي ص١١٩ -١٢٠.

(٣) مجموع الفتاوى ١٤/ ٦٢ بتصرف.

أقيسة عقلية ينبه بها عباده على أن حكم الشيء حكمُ مثله، فإن الأمثال كلها قياسات يُعلم منها حكم المثل من الممثَّل به»[١].

وقد ذكر ابن تيمية أن الله تعالى بيَّن الحقائق بالمقاييس العقلية والأمثال المضروبة، وبيّن طريق التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين، وأن الرسل خاطبت الناس بما يعرفونه، ودلّت على ما يفهمونه بفطرتهم التي خلقهم الله بها، فليست العلوم العقلية مقصورة، على مجرد الخبر كما يظنه أهل الكلام بل الرسل ـ عليهم السلام ـ بيّنت العلوم العقلية التي بها يتم دين الناس علماً وعملاً، وضربت الأمثال[٢].

إذاً الأقيسة القرآنية هي الأمثال المضروبة التي ذكرها الله تعالى في كتابه[٣]، والقياس في ضرب الأمثال من خاصّة العقل، وقد فطر الله الناس في عقولهم على التسوية بين المتماثلين وإنكار التفريق بينهما، والفرق بين المختلفين وإنكار الجمع بينهما[٤].

وحتى يتضح لنا كل ما سبق رأيتُ تقسيم هذه الفقرة إلى النقاط الآتية:

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لأبي عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن سعد المعروف بابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١)هـ تحقيق وضبط عبدالرحمن الوكيل، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ط(بدون) د.ت، بيروت ـ لبنان ١/ ١٤١.

(٢) الفتاوى ٩/ ٢٤٣.

وانظر: الرد على المنطقيين ص٣٨١-٣٨٢.

(٣) لمعرفة أنواعها، انظر: القياس في القرآن الكريم والسنة النبوية، لوليد على الحسني ص٦٢ وما بعدها.

(٤) إعلام الموقعين، لابن القيم ١/ ١٤١.

### أ ـ تعريف الأمثال، و بيان أغراضها:

الأمثال جمع مثل، والمثل واحد الأمثال.

**والمثل لغة:** الوصف، والمَثَل بمعنى المِثْل، كما يقال شَبَهٌ وشِبْه، وأصل الكلمة: الميم والثاء واللام، وهو أصل صحيح، يدل على مناظرة الشيء للشيء، وهذا مِثْل هذا: أي: نظيره، والمِثل والمثال في معنى واحد..[(١)].

**والمثل اصطلاحاً:** قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابَهةٌ ليبيِّن أحدُهما الآخر[(٢)]، وقال ابن القيم عن ضرب الأمثال إنها: تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر[(٣)].

وللأمثال أهمية بشكل عام فهي إذا استجمعت الشروط الأساسية العامة والفنية الدقيقة للكلام البليغ حقّقت الأغراض البيانية التالية:

١- تقريب صورة الممثَّل له إلى ذهن المخاطَب عن طريق المَثل، وتوضيح المعاني الكلية بالمشاهدة الجزئية، وتشبيه الخفي بالجلي لتوضيحه، والاستدلال بحال الحاضر على الغائب[(٤)]، لأن المعاني العقلية المحضة لا يقبلها الحس والخيال والوهم، فإذا ذُكر ما يساويها من المحسوسات تَرَكَ الحسُّ والخيالُ والوهم تلك المنازعة وانطبق المعقول على المحسوس وحصل به الفهم التام والوصول إلى المطلوب[(٥)].

---

(١) كتاب جمهرة اللغة، لابن دريد ٢/ ٥٠.

(٢) مفردات الراغب ص٤٦٢.

(٣) إعلام الموقعين ١/ ١٦٣.

(٤) المعجزة الكبرى، لمحمد أبو زهرة ص٣٥٧.

(٥) مفاتيح الغيب، للرازي ١٩/ ٩٥.

٢- الإقناع بفكرة من الأفكار، وهذا الإقناع قد يصل إلى مستوى إقامة الحجة البرهانية، وقد يقتصر على مستوى إقامة الحجة الخطابية، وقد يقتصر على مجرد لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابِهة، وبالتالي يتضح المقال.

٣- الترغيب بالتزيين والتحسين؛ أو التنفير بكشف جوانب القبح، فالترغيب يكون بتزيين الممثّل له وإبراز جوانب حسنه، عن طريق تمثيله بما هو محبوب للنفوس، مرغوب لديها. والتنفير يكون بإبراز جوانب قبحه، عن طريق تمثيله بما هو مكروه للنفوس، أو تُنْفِرُ منه.

٤- إثارة دافع الطمع، أو عامل الخوف لدى المخاطَب، ففي إثارة دوافع الطمع يتجه الإنسان بمحرِّض ذاتي إلى ما يُراد توجيهه له، وفي إثارة عامل الخوف يبتعد الإنسان بمحرّضٍ ذاتي عما يُراد إبعاده عنه.

٥- المدح أو الذم، والتعظيم أو التحقير، وغير ذلك من الأغراض[1]، قال صاحب أسرار البلاغة: «واعلم أن مما اتفق عليه العقلاء أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ونُقلت عن صورتها الأصلية إلى صورته، كساها أُبّهة وكساها منقبة... وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعاء القلوب إليها... فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم وأنبل في النفس...، وإن كان ذماً كان مسُّهُ أوجع ووقعه أشد،... وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر وأدعى للتفكر»[2].

---

(١) انظر: الأمثال القرآنية، تأملات عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، ط١، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، دمشق - سوريا ص٣٧-٨٠.

(٢) أسرار البلاغة، للجرجاني ص١٢٨.

٦- شحذ ذهن المخاطَب، وتحريك طاقاته الفكرية، أو استرضاء ذكائه، لتوجيه عنايته حتى يتأمل ويتفكر ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكير الصحيح والقياس السليم والأمثال التي يَدفع إليها هذا الغرض إنما يُخاطب بها الأذكياء، وأهل التأمل والنظر والبحث العلمي، وكبراء القوم[1].

٧- التوسع في الحديث من غير أن يفقد الحديث رونقه أو وقعه الحَسن على الأسماع[2] لزيادة الإفهام والتذكير.

عموماً لقد أجمل الزمخشري[3] مكانة وأهمية الأمثال قائلاً: «هي قصارى فصاحة العرب العرباء، وجوامع كلمها، ونوادر حِكَمِها، وبيضة منطقها، وزبدة جواهرها وبلاغتها، التي أعربت بها القرايح السليمة، حيث أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى، وقصرت العبارة فأطالت المغزى، ولوَّحت فأغرقت في التصريح، وكنَّت فأغنت عن الإفصاح»[4]... وقال: إن «الأمثال والتشبيهات هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار، حتى تبرزها، وتكشف عنها،

---

(١) البلاغة العربية، للميداني ١/ ٧٧ بتصرف.

(٢) الأمثال في القرآن، للدكتور محمد جابر الفياض ص٨٦.

(٣) هو: محمود بن عُمر بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب، ولد في زمخشر عام ٤٦٧هـ، وزمخشر من قرى خوارزم، سافر إلى مكة فجاور بها زمناً، فلقب بجار الله، وتنقل في البلدان ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفي فيها عام ٥٣٨هـ. له مؤفات منها (الكشاف) في التفسير، و(أساس البلاغة) و(الفائق في غريب الحديث) و(المستقصي في الأمثال) وغيرها كثير. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان ٢/ ٨١. و: الجواهر المضية، لأبي محمد الحنفي ٢٨/ ١٦٠.

(٤) الأمثال في القرآن ص٨٨ نقلاً عن الزمخشري من مخطوطته بعنوان (المستقصى في الأمثال)، دار الكتب المصرية، رقم ١٤٢٣هـ أدب ص٣-٤ (ولم أعثر على المرجع الأصلي).

وتصورها للأفهام، فتريك المتخيَّل في صورة المتحقق، والمتوهَّم في معرض المتيقَّن، والغائب كأنه مشاهد، وفيها تبكيت للخصم الألد، وقمعٌ لسورة[١] الجامح الأبي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين.. من الأمثال[٢].

ونظراً لإسهام الأمثال في توضيح المعاني فقد تراضاها العامة والخاصة، في لفظها ومعناها، وصارت تُحكى على ألسنة الناس، ويتداولها جميع طبقات المجتمع، ليصوِّروا بها جميع أحوالهم في حياتهم بصورة مختصرة.

وغالباً ما تكون الأمثال وليدة البيئة التي نشأت فيها، وخلاصة تجارب بشرية لعشرات السنين ومئاتها، فهي من أقدم فنون الأدب العربي.

إن المثل عبارة عن «قول قصير يشهد لصاحبه بالذكاء والحكمة»[٣] يُعين الإنسان على فهم حياته وتلخيصها لمن بعده، أو اقتباسها ممن سبقه وعاصره، ويحقق له تصوير ما عجز عن فهم حقيقته، وإدراك تفاصيله، مكتفياً بالصورة الواضحة الدقيقة».

**ب ـ ضرب الأمثال في القرآن الكريم، وبيان خصائصها:**

ورد ضرب الأمثال في القرآن الكريم كثيراً، وجاء لمعان عدة ذكرها أهل التفسير، منها:

---

(١) سورة: السُّور هو حائط المدينة، والسُّورة هي المنزلة وكل ما كان مرتفعاً، لسان العرب، لابن منظور ٦/ ٤٢٦-٤٢٧.

(٢) الكشاف ١/ ١٠٩ بتصرف.

(٣) الأمثال في القرآن الكريم، للفياض ص٩٠، نقلاً عن الدكتورة نبيلة إبراهيم محمد، من كتابها (أشكال التعبير في الأدب الشعبي)، مطبعة العالم العربي، ط (بدون)، د.ت ـ مصر ص١٤٤، (ولم أعثر على المرجع الأصلي)

التبيين، والتمثيل، والجَعْل، والوَصْفُ، والذِّكر، والوضع، والاعتماد، والاتخاذ، والإيراد، والتشبيه[١] وقسَّم أهل البلاغة أمثال القرآن إلى أمثال كامنة وظاهرة، وأمثال طويلة وقصيرة، وأمثال قصصية، وغير ذلك[٢]، وقد عالجت أمثال القرآن السلوك الإنساني إزاء رسالة الله، وجاء صنف آخر منها للحديث عن ملكوت الله ومخلوقاته.

وإذا كان من خصائص الأمثال بشكل عام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحُسن التشبيه، وجودة الكناية، وليس هناك ما هو أوقع منها في الأسماع، وأشد تأثيراً في النفوس، وأسهل حفظاً وتذكراً في العقول، حتى ذاعت وانتشرت على ألسن العامة والخاصَّة في كل زمان ومكان، فإن من خصائص الأمثال القرآنية ـ إضافة لما سبق ـ :

١ - دقة التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية.

٢- التصوير المتحرك الحي الناطق، ذو الأبعاد المكانية والزمانية، والذي تبرز فيه المشاعر النفسية والوجدانية، والحركات الفكرية للعناصر الحية في الصورة.

٣- صدق المماثلة بين الممثَّل به والممثَّل له، وشدة الارتباط بالواقع المحسوس.

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في (الأمثال في القرآن الكريم)، للدكتور محمد جابر الفياض ص٦٧ وما بعدها، و(الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي ٢/ ١٠٤١-١٠٤٧ (النوع السادس والستون في أمثال القرآن).

(٢) انظر في ذلك:

أ ـ الإتقان، للسيوطي ٢/ ١٠٤١-١٠٤٧.

ب ـ الأمثال القرآنية، للميداني ص٢٥-٣٦.

٤- التنويع في عرض الأمثال، مرَّة بالتشبيه، ومرَّة بالعرض المفاجئ، وبالتمثيل البسيط، وأخرى بالتمثيل المركّب الذي يطابق كلُّ جزء منه جزءاً من الممثَّل له، وأخرى بالتمثيل المركَّب الذي يُنتزع منه وجه الشبه بنظرة كلية عامة.

٥- البناء على المثَل والحكم عليه كأنه عين الممثَّل له، على اعتبار أن المثل قد كان وسيلة لإحضار صورة الممثّل له في ذهن المخاطَب ونفسه، وإذ حضَرت صورة الممثَّل له ولو تقديراً، فالبيان البليغ يستدعى تجاوز المثَل، ومتابعة الكلام عن الممثَّل له، وتسقط صورة المثل لتبرز القضايا المقصودة.

٦- قد يُحذف من المثل القرآني مقاطع معينة اعتماداً على ذكاء أهل الاستنباط، وقد تُحذف من الممثَّل له مقاطع أيضاً، ويبقى في دلالات الألفاظ أو لوازم المعاني ما يدل على المحذوف[1]. للذين يطلبون من كل صورة معناها، ويأخذون من كل قشر لبابها، ويَعْبُرون بظاهر كل حديث إلى باطنه وسرِّه ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

(البقرة: ٢٦).

لقد ضرب الله الأمثال في القرآن الكريم وقال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر: ٢١)، وقال أيضاً: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الزمر: ٢٧)، وقال سبحانه:

---

(١) انظر: الأمثال القرآنية، للميداني ص٨١-١٠٠.
والبلاغة العربية، لنفس المؤلف ١/ ٧٨-٧٩.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٣)، قال السعدي: «والسبب في ذلك: أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن إنما هي للأمور الكبار والمطالب العالية والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها لاعتناء الله بها، وحثّه على تعقلها وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها..»[1].

قال ابن القيم رحمه الله: «قد ضرب الله الأمثال وصرَّفها قدراً وشرعاً... ودلَّ عباده على الاعتبار بذلك، وعبورهم من الشيء إلى نظيره، واستدلالهم بالنظير على النظير... واعتبار المعقول بالمحسوس»[2].

ودلالة ضرب الأمثال الدَّالة على حُسن التوحيد وقُبح الشرك المستقر في الفِطَر والعقول من أعظم الأدلة الواردة في القرآن الكريم، فهي شرعية عقلية كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هي شرعية لأن الشرع دلَّ عليها، وأرشد إليها، وعقلية لأنها تُعلم صحتها بالعقل، ولا يقال إنها لم تُعلم إلا بمجرَّد الخبر، وإذا أخبر الله بالشيء ودلَّ عليه بالدلالات العقلية صار مدلولاً عليه بدليله العقلي الذي يُعلم به، فيصير ثابتاً بالسمع والعقل، وكلاهما داخل في دلالة القرآن التي تُسمَّى الدلالة الشرعية»[3].

---

(١) تفسير السعدي ص٦٨٨.

(٢) إعلام الموقعين ١/ ٢٠٧ بزيادة يسيرة.

(٣) مجموع الفتاوى ٦/ ٧١-٨٢ باختصار.

### ج ـ اعتراض الكفار على بعض الأمثال القرآنية المضروبة والرد عليهم:

ذكر المفسِّرون أن فريقاً من المنافقين وفريقاً من المشركين وفريقاً آخر من اليهود اعترضوا على بعض الأمثال القرآنية، وهي التي ضرب الله فيها مثلاً بالذباب، والعنكبوت، والنحل، والنمل، ونحو ذلك. فقالوا: لا يليق ذكر مثل هذه المحقَّرات بكلام البُلغاء[1]، واتخذوا ذلك حجة للطعن بصحة نسبة القرآن إلى الله تعالى.

وقد ردَّ الله عزوجل عليهم هذه الشبهة بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (البقرة: ٢٦) فأكد الله تعالى في هذه الآية أنه لا يستحيي أن يضرب مثلاً، أيَّ مثَل، سواء أكان هذا المثل بعوضةً أو شيئاً آخر فوقها ـ أو دونها ـ لأن الله تعالى:

١- يقول الحق، والله لا يستحيي من الحق، وخاصة حين يكون التمثيل بالمخلوقات التي يراها الناس في أعينهم حقيرة طريقاً قريباً لبيان الحق، فليس في ذكرها والتمثيل بها ما يدعو إلى الاستحياء.

٢- قد خلق جميع الكائنات الحيَّة، من أدناها إلى أرقاها، وجعل في كل نوع منها أدلة كثيرة على كمال قدرته وعلمه وحكمته ـ كما سبق شرحه[2] ـ ووجَّه

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري ١/ ٢٠٤، وفتح القدير للشوكاني ١/ ١٤٦، والتحرير والتنوير لابن عاشور ١/ ٣٥٣.

(٢) راجع ص٧٩٠ وما بعدها.

أنظار الناس ليتفكّروا في خلقها، ويتأمَّلوا في إتقان صنعها، ليتعرفوا بذلك على خالقها وخالقهم وخالق كل شيء، فكما أنه سبحانه لم يستحيي من خلقها وجَعْلِها آية للناس على ربوبيته فعلام يستحيي من ذكرها والتمثيل بها.

٣- جعل في هذه المخلوقات وأمثالها مما يحتقره الناس آيات مدهشات على عظمة الخالق سبحانه، وكثير من أسمائه وصفاته كما سبقت الإشارة لبعضه[1] ـ واستحقت هذه المخلوقات البحث والتأمل والنظر، وارتقت في العصر الحديث إلى مستوى الدراسات العلمية المستفيضة الجادَّة، وكتب فيها العلماء حالياً الكتب الكثيرة وأصدروا فيها الأفلام والسيديهات البديعة، بل قرَّروا كثيراً من ذلك كمناهج دراسية لطلاب المدارس والجامعات، ولا زال العلماء يدرسون ويسجلون خصائص هذه المخلوقات وأنواعها وصفاتها وسلوكها.. إلخ، فلم يعد التمثيل بها لدى كبار علماء العصر الحديث أمراً مستنكراً ولا مستهجناً، بل صار مدعاة لتوجيه الاهتمام بشأنها واكتشاف آيات الله فيها للاستدلال عليه سبحانه.

٤- يُبيِّن لنا أن استنكار الكفار للتمثيل بالحشرات ـ ومنها الذباب ـ إنما كان ناشئاً عن جهل أو تجاهل منهم قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ (البقرة: ٢٦) ذلك أن الذين آمنوا يؤمنون بالكتاب كله، ويعلمون أنه الحق من ربهم والكفار على غير ذلك تماماً.

وأن إنكار المشركين لضرب هذه الأمثلة سببه ما وقع منهم من كفر بالقرآن وبمصدره الرحمن، فجعل الله هذا القرآن بأمثلته التي اعترض عليها المشركون

---

(١) راجع ص٨١٧.

ابتلاء وفتنة يتحقق به إضلال كثير منهم ـ وما يضل به إلا الفاسقين- وهو كذلك سبب في هداية كثير من الناس.

### د ـ نماذج من الأمثال القرآنية والأقيسة العقلية التوحيدية:

تبيَّن من خلال حصر واستقراء ما أمكن من أمثلة القرآن المتعلقة بالتوحيد أنها تنقسم إلى الأنواع الثلاثة الآتية:

## النوع الأول: الأمثلة القرآنية المتعلقة بالتوحيد والشرك:

ضرب الله الأمثال القرآنية في هذا الموضوع تارة لبيان نفع كلمة التوحيد واستقرارها مقابل ضرر كلمة الشرك وعدم ثباتها[١]، وتارة لبيان حُسن التوحيد مقابل قُبح الشرك المستقر في الفِطَر والعقول السليمة[٢]، وتارة لبيان علو التوحيد وشرفه ودُنُوّ الشرك وهُوِّي صاحبه إلى أسفل سافلين[٣]، وتارة أخرى بتمثيل الإيمان والإسلام بالعروة الشديدة الإحكام القوية الارتباط[٤]، وتارة بتمثيل الصراع المعنوي بين التوحيد والشرك والحق والباطل وانتصار الحق عليه بحججه القوية بصورة قذيفة تحطِّمه فتصل إلى جوفه[٥]، أو بصورة سيل غامر يجرف أكوام الزبد المتناثر المتميِّز عن جواهر معادنه الأصلية[٦]، وغير ذلك.

---

(١) كما في سورة إبراهيم: ٢٤-٢٦.

(٢) كما في سورة النحل: ٧٥-٧٦، والروم: ٢٨، والزمر: ٢٩.

(٣) كما في سورة الحج: ٣١.

(٤) كما في سورة البقرة: ٢٥٦، ولقمان: ٢٢.

(٥) كما في سورة الأنبياء: ١٨.

(٦) كما في سورة الرعد: ١٧.

وللتوضيح لذلك نقتصر هنا على شرح تمثيل القرآن لكلمة التوحيد وكلمة الشرك فقد ضرب الله مثلاً لكلمة التوحيد وشبَّهها بالشجرة النافعة المثمرة، المستقرة في الأرض، المرتفعة إلى السماء، وبالعكس كلمة الشرك فهي كشجرة ضارة غير مفيدة ليس لها قرار، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝ ﴾

(إبراهيم: ٢٤-٢٦).

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في معنى ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾: شهادة أن لا إله إلا الله[١]، ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وهو المؤمن، ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ أي: لا إله إلا الله ثابتة في قلب المؤمن ﴿ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي: يُرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ألم تر يا محمد بعين قلبك فتعلم كيف مثَّل الله مثلاً، مثَّل الإيمان بالله تعالى بشجرة طيبة الثمرة التي تُطعم ما يؤكل منها من ثمرها بإذن ربها، ويمثل الله الأمثال للناس ليتذكروا حجة الله عليهم فيعتبروا بها ويتعظوا فينزجروا عما هم عليه من الكفر إلى الإيمان[٢].

---

(١) وهذا قول أكثر المفسرين.

انظر في ذلك: تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٦٧، وفتح القدير ٣/ ١٤٥، وتفسير المراغي ١٣/ ١٤٨.

(٢) جامع البيان ١٣/ ٢٤٣ بتصرف يسير.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : «كلمة الشرك ليس لها أساس ثابت، ولا فرع ثابت، إذ كانت باطلة كأقوال الكاذبين وأعمالهم، بل هي أعظم الكذب والافتراء»[١]. وخاصَّة ما وقع منهم من الشرك بالله عز وجل، وزعمهم شركاء له سبحانه وتعالى.

وقال ابن القيم: الكلمة الطيبة ... تثمر العمل الصالح الناتج عن الإيمان والإخلاص، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسِّرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة هي شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تثمر الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضيٌّ لله عزوجل ثمرة هذه الكلمة[٢].

وإذا تأملنا هذا التمثيل القرآني لكلمة التوحيد وكلمة الشرك بالشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة لوجدنا أن المثل الأول ضربه الله لترغيب النفوس بالتوحيد، بتزيينه لها وإبراز جوانب حُسنه عن طريق تمثيله بما هو محبوب للنفوس مرغوب لديها ـ الشجرة المثمرة النافعة ـ وأن المثل الثاني ضربه الله لتنفير النفوس عن الشرك، بإبراز جوانب قُبحه عن طريق تمثيله بما هو مكروه للنفوس، أو تَنْفُر منه ـ الشجرة الضارة ـ .

فالمثال الأول: يدفع لاكتساب الكلمة الطيبة ـ كلمة التوحيد ـ .

والمثال الثاني: يصرف الناس عن الكلمة الخبيثة ـ كلمة الشرك ـ مهما تجمَّعت الدواعي لذلك.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٦/ ٥٧٧.

(٢) إعلام الموقعين ١/ ١٨١ بتصرف.

إن كلمة التوحيد الطيبة في قلب المؤمن هي كشجرة طيبة مزروعة في أرض طيبة، ذات جذور وأصول ثابتة، متغلغلة في عمق الأرض، وذات فروع ممتدة إلى السماء، وهي شجرة مثمرة لا ينقطع ثمرها النافع في أي فصل من فصول العام، فهي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

فأصلها الثابت هو الإيمان بالله والإخلاص له وحده، وفروعها الممتدة إلى السماء هي بلوغها مستوى القبول عند الله، وأُكُلها أو ثمرها هو ما يجنيه صاحبها من خيرٍ في الدنيا وأجر في الآخرة بسبب توحيده لله، وهكذا كل كلمة طيبة لها ثمارها في الدنيا والآخرة، ثمار يجنيها صاحبها وثمار أخرى يجنيها من حوله.

إن الكلمة الطيبة تدل على كمال ورجاحة عقل مكتسبها وباذلها وتدل على حصافته.. وفي مقابل الكلمة الطيبة تأتي الكلمة الخبيثة، وفي مقابل مثل الكلمة الطيبة يأتي مثل الكلمة الخبيثة. فمثَل كلمة الشرك الخبيثة كمثل شجرة ضارة مؤذية، قد قُطعت من فوق الأرض، واستُئصِلت كل صِلةٍ جذريةٍ لها بالأرض، فليس لها قرار تثبت فيه وتستمد منه، حتى يكون لها نماء أو نفع. وهذا المثل الذي يُنفِّر العقلاء من الكلمة الخبيثة يرسم صورة لشجرة خبيثة قد لا يكون لأمثالها وجود مشهود للناس، ولا يضر ذلك، إذ يكفي أن يُصوِّر المثل للأذهان المعالم المميِّزة لهذه الشجرة الخبيثة الضارة.

فهي أولاً خبيثة، أي ضارة ليست بنافعة، وهي مكروهة المنظر والرائحة، وتُؤذي كل من يقترب منها أو تضره.

وهي أيضاً ليس لها فروع نامية في السماء لينتفع غيرها بظلها أو حطبها، وليس لها أُكل يستفيد منه إنسان أو حيوان.

وكذلك الكلمة الخبيثة هي مؤذية أو ضارة، وليس لها جذور من الخير حتى تمدها بقوى النماء، فهي مقطوعة الصلة بكل ما يحقق بقاءها ونموها.

إن الكلمة الخبيثة ـ كلمة الشرك ـ مؤذية للأسماع، مفسدة للعقول، يشمئز منها العقلاء كما يشمئز المشركون تماماً من كلمة التوحيد، وهي كالشجرة الخبيثة ذات الشوك التي تعرقل السير وتؤذي المارَّة، وهي تدل على هبوط مستوى قائلها وحاملها، وقلة عقله، وخُبث نفسه[١].

وهكذا نجد القرآن ينتزع صورة هذا المثل من واقع الناس المشاهَد المحسوس، مع إضافة شيء من الخيال بالنسبة إليهم، وهي بالنسبة إلى ما خلق الله منتزعة من الواقع.

## النوع الثاني: الأمثلة القرآنية المتعلقة بالواحد الأحد وبالمعبودات من دونه:

ضرب الله الأمثال القرآنية في هذا الموضوع تارة لبيان اختلاف الخالق المالك المتصرِّف في كل شيء عن آلهة المشركين العاجزة عن أي شيء[٢].

وتارة لبيان خلوها من الحياة والحركة[٣]، وتارة لبيان فقدانها للوازم الربوبية، وافتقارها لمؤهلات الألوهية[٤]، وتارة لبيان ضعفها عن خلق أحقر الحشرات[٥]،

---

(١) الأمثال القرآنية، للميداني ص٥٥-٥٧ بتصرف.

(٢) كما في سورة النحل: ٧٥.

(٣) كما في سورة الأعراف: ١٩٥.

(٤) كما في سورة الأعراف: ١٩٤.

(٥) كما في سورة الحج: ٧٣-٧٤.

وتارة للتأكيد على أنها مخلوقة لا خالقة[١]، وتارة أخرى لبيان أن آلهة المشركين لا تفهم ولا تُفهِم ولا تقدر على نفع نفسها ولا غيرها بل هي عِبء ثقيل على عُبَّادها[٢].

واقتصر هنا على شرح تمثيل القرآن وبيانه لشدة عجز وضعف آلهة المشركين وإن كان قد سبق الحديث عن تشبيه القرآن لآلهة الكفار وعابديها بالعنكبوت وبيتها الضعيف[٣] لكني أتحدث هنا عن بيان القرآن لشدة ضعف آلهة الكفار من كل الوجوه، وكذا عجز عابديها عن جلب أي نفع ودفع أي ضر، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الحج: ٧٣، ٧٤) قال ابن القيم رحمه الله: «حقيق لكل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثَل ويتدبره حق تدبُّره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو أكبر منه؟! ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً ... فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف

(١) كما جاء في شأن عيسى عليه السلام حيث اتخذه النصارى إلهاً فردَّ الله عليهم ذلك في سورة آل عمران: ٥٩.

(٢) كما في سورة النحل: ٧٦، والأعراف: ١٩٧. وانظر سورة العنكبوت: ٤١.

(٣) راجع ص٣٦٧.

الحيوانات، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلَبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟!

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه للدلالة على بطلان الشرك، وتجهيل أهله، وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة، حيث أعطوا الإلهية التي من لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات، والغِنى عن جميع المخلوقات، وأن يُصمد إلى الرب في جميع الحاجات وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإجابة الدعوات فأعطوها صوراً وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الإله الحق، وأذلها وأصغرها وأحقرها، ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه»[1].

وإن مما يؤكِّد شدة عجز آلهة الكفار وانتفاء إلهيتها ـ حسب المثل المذكور ـ أن هذا المخلوق ـ الذباب ـ الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئاً واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك ولم يقدروا عليه، ثم سوَّى سبحانه بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله: ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ قال سيد قطب عن المثَل السابق: «إنها صورة مثَل معروض للأسماع والأبصار، مصوَّر في مشهد شاخص متحرِّك، تتملاَّه العيون والقلوب... مشهد يرسم الضعف المزري ويُمثِّله أبرع تمثيل... هذا المثَل يضع قاعدة، ويقرر حقيقة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾ ... كل من تدعون من دون الله، من آلهة مدَّعاة، من أصنام

---

(١) إعلام الموقعين ١/ ١٩٧-١٩٨ باختصار.

وانظر: الصواعق المرسلة، لنفس المؤلف ١/ ٤٦٦-٤٦٧.

وأوثان، ومن أشخاص وقيم وأوضاع... والأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يُلقي في الحِسِّ ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق غيره ـ كالجمل والفيل ـ دون أن يُخِلَّ هذا بالحقيقة في التعبير... وقد اختير الذباب أيضاً وهو ضعيف حقير، وهو في الوقت ذاته يحمل أخطر الأمراض ويسلبُ أغلى النفائس: يسلب العيون والجوارح وقد يسلب الحياة والأرواح... ويسلب ما لا سبيل إلى استنقاذه وهو الضعيف الحقير!

وهذه حقيقة أخرى كذلك يستخدمها الأسلوب القرآني المعجِز... ولو قال وإن تسلبهم السِّباع شيئاً لا يستنقذوه منها... لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعف، والسِّباع لا تسلب شيئاً أعظم مما يسلبه الذباب! ولكنه الأسلوب القرآني العجيب»[١].

وهكذا يكشف الله عجز آلهة الكفار الذين زعم المشركون أنها شركاء لله فعبدوها بغير حق.

إن القرآن قد ضرب المثال السابق وا ختاره من بين غيره من آلاف بل ملايين الأمثلة لحكمة مقصودة، فالذباب لا قيمة له ولا وزن عند أحدٍ من الناس، وهو يعاشر الخلق في ليلهم ونهارهم، وعلى طعامهم وشرابهم، فهو معهم في كل أوقاتهم وأحوالهم، وهم يتأذّون منه، ويذبُّونه، ويقتلونه، لكنهم في نفس الوقت يعجزون عن التحكم بالأشياء الدقيقة الصغيرة جداً التي يحس الذباب بها، ويقبض عليها، ويسلبهم إياها، ويُحلِّلها، ويُحيلها إلى مواد أخرى في نفس اللحظة[٢]،

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٤٤ بتصرف.

(٢) انظر: ما نقله الميداني عن الباحث مصطفى محمود في كتابه (الأمثال القرآنية) ص١١٥ في شأن اكتشاف العلم الحديث للمعاني العلمية للآية.

تعجز أبصارهم عن رؤيتها، وتضعف حواسهم عن إدراكها، وتخور جوارحهم ـ هم وآلهتهم ـ دون استرجاعها، فكيف يتخذ المشركون شركاء لله على هذه الهيئة من شدة العجز والضعف التي تتنافى مع صفتي الربوبية والألوهية؟

إن هذا الأمر مرفوض بداهة في منطق التفكير السليم والعلم الصحيح[١].

## النوع الثالث: الأمثلة القرآنية المتعلقة بحال الموحِّدين، وأحوال المشركين:

ضرب الله الأمثال في هذا الموضوع تارة لبيان حال المؤمنين الموحِّدين وما هم فيه من انشراح الصدر مقابل المشركين وما يعانونه من ضيق وهموم[٢]، وتارة لتوضيح حال الموحِّد الذي يسير على هدى مقابل المشرك الذي يسير منكِّساً رأسه عن الحق[٣]، وتارة لتمثيل المعرضين عن دعوة التوحيد بالحيوانات النافرة التي أصابها الذعر[٤] وتارة أخرى لتصوير حال المشركين بعد إهلاك الله لهم بسبب شركهم[٥]، وتارة أخرى لتشبيه حال المتعامين عن التوحيد والمقبلين عليه بحال الأعمى عن الحقيقة والمبصر لطريقه في الواقع[٦]، وتارة أخرى لبيان استقامة حال الموحِّدين مع نور الإيمان مقابل تخبط المشركين في ظلمات

---

(١) الأمثال القرآنية، للميداني ص١١٤-١١٥ بتصرف.

(٢) كما في سورة الأنعام: ١٢٥.

(٣) كما في سورة الملك: ٢٢.

(٤) كما في سورة المدثر: ٤٩-٥١.

(٥) كما في سورة الحاقة: ٥-٨.

(٦) كما في سورة الرعد: ١٦، ١٩، وفاطر: ١٩، ٢٣، وفصلت: ١٧.

الشرك[1]، وتارة لشرح شدة صمم المشركين عن دعوة التوحيد وعدم تحريكها أي ساكن فيهم وكأنهم موتى لا حِراك فيهم[2]، وتارة أخرى لتشبيه المشركين الذين لا ينتفعون بجوارحهم بالأنعام التي ليس لها من أسماعها وأبصارها وعقولها إلا إدراك الظاهر فقط دون الباطن[3]، وتارة لبيان أن الأكرم للإنسان أن يكون عبداً لإله واحد هو الله عز وجل[4]، وتارة لبيان أن دعاء الكافرين لآلهتهم لا ينفعهم بشيء[5] وتارة للمقارنة بين قلوب الموحِّدين المستجيبة للمواعظ ودعوة التوحيد وقلوب غيرهم التي ليست كذلك[6]، وتارة لتشبيه التاركين للهدى والتوحيد والآخذين بالضلالة والشرك بمن يشتري الكفر بالإيمان في سوق التجارة[7]، وتارة لبيان شدة إهلاك الله للمشركين وقراهم[8] وتارة لبيان استحالة دخول المشركين الجنة[9]، وغير ذلك[10].

---

(١) كما في سورة البقرة: ٢٥٧، والأنعام: ١٢٢، وإبراهيم: ١، ٥، والأحزاب: ٤١-٤٣، والحديد: ٩، والطلاق: ١٠-١١.

(٢) كما في سورة الروم: ٥٢-٥٣.

(٣) كما في سورة الأعراف: ١٧٩، والفرقان: ٤٤، ومحمد: ١٢.

(٤) كما في سورة الزمر: ٢٩.

(٥) كما في سورة البقرة: ١٧١، والرعد: ١٤.

(٦) كما في سورة البقرة: ٧٤.

(٧) كما في سورة آل عمران: ١٧٧. وكما في سورة البقرة: ١٦، ٨٦، ٩٠.

(٨) كما في سورة الأنبياء: ١١-١٥.

(٩) كما في سورة الأعراف: ٤٠.

(١٠) كتعليم الله لرسوله ﷺ والمؤمنين كيفية الرد على المشركين الذين يدعونهم لعبادة آلهتهم مما جاء في سورة الأنعام: ٧١.

وأكتفي هنا بشرح تمثيل القرآن لحال الإنسان عندما يسقط في الشرك، كما هو حال المشركين بالله، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج: ٣١) ففي هذا المثال شبَّه سبحانه التوحيد في علوه وارتفاعه وسعته وشرفه وصفائه بالسماء العالية الواسعة الصافية، وشبَّه تارك التوحيد ـ المشرك ـ بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين، لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر.

وشبَّه الشياطين التي تقلقه بالطير التي تمزِّق أعضاءه.

وشبَّه هَوَاهُ الذي يُبعده عن الحق بالريح التي ترمي به في مكان بعيد[1].

قال الزمخشري: «يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركَّب والمفرَّق: فإن كان تشبيهاً مركَّباً، فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية، بأن صوَّر حاله بصورة حال من خرَّ من السماء فاختطفته الطير فتفرَّق مزعاً في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوِح البعيدة.

وإن كان مفرَّقاً، فقد شبَّه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطِفة، والشيطان الذي يُطوِّح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوِي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلِفة»[2].

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، للدكتور/ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، دار الذخائر، ط (بدون) ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، الدمام ـ السعودية ص٣١.

(٢) الكشاف ٣/ ١٥٧.

وهكذا نجد القرآن يصوِّر حالة التمزق النفسي الذي يعتري كلَّ مشرك بربه، ويصوِّر النهاية التعيسة التي ينتهي إليها حاله، فحالة المشرك في شركه تشبه حالة من سقط من السماء العالية، لأن الله تعالى الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم قد رفعه إلى مرتبة العبودية لله، وطلب منه التوحيد، فاختار الإنسان بإرادته أن يشرك بربه، وأن يجعل نفسه عبداً لمن هو مثله أو أدنى منه، فسقط من مرتبته، وبسقوطه انتكس على رأسه.

لقد جاء المثل القرآني لمحاكاة واقع المشرك بواقع الساقط من علوٍّ تماماً، ولو قمنا بتحليل المثال السابق لوجدنا الآتي:

أ ـ في هذا المثل تمثيل أمر معنوي بمدَرك بالحس الظاهر.

ب ـ صورة هذا المثل صورة منتزعة من الواقع والخيال معاً.

ج ـ في هذا المثل دقة التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية، وترك الباقي ليستكمله ذهن المخاطَب.

د ـ في هذا المثل يتجلَّى التصوير المتحرك الحيِّ، الذي تبرز فيه المشاعر النفسية.

هـ- في هذا المثل صدق المماثَلة بين المثل والممثَّل له.

و ـ الظاهر من غرض ضربه هو تقريب صورة الحالة النفسية التي يكون عليها المشركون، والتعريف بحقيقة انتكاسهم، والتنفير الشديد من الشرك[1].

(١) الأمثال القرآنية، للميداني ١٠٨-١٠٩ بتصرف.

## ثانياً: أسلوب التعريض[1]:

عرّف علماء البلاغة العربية التعريض اصطلاحاً بقولهم: «هو اللفظ الدال على شيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي، ولا المجازي. أو هو المعنى الحاصل عند اللفظ لابه. أو هو المعنى المدلول عليه بالقرينة دون اللفظ، فبذكره يتم التنبيه على ضده أو شبهه أو غير ذلك[2]. وقد يُراد بالتعريض المعنى الحقيقي للكلام، وقد لا يُراد.

إذاً التعريض عبارة عن إشارة خفية لأمر ما دون التصريح به، وقد يكون بضرب الأمثال، وذكر الألغاز في جملة المقال، وله أغراض ـ هي نفس أغراض الكناية[3] كما ذكر أهل اللغة العربية والعارفون بالبلاغة ـ ومن هذه الأغراض:

١- إيثار الأسلوب غير المباشر في الكلام، إذا كان مقتضى الحال يستدعي ذلك.

٢- كون التعبير المعرَّض به يُنَبِّه على معنى لا يؤديه اللفظ الصريح المكنَّى عنه.

٣- كون المعرَّض به أجمل عبارة، وأعذب لفظاً من المكنَّى عنه.

---

(١) التعريض لغة: (خلاف التصريح وهو أن تقول كلاماً لا تصرِّح فيه بمرادك منه، لكنه قد يشير إليه إشارة خفية، وأعراض الكلام ومعارضه ومعاريضه: كلام غير ظاهر الدلالة على المراد) أ.هـ لسان العرب، لابن منظور ٩/ ١٤٩ مادة: عرض.

(٢) الطراز، لابن حمزة ١/ ١٩٣-١٩٤.

(٣) مع وجود فرق بين التعريض والكناية، انظر ذلك في:

أ ـ الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني ص٢٨٠-٢٨٥.

ب ـ الطراز، لابن حمزة ١/ ١٩٥-٢١٩.

٤- كون المكنَّىَ عنه مما يَحْسُن ستره، ويقبُح في الأدب الرفيع التصريح به، إذ هو من العورات، أو من المستقذرات، أو من المستقبحات.

٥- إرادة إيضاح المكنَّى عنه بما في المكنَّى به من توضيح له.

٦- إرادة بيان بعض صفات المكنَّى عنه مع الاختصار، بالاقتصار على مايُذكر من صفاته لغرضٍ يتعلق بذكرها.

٧- إرادة مدح المكنَّى عنه أو ذمّه بذكر ما يُمدح به أو يُذم به، مع الاقتصار على ذكر اللفظ المكنَّى به.

٨- إرادة صيانة اسم المكنَّى عنه، وإبعاده عن التداول، بذكر ما يدل عليه من ألقاب أو كُنَى أو صفات.

٩- كون المكنَّى به أسهل فهماً من لفظ المكنَّى عنه.

١٠- إرادة التعمية والإلغاز، ويكون هذا في الكنايات التي يصعب على غير الأذكياء اللمَّاحين إدراك المقصود بها[١].

١١- وفي التعريض مزيد إخفاء يجعله أكثر قبولاً حينما يكون التصريح مثيراً لغضب، أو نقد، أو اتهام، أو عَذْلٍ وتلويم، أو يكشف أمراً يجب ستره عن الرُّقَباء، فيقوم التعريض مقام الإلغاز والرمز الخفي.

والآن لنأخذ مثالاً من أمثلة القرآن التوحيدية التي عرَّض الله فيها بمخاطر الشرك وعاقبته الوخيمة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الزمر: ٦٥).

---

(١) البلاغة العربية، للميداني ٢/ ١٤٣-١٤٥.

من المعلوم قطعاً أن الرسول ﷺ ـ معصوم مما هو أدنى من الشرك، ومن باب أولى عصمته من الشرك ـ وإلا فكيف يصطفيه الله رسولاً لدعوة الثقلين إلى التوحيد، وكذا بقية الرسل عصمهم الله من الإشراك به بل مما هو دونه، لكن الآية عبارة عن خطابٍ بصريح العبارة لرسول الله ﷺ، والمراد بذلك: التعريض لكل من آمن به واتبعه، أن يحذروا من الشرك لئلا تحبط أعمالهم ويكونوا من الخاسرين.

وهذا التعريض أبلغ من مواجهة غير الرسول ﷺ بصريح الخطاب، وذلك لأن الرسول ﷺ إذا كان لا يملك لنفسه الحماية من أن يحبط عمله ويكون من الخاسرين إذا هو أشرك، وهو ذو المكانة العالية عند ربه، والمحظوظ بالاصطفاء، فكيف يكون حال سائر الناس الذين ليس لهم عند ربهم مثل ذلك لو أشركوا به.

ومن أمثلة التعريض في القرآن كل ما جاء فيه من نحو قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الرعد: ١٩) و﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس: ٢٤) و ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٧) وغيرها من الآيات التي تتحدث عن وظائف العقل المطلوبة منه[1].

ففي تلك النصوص تعريض بالكافرين الذين لا يتعظون بآيات الله القرآنية والكونية ـ الموصِّلة إلى التوحيد ـ ولا ينتفعون بها، حيث عرَّض الله بأنهم لا ألباب لهم، ولا يتفكرون، ولا يفقهون،... إلخ، دون أن ينص على هذه المعاني صراحة، إنما تُفهم عن طريق الإشارة والتلميح.

---

(١) راجع ص١١١.

## ثالثاً: أسلوب الاستعارة[١]:

الاستعارة أحد نوعي المجاز[٢]. ولها عدة تعريفات اصطلاحية يمكن إجمالها بقولنا:

**الاستعارة اصطلاحاً تعني:** استعمال لفظٍ ما في غير ما وُضِع له لمناسبة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، (لعلاقة المشابَهة)، مع قرينةٍ صارفةٍ عن إرادة المعنى الموضوع له[٣].

وهي من قبيل المجاز في الاستعمال اللغوي للكلام، وأصلها تشبيهٌ حُذِف منه المشبَّه وأداة التشبيه ووجه الشَّبَه، ولم يبق منه إلا ما يدل على المشبَّه به، بأسلوب استعارة اللفظ الدال على المشبَّه به، أو استعارة بعض مشتقاته، أو بعض لوازمه، واستعمالها في الكلام بدلاً عن ذكر لفظ المشبَّه،... وأركان الاستعارة على هذا:

١ - اللفظ المستعار.

---

(١) الاستعارة لغة: «طلب شيء ما للانتفاع به زمناً ما دون مقابل، على أن يرده المستعير إلى المعير. عند انتهاء المدة الممنوحة له أو عند الطلب». أ.هـ. لسان العرب، لابن منظور ٩/ ٤٧١ مادة عور.

(٢) والنوع الثاني: هو المجاز المرسل.

(٣) انظر:

أ- دلائل الإعجاز، للجرجاني ص٣٣٥.

ب- الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني ص٢٤١.

ج- الطراز، لابن حمزة ١/ ١٠٤-١٠٧.

د- الإتقان، للسيوطي ٢/ ٧٧٩-٧٨٠.

هـ- علوم البلاغة، للمراغي ص٢٣٩.

٢- المعنى المستعارمنه، وهو المشبَّه به.

٣- المعنى المستعار له، وهو المشبَّه.

٤- القرينة الصارفة عن إرادة ما وُضع له اللفظ في اصطلاحٍ به التخاطب.

والقرينة دليل، وهي إمّا من المقال أو من الحال، أو عقليٌّ صِرْف،... وقد اختلف البيانيون في شأن الاستعارة هل هي مجاز لغوي أم أنها مجاز عقلي؟ فقيل هذا وقيل ذاك، ولكلٍّ أدلته، ولها تقسيمات لدى أهل البلاغة[1].

والقرآن الكريم قد استخدم أسلوب الاستعارة في تقرير التوحيد، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى ـ آمراً النبي ﷺ بإعلان التوحيد والدعوة إليه ـ: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر: ٩٤) الصَّدع: كسرٌ في الزجاج ونحوه، لكنه لا يبلغ حد الفصل الكامل.

والصَّدع أمر يُدرَك بالحِسِّ الظاهر، وقد استُعير هنا للدلالة به على التبليغ ذي التأثير في النفوس المشابه للتأثير الذي يُحدثه من يصدع الزجاج، وهذا أمر يُدَرك بالفكر، وقد يُحِسُّ به من وُجِّه له التبليغ في وجدانه ومشاعر نفسه. ولما كان التبليغ مَهْمَا كان أسلوبه مؤثراً في النفوس لا يبلغ أن يحقق التحويل الفعلي من الكفر إلى الإيمان، كان تشبيهه بالصدع تشبيهاً دقيقاً جداً.

فالأمر بالتبليغ يتضمن معنى اتخاذ الوسائل المؤثرة في النفوس تأثيراً لا يبلغ مبلغ التحويل، لأن التحوُّل من الكفر إلى الإيمان إنما يكون عن طريق إرادة المتبلِّغ نفسه، وليس من شأن الوسائل أن تصنع تحويلاً، ولكن قد تُوَلِّد إقناعاً أو إلزاماً

(١) انظر تفاصيل ذلك كله في المراجع السابقة.

جدلياً، فتشبيه هذا التأثُّر بالصدع هو بالغ الدقة في التصوير، وجاءت الاستعارة تبعاً لهذا التشبيه[1].

وهكذا استخدم القرآن أسلوب الاستعارة في أمر النبي ﷺ والدعاة بعده بالدعوة للتوحيد.

وبهذا أكون قد انتهيت من شرح استخدام القرآن لعلم البيان في الدعوة للتوحيد، وأنتقل إلى المطلب الثالث:

---

(١) الطراز، لابن حمزة ١/ ١٢٧. و: البلاغة العربية، للميداني ٢/ ٢٥٩.

وللاستزادة انظر: إعجاز القرآن، للباقلاني ص٣٣٦-٣٣٩.

# «المطلب الثالث»

# «استخدام القرآن لعلم البديع[1]»

**علم البديع اصطلاحاً:**

هو علم يُعرف به وجوة تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على وضوح الحال ومقتضى الدلالة.

**أو هو:**

العلم الذي تُعرف به المحسِّنات الجمالية المعنوية، واللفظية المنثورة، التي لم تُلحق بعلم المعاني، ولا بعلم البيان[2].

**ومن البدائع المشتمِلة على محسنات جمالية معنوية:**

التورية، وتُسمَّى (الإيهام) وهي أقسام، فمنها:

الطباق، ومنها: حُسن التعليل، ومنها: تجاهل العارف، ومنها: مراعاة النظر كتشابه الأطراف وتُسمَّى:

«التناسب والتوفيق والائتلاف»، وغير ذلك كثير.

---

(١) البديع لغة: من بَدَعَ فلان الشيء يَبْدَعُهُ إذا أنشأه على غير مثال سبق، فالفاعل للشيء بديع، والشيء المفعول بديع أيضاً.

انظر: لسان العرب ١/ ٣٤١-٣٤٢ مادة بدع.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني ص٢٨٧.

و: الطراز، لابن حمزة ٢/ ١٨٤ و٣/ ٨٤، ١٩٤.

فقد أوصلها الإمام يحيى بن حمزة[(١)] إلى عشرين بديعة لفظية، وخمسٍ وثلاثين بديعة معنوية[(٢)].

وسأقتصر هنا على ذكر نوعين من المحسنات الجمالية المعنوية ونوعين آخرين من المحسنات الجمالية اللفظية.

## أولاً: المحسنات الجمالية المعنوية:

من البدائع المشتملة على المحسنات الجمالية المعنوية، والتي استخدمها القرآن لتقرير التوحيد ما يُسمى بـ:

### أ ـ أسلوب الطباق[(٣)]:

تُسمى هذه البديعة: بالمطابقة والتكافؤ والتضاد.

---

(١) هو: الإمام المؤيد بالله يحي بن حمزة بن علي.. يمتد نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، ولد بمدينة صنعاء في ٢٧ صفر سنة ٦٦٩هـ، واشتغل بالمعارف العلمية وهو صبي، فأخذ في جميع أنواعها عن أكابر علماء الديار اليمنية، وتبحّر في جميع العلوم، وفاق أقرانه، له مصنفات مختلفة في النحو والفقه وأصول الدين والبلاغة وغيرها، قيل أنها بلغت مائة مجلد، وهو من أكابر أئمة الزيدية، وله ميل إلى الإنصاف، مع طهارة لسان وسلامة صدر وعدم إقدام على التكفير والتفسيق بالتأويل، وهو كثير الذب عن الصحابة... وعن أكابر علماء الطوايف، من مصنفاته (الشامل) في أربع مجلدات، و(الانتصار) في ثمانية عشر مجلداً. و(الطراز) وغيرها كثير. توفي في مدينة ذمار عام ٧٠٥هـ ودفن بها. انظر: البدر الطالع، للشوكاني ٢/ ٣٣١-٣٣٣.

(٢) وذكر السيوطي نقلاً عن ابن أبي أصبع مائة نوع من أنواع البدائع القرآنية كما جاء في الإتقان ٢/ ٨٩٨ وما بعدها.

(٣) الطباق لغة: وَضْعُ طَبَقٍ على طبق. انظر: لسان العرب ٨/ ١٢٠-١٢١ مادة طبق.

**والطباق في الاصطلاح:**

هو الجمع في العبارة الواحدة بين معنيين متقابلين، على سبيل الحقيقة، أو على سبيل المجاز، ولو إيهاماً، ولا يشترط كون اللفظين الدالَّين عليهما من نوع واحد، كاسمين أو فعلين، فالشرط التقابل في المعنيين فقط[1].

والتقابل بين المعاني له وجوه، منها ما يلي:

**تقابل التناقض:** كالوجود والعدم، والإيجاب والسَّلب.

**تقابل التضاد:** كالأسود والأبيض، والقيام والقعود.

**تقابل التضايف:** كالأب والابن، والأكبر والأصغر، والخالق والمخلوق[2].

ومن الطباق نوع يختص باسم (المقابلة).

**المقابلة:** هي طباقٌ متعدِّدُ عناصرِ الفريقين المتقابلين، وفيها يُؤتَى بمعنيين فأكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على سبيل الترتيب[3].

والعنصر الجمالي في المقابلة هو ما فيه من التلاؤم بينه وبين تداعي الأفكار في الأذهان، باعتبار أن المتقابِلات أقرب تخاطراً إلى الأذهان من المتشابهات والمتخالفات.

وبعد هذه المقدمة التعريفية لأسلوب الطباق أقول:

قد انتهجَ القرآنُ الكريم هذا السبيلَ في عرضه أدلة التوحيد ودعوته إليه، ويتضح هذا من الآتي:

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص١٢٨، و: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني ص٢٨٧.

(٢) انظر: الإتقان، للسيوطي ٢/ ٩٣٣-٩٣٥.

(٣) انظر: إعجاز القرآن، للباقلاني ص١٣٦.

أ ـ قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ١٧)
ففي هذه الآية طباق بين قوله تعالى: ﴿ يَخْلُقُ ﴾ و ﴿ لَّا يَخْلُقُ ﴾ فهذان اللفظان متقابلان تقابل تناقض.

ب ـ قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ (الرعد: ١٦).

نجد في الآية طباقاً ومقابلة بين:

١- ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ و﴿ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾.

٢- ﴿ ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ ومن يدرك الحقائق ومن لا يدركها.

٣- ﴿ ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ أي ظلمات الشرك ونور التوحيد.

٤- ﴿ شُرَكَآءَ ﴾ و﴿ ٱلْوَٰحِدُ ﴾ أي معبودات الكفار والذات الإلهية.

٥- شركاء عاجزين عن الخلق و ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾.

فقد عبَّر القرآن الكريم بهذا الأسلوب وجاء بهذه المتقابلات لنفي المساواة بين ربوبية الله وملكه لكل شيء وبين عجز الأصنام التي لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعاً ولا ضراً.

فإذا انتفت المساواة في ذلك ـ أي بين الله وبين معبودات الكفار في الربوبية ـ فقد استلزم ذلك الحكمُ نفيَ المساواة بين الله وبين الأصنام في الألوهية.

كما نفت الآية المساواة بين من عرف الحق واهتدى به وبين من جهل عنه أو تجاهله فضَلَّ وأَضَلَّ فاستلزم ذلك الحكم بأن الخير والحق مع المبصِر المهتدي.

ونفت الآية استواء الظلمات مع النور فاقتضى ذلك أن الخير والحق في نور التوحيد لا سواه.

ونفت الآية أيضاً تعادل الشركاء العاجزين عن الخلق مع الواحد القهار الخالق لكل شيء، فوجب من ذلك استحقاق الرب ـ المالك لكل شيء، الخالق لكل مخلوق ـ الواحد القهار ـ لتوحيد العبادة.

**ب ـ أسلوب التعديد:**

قال أهل البلاغة: إن من البديع في الألفاظ المنفردة المتتالية أن يؤتى بها على سياق واحد، دون أن يكون بينها ما يَشِذُّ ويَنْبُو عن الذوق الأدبي الرفيع، في دلالاتها، وفي ألفاظها، وأكثر ما يوجد هذا في الصفات المتتاليات.

وسمَّوا إيقاعها على سياقٍ واحد متلائم بـ(التعديد)[1].

والقرآن الكريم قد جاء بمثل ذلك في تعريفه بالله، وإخباره عنه كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الحشر: ٢٣).

فبدأ بذكر اسم ﴿ ٱلْمَلِكُ ﴾ أي الحاكم في الناس، ولا ملك على الإطلاق إلا لله تعالى... فهو سبحانه مالك كل شيء، وذو السلطان على كل شيء، ومن هنا

---

(١) انظر: الإتقان، للسيوطي ٢/ ٩١٨، وقال عبد الرحمن الميداني في كتابه البلاغة العربية ٢/ ٤٦٦: «والأحسن أن يُسمَّى (حُسْنُ التعديد)».

كان البدء بهذا الاسم ﴿ ٱلْمَلِكُ ﴾ هو الملائم في السياق بعد بيان اسمه ﴿ ٱللَّهُ ﴾ وبيان أنه لا إله بحق إلا هو، وجاء بعد الملِك ﴿ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ للاحتراس، إشارة إلى أنه منزَّه عن نقائص الملوك المعروفة من الغرور والاسترسال في الشهوات ونحو ذلك من نقائص النفوس، وهذا التعقيب هو المناسب لسياق الآيات، ثم عقَّب بقوله ﴿ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ أي: ذو السلامة، والمعنى أن الله تعالى سالَمَ الخلْق من الظلم والجور، وبهذا ظهر تعقيب وصف ﴿ ٱلْمَلِكُ ﴾ بوصف: ﴿ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ للمناسبة، فإنه بعد أن عقّب بـ ﴿ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ للدلالة على نزاهة ذاته، عقب بـ ﴿ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ للدلالة على عدله في معاملته الخلق، وهذا احتراس أيضاً، إذاً فهو ذوو السلامة من كل نقص في ذاته وصفاته وأفعاله، وبعد التنزيه أثبت سبحانه صفة الكمال له بقوله: ﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾، والمؤمن اسم فاعل من آمن الذي همزته للتعدية، أي جعل غيره آمناً[1]، والتعقيب بهذا الاسم هو المناسب للسياق، فكما أن الله سالَمَ خلقه من الظلم، فقد جعل الأمان في غالب أحوال الموجودات، ... وذِكْرُ وصف ﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ عقب الأوصاف التي قبله إتمام للاحتراس من توهم وصفه تعالى بـ ﴿ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ أنه كالملوك المعروفين بالنقائص، فأُفيد أولاً بنزاهة ذاته بوصف القدوس، ثم نزاهة تصرفاته الظاهرة عن الجور والظلم بوصف ﴿ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ ثم نزاهة تصرفاته المغيّبة عن الغدر والكيد بوصف ﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ وهذا ما يتطلبه سياق الآيات، وبعد تنزيهه سبحانه وإثبات كماله عقب بوصف: ﴿ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ حسبما يستدعيه السياق ومعنى: ﴿ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ الرقيب

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عشور ٢٨/ ١٠٨.

والحافظ والقائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم باطّلاعه واستيلائه وحفظه، فتعقيب: ﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ بـ: ﴿ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ لرفع توهم أن تأمينه عن ضعف أو عن مخافة غيره، فأُعلِموا أن تأمينه لحكمته مع أنه رقيب مطلع على أحوال خلقه فتأمينه إياهم رحمة بهم، ولأنه مهيمن سبحانه فإنه لا يُغلب ولا يذله أحد، ولهذا جاء عقب: ﴿ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ اسم ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ ليعلم الخلق أن الله غالب لا يعجزه شيء، واتبعت بصفة: ﴿ ٱلْجَبَّارُ ﴾ للدلالة على أنه مسخِّر المخلوقات لإرادته، فهو القاهر المكرِه غيره على الانفعال بفعله... فهو سبحانه جبار للموجودات على قبول ما أراده بها وما تعلقت به قدرته عليها، ثم عقب اسم: ﴿ ٱلْجَبَّارُ ﴾ بقوله: ﴿ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾، أي الشديد الكبرياء، أي العظمة والجلالة، وجاء هذا الاسم لأن العقل يدرك بعد كل الأوصاف السابقة لهذا الاسم أن صاحبه أكبر من كل كبير في هذا الوجود، فناسب أن يصف نفسه سبحانه بأنه: ﴿ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ ووجه ذكر الصفات الثلاث: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ، ٱلْجَبَّارُ ، ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ بعد: ﴿ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ أن جميع ما سبقها من الصفات لا يؤذن إلا باطمئنان العباد لعناية ربهم بهم، وإصلاح أمورهم... فكانت هذه الصفات في جانب التخويف كما كانت الصفات قبلها في جانب الإطماع[1].

وهكذا كان أسلوب التعديد في أسماء الله أسلوباً بديعاً يحقق معاني جمالية معنوية في التعريف بالله والإخبار عنه.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢٨/١٠٧-١١٠، والبلاغة العربية، للميداني ٢/٤٦٦.

وثمة أساليب ومحسنات جمالية أو بدائع معنوية أخرى استخدمها القرآن في تقرير التوحيد، كالتناسب في قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ١٠٣) والمذهب الكلامي[١] في قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ ﴾ (الأنبياء: ٢١، ٢٢) والتنكيت[٢] في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾[٣] وقوله: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝ ﴾ (النجم: ٢١، ٢٢) ونفيُ الشيء بصيغة تُشعر بإثباته أو: نفيُ الشيء بإيجابه كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ

---

(١) المقصود بالمذهب الكلامي هو أن يأتي الأديب البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة عقلية برهانية أو دونها على طريقة أهل الكلام، وقالوا: إن هذه التسمية تُنسب إلى الجاحظ، والسبب في إطلاق هذه التسمية أن علم الكلام يستند في حججه إلى الحجج العقلية، فإذا استخدم الأديب الحجج العقلية في كلامه، فقد ذهب مذهب علماء الكلام. اهـ.

انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني ص٣٠٧.

(٢) التنكيت هو: أن يقصد المتكلم إلى كلمة أو كلام بالذكر دون غيره مما يسد مسدَّه، لأجل نكته في المذكور ترجِّح مجيئه على سواه.

انظر: الإتقان، للسيوطي ٢/ ٩١٧.

(٣) النجم: ٤٩. ووجه التنكيت هنا أنه خصّ الشعرى بالذكر دون غيرها من النجوم، وهو تعالى رب كل شيء، لأن العرب كان قد ظهر فيهم رجل يُعرف بابن أبي كبشة، عَبَدَ الشعرى، ودعا خلقاً إلى عبادتها، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾ أي التي ادُّعيت فيها الربوبية.

إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١٧) والتتابع المرتب في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (غافر: ٦٧) والتتابع ذو الترقِّي والتدلِّي كقوله تعالى عن الأصنام: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (الأعراف: ١٩٥).

وحُسن النَّسَق كما في قوله سبحانه:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾

(الغاشية: ١٧-٢٠).

وغير ذلك[1].

---

(١) انظر: شرح كل ما سبق وغيره في:

أ ـ الإيضاح، للقزويني.

ب ـ الإتقان، للسيوطي.

ج ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن، للإمام أبي الفضل جلال الدين عبدالرحمن أبي بكر السيوطي (ت٩١١)هـ ، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، بيروت ـ لبنان.

## ثانياً: المحسنات الجمالية اللفظية:

من البدائع المشتمِلة على المحسنات الجمالية اللفظية التي استخدمها القرآن لإقامة التوحيد في نفوس العبيد ما يُسمى بـ:

### أ - أسلوب السجع[١]:

**السجع اصطلاحاً**: هو تواطؤ الفاصلتين من النَّثر على حرف واحد[٢]، وهو اتفاق الفواصل في الكلام المنثور في الحرف أو في الوزن أو في مجموعهما[٣]. أو هو في النثر كالقافية في الشعر.

والأصل في السجع أن يكون في النَّثر، لكنه قد يأتي داخل فقرات البيت من الشِّعر فيزيده حُسناً إذا كان مستوفياً شروطه الفنية غير متكلَّف[٤].

ويُطلق على الفقرة المنتهية بالفاصلة (سجعة) وجمعها (سجعات)، ويُطلق عليها (قرينة) لمقارنتها لأختها، وتُجمع على (قرائن)، ويُطلق عليها (فقرة) وجمعها (فَقْرات) و(فِقَرات) و(فِقَر)[٥].

---

(١) السجع لغة: هو ترديد الصوت على طريقة واحدة، ويقال سجع المتكلِّم في كلامه، إذا تكلّم بكلام له فواصل، كفواصل الشعر مقفًّى غير موزون.
وانظر: لسان العرب ٦/ ١٧٦ مادة: سجع.

(٢) انظر: إعجاز القرآن، للباقلاني ص٩٩، و: الإيضاح، للقزويني ص٣٢٥، و: الطراز، لابن حمزة ٣/ ١٣.

(٣) الطراز، لابن حمزة ٣/ ١٢.

(٤) وتأدب بعض العلماء كالباقلاني وابن الأثير فخصَّ ما هو ملاحظ في القرآن من سجع باسم (فواصل)، انظر: إعجاز القرآن، للباقلاني ص١٠٥. و: دلائل الإعجاز، للجرجاني ص٤٠١.

(٥) لسان العرب، لابن منظور ١٠/ ٣٠٠ مادة فقر.

وللسجع حِكَم وفوائد، وشروط وأقسام وأحكام، وللعلماء أقوال في وجوده في القرآن أو عدمه ذكرها أهل العلم بالبلاغة العربية[١]، والذي يهمنا هنا أن القرآن الكريم قد استخدم هذا الأسلوب لتقرير التوحيد كما يتضح من قوله تعالى ـ على لسان نوح عليه السلام مخاطباً قومه ـ : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ (نوح: ١٣، ١٤).

كلمتا ﴿ وَقَارًا ﴾ و﴿ أَطْوَارًا ﴾ مختلفان في الوزن، متفقتان في الحرف الأخير، وهذا لا شك يحقق للسامع والقارئ إمتاعاً نفسيًّاً وتذوقاً أدبيّاً وإعجاباً عقليّاً لهذه الصيغة البلاغية التعبيرية ذات المحسِّنات اللفظية.

ومنها أيضاً ما هو متفق في الوزن والحرف الأخير (الروي أو القافية) مثل قوله سبحانه ـ رداً على المشركين الزاعمين اتخاذ الله الولد ـ : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾ (مريم: ٨٩-٩١).

وغيرها من الآيات[٢].

---

(١) انظر: ذلك كله في:

أ ـ إعجاز القرآن، للباقلاني ص ٩٨-١١٠.

ب ـ دلائل الإعجاز، للجرجاني ص٤٠١-٤٠٢.

ج ـ الطراز، لابن حمزة ٣/ ١٢-١٨.

د ـ الإيضاح، للقزويني ص ٣٢٥-٣٢٩.

هـ ـ الفوائد المشوقة، لابن القيم ص ٣٠٩-٣١٢.

(٢) كما في سورة الأعلى: ١-٧، والانفطار: ٦-٩.

**ب - أسلوب التعانق**[١]:

ويعني: المجيء بآخر الفِقَرة السابقة من الكلام فيُجعل بَدْأً للكلام اللاحق، وقد يُكرر هذا في النص الواحد. ويُقسِّم علماء البلاغة التعانق إلى قسمين:

**القسم الأول**: «اقتباس أوائل اللاحق من أواخر السابق» ويُطلق عليه: تشابه الأطراف، ومثاله قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ١٠٣) فإن اللطف يناسب ما لا يُدرك بالبصر، والخبرة تناسب من يدرك شيئاً، فإن من يدرك شيئاً يكون خبيراً به[٢]، وغيرها من الآيات[٣].

**القسم الثاني**: «اقتباس الركائز»[٤] - وهذا ما أقوم بشرحه بالتفصيل - وهو أن يُؤتى من الجملة السابقة ما يُتَّخذ ركيزة في بناء الجملة اللاحقة.

ومن أمثلة الركائز المتعلِّقة بموضوعنا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ

---

(١) العُنْقُ والعُنُقُ: وُصْلة ما بين الرأس والجسد... والجمع أعناق... والتعانق لغة: جعل اليد على عنق الغير وضمه.

انظر: لسان العرب، لابن منظور ٩/ ٤٣٠، ٤٣٤.

(٢) الإيضاح، للقزويني ص٢٩٨.

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (الحج: ٦٤).

(٤) الركائز جمع ركيزة، والركيزة ما يُرتكز عليه مما هو ثابت في الأرض وغيرها، يقال لغة: ركز شيئاً في شيء إذا أثبته فيه، وركز السهم في الأرض إذا غرزه فيها.

البلاغة العربية، للميداني ٢/ ٥٢٧، وانظر: لسان العرب ٥/ ٣٠٠ مادة ركز.

عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (المؤمنون: ١٢-١٤).

في هذا النص أُخِذت الركيزة من جملة ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ وهي كلمة ﴿ نُطْفَةً ﴾ وبُنِي عليها الجملة التي بعدها، وهي: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾، وأُخِذت الركيزة من هذه الجملة وهي كلمة ﴿ عَلَقَةً ﴾ وبُني عليها الجملة التي بعدها ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾، وأُخذت الركيزة من هذه الجملة وهي ﴿ مُضْغَةً ﴾ وبنى عليها الجملة التي بعدها، وهي: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ وأُخِذت الركيزة من هذه الجملة وهي كلمة ﴿ عِظَٰمًا ﴾ وبُني عليها الجملة التي بعدها، وهي ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾.

وهكذا تعانقَ النصُّ باقتباس الركائز والبناء عليها، وساعد المعنى على إبداع هذا الفن، «وهو أسلوب يصلح في مجال التعليم والتفهيم، وبناء الأفكار بعضها على بعض»[1] وخاصة في مجال التوحيد.

وثمة أساليب أخرى، وبدائع جمالية لفظية استخدمها القرآن وهو يعرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية[2]، وأكتفي بما سبق بيانه.

---

(١) البلاغة العربية، للميداني ٢/ ٢٨ بتصرف.

(٢) مثل أسلوب الجناس أو التجنس، وأسلوب التفويت، وأسلوب الترصيع،... وغيرها من الأساليب كثير جداً. انظر ذلك في: أ ـ إعجاز القرآن، للباقلاني ص١٢٧ وما بعدها.
ب ـ الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني ص٢٨٧ وما بعدها.
ج ـ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، لابن حمزة ٢/ ١٨٥ وما بعدها. و: ٣/ ٣ وما بعدها. د ـ الفوائد المشوِّقة إلى علوم القرآن، لابن القيم ص١٣٠ وما بعدها.
هـ ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي ١/ ٢٧٧ وما بعدها.

وبهذا أكون قد انتهيت من شرح هذا المبحث الذي تناولت فيه صوراً من أساليب القرآن البلاغية في عرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية، ويبقى الحديث عن أساليب القرآن النفسية في تقرير التوحيد والدعوة إليه، وهذا ما أشرحه بالتفصيل في المبحث الثاني.

# المبحث الثاني

## أساليب القرآن النفسية في تقرير التوحيد

**تمهيد:**

سلك القرآن الكريم ـ في سبيل تقرير التوحيد ـ عدة أساليب نفسية أثارت المشاعر، وأيقظت الأحاسيس والعواطف، ونبَّهت كلَّ من كان حيَّ الوجدان أو متبلِّد الحس،... ومن كان مستثاراً او هادئاً، ومتطلِّعاً أو خائفاً... نبَّهته إلى الله الرب الإله.

إن القرآن ـ وهو يعرِّف الناس بالله ـ يوقِّع على ذات الأوتار المودعة في الفطرة ليهزها فتستيقظ، ويحركها فتنفعل،... وهو بطريقته يمسح كلَّ ما ران على الفؤاد، أو غلَّف القلب فلم يعد يستجب... إنه لا يصنع ذلك من أجل تكوين معلومات جديدة عن الله سبحانه... إنما من أجل الإيمان بالله، وفرقٌ هائل بين إنشاء معلومات عن أية قضية من القضايا وبين الإيمان بتلك القضية... الإيمان بالله حَرَكَةٌ تجيش في القلب فتحرِّكُهُ بوجدانات شتَّى، وتبعث فيه انفعالات حيَّة متدافعة لا تسكن ولا تهمد... ولا تموت... وهو طاقة تتفجَّر في محيط النفس كلها فتحرِّك منها أدق ذرَّاتها فتظهر آثارها في داخل النفس وفي خارجها... عملاً وسلوكاً... وأفكاراً ومشاعر[1]...

---

(١) دراسات قرآنية، محمد قطب ص ٣٩.

فكيف أمكن للقرآن الكريم تحقيق ذلك كله؟ وما هي الأساليب النفسية التي اتخذها لتحقيق الإيمان بالله، وزيادة ترسيخه؟

تبيَّن من خلال استقراء كلام الله أن أبرز الأساليب النفسية التي جاء بها القرآن لتقرير التوحيد وطلبه من العبيد هما: أسلوب الترغيب والترهيب، وأسلوب قصّ القصص، ويمكن توضيح ذلك من خلال تقسيم هذا المبحث إلى المطلبين التاليين:

# «المطلب الأول»

# «أسلوب الترغيب والترهيب»

## أولاً: تعريف الترغيب والترهيب، وبيان بعض حِكَمه:

**الترغيب**: هو وعد يصحبه تحبيب وإغراء بمصلحة أو لذة أو متعة عاجلة أو آجلة، مؤكَّدة خيِّرة، خالصة من الشوائب، مقابل القيام بعمل صالح، أو الامتناع عن لذَّة ضارَّة أو عمل سيءٍ ابتغاء مرضات الله[1].

**والترهيب**: هو وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه، أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، أو هو: تهديد من الله يقصد به تخويف عباده، وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية ليكونوا دائماً على حذر من ارتكاب الهفوات والمعاصي[2] ولقد استخدم القرآن الكريم أسلوبي الترغيب والترهيب لغرس عقيدة التوحيد في نفوس الناس ودفعهم إليها، وحفظهم من الشرك وإبعادهم عنه، فمهما كانت حقائق التوحيد ودلائله وحججه قوية ومقنِعة للمدعوِّين فإنه لا يُستغنى عن الوعد والوعيد، ولا تستقيم النفس الإنسانية بدونهما، ذلك أن الله تعالى ركَّب العبد وطبعه على الخوف والرجاء، الخوف من كل مؤذٍ ضار، والرجاء لكل خير نافع، وهذه حقيقة

---

(١) أصول التربية الإسلامية، عبدالرحمن النحلاوي، دار الفكر المعاصر، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، بيروت ـ لبنان ص٢٨٦.

وانظر: موسوعة نضرة النعيم ٦/ ٢١٢٧.

(٢) أصول التربية الإسلامية، للنحلاوي ص٢٨٦.

قرَّرها القرآن بوصفه لأهل الإيمان بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[١].

وبما أنه يوجد في كل إنسان بذرة خير إن تعهَّدها بالعناية والرعاية زَكَتْ ونَمَتْ فأضفت على صاحبها خيري الدنيا والآخرة، وفيه بذرة شر إن أهملها ولم يكافحها زاحمت بذرة الخير ودافعتها فجلبت لصاحبها شر الدارين ـ الدنيا والآخرة ـ فإن الترغيب سبيل لبقاء بذرة الخير ونموها وبركتها واستمرارها ـ وأيُّ بذرة خير وأعظم من فطرة التوحيد التي فطر الله الناس عليها ـ ؟

كما أن الترهيب طريقٌ لإضعاف الشر في نفس الإنسان وتخفيفه، وكبته حتى لا يكون معتقداً في الذهن[٢]، أو سلوكاً في الواقع يؤاخذ عليه، وأيُّ شر أعظم من الكفر بالله والشرك به سبحانه وتعالى؟

ومن هنا رغَّب الله بالتوحيد ورهَّب من الشرك بكل الوسائل والأساليب: بالمدح والذم ـ كما سبق شرحه ـ وببيان عواقب الشرك والتوحيد في دار الدنيا ـ كما سبقت الإشارة إليه أيضاً ـ وبترتيب الوعد والوعيد في دار الآخرة على ما يكون من العبيد من إيمان أو كفر.

---

(١) الأنبياء: ٩٠. وانظر: الترهيب في الدعوة في القرآن والسنة، رقية بنت نصر الله نياز، دار أشبيليا، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، الرياض ـ السعودية ص٣٧٤. و: منهج الإسلام في تزكية النفوس، للدكتور أنس أحمد كرزون، دار نور المكتبات، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، جدة ـ السعودية ١/ ٤٧٥.

(٢) وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدَّثت به أنفسها...». أخرجه مسلم في ١/ ١١٦، في كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس، برقم ١٢٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إن القرآن الكريم يستخدم أساليب الترغيب والترهيب لتقويم معتقد الإنسان، وتصحيح أفكاره، ومحو ضلالاته، فيمضي به إلى مرضاة الله وجنته، ويُحصِّنه من سخطه وناره، فإذا لقي العبد ربَّه أجزل له الثواب ونجَّاه من العقاب.

وقد تبيَّن أنه ليس في القرآن ـ على الأغلب الأعم ـ آية ترغيب إلا وتبعها ترهيب أو العكس ـ وخاصة فيما يتعلق بالكفر والإيمان ـ فهما متلازمان في كتاب الله لعدة حكم[1]، منها:

أ ـ التذكير الدائم بالثواب والعقاب ليبقى حال الإنسان بين الخوف والرجاء إلى أن يلقى الله.

ب ـ أنَّ من لا يؤثر فيه الترغيب وثوابه قد يؤثر فيه الترهيب وعقابه[2].

## ثانياً: مميزات الترغيب والترهيب القرآني:

### تميَّز الترغيب والترهيب القرآني بالآتي:

أ ـ دعوته إلى الإيمان بالله ـ صراحة أو ضمناً ـ فما من آية قرآنية على الغالب فيها ترغيب أو ترهيب إلا وفيها دعوة للتوحيد وتحذير من الشرك.

ب ـ إثارة الانفعالات النفسية التي تحقق العبادات القلبية كالخوف من الله ومحبَّته، والخشية منه والخشوع له، والحياء من جلالِهِ وكثرة نعمه مقابل تقصير العبد تجاه ذلك[3].

---

(١) انظر: من أساليب التربية في القرآن الكريم، للدكتور عثمان مكانسي ص١٢٦، وفيه الرد على المعترضين على الترهيب كأسلوب من أساليب التربية الإسلامية.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم ٦/ ٢١٥٦ لمعرفة بقية الفوائد.

(٣) أصول التربية الإسلامية، للنحلاوي ص٢٨٧-٢٩٠ باختصار.

ج ـ التصوير الفني الرائع البديع لنعيم الجنة في باب الترغيب، وعذاب جهنم في باب الترهيب، وبأسلوب واضح يفهمه جميع الناس، وعالٍ يتذوَّقه بُلَغاؤهم.

د ـ الموازنة بين الوعد والوعيد أو الترغيب والترهيب، مما يحقق توازن العبد بين الخوف والرجاء، والطمع والنفور، ويحفظه من الغرور وطغيان الفرح أو اليأس والقنوط من رحمة الله وثوابه.

مصداقاً لحديث النبي ﷺ الذي قال فيه: **«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»**[1].

لقد تميَّزت أساليب القرآن النفسية في دعوته للتوحيد بما سمَّاه علماء النفس بـ«إثارة الدوافع الذاتية لتحقيق التعلم»[2].

فقد اعتمد القرآن في دعوته إلى الإيمان بعقيدة التوحيد على إثارة دوافع الناس، من خلال ترغيبهم في الثواب الذي سيحظى به المؤمنون في نعيم الجنة ـ إضافة إلى خير الدنيا ـ وبترهيبهم من العقاب أو العذاب الذي سيلحق بالكافرين في نار جهنم ـ فوق ما يصيبهم من شر في الدنيا ـ ولم يكشف علماء النفس عن أهمية هذا الأسلوب في عملية التعلم وغرس المفاهيم والعقائد إلا في أوائل القرن العشرين «وقد بيَّنت الدراسات التجريبية التي أُجريت حديثاً على

---

(١) أخرجه مسلم في ٤/ ٢١٠٩، في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله، برقم ٢٧٥٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: أصول علم النفس، للدكتور أحمد عزت راجح ص ٨٥ وما بعدها.

الإنسان... أهمية إثارة الدوافع في تحقيق التعلم وأكدت أن الإنسان ميَّال بطبيعته إلى تعلم واكتساب ما وراءه ثواب، وإلى تجاهل وتجنب ما يتلوه عقاب»[1].

إن تحديد العقائد وترسيخها واقتفاء أعمال معينة والتزامها يعتمد بشكل كبير على دافع الرغبة والرهبة لدى الإنسان، ومن هنا جاءت آيات الوعد والوعيد في القرآن تحمل طابع الترغيب والترهيب، الترغيب ليس في رضا الله وجنته فقط، بل بالاستمتاع بنعيم الجنة الدائم، والترهيب ليس من سخط الله وناره فحسب، بل مما يعانيه أهلها فيها كما يتضح من التصوير الفني القرآني لأحوال المؤمنين والكفار، كلٌّ في مصيره في الجنة أو النار.

وكما يتضح من تمثيله لأحوالهم الغائبة المتخيَّلة وجعلها في صورة شبه مشهودة.

## ثالثاً: استخدام القرآن للترغيب والترهيب في سبيل إقامة التوحيد في نفوس العبيد:

سلك القرآن طريقين لترغيب الخلق بالتوحيد وترهيبهم من الشرك، هما:

**الطريق الأول: ترغيب الموحدين بكل خير في الدنيا، والترهيب من كل شر فيها لو كان غيره:**

ومن أوضح الأمثلة على ذلك:

أ ـ إخبار القرآن بأن الإيمان طريق لطمأنينة القلوب وصلاح العقول والأحوال، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ (التغابن: ١١) وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ

---

(١) القرآن وعلم النفس، للدكتور محمد عثمان نجاتي ص١٥٥ بتصرف.

ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨) وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴾ (محمد: ٢).

قال الآلوسي: أي أصلح حالهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد، وأصلح قلوبهم وأفكارهم[١].

ب ـ بيان القرآن أن الاستقامة على الإيمان سبيل لنزول خيرات السماء (الأمطار) وسعة الرزق وإنبات الأرض من بركاتها قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ﴿١٧﴾ ﴾ (الجن: ١٦، ١٧).

ج ـ إخبار القرآن أن الإيمان مع العمل الصالح هو طريق للحياة الطيبة في الدنيا، قال تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ ﴾ (النحل: ٩٧). وقال ابن عاشور: «وهذا وعدٌ بخيرات الدنيا، وأعظمها الرضى بما قسم لهم، وحُسن أملهم بالعاقبة، والصحة والعافية، وعزة الإسلام في نفوسهم..»[٢].

وغيرها من الآيات التي تبشر المقبلين على الإيمان بخير الدنيا وترغِّبهم في توحيد الخالق، مما سبق الاستشهاد به فيما مرَّ معناه.

ولم يكتف القرآن الكريم باستخدامه أسلوب الترغيب بخير الدنيا لتحقيق الإيمان بل حكى الله لنا استخدام الأنبياء لهذا الأسلوب مع أقوامهم طمعاً في

---

(١) روح المعاني ١٣/ ١٩٥ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير ١٣/ ٢٢٠.

إيمانهم بالله ـ وما ذلك إلا لأهمية هذا الأسلوب وأثره في تحقيق التوحيد ـ فقديماً قال هود لقومه ـ داعياً إياهم إلى التوبة من كفرهم بالله ومبشراً لهم بالخير العاجل مقابل ذلك ـ: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾ (هود: ٥٢) ومن قبله نوح قال لقومه: ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۝١٢ ﴾ (نوح: ١٠-١٢).

وكما أن القرآن قد استخدم أسلوب الترغيب في نعيم الدنيا لتحقيق الإيمان فإنه كذلك قد رهَّب من عواقب الكفر والشرك في هذه الحياة في آيات كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ﴾ (طه: ١٢٤) وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾[1] وغيرها من الآيات التي سبق ذكر أكثرها فيما مرَّ معنا من البحث.

**الطريق الثاني: ترغيب الموحدين في رضا الله ونعيم الآخرة، والترهيب من سخطه وعذابه للمشركين يوم القيامة:**

ما أكثر الآيات التي وعد الله فيها عباده المؤمنين بالجنة ونعيمها، ورضوان من الله أكبر، وضمن لهم الخلود في ذلك[2]، وبالمقابل ما أكثر الآيات التي توعَّد

---

(١) الرعد: ٣١. وقد شرحتُ معنى الآية في ص٤٤١.

(٢) انظر: المعجم المفهرس لمعاني القرآن الكريم لمحمد بسام رشدي ١/ ١٧٤-١٧٩.

الله فيها الكافرين بجهنم وعذابها، إضافة إلى سخطه عليهم، وخلودهم في ذلك[1]، وحسبنا هنا ما يدلِّل على المراد، فتارة يعد الله المؤمنين بالمغفرة والأجر العظيم يوم القيامة دون تحديد تلك المثوبة أو تعيينها، وبالمقابل يتوعد الكافرين بشدة الحساب والعقوبة دون تعيينها.

فمما يتعلق بالمؤمنين قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (المائدة: ٩)، ومما يتعلق بالكافرين قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الحجر: ٩٦) وقوله: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١٧).

وتارة أخرى يكشف للكافرين أنواعاً من العذاب موضِّحاً في نفس الوقت ألواناً من ثواب المؤمنين، وقد جاء هذا في أكثر آيات القرآن المتعلقة بالإيمان ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ (الكهف: ٢٩-٣١) وقوله سبحانه: ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبد الباقي ص٢٢١-٢٢٣ وص٨١٥-٨١٧.

يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ (الكهف: ١٠٢-١٠٨) وغيرها من الآيات[١].

هذه هي أساليب القرآن النفسية في تقرير التوحيد والدعوة إليه، إنها الأساليب الحكيمة التي جاء بها علام الغيوب، الذي يعلم خصائص النفس البشرية ودخائلها وما يؤثر فيها، لقد سلك معها مسلك الترغيب والترهيب جامعاً بينهما ليحقق أفضل الاستجابات البشرية للإيمان بالله، وفي هذا يقول علماء النفس: أثبتت التجارب أن الجمع بين الثواب والعقاب أفضل في كثير من الأحوال من استخدام كلٍّ واحد منهما على حدة... فيُستخدم العقاب لكف السلوك المعوج حتى يستقيم الفرد، ويستخدم الثواب لتعزيز وترسيخ السلوك الصحيح[٢].

إن وعد الله بالثواب لأهل التوحيد ووعيده بالعقاب لأهل الشرك لهو من أفضل أنواع التربية بالموعظة، والقرآن كله بآياته ومواعظه[٣] هو كما وصفه الله بقوله: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٨).

---

(١) كما في الإسراء: ٣٩، الفرقان: ٦٨-٦٩، وق:٢٦، والصف: ١٠-١٣.

(٢) أصول علم النفس، للدكتور أحمد عزت راجح ص٢٩٦ بتصرف يسير.

(٣) انظر: التربية بالآيات، والتربية بالحوار، والتربية بالعبرة، كلها لعبدالرحمن النحلاوي.

عموماً يمكن توضيح أهمية الترغيب والترهيب كأسلوب من أساليب التربية النفسية من خلال بيان تأثيره على كل إنسان وإثارته لنوعين من أنواع المشاعر والأحاسيس الوجدانية، كل نوع له ما يقابله، فإذا أثيرت تلك الأحاسيس النفسية القلبية على الوجه الصحيح وبالمثيرات القرآنية توجَّه صاحبها ـ إن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد ـ إلى التوحيد، فآيات الترغيب والترهيب تثير لدى سامعها وقارئها:

أ ـ مشاعر الخوف والرجاء.

ب ـ عواطف الحب والكره.

وتوضيح ذلك كما يلي:

إثارة آيات القرآن لمشاعر الخوف والرجاء وعواطف الحب والكره جاء على أساس أن النفس في فطرتها تخاف وترجو وتحب وتكره، وهكذا ركَّبها الله وفَطَرها، تخاف الظلمة والأذى والجوع والظمأ والألم وغيره، وتتهرب من ذلك، وتكرهه، وهي في نفس الوقت ترجو الخير والعافية والشبع، والري ورضا الغير، و الأمن وغيره وتحبه وتسعى إليه.

والنفس البشرية كذلك تخاف الخيبة والخزي وكلَّ المنغِّصات الحسية والمعنوية، وكل مجهول في غيب المستقبل أو الحاضر، وهي في نفس الوقت أيضاً تحب النجاح والعلو وأسباب الراحة والاستقرار والمعرفة، وتسعى لذلك راجية تحقيقه والوصول إليه[1].

---

(١) دراسات في النفس الإنسانية، لمحمد قطب، دار الشروق، ط٦، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، بيروت ـ لبنان ص٧٦ وما بعدها.

إنها إجمالاً تخاف الجحيم وترجو النعيم المقيم كما هو مشاهد ومشهود في واقع الإنسان بدون استثناء، ولكل إنسان آمال وطموحات يرجو تحقيقها، ويخشى عدم بلوغها، «فالخوف والرجاء مختلطان بالكيان البشري كله في أعماقه... ويحددان أهدافه، ويوجهان سلوكه ومشاعره وأفكاره، وعلى قدر ما يخاف الإنسان ونوع ما يخافه... وعلى قدر ما يرجو ونوع ما يرجوه... يتخذ لنفسه منهج حياته، ويوفِّق بين سلوكه وبين ما يرجو وما يخاف[1].

ويجيء الحب والكره تاليين للرجاء والخوف ـ فكلاهما خطان مترابطان متصلان يفعلان فعلهما في النفس الإنسانية ـ وكل إنسان يسعى إلى ما يحب، ويحذر ما يكره ـ هكذا ركَّب الله النفس الإنسانية ـ.

لقد جُعل الحب والكره شعورين نابعين من الذات ولكنهما متجهان نحو الخارج فهما أحاسيس نفسية[2] أو مشاعر قلبية تُترجم في سلوكيات خارجية بإقبال وإدبار، وعمل وإحجام، وسعادة وحُزن، وولاء وبراء، وطاعة وعصيان، وانقياد وإباء، واستسلام واستعلاء... إلخ.

إن الحب والكره يُتَرجَمان من معاني معنوية مجرَّدة إلى سلوكيات حسية واقعية.

ولقد اعتمد القرآن على ذلك كله في سبيل إقامة التوحيد: تارة باستغلال خاصية الحب لدى النفس الإنسانية لتحبيب الله إلى خلقه بذكر نعمه عليهم مما سبق شرحه، وتارة بتبشير العبد أن ما يحبه ويرجوه ويطمح إليه من خيري

---

(١) دراسات في النفس الإنسانية، لمحمد قطب ص٧٧.

(٢) نفسه ص٧٦-٦٦ باختصار.

الدنيا والآخرة ـ كالحياة الطيبة الهانئة الآمنة ذات العافية في البدن والأهل والمال وغيرها، والوصول للولدان المخلدين والحور العين، والقصور الواسعة، وغيرها، والخلود في ذلك كله إنما هو من خلال إيمانه بربه، وتوحيده لله رب عز وجل.

وتارة بتأمينه وتطيمنه أن كل ما يخافه ويحذره ويكرهه من شرٍّ في الدارين ـ الدنيا والآخرة ـ وكذا ما يخشاه من سخط الله، إنما يكون طريق النجاة منه هو توحيده لرب العالمين لا شريك له.

# «المطلب الثاني»

# «أسلوب القصص والتصوير الحي المؤثر لمشاهد الدعوة»

## أولاً: معنى القصة القرآنية[١]، وبيان أغراضها:

يُعرِّف بعض المؤلفين القصة الفنية بأنها: «عَرْضٌ لفكرة مرَّت بخاطر الكاتب، أو تسجيل لصورة تأثرت بها مُخيلته، أو بسط لعاطفة اختلجت في صدره، فأراد أن يعبر عنها بالكلام، ليصل بها إلى أذهان القرَّاء، محاولاً أن يكون أثرها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه»[٢] ويفرض المتخصصون في القصص وجود ثلاثة عناصر رئيسية فيها هي:

الموضوع، والشخصيات، والحوار، ويجعلون لها قواعد معينة لتكون قصة فنِّية مؤثِّرة[٣].

والذي يهمنا من كل ما سبق أنه باستعراضنا قصص القرآن نجد معظمها إن لم نقل جميعها يخرج عن الحدود التي رسمها النقاد للقصة الفنية، فالقصة القرآنية:

---

(١) القص في هو تتبع الأثر، والقصص هو الأثر، وهو الأخبار المتتابعة. انظر: لسان العرب، لابن منظور ١١/ ١٩١ مادة قصص.

(٢) التعبير الفني في القرآن، الدكتور بكري شيخ أمين، دار الشروق، ط٤، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، بيروت ـ لبنان، ص٢١٥، نقلاً عن: محمد تيمور من كتابه (فن القصص) الناشر مجلة الشرق، ١٩٤٥م ـ القاهرة ص٤٢ (ولم أعثر على المرجع الأصلي).

(٣) التعبير الفني في القرآن: للدكتور بكري أمين ص٢١٦.

١- ليست خاطرة في ذهن الله سبحانه وتعالى.

٢- وليست تسجيلاً تأثرت بها مخيلته سبحانه وتعالى.

٣- وليست بسطاً لعاطفة اختلجت في صدره ـ تنزَّه وتقدس ـ فأراد أن يُعبِّر عنها بكلام ليُحدث أثراً في نفوس القارئين أو السامعين كأثرها في نفسه عزوجل[١].

إن القصة في القرآن الكريم لها تعريف خاص، وقواعد خاصة، ومميزات مستقلة، وهدف سام، فالقصة القرآنية إنما هي: عرض لمشاهد حقَّة سبق وقوعها أو سيحين موعدها[٢] بتصوير حي، وهي وسيلة للإرشاد والوعظ وإقامة الحجج وتحقيق الإيمان قال سيد قطب رحمه الله: «القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه... إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية، فالقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء ـ وأي شيء ـ، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها... لقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها، وفي طريقة عرضها، وإدارة حوادثها، لمقتضى الأغراض الدينية...»[٣] ثم ذكر بعضاً من أغراض القصة القرآنية، نختار منها ـ بتصرف يسير ـ ما يأتي:

١- إثبات وحدانية الله، وأن الله الواحد رب جميع خلقه.

٢- إثبات توحُّد الأديان في أساسها من عهد نوح إلى عهد محمد ـ عليهم جميعاً سلام الله ـ وأنَّ المؤمنين كلهم أمة واحدة[٤].

---

(١) نفسه.

(٢) كأحداث ومشاهد البعث والنشور وأحوال أهل الجنة في جناتهم وأهل النار في نيرانهم.

(٣) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٥، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، بيروت ـ لبنان ص١٤٣ بتصرف.

(٤) سأستشهد على ذلك فيما يلي من الفقرات القادمة ص١٠٩٩.

٣- بيان مظاهر القدرة الإلهية، بصورةٍ تثير الانفعال والدهشة والخوف والتعظيم لله[(١)].

٤- كشف عاقبة الخير والشر، والشكر والبَطَر، والإيمان والكفر، أو التوحيد والشرك.

٥- بيان الأصل المشترك بين دين محمد ﷺ ودين إبراهيم بصفة خاصة، ثم أديان بني إسرائيل بصفة عامة.

٦- بيان أن الله ينصر أنبياءه ومن معهم ومن تبعهم من الموحِّدين ولو بعد حين، ويهلك المكذبين والمشركين[(٢)] في نهاية الأمر.

ونتيجةً لخضوع القصة القرآنية لهذه الأغراض كان عَرْضُ القرآن لقصص الأنبياء والرسل الداعين إلى الإيمان بدين واحد، وشرحه لحال الإنسانية المكذبة بهذا الدين الواحد، مرات متعددة بتعدد هذه الأغراض... حتى يُخيل للمتأمل أن الداعي للتوحيد نبي واحد، وأن المدعوِّين إنسانية واحدة على تطاول الأزمان والآماد، كل نبي يمر وهو يقول كلمته الهادية: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[(٣)]، فتكذبه هذه الإنسانية الضالة، ثم يمضي، ويجيء تاليه فيقول هذه الكلمة ذاتها ويمضي، وهكذا...[(٤)].

---

(١) كما يتضح من قصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه في سورة البقرة: ٢٦٠، وانظر: أصول التربية الإسلامية، للنحلاوي ص٢٤٢.

(٢) التصوير الفني للقرآن، سيد قطب ص١٤٤-١٥٤ باختصار.

(٣) الأعراف: ٥٩ وغيرها كثير.

(٤) التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب ص١٧٧ بتصرف.

إننا لو استعرضنا موضوعات القصص القرآني لوجدناها تتحدث عن أحوال الكفار، والمشركين، وما وقع بينهم وبين أنبيائهم من جدال ومناظرة أو حوار، حول الإيمان بالله، ابتداء[١] من قصة نوح مع قومه وانتهاء بقصة محمد بن عبدالله ـ ﷺ ـ خاتم المرسلين مع كفار زمانه، ومن هنا تتضح لنا أهمية القصة القرآنية فقد يُساق دليل التوحيد فيها ـ بل أدلته الجامعة المانعة القاطعة ـ ويُتخذ منها سبيل للإقناع العقلي والتأثير النفسي.

كما أن القصة القرآنية قد تتضمَّن أدلة بطلان الشرك وعبادة الأوثان كقصص إبراهيم عليه السلام مع قومه، وقد يكون موضوع القصة رسولاً يعرف السامعون قدره، وله مكانة عندهم ـ كإبراهيم عند العرب، وموسى عند بني إسرائيل وعيسى عند النصارى، وهؤلاء رسلٌ يُقِرُّ الأقوام السابق ذكرهم بفضلهم ـ فمجيء أدلة التوحيد على ألسنة هؤلاء عليهم السلام يعطيها قوة فوق قوتها الذاتية[٢].

إن قصص القرآن ليست سرداً تاريخياً لأحداث مضت وانتهت، بل هي قصص تقوم على مخاطبة العقل من خلال حوار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم لتقرير وحدانية الله، وإبطال الشرك... وإنه مامن قصة قرآنية ـ غالباً ـ إلا وقد جاءت لتقرير مسائل العقيدة على نحو لا تبلغه أساليب البشر فكريًاً وعاطفيًاً أو عقليًاً ونفسياً[٣].

---

(١) وكذا الإيمان بالبعث واليوم الآخر وما فيه.

(٢) المعجزة الكبرى (القرآن)، للإمام محمد أبو زهرة ص٣٧٤ بتصرف.

(٣) انظر: الدلالة العقلية في القرآن، للدكتور عبدالكريم عبيدات ص٤٧٧.

وحقيقة إنه عند التأمل في قصص القرآن نجد أن: «أحداثها كلها ـ تقريباً ـ تدور في محيط الدعوة إلى الله،...

ولذلك كانت دعوة الأنبياء هي الشخصية الغالبة في القصص القرآني بحيث ساغ أن تُسمى قصص القرآن باسم صاحب الدعوة، فيقال: قصة يوسف، وقصة موسى، وقصة يونس،... وهكذا»[1].

ومع أن القرآن الكريم لم يذكر لنا قصص جميع الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم في دعوتهم إياهم إلى التوحيد كما قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (غافر: ٧٨).

إلا أن قصص المذكورين منهم فيها من دلائل التوحيد وطرق الإفحام والإلزام للمشركين ما يشفي ويكفي للدعوة للإيمان برب العالمين.

## ثانياً: أنواع القصص القرآني وبيان مميزاته:

**تنوعت القصص القرآنية من حيث شخوصها، فمما يتعلق بموضوعنا** نجدها تارة تتحدث عن:

أ- حال الأنبياء والرسل مع الكافرين من أقوامهم، كنوح مع قومه، وهود مع قومه (عاد)، وصالح مع قومه (ثمود)، وإبراهيم مع قومه وغيرهم، وموسى مع فرعون وقومه،...إلخ.

---

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، لعبدالكريم الخطيب، مطبعة السنة المحمدية، ط١، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، القاهرة ـ مصر ص٤٥-٤٦.

ب ـ أفراد مؤمنين بالله أو مشركين به، فمن المؤمنين:

مؤمن آل فرعون[١]، والرجل الذي جاء من أقصى المدينة في سورة يس[٢]، وفتية أهل الكهف[٣]، وامرأة فرعون[٤]، ومريم[٥]، وغيرهم...

ومن الأفراد المشركين:

صاحب الجنتين في سورة الكهف[٦]، والرجل الذي انسلخ عن آيات الله[٧]، وقارون[٨]، وغيرهم.

**أما أنواع القصص القرآني من حيث طولها وقصرها فمنها:**

أ ـ القصير، كقصة إلياس مع قومه في سورة الصافات[٩].

ب ـ المتوسط، كقصة سليمان مع الهدهد والنملة، وملكة سبأ، في سورتي النمل[١٠]، وسبأ[١١].

---

(١) انظر سورة غافر: ٢٨.

(٢) انظر سورة يس: ٢٠-٢٧.

(٣) انظر سورة الكهف: ٩-٢٧.

(٤) انظر سورة التحريم: ١١.

(٥) انظر سورة آل عمران: ٣٦-٣٧، ٤٣، ٤٥ وغيرها من السور والآيات.

(٦) انظر السورة: ٣٢-٤٤.

(٧) انظر سورة الأعراف: ١٧٥-١٧٦.

(٨) انظر سورة القصص ٧٦، وسورة العنكبوت ٣٩ وسورة غافر ٣٤.

(٩) انظر الآيات: ١٢٣-١٣٢.

(١٠) انظر الآيات: ١٥-٤٤.

(١١) انظر الآيات: ١٢-١٩.

ج ـ المطوَّل كقصة يوسف مع إخوانه في سورة يوسف، وقصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل في عدة مواضع مطوَّلة مكرَّرة ومنوَّعة[١]، وفي سورة القصص كلها.

**أما مميزات القصة القرآنية فهي عديدة، منها:**

## أولاً: أنها هي القصص الحق والصِّدق والصواب:

لأن الذي يقصها على رسول الله ﷺ هو الله، الحق ـ عزوجل ـ المطَّلع عليها، المقدِّر لها، العالم بتفاصيلها، ومن أصدق من الله قيلاً؟ قال سبحانه بعد أن ذكر قصة عيسى بن مريم في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ (آل عمران: ٦٢) وقال في موضع آخر عن فتية أهل الكهف مخاطباً رسول الله ﷺ: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ (الكهف: ١٣).

## ثانياً: التكرار للقصة الواحدة:

قد ترد القصة الواحدة مكرَّرة في مواضع شتى، وهذا التكرار لايتناول القصة كلها، إنما هو تكرار لبعض حلقاتها، ومعظمه إشارات سريعة لمواضع العبرة فيها، ويُلاحظ هنا تناسب هذه الحلقات مع السياق الذي وردت فيه من حيث اختيارها وطريقة عرضها، وأوضح مثال على ذلك قصة موسى عليه السلام إذ أنها من أكثر القصص تكراراً في القرآن الكريم وقد وردت في حوالي ثلاثين موضعاً[٢].

---

(١) انظر: مع قصص السابقين في القرآن، للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، دمشق ـ سوريا، ص١١.

(٢) انظر: التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب ص١٥٦ وما بعدها.

## ثالثاً: الانتقاء المقصود لبعض أحداثها، أو سردها كلها:

فالقصة القرآنية تُعرض بالقدر الكافي لأداء الغَرَض، ومن الحلقة التي تتفق مع السياق وموضوعه، فمرةً تُعرض من أولها، ومرة من وسطها، ومرة من آخرها، وتارة تُعرض كاملة، وتارة أخرى تُنتقى بعض حلقاتها، ذلك أن هدف القصة القرآنية هدف ديني لا سرد تاريخي، فقصة آدم عليه السلام تُعرض من بداية خَلْقِه، بينما قصة يوسف تُعرض من أوَّل نشأته في صباه، لكن قصص معظم الأنبياء مع أقوامهم تُعرض من آخر حلقة فيها ـ بل هي الحلقة الوحيدة التي تُعرض من حياتهم ـ وهو مشهد دعوتهم للتوحيد، وهذا أهم مشهد، ففيه مواطن العبرة والعظة[1].

والنص القرآني يتخيَّر الحدَث الذي يخدم ما يتعرض له من قضايا، ليقدمه في سياق مناسب، من خلال القالب القصصي[2]، أحياناً بذكر الأسماء كما في قصة عيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ في سورة آل عمران[3]، وأحياناً بذكر الأماكن كما في سورة الكهف[4] وسورة مريم[5]، وأحياناً أخرى يذكر الأسماء والأماكن

---

(١) نفسه ص١٦٢-١٦٨ باختصار.

(٢) البيان القصصي في القرآن الكريم، د/ إبراهيم عوضي، دار الأصالة، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، الرياض ـ السعودية ص١١٦.

(٣) في سورة آل عمران تذكر القصة أسماء من يُبشَّر بولادتهم كمريم ابنة عمران، وعيسى بن مريم، وكافل مريم وهو زكريا، ويُبشَّر بولد اسمه يحيى ـ عليهم جميعاً سلام الله ـ.

(٤) لأن الغاية من القصة تحتاج لذكر بعض صفاتهم أكثر من احتياجها لأسمائهم. انظر: البيان القصصي، للدكتور إبراهيم عوضي، ص١١٦.

(٥) في سورة مريم تذكر القصة عدة أماكن مثل: مكاناً شرقياً، مكاناً قصياً، تحتك سرياً.

كما في قصة ذي القرنين في سورة الكهف[١] ـ وهذا نادر في أسلوب القرآن ـ وهذا يعني عدم الحاجة لدراسة ما أغفله القرآن، أو لم يذكره من أسماء وأماكن وهيئات وغير ذلك، لأن العبرة لا تتعلق بالأشخاص بل بالحدث المرتبط بهم.

والقصة القرآنية قد تكون مجملة في موضع، ومفصلة في غيره، حسب الحاجة والحكمة من ذلك، كما في قصة نوح مع قومه حيث أُجملت في سورة الأعراف[٢]، سورة نوح، وفُصِّلت في سورة هود[٣]، لمناسبة السياق لذلك، ويبرز في كل موضع جانبٌ من القصة هو موضع العظة والعبرة.

والله عز وجل قد قصَّ على نبيه ﷺ من القصص الشيء الكثير، كما قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ (طه: ٩٩).

## رابعاً: مزج التوجيهات الدينية بسياق القصة، قبلها وبعدها وفي ثناياها

كالتنبيه إلى دلالة القصص على الوحي بها، مثل بداية قصة يوسف[٤]، ونهاية قصة موسى في سورة القصص[٥]، وكالتنبيه إلى أن عقاب الله عادل كما ورد في

---

(١) كما ورد في سورة الكهف من آية ٨٣-٩٨.

(٢) انظر الآيات: ٥٩-٦٤ من نفس السورة.

(٣) انظر الآيات: ٢٥-٤٩ من نفس السورة.

(٤) قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾ (يوسف: ٣).

(٥) انظر الآيات: ٤٤-٤٦.

سورة العنكبوت عقب ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم، قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٠).

وغير ذلك من القصص القرآنية الممزوجة بالتوجيهات الإيمانية[١].

## خامساً: تنوع طريقة العرض:

فتارة تُسبق القصة بملخَّص لها، ثم تُذكر تفصيلاتها كقصة أهل الكهف، وتارة تُذكر عاقبة القصة ومغزاها ثم تبدأ مشاهدها كقصة موسى مع فرعون في سورة القصص، وتارة تُذكر القصة مباشَرَة بلا مقدمة ولا تلخيص، ويكون في مفاجآتها الخاصة ما يغني كقصة مريم عند ولادتها لعيسى عليهما السلام، وتارة أخرى بإحالة القصة إلى مشهد فيُذكر فقط من ألفاظها ما ينبه إلى ابتداء عرضها، ثم يُترك الأمر للقصة تتحدث عن نفسها بوساطة أشخاصها كمشهد بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة[٢].

وتمتاز القصة القرآنية بتنوع طريقة المفاجأة، ووجود فجوات بين مشاهدها المختلفة[٣].

---

(١) انظر: التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب ص١٦٩ وما بعدها.

(٢) نفسه: ١٨٠-١٨٣.

(٣) نفسه ١٨٣-١٨٩.

## سادساً: ومن خصائص القصص القرآني: أنه أحسن القصص:

كما قال تعالى في سورة يوسف للنبي ﷺ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ (يوسف: ٣) فهي: «تقدم البشري والأمل للمكروبين، وأصحاب الابتلاءات والمحن، والذين يعانون آلام الاضطهاد والفتنة»[١].

«ووصف القصص القرآني بكونه الأحسن ليس لأنها تتوسع في التفصيلات، أو تكثر من سرد الأحداث وتحديد الأسماء والأماكن... إنما لأن فيها الحق والصدق والصواب»[٢] والعظة والعبرة، والمتعة والاستئناس.

## سابعاً: ومما تميَّزت وانفردت به القصة القرآنية أنها:

«غير مقصودة لذاتها: وإنما هي لمعالجة وضع اجتماعي عقدي أو أخلاقي أو دعوي... أو لمعالجة وضع شخص مما يتعلق بحالته النفسية أو الفكرية أو السلوكية، وغير ذلك، وهي لا تُعنَى من حقائق التاريخ إلا بالقدر الذي يؤدي الدور الأساسي المقصود من البيان القرآني... فالمقصود من قصص القرآن يختلف باختلاف متلقيه، فهو للرسول تثبيت وتصديق، كما قال سبحانه: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ١٢٠)، وهو للصحابة تثبيت وتبشير، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى

---

(١) مع قصص السابقين في القرآن، للدكتور صلاح عبدالفتاح الخالدي، دار القلم، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، دمشق ـ سوريا ص٢٠.

(٢) نفسه ص٢١.

﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ١٠٢)، وهو للمؤمن تذكير وعظة، وللغافل تحذير ووعيد وإعذار وإنذار»[١] قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف: ١١١).

## ثامناً: شد القارئ لها وإيقاظ انتباهه:

فالقصة القرآنية - بالذات - تجعل قارئها أو سامعها في تأمل دائم في معانيها، واسترسال متواصل مع عباراتها وأحداثها، وتتبع متلاحق لمواقفها، وتأثر بشخصياتها وموضوعها حتى آخر كلمة فيها، ويتضح هذا كثيراً من قصة يوسف في سورة يوسف، ومن قصة موسى في سورة القصص.

## تاسعاً: تتعامل القصة القرآنية مع النفس البشرية:

في واقعيتها الكاملة، متمثلة في أهم النماذج التي يريد القرآن إبرازها للكائن البشري... ففي قصة يوسف مثلاً يُعرض نموذج الإنسان الصابر على المصائب، الداعي إلى الله في أحلك الظروف، ونموذج المرأة المفتونة بشاب جميل، ونموذج الأخْوَة الذين دفعهم الحسد للتآمر على أخيهم، ونموذج الأب المتعلق بولده المبتلى بفقده.. إلخ.

فالقصة القرآنية ليست غريبة عن الطبيعة البشرية، ولا محلِّقة في جو ملائكي محض، لأنها إنما جاءت علاجاً لواقع البشر.

---

(١) البيان القصصي في القرآن الكريم، للدكتور إبراهيم عوضي، ص١١١-١١٢.

## عاشراً: القصة القرآنية تثير الانفعالات وتربي العواطف:

فهي تبعث الخوف والترقب، وتحقق الرضا والارتياح والحب، وقد تسبب التقزز والكره، كل ذلك بسبب ما فيها من تصوير فني رائع لوقائع مصطفاة. وأكثر ما يتضح هذا في قصة يوسف[١] وموسى عليهما السلام.

## حادي عشر: تمتاز القصة القرآنية بالاقناع الفكري بموضوعها:

وذلك عن طريق الإيحاء والاستهواء والتقمص، فصبر يوسف في الجُبِّ، والسجن، وثباته في دار امرأة العزيز، وعدم اغتراره بالملك.. إلخ، كل ذلك يوحي بصدق إيمانه وقوة شخصيته فيؤدي ذلك إلى الإعجاب به والاقتناع بشخصه.

كما أن محاورة يوسف عليه السلام لصاحبي السجن أثناء دعوته إياهما للتوحيد تعتبر محاورة عقلية منطقية إقناعية لهما ولكل قارئ منصف عاقل، وكذا بقية حوارات الأنبياء مع أقوامهم الواردة في قصص القرآن في مشاهد الدعوة للتوحيد[٢].

## ثاني عشر: كما أن القصص القرآني يرتفع في أهدافه عن القيم الهابطة،

التي يحرص البشر على ترسيخها من خلال ما يسوقونه من القصص ـ كقصص الحب والغرام ونحوها ـ بل إن القرآن وهو يعرض قصة يوسف عليه

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، للنحلاوي ص٢٣٤-٢٣٦.

(٢) أصول التربية الإسلامية، للنحلاوي ص٢٣٧.

السلام في غرفة امرأة العزيز ظل مرتفعاً عن القيم الدنيئة، حتى وهو يصوِّر لحظة التعرِّي النفسي والجسدي لامرأة العزيز وتلفظها بما استعلى القرآن عن التصريح به[١].

## ثالث عشر: بناء القصة في القرآن:

تبيَّن من خلال تأمل قصص القرآن الكريم، أن لها بناءً خاصاً، حيث أن:

أ ـ بعض السور تذكر القصة بطريقة السرد، كقصة نوح عليه السلام في سورة نوح.

ب ـ وبعضها جاءت بطريقة الحوار كقصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود، ومع قومه ـ كما سبق شرحه ـ وقصة موسى مع فرعون[٢].

ج ـ وبعضها جاءت بكلا الطريقتين ـ السرد والحوار معاً ـ كقصة يوسف عليه السلام.

د ـ وبعضها جاءت على هيئة مشاهد حوارية كقصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ـ عليهم السلام ـ مع أقوامهم الكفار كما جاء في سورة الأعراف[٣]، وكقصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون في السورة نفسها[٤].

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٤/ ١٩٥٤.

(٢) راجع ص٩٤٢.

(٣) أي في الآيات ٥٩-٩٣.

وقد سبقت الإشارة لكثير منها.

(٤) أي من الآيات ١٠٣-١٥٦.

وقد سبق شرح كثير من ذلك.

## رابع عشر: تنوع زمان القصة ومكانها:

تضمَّنت آيات القرآن قصصاً وقعت على هذه الأرض في غابر الأزمان، كقصص الرسل مع أقوامهم في مَشاهِد الدعوة للتوحيد عبر التاريخ الرسالي، وهذا أكثر ما جاء في القرآن الكريم.

وتضمَّنت أيضاً قصصاً أخرى ستقع على غير هذه الأرض وفي الزمان القادم، كأحوال آلهة المشركين مع عُبَّادها يوم القيامة وفي نار جهنم، وأحوال الكفار مع بعضهم البعض ممن استُضعف أو استكبر، حيث صاغها القرآن الكريم بأسلوب الماضي وكأنها قصص وحوادث قد وقعت، إشارة إلى أنها من علم اليقين الذي لا شك في حصوله[1].

**ختاماً أقول:** إن أكثر القصص في القرآن الكريم قد جاء في السور المكية:

أي المرحلة المكية، حيث تميَّزت هذه المرحلة بتأسيس العقيدة، والاهتمام البالغ بأركان الإيمان، وأوَّلها وأهمها عقيدة التوحيد لله سبحانه وتعالى، وبيان ضلال المشركين بالله، وبطلان مبعوداتهم من دونه، والتوجيه نحو توحيد ألوهيته وأسمائه وصفاته، وليس أدل على ذلك من سورة الأنعام المكية التي دارت حول

---

(١) انظر على سبيل المثال ما جاء في:

أ ـ سورة إبراهيم: ٢١-٢٢.

ب ـ سورة سبأ: ٣١-٣٣.

ج ـ سورة الصافات: ٥٠-٦١.

د ـ سورة ص: ٥٥-٦٤.

هـ ـ سورة غافر: ٤٧-٤٨.

التوحيد وتعريف العبيد بخالقهم ونعم الله عليهم، ودعوتهم إلى توحيده في ألوهيته، وتحدثت عن عاقبة المكذبين بآيات الله، وكذا سورة النحل، وسورة الإسراء وغيرها من السور المكية.

## ثالثاً: نماذج من قصص القرآن التوحيدية ذات التأثير النفسي:

اشتمل القرآن الكريم في سياق تقريره التوحيد ودعوته إليه على قصص بلاغية أدبية، غلب عليها قوة الحجة، وقطعية البرهان، وأَخْذِ الخصم بأقرب طرق الإفحام والإلزام، وليس أدل على ذلك من تفننه في عرض قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع أبيه وقومه في دعوته لهم إلى التوحيد، ومحاجته إياهم حتى أُسقط في أيديهم، وبدا لهم ضلالهم أمام أعين الناس، فلما دُحضت حجتهم وانهزموا في مجال المناظرة والمجادلة العقلية لجؤوا إلى الانتصار لشركهم وآلهتهم بالقوة، وسعوا لإحراق إبراهيم عليه السلام، فنجّاه الله[1].

وتضمّن القرآن كذلك ـ وهو يدعو إلى التوحيد ـ قصص أخرى غلب عليها التأثير النفسي العاطفي في أشخاصها وعلى قارئها وسامعها، وأكتفي هنا بعرض نموذجين استخدمهما القرآن الكريم كأسلوب نفسي في عرضه أدلة وحدانية الله ووجوب توحيده وهما:

## النموذج الأول: دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ أباه إلى التوحيد:

قال تعالى ـ مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى

(١) انظر: سورة الأنبياء: ٥١-٧٠.

عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ (مريم: ٤١-٤٨).

رغم ما في السياق القرآني في الآيات السابقة من إمتاع نفسي عاطفي لما فيها من محسنات جمالية لفظية باستخدام القرآن لأسلوب السجع وغيره إلا أن لهجة إبراهيم عليه السلام وأسلوبه في خطابه لوالده وهو يدعوه للتوحيد فيها عدة معان وجدانية عاطفية تتضح من:

أ ـ نداء إبراهيم لوالده بلفظ: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ﴾ وتكراره هذا اللفظ أكثر من مرة، وقوله: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ كل ذلك يُشعر بأدب جم، و احترام عالٍ يحمله إبراهيم تجاه والده، ويتعامل به معه، ويوحي بعاطفته الحية في دعوته أباه إلى التوحيد، وبشدة حرصه على والده الضال المشرك، وجلب الخير له.

ب ـ حِجاج إبراهيم لوالده بسؤاله قائلاً: ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ وقوله: ﴿ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ فيه براهين عقلية منطقية على عدم استحقاق تلك الأصنام أي صورة من صور العبادة ـ كما سبق شرحه[1] ـ وفيه أيضاً نوع من استعطاف

(١) راجع ص٣٤٣ وما بعدها.

والده ودعوته لاتباع الحق الذي جاء به إبراهيم من عند الله، مشيراً بذلك إلى أن الأصل أن يكون اتباع الإنسان على علم، وأنَّ والده لا يزال على الجهل بالتوحيد بسبب ظلمات شركه بربه.

ج ـ ترغيب إبراهيم لوالده باتباعه ـ كونه يحمل الحق والتوحيد ـ بقوله: ﴿ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ وانتقائه للفظ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ وتكراره لذلك، وترهيبه له بقوله: ﴿ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾، وتخوُّفه عليه من استمراره على الشرك فيصير بعدها فريسة للشيطان عُرضة لعذاب الله، كلُّ هذا الترغيب والترهيب والتخويف ـ وقبله الاستعطاف والإلحاح على والده في إقناعه بالتوحيد ـ يوحي بأن إبراهيم عليه السلام يخاطب روح والده ومشاعره بقدر مخاطبته لعقله وأفكاره، ويوحي أيضاً بعظيم الرأفة والحنان والشفقة التي كان يحملها إبراهيم تجاه والده المشرك، وبشدة تخوفه عليه من عاقبة الشرك ـ وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة إلى الله تجاه المدعوِّين ـ.

د ـ رد إبراهيم على والده وقد هدَّده بالقتل رجماً بالحجارة ـ إن لم ينته عن دعوته إياه للتوحيد وكفره بأصنامه وأصنام قومه ـ بقوله: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ﴾ وقوله: ﴿ وَأَدْعُواْ رَبِّي ﴾ يشير إلى عدم يأسه ـ عليه السلام ـ من محاولة إنجاء والده من سخط الله عليه وتعرضه لعذابه، وعدم يأسه أيضاً من اهتدائه إلى التوحيد، فلا زال عنده أمل ورجاء وحُسن ظن بالله أن يهدي والده إلى الحق، فينجيه بذلك من عاقبة الشرك في الأولى والأخرى ـ وهكذا هم الدعاة المخلصون لله في كل زمان ومكان وهم يدعون خلق الله إلى الله ـ.

**أخيراً أقول:** إن القرآن الكريم يعرض مشهد إبراهيم عليه السلام وهو يدعو أباه للتوحيد[١]، ويصوِّر ذلك بأسلوب فني رائع ذي تأثير نفسي يُقنع النفوس قبل العقول بأهمية التوحيد وضرورته لصلاح أحوال الإنسان كلها، وعدم الاستغناء عنه أبداً لمن أراد السير على الحق، والنجاة من كل شرٍّ، ونيل كل خير في الدنيا والآخرة.

لقد كان أسلوب القصة القرآنية في هذا المشهد يتعامل مع المشاعر والأحاسيس النفسية، ويدور حول الخوف والرجاء، والترغيب والترهيب، والأمل وعدم اليأس، وحب الخير وكره الشر، وكل ذلك من الحالات النفسية التي تعتري كل إنسان، ويتعرض لها كل قلب.

ومن هنا سعى القرآن إلى إثارة هذه المشاعر لغرس عقيدة التوحيد وتحقيق القناعة القلبية بها، بل التعلق النفسي والشغف الوجداني بذلك، رغم أن الله تعالى قد أعلَنَ كل العبيد، قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ (الزمر: ٧) وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (فاطر: ١٥) وإنما هو ابتلاء ليرى الله ـ وهو يعلم مسبقاً ـ من يشكر ومن يكفر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الزمر: ٦٦).

---

(١) وهناك دلالات نفسية أخرى في الآيات المتعلقة بطريقة تفكير إبراهيم عليه السلام للوصول إلى الإله الحق، واستدراج قومه نحو التوحيد مما جاء في سورة الأنعام ٧٤-٧٩ ذكرها صاحب القرآن وعلم النفس، الدكتور نجاتي ص١٣٢ وما بعدها.

## النموذج الثاني: إنكار هدهد سليمان ما وقع من الشرك في أرض سبأ:

حفل القرآن الكريم بعدة قصص تضمَّنت أدلة وحجج وحدانية الله ووجوب توحيده، منها ما جاء على لسان أنبياء الله ورسله إلى البشر، ومنها ما جاء على لسان غيرهم، ومن ذلك ما سجَّله كتاب الله عن هدهد سليمان، قال تعالى عن سليمان الذي كان يتفقد رعيته آنذاك: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ[1] مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾ (النمل: ٢٠-٢٦) رغم أن هذه الآيات تعرض دليل التوحيد بصورة عقلية منطقية مقنعة، وتستدل بربوبية الله على ألوهيته وحده في أوجز عبارة، وأوضح إشارة، ورغم تنبيه الهدهد إلى بطلان عبادة الشمس من دون الله، واستنكاره واستعظامه ما وقع من ملكة سبأ وقومها من شرك بالله، وسجود لغيره، وعدم اهتدائهم إلى

---

(١) أي حجة بينة، فتح القدير للشوكاني ٤/ ١٧٥.

الحق بصرف العبادة له وحده[١] ـ كونه الذي يخرج كل مخبوء في السماوات والأرض من مطر ونبات وغيره، ويعلم سر كل شيء وعلانيته. وهو رب العرش العظيم ـ رغم عرض الآيات لهذا كله إلا أنا نلاحظ أنها قد أوردت هذا المشهد أو القصة بأسلوب ذي تأثير نفسي رائع كما يلي:

أ ـ كون إنكار الشرك وإقرار التوحيد والاستدلال عليه يقع من طائر تعارف البشر على أنه لا يعي ولا يعقل، فكيف يستنكر ذلك ويستعظمه وهو حيوان غير إنسان، وغير ناطق بكلامه؟.

فمثل هذا الأمر يثير التعجب لدى قارئ القصة وسامعها، ويدفعه لمتابعة ومعرفة ما وقع من الهدهد الطائر في بقية القصة بنفسٍ مشرئبة متعلقة بهذا المشهد الغريب.

ب ـ كون هذا الهدهد ـ كما يعرضه السياق القرآني ـ صاحب مشاعر نفسية وأحاسيس وجدانية، إنه يستنكر ويستعظم ويتعجَّب، وينفعل، لما وقع من شرك، في أرض ملكة سبأ، ويلفت الانتباه ويُذكِّر الإنسان بنعم الله عليه بالمطر والنبات وغيره، ويستدل بذلك كله على استحقاق الله للعبادة.

ومعلوم أن الاستنكار والاستعظام والتعجب والانفعال ونحو ذلك إنما هي مشاعر وأحاسيس نفسية تدور في باطن الإنسان ووجدانه، وكأن الله تعالى جعلها

---

(١) مع ملاحظة أن ابن عاشور يرى أن قوله تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (النمل: ٢٤-٢٦). مما ذيَّله القرآن في كلامه الملقى إلى سليمان عليه السلام، وليس من كلام الهدهد. انظر: التحرير والتنوير ١٩/ ٢٥٠

للهدهد وهو يعرض حجة التوحيد في هذه الآيات من باب الإشارة للعقلاء ليكون حالهم كحال الهدهد من استقباح واستنكار كل شرك يقع على الأرض ما له من الله برهان. قال سيد قطب رحمه الله في تفسيره للآيات السابقة الذكر: «ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب، صاحب إدراك وذكاء وإيمان، وبراعة في عرض النبأ، ويقظة إلى طبيعة موقفه، وتلميح وإيماء أريب، فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية، ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله، ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله...»[1].

وهكذا ينبغي أن يدرك الناس بعقولهم ونفوسهم.

**عموماً**: يمكن القول ـ إجمالاً لكل ما سبق من قصة إبراهيم عليه السلام مع والده وقصة هدهد سليمان في إنكاره الشرك بالله ـ: أن القصة القرآنية ذات تأثير نفسي بليغ في نفس قارئها وسامعها، مصداقاً لقول النبي ﷺ: «**إن من البيان لسحراً**»[2] فهي:

١- تبعث الخيال الذي يشاهد القصة، ويتعقبها من موقف إلى آخر ومن تصرف إلى شعور.

٢- تحقق المشاركة الوجدانية لأشخاص القصة، وتثير في النفس مشاعر عِدَّة، قد تتفجَّر وتفيض، وقد تصل إلى حد البكاء أو شيب الشعر كما قال ﷺ

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في ٥/ ٢١٧٦، في كتاب الطب، باب إن من البيان سحراً، برقم ٥٤٣٤ عن عبد الله بن عمر.

وفي رواية: «**إن بعض البيان سحر**».

عن سورة هود بما فيها من قصص الأنبياء مع أقوامهم ونحوها من السور: «**شيبتني هود وأخواتها**»[١].

٣- تحقق انفعال النفس بالمواقف حين يتخيل قارئها أو سامعها نفسه داخل الحوادث... فإذا به يستنكر أو يندهش أو يتعجب أو يوافق... إلخ.

إن الله الذي أنزل القرآن يعلم هذا الميل الفطري لدى كل إنسان إلى القصة، ويدرك ما لها من تأثير ساحر على القلوب، فيجعل منها وسيلة لتقرير حقيقة التوحيد من خلال عرضه لمشاهد ووقائع الدعوة إليه وذكره لحجج السابقين وطريقة احتجاجهم واستسلام خصومهم لهم أو مكابرتهم لذلك، ثم بيانه لعاقبة المؤمنين وكذا المشركين.

إنه يستخدم كل أنواع القصة: القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها[٢]، والقصة التي تعرض نموذجاً لحالة بشرية قد تتكرر مع أي بشر آخر[٣]. والقصة التخيلية التي لا تُصَوِّر واقعة بذاتها، وإنما هي تَصَوُّرٌ لما قد يقع في أي لحظة من اللحظات وفي أي عصر من العصور[٤].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٧/ ٢٨٧، برقم ٧٩٠، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٣٤٣، في كتاب التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «**شيبتني هود والواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت**» وقال: هذا حديث صحيح على شرح البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وقال الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ٦٣٩، برقم ٩٥٥: (وسنده جيد).

(٢) كقصص الأنبياء والمكذبين برسالاتهم مما سبق الحديث عنه.

(٣) كقصة الذي انسلخ عن آيات الله كما جاء في سورة الأعراف: ١٧٥-١٧٦.

(٤) كقصة صاحب الجنتين في سورة الكهف: ٣٢-٤٤.

إن القرآن بذلك كله يربي الروح والعقل معاً، ويقيم التوحيد في النفوس والقلوب في آنٍ واحد ويرسخه أيضاً.

إن لهذا الأسلوب «تأثيراته النفسية، وحججه المنطقية والعقلية، وانطباعاته الذهنية»[١].

يقول سيد قطب رحمه الله وهو يشرح طريقة القرآن في عرض قصصه ـ ومنها قصص ومشاهد الدعوة للتوحيد: «لقد كانت السمة الأولى للتعبير القرآني هي اتباع طريقة تصوير المعاني الذهنية والحالات النفسية، وإبرازها في صُوَرٍ حِسِّية، والسير على طريقة تصوير المشاهد الطبيعية، والحوادث الماضية، والقصص المروية، والأمثال القصصية،... والنماذج الإنسانية... كأنها كلها حاضرة شاخصة بالتخييل الحِسِّي الذي يُفعمها بالحركة المتخيَّلة»[٢].

ثم تساءل سيد قطب قائلاً: فما فضل هذه الطريقة القرآنية على الطريقة الأخرى ـ يقصد طريقة البشر ـ التي تنقل المعاني والحالات النفسية في صورتها الذهنية التجريدية، وتنقل الحوادث والقصص أخباراً مروية؛ وتُعبِّر عن المشاهد والمناظر تعبيراً لفظياً، لا تصويراً تخييلياً؟

**ثم أجاب قائلاً:**

«يكفي لبيان هذا الفضل، أن نتصوَّر هذه المعاني كلها في صورتها التجريدية، وأن نتصوَّرها بعد ذلك في الهيئة الأخرى التشخيصية:

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، لعبد الله علوان ١/ ٦٩٣.

(٢) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب ص٢٤١ باختصار.

إن المعاني في الطريقة الأولى[1] تخاطب الذهن والوعي، وتصل إليهما مجردة من ظلالها الجميلة.

وفي الطريقة الثانية تخاطب الحس والوجدان، وتصل إلى النفس، من منافذ شتى:

من الحواس بالتخييل، ومن الحس عن طريق الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء، ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس، لا منفذها المفرد الوحيد.

ولهذه الطريقة فضلها ولا شك في أداء الدعوة لكل عقيدة... فوظيفة التعبير الفني والتصوير الحي القرآني لمشاهد الدعوة للتوحيد هي إثارة الانفعالات الوجدانية، وإشاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة، وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه»[2].. ثم ضرب سيد قطب أمثلة للاستدلال على ذلك ذكرنا كثيراً منها في سياق البحث.

وبعد أن ذكرتُ نموذجين من قصص القرآن التوحيدية أقول:

يؤكد علماء النفس المعاصرون أن للقصة أثراً على نفسية سامعها أو قارئها أو مُشاهِد أحداثها، بل يعتبرونها وسيلة هامة لإثارة دوافع التعلم «وذلك لما تُحدثه من التشويق لدى المستعمين، ولما تستدعيه من الانتباه إلى تتبع الأحداث التي تُروى في القصة»[3] «فهي محبَّبة إلى النفس، مؤثرة فيها، سهلة الحفظ... وتدفع إلى

---

(١) يقصد طريقة البشر.

(٢) نفسه ص٢٤١-٢٤٢.

(٣) القرآن وعلم النفس، للدكتور محمد عثمان نجاتي ص١٦٠.

المحاكاة والتقليد في الأخلاق والأفعال، وقد يصل الأمر بسامعها إلى الانفعال التام لمجريات أحداثها، فيترجم ذلك بحزن وبكاء، أو فرح وسرور»[١]، وفيها عظات وعبر وخاصة قصص الأنبياء والمرسلين التي أكثر القرآن منها، فقد قال سبحانه في شأنها وشأن أشخاصها: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف: ١١١).

لقد قصَّ الله على رسوله محمد ﷺ قصصاً كثيراً عمن سبقه على طريق الدعوة للتوحيد، لتثبيت فؤاده وتحقيق اتعاظ المؤمنين كما سبقت الإشارة إليه.

ورغم ذلك إلا أنا نجد أنها تساهم في تحقيق عدة أمور منها:

أ ـ ترسيخ براهين التوحيد في ذهن رسول الله ﷺ وكل من آمن بالقرآن الكريم، وذلك باستعراضها دلائل الأنبياء السابقين وطريقة استدلالهم على الله ـ وخاصة ما وقع من إبراهيم وموسى مع كفار عصرهم.

ب ـ زيادة أدلة الإيمان وحججه القاطعة في كتاب الله الخالد إلى قيام الساعة، فتقوم الحجة على الخلق إلى ما شاء الله.

ج ـ تأكيد القرآن أن العاقبة دائماً للمتقين الموحِّدين والهلاك لغيرهم، وهذه هي سنة الله في خلقه التي لن تتحول ولن تتبدل مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر: ٤٣) قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف: ١١٠).

---

(١) منهج الإسلام في تزكية النفوس، للدكتور أنس كرزون ١/ ٤٨٣ بتصرف.

وقال: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأنعام: ٣٤).

لقد أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يقص على مشركي زمانه قصص من سبقه من الرسل مع كفار عصرهم فقال: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٦).

وفي بعض هذه القصص تسجيل لما وقع من جدال ومناظرات بين الأنبياء وأقوامهم في مشاهد الدعوة للتوحيد ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ وقد تضمَّنت هذه المناظرات استدلالات قوية وحججاً قاطعة على وحدانية الله ووجوب توحيده، أقرَّها القرآن وأثبتها في سطوره، بل استشهد بها، وأمر النبيَّ ﷺ أن يأخذ بها، ففي سورة الأنعام على سبيل المثال بعد أن قصَّ الله على رسوله ﷺ قصة إبراهيم عليه السلام في دعوته لقومه إلى التوحيد قال له: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (الأنعام: ٩٠).

ذكر الرازي عدة معاني للآية منها:

«أي هَداهم الله إلى إبطال الشرك وإثبات التوحيد ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ أي في نفي الشرك وإثبات التوحيد»[1] غاية ومنهجاً، وقد سبق بيان أن الرسل جميعاً دعوا إلى إله واحد ـ كما أشارت إليه بعض آي القرآن[2] ـ هو الله الذي لا إله إلا هو.

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٣/ ٥٧.

(٢) راجع ص ١٠٢١.

**أخيراً أقول:**

إن أسلوب القرآن في تقرير التوحيد والدعوة إليه من الناحية النفسية ـ سواء عبر الترغيب والترهيب أو عبر القصص المؤثرة أو غيرها ـ قد اعتمد على كثير مما وصل إليه علم النفس التربوي الحديث، محقِّقاً بذلك السبق العلمي في أصول التعامل مع النفس البشرية وطريقة تربيتها وغرس المفاهيم والعقائد فيها بصورة تضمن بقاءها وتحقق ثمارها.

إن علم النفس المعاصر يقرر أنه لا يمكن تربية كل فرد والتأثير عليه إلا من خلال الأمور الآتية:

**أولاً**: دوافعه الفطرية النفسية التي فطره الله عليها وضرورة إشباعها ـ سواء دافع الطعام أو الشراب أو الأمن وحفظ الذات أو التملك للأشياء[١] ـ وهذا كله قد استغله القرآن في غرس عقيدة التوحيد بوعده لمن اعتقدها بخيري الدنيا والآخرة ـ وترغيبه في ذلك ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ[٢].

**ثانياً**: عقله الباطن، ودوافعه اللاشعورية المكبوتة التي لا تظهر إلا في أوقات معينة وبغير قصد[٣]، والقرآن الكريم قد استغل ذلك في انتزاع اعتراف الكفار بالتوحيد بناءً على ما كمُنَ في باطنهم، وما غُرس في فطرتهم، ولا يظهر إلا وقت الشدائد ـ كما سبق شرحه[٤] ـ.

---

(١) انظر: أصول علم النفس، للدكتور أحمد عزت راجح ص٨٥-١٠٨. و: القرآن وعلم النفس، للدكتور محمد عثمان نجاتي ص٢٥-٤٩.

(٢) راجع ص ١٠١٣.

(٣) مثل فلتات اللسان وزلات القلم.

(٤) راجع ص٢٢٠.

**ثالثاً:** انفعالاته الوجدانية من حُزن وفرح وسرور وبكاء وخوف وأمن وحُبٍّ وكره وتعجب وإعجاب ودهشة واستعظام[١]... إلخ، وهذا أيضاً قد استغله القرآن لغرس التوحيد كما سبقت الإشارة إليه.

**رابعاً:** قدرة كل إنسان على الانتباه والإدراك الحسي والتركيز، واستجابته للمنبهات الحسية والنفسية والعقلية وغير ذلك[٢]، والقرآن الكريم قد لفت انتباه الإنسان إلى آيات الله الكونية والقرآنية ونِعمه عليه في نفسه وما حوله، ليستدل بذلك على استحقاق الله لتوحيد العبادة.

**خامساً:** قدرته على التعلم والتعرف على الأشياء وما تدل عليه وعلاقاتها مع غيرها[٣]... إلخ، والقرآن الكريم قد دعى الإنسان لدراسة وفحص علاقات المخلوقات بعضها ببعض، والبحث عمن أوجدها، ونظّمها وأتقنها وسخرها، وجَعَلَ لها ناموساً واحداً لا يتغير ولا يتبدّل ليستدل بذلك كله على خالقها.

**سادساً:** قدرة الإنسان على التفكير والتفكر والتذكر والاستدلال والاستنباط والابتكار من خلال نظره في المقدمات ووصوله إلى النتائج، واستقرائه في المظاهر والظواهر للوصول إلى المعاني الباطنة أو الحقائق الغائبة المجردة[٤]، والقرآن الكريم قد استغل ذلك في دعوة الإنسان إلى الاستقراء

---

(١) انظر: المرجعين السابقين: الأول: ص١٢٩-١٥٢، والثاني: ص٥٠-٦٥.

(٢) انظر: أصول علم النفس، للدكتور راجح ص١٧٧-٢٠٥، والقرآن وعلم النفس للدكتور نجاتي ص١١٥-١٢٦.

(٣) انظر: نفس المرجعين، الأول ص٢٠٩-٢٩١، والثاني ص١٤٤-١٩٢.

(٤) نفس المرجعين، الأول ص٢٩٥-٣٧٠، والثاني ص١٩٣-٢٠٠.

والقياس ونحو ذلك لإبطال الشرك وإحقاق حق التوحيد، وإثبات كمال الله وعلوه في أسمائه وصفاته.

**سابعاً**: استجابة كل إنسان للثواب والعقاب، وإسهام المدح والثناء وحُسن الجزاء، والتبشير والوعد بالخير في دفع الشخص نحو النافع المفيد له، وكذا أثر الذم والتعيير والإنذار والتخويف في إبعاده عن كل ما يسبب له الشر أو يحرمه الخير، والقرآن الكريم قد سبق لذلك بوعده ووعيده وترغيبه وترهيبه في سبيل إقامة التوحيد وتثبيته في نفوس الناس.

**ثامناً**: الخطوات الصحيحة في التفكير وحل المشكلات ابتداء من الشعور بوجود مشكلة ثم جمع البيانات حول موضوعها ثم وضع الفروض ثم التأكد من صحتها للوصول إلى النتائج الصحيحة الحقيقية، والقرآن الكريم قد سبق لذلك من خلال عرضه لقصة إبراهيم عليه السلام وهو يبحث في ملكوت السماوات والأرض عن ربه حتى وصل في تفكيره إلى التبرؤ من الشرك ـ كما سبق شرحه ـ.

**تاسعاً**: توزيع التعلم على فترات متباعدة فقد بيَّنت الدراسات التجريبية التي قام بها علماء النفس المعاصرون مؤَّخراً أن توزيع التعلم أو التدريب على فترات متباعدة... يساعد على سرعة التعلم وتثبيت المعلومات في الذاكرة، وأن التعلم الذي يحدث باستخدام طريقة التوزيع أفضل بكثير من التعلم الذي يكون دفعة واحدة، وبصورة مركَّزة[1]، وقد طبَّق القرآن الكريم هذا المبدأ حيث استمرت دلائل التوحيد وحججه تتنزل على فترات طويلة خلال ثلاث وعشرين

---

(١) القرآن وعلم النفس، للدكتور نجاتي ص١٧٣.

عاماً هي فترة تنزل القرآن وتبليغ الرسول لآيات الرحمن، قال تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ (الإسراء: ١٠٦).

**عاشراً: التدرج في تعديل السلوك والمعتقدات:** يقرر علماء النفس أنَّ التخلص من بعض العادات التي ورثها الإنسان واعتاد عليها زمناً طويلاً ليس بالأمر السهل اللين، بعد أن أصبحت ثابتة ومستقرة في عقل الإنسان وسلوكه، ويؤكدون أنه لابد من إرادة قوية وجهد كبير وتدريب طويل لاقتلاع السيء من ذلك وتثبيت الحسن منه، ولذلك فإنه لابد من التدرج في عملية إحلال الأفكار والعقائد الحسنة والتدرج في محو سيئها حتى الوصول لمرحلة التخلص النهائي منها، وقد بيَّنت بعض التجارب التي أجراها بعض علماء النفس أنه أمكن بطريقة التدرج معالجة كثير من السلوكيات غير المرغوبة واقتلاعها وإحلال المرغوب محلها[1]، وهذا ما فعله القرآن الكريم في التدرج بغرس عقيدة التوحيد ومحو الشرك ابتداء من الدعوة للنظر في دلائل التوحيد الإنسانية والكونية وانتهاء بوحي الله لرسوله ﷺ وأمره بتكسير الأصنام الموجودة داخل الكعبة المشرَّفة في فتح مكة، وما بين ذلك كان القرآن ينصب أدلة وحدانية الله ووجوب توحيده ويجادل ويحاجج ويناظر كما سبق شرحه في أكثر المباحث السابقة من هذه الرسالة.

ومما يؤكد تدرج القرآن في غرس عقيدة التوحيد ما جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «**إنما نزل أول ما نزل منه ـ أي من القرآن ـ سورة من المفصل، فيها ذِكْرُ الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال**

---

(١) القرآن وعلم النفس لنجاتي ص١٧٣ بتصرف.

والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً... الخ الحديث»[1].

وهكذا أبدع القرآن الكريم في استخدامه الأساليب النفسية لعرض أدلة التوحيد وإقامته في النفوس، كما أبدع في استخدامه الأساليب البلاغية لذلك، وهذا يعني أن كلام الله متميِّز في عرضه أدلة وحدانية الله ووجوب توحيده، وهذا ما عناه محمد قطب بوصفه لأسلوب القرآن في عرض أدلة التوحيد والإيمان قائلاً: إنه «ليس ذلك الأسلوب العقلي الجاف، الذي تستخدمه البحوث العلمية، ولا هو التجريد الذهني الذي تستخدمه الفلسفة، إنما هو نسق فريد من التعبير لا مثيل له فيما يكتب البشر أو يتحدثون، لا يفقد النبض الحي»[2].

وبعد أن انتهيت من شرح أساليب القرآن البلاغية في تقرير التوحيد والدعوة إليه يبقى الحديث عن خصائص المنهج القرآني في عرضه لأدلة التوحيد النفسية والعقلية، وهذا ما أبسط القول فيه في الفصل الثاني من هذا الباب بعنوان: خصائص أدلة التوحيد القرآنية:

---

(١) أخرجه البخاري في ٤/ ١٩١٠ في كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، برقم ٤٧٠٧.

(٢) دراسات قرآنية ص٢٠ باختصار.

# الفصل الثاني

## خصائص أدلة التوحيد القرآنية

**ويتكون من مبحثين:**

**المبحث الأول:** خصائص أدلة التوحيد القرآنية.

**المبحث الثاني:** الفرق بين طريقة القرآن وطرق الفلاسفة وعلماء الكلام في الاستدلال على الخالق.

# الفصل الثاني

## خصائص أدلة التوحيد القرآنية

### تمهيد:

من المعلوم أن القرآن الكريم قد تميّز بعدة خصائص بشكل عام، تحدّث عنها أهل العلم السابقون ضمن حديثهم عن وجوه إعجاز القرآن الكريم، وجمعها بعض الباحثين المعاصرين في كتبهم[1]، ومن آيات القرآن الكريم التي تنطبق عليها كثير من خصائص القرآن العامة وتنفرد بخصائص خاصّة بها آيات التوحيد.

لقد تميّزت أساليب القرآن في تقرير التوحيد والدعوة إليه بعدة خصائص جعلت طريقته تتفوّق على طُرق الفلاسفة وعلماء الكلام في التعريف بالله من عدة نواحي.

ولتوضيح ذلك رأيتُ تقسيم هذا الفصل إلى المبحثين الآتيين:

**المبحث الأول: خصائص أدلة التوحيد القرآنية.**

**المبحث الثاني: الفرق بين طريقة القرآن وطرق الفلاسفة وعلماء الكلام في الاستدلال على الخالق.**

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: علم الإعجاز القرآني بين الفن والتاريخ، للدكتور خليل رجب الكبيسي.

# المبحث الأول

## خصائص أدلة التوحيد القرآنية

### تقديم:

أجمل ابن القيم رحمه الله خصائص الأدلة العقلية القرآنية للعقائد الإسلامية ـ ومن ذلك أدلة التوحيد ـ بقوله:

«وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية من التوحيد، وإثبات الصفات.. وردّ النِّحل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن، فإنه كفيل بذلك كله، متضمِّنٌ له على أتم الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول، وأفصحها بياناً... وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريراً، وأحسن تفسيراً..»[1].

وقال في موضع آخر مادحاً أدلة القرآن: «وليس في الأدلة أقوى ولا أظهر ولا أصح دلالة من القرآن... لا يلحقها إشكال، ولا يغيّر في وجه دلالتها إجمال، ولا يعارضها تجويز واحتمال،... فضلُها على أدلة أهل العقول والكلام، كفضل الله على الأنام، لا يمكن أحداً أن يقدح فيها قدحاً يوقع في اللبس... ومن عجيب

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لشمس الدين محمد بن أبي بكر، الشهير بابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد فقي، دار المعرفة، ط، د.ت، بيروت ـ لبنان ١/ ٤٤ باختصار.

شأنها أنها تستلزم المدلول استلزاماً بيِّناً، وتُنبِّه على جواب المعترض تنبيهاً لطيفاً، ففيها إقامة الدلالة، والجواب على المعارضة والشبهة، وهذا الأمر إنما هو لمن نوّر الله بصيرته، وفَتَح عين قلبه لأدلة القرآن، وآتاه فهماً في كتابه،...»[١].

وقال عنها في موضع ثالث: «والله سبحانه حاجَّ عباده على ألسنة رسله وأنبيائه فيما أراد تقريرهم به، وإلزامهم إياه بأقل الأدلة تكلفاً، وأعظمها غِناءً ونفعاً، وأجلِّها ثمرة وفائدة، فحجج القرآن العقلية... جمعت بين كونها عقلية سمعية،...، قليلة المقدمات، سهلة الفهم، قريبة التناول، ملزمة للمعاند والجاحد، ولهذا كانت المعارف التي استُنبِطت منها في القلوب أرسخ، ولعموم الخلق أنفع، وإذا تتبع المتتبع ما في كتاب الله، مما حاجَّ به عباده، في إقامة التوحيد، وإثبات الصفات،... وطرق إثبات علمه بكل خفي وظاهر، وعموم قدرته ومشيئته، وتفرده بالملك والتدبير، وأنه لا يستحق العبادة سواه، وجد الأمر في ذلك على ما ذكرناه، من تصرف المخاطبة منه سبحانه في ذلك على أجل وجوه الحجاج، وأسبقها إلى القلوب، وأعظمها ملاءمة للعقول، وأبعدها من الشكوك والشُّبه، في أوجز لفظ وأبينه، وأعذبه وأحسنه، وأرشقه وأَدَلِّه على المراد»[٢].

وصدق ابن القيم رحمه الله، فقد تبيَّن لنا من خلال استقصاء أدلة التوحيد القرآنية واستقرائها أنها اتصفت بعدة صفات، يمكن توضيح أبرزها من خلال المطالب الاثنى عشر الآتية:

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لمحمد بن أبي بكر الدمشقي، الشهير بابن قيم الجوزية، تحقيق د/ علي بن محمد الدخيل، دار العاصمة، ط١، ١٤٠٨هـ، الرياض - السعودية ٣/ ١١٩٩-١٢٠٠ بتصرف واختصار.

(٢) الصواعق المرسلة ٢/ ٤٦٠ بتصرف.

# «المطلب الأول»

# «قطعية أدلة التوحيد القرآنية ويقينيتها»

لو أرجعنا البصر فيما سبق شرحه من أدلة التوحيد القرآنية لوجدناها مثلما هي قطعية الثبوت عن الله، فهي أيضاً قطعية الدلالة على ما سِيقت لأجله، قاطعة للشكوك والشبهات، موصِدَة الأبواب أمام كل طعن وتشكيك واستفسار، إلا من معاند مكابر، أما المنصفون من الكفار فقد شهد لسان حالهم ومقالهم بقوة أدلة القرآن واستدلالاته[١]، فالقرآن يقدم للإنسان أدلة التوحيد التي لا يمكنه إنكارها، أو إنكار مدلولها وملزومها، أو التنكر لها، أو القدح فيها والاعتراض عليها، كقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (الواقعة: ٥٨، ٥٩) وقوله سبحانه: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (الواقعة: ٦٨-٧٣) وغير ذلك من الآيات[٢] سبق الحديث عنها.

وعلى سبيل المثال ما جاء في الآيات الآنفة الذكر ففيها براهين قاطعة الدلالة على وجود رب للكون هو خالقه ومالك أمره ومدبر شئونه، ولا ينكر ذلك إلا

---

(١) راجع ص٩٠٧.

(٢) كما في سورة البقرة ٢٥٨، والنمل ٦٠-٦١.

فاقد العقل والأحاسيس، الذي لا يرى ولا يستشعر ما فيه وما حوله من آيات الله الظاهرة المحسوسة الملموسة.

وهذه الآيات قد بلغت الغاية في حقيقتها واتصفت بأعلى درجات اليقين علماً وعيناً وحقاً، وهكذا بقية أدلة التوحيد القرآنية القطعية اليقينية تضع متلقيها أمام ثلاث حقائق لا رابع لها.

أ ـ إما أن يُقِرَّ بوحدانية الله ووجوب توحيده، ويسعى لذلك بقناعة تامّة.

ب ـ أو يخضع لتلك الحجج العقلية المنطقية، ويُسلم بيقينيتها وإن لم يعلن إسلامه لرب العالمين.

ج ـ أو يغالط نفسه ويتنكَّر لما أحسَّت به جوارحه ووقر في قلبه فيستمر على الكبر والجحود، رغم عجزه عن رد أدلة القرآن واستدلالاته، وإبطال مقرَّراته في شأن وحدانية الله ووجوب توحيده.

لقد اتصفت أدلة التوحيد القرآنية بالقطعية واليقينية كون القرآن كما قال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢) فهو من عند الله ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ (النساء: ١٢٢) وكون حامله إلى البشر محمد رسول الله ﷺ الذي زكَّاه الله وزكّى نطقه بقوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ (النجم: ٣-٤).

ونظراً لاتصاف أدلة التوحيد القرآنية بالقطعية واليقينية فقد كانت قاطعة للشكوك والشُّبه، مقيمة للتوحيد على أرسخ وجه وأقواه وأتمه وأكمله.

# «المطلب الثاني»

## «شدة قرب أدلة التوحيد القرآنية من المخاطبين بها وأحاطتها بهم»

مما تميّزت به أدلة التوحيد القرآنية سهولة التعرف عليها، والوصول إليها، دونما عنت ومشقة، وذلك لقربها البالغ من الإنسان وجوارحه، وإحاطتها الكاملة بجميع بدنه، بل هي نابعة من داخل ذاته ولو لم يكن الأمر كذلك لما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ ﴾ (الروم: ٨) وقال: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢١).

ومن الأمثلة القرآنية الدّالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ ﴾ (الطارق: ٥-٧) وقوله: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ... ﴾ (عبس: ٢٤-٣٢) إلخ الآيات، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ ﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠) وغيرها من الآيات التي خاطب الله فيها جميع خلقه ودعاهم إلى التأمل في أنفسهم وما حولهم.

إن القرآن الكريم يستدل على التوحيد بنفس الإنسان وبدنه، وطعامه وشرابه، وزوجه وأولاده، وأرضه وغيثه ونباته، وأنعامه ومركوباته، والسماء

التي تُظِلُّه، والجبال التي تُقِلّه، وغير ذلك، فهل هناك أدلة يُستدل بها أقرب من ذلك، وأكثر إحاطة بالإنسان منها؟

قال محمد قطب: «لقد خاطب القرآن الإنسان بقضية التوحيد من كل جانب، ودخل إليه من كل أقطار نفسه: من صفحة الكون المعروضة أمامه، من الأحداث الجارية حوله، من نفسه وما يجري فيها، من مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة، مما تدركه الحواس وما لا تدركه الحواس... كما واجهه بحقيقة نفسه عاجزاً ضعيفاً محتاجاً، مقراً بعجزه في ساعة الكرب، ملتجئاً إلى الله ساعة الشدة، مستكبراً طاغياً حين تنتهي الشدة وتمر.. وبهذه المواجهة الدائمة الشاملة المحيطة يظل بالقلب البشري حتى يتفتح لحقيقة الألوهية، ثم يؤمن بها، ثم يستقر الإيمان في القلب، ثم يستقيم على الإيمان»[1].

---

(١) دراسات قرآنية، لمحمد قطب ص٣٣.

# «المطلب الثالث»

## «مناسبتها لكل العقلاء من الخاصة والعامة»

نظراً لتميز أدلة التوحيد القرآنية بالسهولة والوضوح والواقعية والمباشرة، فقد كانت ميسورة الإدراك، سهلة التصور من الخاصة والعامّة «فلو أنها خاطَبَتْ الأذكياء والخاصة بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء أو العامَّة لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنها خاطبت العامّة باللمحة والإشارة التي يُخاطب بها الأذكياء لما استوعبها الأغبياء والعامّة...

وهذا ما يفتقده المنطق وعلم الكلام والذي قد يتناسب مع طائفة دون غيرها، فأدلة التوحيد تناسبت مع البُلغاء بأبلغ التعبير، ومع غيرهم بأحسن الكلام وأقربه إلى عقولهم، لا يلتوى على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان، فهي ميسّرة لكل من أراد الوصول إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1].

ورغم أن الخاصة يفهمون من أدلة التوحيد أكثر مما يفهمه العامة إلا أن الجميع يدركون الإدراك الكافي من مغزاها ومدلولها، وعلى سبيل المثال قوله تعالى عن خلق الإنسان: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ ﴾ (الطارق: ٦، ٧) يدرك معنى الآية كل الناس، لكن مستوى إدراكهم جميعاً يختلف حسب استعدادهم وقدراتهم العلمية وتخصصاتهم، فنظرة

(١) القمر: ١٧. وانظر: النبأ العظيم، للشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز، ص١١٣.

العامِّي إليها غير نظرة العالم البيولوجي المتخصص في علم الأجنة[1]، وهكذا بقية أدلة التوحيد القرآنية[2]، فقراءة العامي لها وفهمه منها غير اللغوي غير المتخصص في الطب والفلك...إلخ، لكنها ترضي الجميع، وتحقق قناعة كل العقلاء بما جاءت لأجله.

إننا نجد أن أدلة التوحيد القرآنية: «هي الأدلة التي يدركها العقل دون حاجة إلى غوصٍ في لحجج الاستدلال، ومن غير أن يعتريه وهْمٌ أو عجز أو كلال، ويستوي في إدراكها مبدئياً البدوي الساذج والعالِم الفيلسوف[3]،... فالأول يفهمها ويعرفها، ويعلم منها مالم يكن يعلم..، والثاني يزداد معرفة لما عنده من حقائق صادقة، وما وصل إليه من معارف دقيقة بعد تجارب ودراسات موثوقة[4].

لقد جاء تناسب أدلة التوحيد القرآنية مع جميع فئات الناس وطبقاتهم ومستويات إدراك عقولهم كونها:

---

(١) من روائع القرآن، للشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ط٢، ١٩٧٠م، دمشق - سوريا - ص١٣٦.

وانظر: علم الإعجاز القرآني بين الفن والتاريخ للدكتور الكبيسي ص١٣١.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ (الفرقان: ٦١)، وغيرها من الآيات.

(٣) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم، للشيخ نديم الجسر، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩، - بيروت - لبنان ص٢٨١ بتصريف

(٤) المعجزة الكبرى، للشيخ الدكتور محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ط(بدون)، دت - القاهرة - مصر ص٣٩٥-٣٩٦.

وانظر: تاريخ الجدل، لنفس المؤلف، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٨٠م القاهرة - مصر ص٦٠-٦١.

أ- منتزعة من الأحوال المحسوسة لديهم جميعاً ـ سواء كانوا خاصة أو عامّة[١] ـ فهي تخاطب فطرة الجميع بالحقائق الكونية الواضحة المكشوفة الملموسة لكل الناس.

ب- تربط الناظر المستدل بها بمطلوبه مباشرة من غير تطويل بذكر المقدمات، فهي آيات وعلامات مستلزمة بنفسها لما هي آية عليه، وهكذا كلما كان الدليل ملزوماً للمدلول عليه، والمدلول لازم للدليل، وبينهما تلازم وثيق كانت الأدلة أوضح في عقول الناس[٢].

ج- لم تُذكر في القرآن في صورة قضايا مجهولة، أو نظريات فلسفية[٣]، أو معلومات نظرية، إنما جاءت في صورة حقائق واقعية لا ينكرها إلا جاحد مكابر.

د ـ تحترم أفكار المخاطبين وتقدرها، فتوجز ما يُمكن أن يُفهم سريعاً[٤]، وتُفصِّل ما يحتاج لتفصيل، وتُجمل ما يحتاج لإجمال... إلخ.

هـ- تعطي الإنسان حرية التفكير والنظر، والبحث عن الحكمة والعلة والمدلول. حتى لا يدخل في دين التوحيد مغمض العينين[٥]، مسلوب التفكير عن صحة اعتقاده ومنهجه.

---

(١) خصائص التعبير القرآني، للدكتور عبد العظيم المطعني ١/ ٤٥٧.

(٢) الفتاوى لابن تيمية ١/ ٤٨، وانظر: الرد على المنطقيين، لنفس المؤلف ص٣٤٤.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب ٢/ ١١٥٧-١١٥٩ باختصار.

(٤) انظر: البلاغة العربية، لعبد الرحمن حسن الميداني ١/ ٩٦.

(٥) أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة، للدكتور حمد بن ناصر العمار ص ١٤٩.

و- تنبئ عن كليات المعلومات العقلية دون دقائقها كما يفعل الحكماء والفلاسفة، فهي تقيم الحجة بالجلي من الكلام الذي يفهمه الأكثرون وليس بالغامض الذي لا يعرفه إلا الأقلُّون، ومن هنا حاجج الله خلقه بحجج التوحيد في أجلى صورة، ليفهم العامة من جليِّها ما يقنعهم وتلزمهم الحجة، وتفهم الخاصَّة ما يربو على ذلك.

ز- تحتوي من صدق الحقائق والعلوم على ما يرى فيه الباحث والعالم حقائق صادقة، لم يصل إليها العلم الحديث إلا بعد تجارب ومجهودات عقلية طويلة، بل إنه كلما ازداد المتأمل المتبصِّر للقرآن نظراً في آياته ازداد علماً وهدى أسمى مما يدركه الإنسان بتجاربه، وأعلى مما يهتدى إليه بعقله المجرّد[1].

ولهذا لما كانت دلائل التوحيد العقلية القرآنية بهذا الوضوح والتناسب مع عقلاء العامة والخاصة، والمباشرة التامة في الدلالة على مدلولها، لم يقف الناظرون في هذه الدلالة حيارى مترددين، متشكّكين في معرفة ما تهدف إليه وتَعْيِيْنه، بل إنهم بمجرد زوال موانع الاستجابة عنهم[2]، وتوجيه أنظارهم إلى أدلة التوحيد ودلالتها على الإله الواحد، كخلق السماوات والأرض واختلاف الليل و النهار، قالوا ـ كما قال الله تعالى ـ : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران: ١٩١).

وقال سحرة فرعون بعد أن رأوا الآيات التي جاء بها موسى: ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (الأعراف: ١٢١، ١٢٢).

---

(١) المعجزة الكبرى للشيخ محمد أبو زهرة ص٣٩٥-٣٩٦.

(٢) انظرها في ص ١١٤٧.

فدليل التوحيد واضح، وهو من واقعهم، وقد باشروه بأبصارهم وبقية جوارحهم.

ومدلول الآيات معيّن، ودلالتها مباشِرة على وجود خالق للكون مدبِّرة له[1]، هو الله الذي لا إله إلا هو.

---

(١) انظر:

أ ـ الرد على المنطقيين، لابن تيمية ص١١٤، ٢٤٨، ٢٤٩.

ب ـ درء تعارض العقل والنقل، لنفس المؤلف، ٣/ ٢١٢-٢٦٤.

ج ـ نهاية الإقدام في علم الكلام، للشهرستاني ص٣.

## «المطلب الرابع»

## «فصاحتها[١] وبلاغتها[٢]»

**الفصاحة في مصطلح علم البيان:** خلوص اللفظ عن التعقيد في تركيب الأحرف والألفاظ[٣].

والفصاحة قد تكون وصفاً للكلمة الواحدة، وقد تكون وصفاً للكلام، وقد تكون وصفاً للمتكلّم، فيقال كلمة فصيحة، وكلام فصيح، ومتكلِّم فصيح.

والكلمة الفصيحة، هي الكلمة العربية التي خلت من:

- التنافر[٤].

---

(١) الفصاحة عند أهل اللغة: البيان، والإفصاح: الإبانة... وأفصح الصبح إذا بدا ضوؤه واستبان، وأفصح المتحدِّث عن مراده إذا بيَّنه ولم يُجمجم. انظر: لسان العرب ١٠/ ٢٦٩ مادة فصح. و: القاموس المحيط ١٠/ ٤٨١ باب الحاء، فصل الفاء.

(٢) البلاغة لغة: هي حُسن الكلام مع فصاحته وأدائه لغاية المعنى المراد... وتقول: بلغ الشيء بلوغاً وبلاغاً، إذا وصل وانتهى إلى غايته. انظر: لسان العرب ١/ ٤٨٦ مادة بلغ.

(٣) الطراز، ليحيى بن حمزة ١/ ٥٧.

(٤) التنافر اصطلاحاً عند أهل البلاغة هو: صفة تجعل الكلمة ثقيلة على اللسان، يصعب النطق بها، ومنه ما هو شديد غاية في الثِّقل ومنه ما هو دون ذلك... ومن أمثلته قولهم لقوي الصوت (صَهْصَلِقٌ الصوت) وقولهم للماء العذب (النُّقاح)، وقولهم لبعض الشجر (الهُعْخُعْ)، وسبب التنافر إما تقارب مخارج الأحرف كما في الألفاظ السابقة، أو لسوء تركيب الألفاظ المتقاربة فعثرت اللسان كقول الشاعر: لبس قرب قبر حرب قبر. انظر: مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي (ت:٦٢٦)هـ، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، ط(بدون)،١٩٣٧م، مصر ص١٩٦. و: البيان والتبيين، للجاحظ ١/ ٧٤ وما بعدها. والطراز، لابن حمزة ١/ ٥٧.

- والغرابة[١].

- ومخالفة القياس[٢].

- وكراهة السمع لها[٣].

---

(١) غرابة الكلمة حسب مصطلح البلاغيين هو: كونها غير ظاهرة المعنى، ولا مألوفة الاستعمال عند فُصحاء العرب وبُلغائهم وفي شعرهم ونثرهم، لا عند المولَّدِين ومن بعدهم، فأكثر الكلام العربي الفصيح غريب عند غير فصحاء العرب وبُلغائهم.
والغرابة قد تكون بسبب نُدرة استعمال الكلمة عند العرب، وغير ذلك...
ومن أمثلة الكلمات الغريبة قولهم: (مسحَنْفِرة) بمعنى متَّسِعة، وقولهم (زرجون) للخمر و(بُعاق) بمعنى: مطر، وقولهم (فدوكس) للأسد، وغير ذلك. انظر: مفتاح العلوم، للسكاكي ص١٩٦. و: الطراز، لابن حمزة ١/ ٦١-٦٥.

(٢) مخالفة القياس حسب مصطلح البلاغيين: أي سوق الكلمة مخالِفة للقياس النحوي أو الصرفي، ومن أمثلة ما هو مخالفٌ للقياس في الكلمة فكُّ الحرف المضعَّف في الكلمة التي يقتضي القياس فيها إدغامها بحرف مشدّد نحو:
كلمة (الأجلل) والقياس أن يقال فيها الأجلّ، وكذلك مما هو مخالف للقياس استعمال همزة القطع بدل همزة الوصل، واستعمال همزة الوصل بدل همزة القطع، ويكثر مثل هذا في الشعر مراعاة للوزن. انظر: مفتاح العلوم، للسكاكي ص١٩٦، و: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني ص٢٨.

(٣) كراهة السمع لها: أي كونها ممجوجة في الأسماع، تأنف منها الطباع، خَشِنةً وحشيَّة ومثال ذلك نفور السّمع عن كلمة (الجِرِشّى) بمعنى النفس، حيث عاب أهل اللغة العربية على أبي الطيِّب المتنبِّي استعمالها في قوله يمدح سيف الدولة:
مباركُ الاسم أغَرُّ اللقبْ كريم الجرشّى شريف النّسب.
انظر: مفتاح العلوم، للسكاكي ص١٩٦. و: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١)هـ، ص٦٥.

والكلام الفصيح كما يقول علماء البلاغة هو: ما كان سهل اللفظ، واضح المعنى، جيِّد السَّبك، متلائم الكلمات، فصيح المفردات، غير مستكره، ولا ممجوج، ولا متكلَّف، ولا ضعيف التأليف، ولا مخالف لقواعد العرب في نحوها وصرفها، وغير خارج عن الوضع العربي في مفرداته وتركيبه، وليس في كلماته تنافر، وليس فيه تعقيد لفظي، ولا تعقيد معنوي، ولا يسقط في التكرار وكثرة الإضافات.

أما الكلام البليغ فهو الذي يؤدي المعنى بطريق صالح، أو يطابق مقتضى الحال مع فصاحته،... فيراعي الموضوع الذي يدور عليه الكلام كما يراعي أحوال المخاطبين ومستوياتهم العقلية والنفسية(١).

وهذا ما فعله القرآن الكريم في عرضه لأدلة التوحيد القرآنية، فقد جاء بها كذلك، فصيحة المفردات، وكذا فصيحة الجُمل والتراكيب.

كما جاء بها في أعلى مستوى من البلاغة(٢)، مراعياً فيها مطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطَب به فحيث كانت أحوال المخاطَبين مختلفة(٣)، وكانت كل حالة منها

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني ص١٧.

(٢) البلاغة في مصطلح النظار من علماء البيان عبارة عن الوصول إلى المعاني البديعية بالألفاظ الحسنة، أو هي حسن السبك مع جودة المعاني، والمقصود من البلاغة هو وصول الإنسان بعبارته كُنه ما في قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل بالمعاني، وعن الإطالة المملة للخواطر. انظر: الطراز، لابن حمزة ١/ ٦٦. و: الفوائد المشوِّقة إلى علوم القرآن، لابن القيم، ص٢٥و٢٦.

(٣) أحوال المخاطبين تكاد لا تُحصر:

فمنها ما يستدعي من الكلام إيجازاً. ومنها ما يستدعي من الكلام بسطاً متوسِّطاً. =

تحتاج طريقة من الكلام تلائمها، كانت البلاغة القرآنية تستدعي انتقاء الطريقة الأكثر تناسباً مع أحوال الكفار والمشركين في تقرير التوحيد والدعوة إليه، لبلوغ كلام الله من أنفسهم مبلغ التأثير المرجو، فجاء بأدلة التوحيد القرآنية تارة بخطاب مباشر، وتارة بخطاب غير مباشر، وأحياناً بخطاب يتناسب مع الأذكياء، وآخر يتناسب مع الأغبياء، وتارة بأسلوب الوعظ، وتارة أخرى بأسلوب البيان العلمي، وخاطب أهل العلم والمعرفة بغير خطابه لمن لا علم لديهم، إلى غير ذلك من مراعاته لأصناف المخاطبين وأحوالهم النفسية والاجتماعية، ولا شك أنه كلما كان الكلام أكثر مطابقة لحال المخاطب كان أكثر تأثيراً في نفسه، وأعظم حُسناً، وأرفع منزلة في مراتب البلاغة ودرجاتها.

---

= ومنها ما يستدعي من الكلام بسطاً مطوَّلاً. ومنها ما يستدعي تنكيراً، أو يستدعي تعريفاً.
ومنها ما يستدعي إطلاقاً، أو يستدعي تقييداً. ومنها ما يستدعي ذكراً، أو يستدعي حذفاً.
ومنها ما يستدعي وصلاً بحرف العطف، أو يستدعي فصلاً.
وخطاب الملوك والرؤساء والأمراء يخالف خطاب العامة.
وخطاب أهل الحضر يخالف خطاب أهل البداوة وأهل المدَر. وغير ذلك.
ومقامات الخطاب تختلف: فمقام الشكر غير مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام التنكير يباين مقام التعريف... إلخ.
انظر: مفتاح العلوم، للسكاكي ص٨٠.
و: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني ص٣٣-٣٤.

## «المطلب الخامس»

## «إيجاز أدلة التوحيد القرآنية، وخلوها من الاختصار المخل أو التطويل الممل»

تميّزت أدلة التوحيد القرآنية بالإيجاز البليغ، دون الإطناب الممل أو الاختصار المخل فهي لا تحتاج إلى إكمال وإتمام، ولا تحتاج إلى استيفاء الفروع والمتعلقات بالإيراد، لقد اتّصفت ببلاغة القول في سَوْقِ الدليل، من غير إخلال بأركانه[١]، وهذا ما عناه ابن أبي العز الحنفي بقوله: «وما كان من المقدمات معلومة ضرورية متفقاً عليها، استُدل بها، ولم يُحتج إلى الاستدلال عليها. والطريقة الفصيحة في البيان أن تُحذف، وهي طريقة القرآن[٢]، بخلاف ما عليه الجُهّال، الذين يظنون أن القرآن ليس فيه الطريقة البرهانية»[٣] ولهذا كان منهج القرآن في سوق براهين الإيمان عدم الاستدلال على الضروريات مخالِفاً بذلك الفلاسفة وعلماء الكلام، لتنافي ذلك مع كمال البيان الإلهي، لأن الاستدلال على الضروريات إنما هو استدلال على قواعد النظر التي إليها المنتهى فيه، ولابد من الابتداء بها كعلوم ضرورية[٤].

---

(١) الأدلة العقلية النقلية، لسعود العريفي ص١١٢.

(٢) سأضرب أمثلة على ذلك فيما يلي من فقرات البحث ص١١١٥.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٨٦.

(٤) انظر العواصم من القواسم في الذب عن سنة أبي القاسم، لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم، الشهير بابن الوزير، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٢هـ، بيروت، لبنان ٤/ ٧٩.

لقد أوجز القرآن في أدلة التوحيد حتى لا يقع الإثقال بالإطناب فيها أو يزيد حشو الكلام بسردها وتفصيلها، والاستدلال عليها، أو التنبيه إلى بدهيتها، فهذا كله ضرب من العَيْيِّ يُنزَّه عنه الفُصَحاء والبُلغاء، فما بالنا برب الأرض والسماء.

لقد اعتمد البيان القرآني على الحذف والإيجاز فكانت أدلته كما قال ابن رشد: «بسيطة غير مركّبة، قليلة المقدِّمات»[١] ويتضح إيجاز أدلة التوحيد القرآنية من خلال النقطتين التاليتين:

**أولاً**: ليس في أدلة التوحيد القرآنية لفظ دخيل أو زائد على المعنى، فالقرآن دائماً يوظِّف أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني، يستوي في ذلك موضع إجماله وإطنابه، ولا يمكن أبداً تأدية تلك المعاني كاملة بأقل من ألفاظه، أو بما يساويها، أو أكثر منها، وليس صحيحاً ما يصفه بعضهم بالزيادة أو الإقحام لبعض الحروف والكلمات[٢]...، إنما ذلك لحكمة علمها من علّمه الله، وجهلها من جهل.

**ثانياً**: تحقَّق في أدلة التوحيد القرآنية ما يسمى بـ«القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى»[٣]، وهذا من أصعب الأمور على المتكلِّمين، والبُلغاء فضلاً عن عوام الناس، فالذي يعمد إلى ادِّخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا على حد الضرورة لاينفك من أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً... والذي يعمد إلى الوفاء بحق المعنى، وتحليله إلى عناصره، وإبراز كل دقائقه، بقدر ما يحيط به علمه، وما يؤديه

---

(١) الكشف عن مناهج الأدلة ص٥٩.

(٢) علم الإعجاز القرآني بين الفن والتاريخ، للدكتور الكبيسي ص١٣٤ بتصرف.

(٣) مناهل العرفان، للزرقاني ٢/ ٣٤٦.

إليه إلهامه، لا يجد له بُدّاً من الإطناب والتفصيل والحشو والفضول من المترادفات والمتقاربات... لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة... وهكذا معظم الفصحاء قدامى ومُحدثين، يقعون في الإملال والإسراف، إن لم يقعوا في الإخلال والإجحاف... فغاية فصاحتهم وبلاغتهم إنما تصل بهم إلى الكمال النِّسبي، أما الوفاء بالمعنى حق وفائه، بحيث لا يُخطئه عنصر منه، ولا حِلية من حِلاه، ولا ينضاف إليه عَرَضٌ غريب عنه،.. ولا ينقلب فيه وضع من أوضاعه يغضُّ من حُسن تقويمه، وبحيث لا سبيل فيه إلى نقض أو اقتراح جديد، فذلك أمر لا يستطيع أن يقوم له رجل مهما أوتي من البيان وفصاحة اللسان، وآية ذلك أنك تراه حين يتعقب كلام نفسه في الفَيْنة بعد الفَيْنة يجد فيه زائداً يمحوه، وناقصاً يُثبته، ويجد فيه ما يُهذَّب ويُبدّل، وما يُقدَّم أو يؤخَّر... إلخ. هذا حظ الكلام عند قائليه فما ظَنُّنا بناقديه ومنافسيه؟[(١)] وكل آيات القرآن الكريم ـ بدون استثناء ـ ومنها آيات التوحيد والإيمان بالله قد سلمت من ذلك كله فاجتمع فيها «القصد في اللفظ، والوفاء بحق المعنى» دونما حاجة لاستدراك وتعقيب، «وقد قُدِّرت أحسن تقدير، فلا تُحس فيها بتخمة الإسراف، ولا بمخمصة التقتير»[(٢)]، فقد جاءت وافية نقية صافية كافية شافية، لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية، ولواحقها الكمالية، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه «محاسن متوالية، وبدائع تترى»[(٣)].

---

(١) النبأ العظيم، لدراز ص١٠٩-١١٠ بتصرف.

(٢) نفسه ص١١١ بتصرف.

(٣) المرجع السابق ص١١٢. وانظر: تعليق المؤلف على ذلك في نفس الصفحة.

ولو نُزعت منه لفظة، ثم أُدير لسان العرب لِوَضْعِ لفظة أحسن منها أو مثلها لاستحال ذلك، ذلك أن كتاب الله هو كما قال عنه سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود: ١).

ومن أمثلة الإيجاز والاختصار في أدلة التوحيد القرآنية ما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤ ﴾ (الحج: ٧٣، ٧٤) سبق شرح الآية في أكثر من موضع من هذا البحث[1]، ويكفي أن أضيف هنا ما قاله ابن القيم عنها مما يتعلق بوجازة اللفظ القرآني، وقيامه بحق المعنى كاملاً، قال رحمه الله: «فتأمل هذا المثل الذي أُمِر الناس كلُّهم باستماعه...، كيف تضمَّن إبطال الشرك وأسبابه بأصح برهان، في أوجز عبارة وأحسنها وأحلاها... فأقام سبحانه حجة التوحيد، وبيَّن إفك أهل الشرك والإلحاد، بأعذب ألفاظ وأكملها، لم يستكرهْها غموض، ولم يُشِنْها تطويل، ولم يَعِبْها تقصير، ولم تُزْرَ بها زيادة ولا نقص، بل بلغت في الحُسن والفصاحة والبيان والإيجاز، ما لا يتوهَّم متوهِّم، ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها، وتحتها من المعنى الجليل القدر، العظيم الشرف، البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ»[2].

---

(١) انظر: ص٣٤٥، ٩٨٠.

(٢) الصواعق المرسلة ٢/ ٤٦٦-٤٦٧ بتصرف يسير.

وصدق رحمه الله فالملاحظ في المثال السابق أنه:

١- لا يمكن أبداً استبدال أحد ألفاظ الآية ووضع غيره وإلا اختل المعنى والمبنى.

٢- لا يمكن التقديم والتأخير في ألفاظها وحروفها وجملها وإلا ذهبت حلاوة التعبير القرآني.

٣- لا يمكن إضافة كلمة أو حرف، ولا يمكن أيضاً حشو عبارة، كما لا يمكن حذف شيء من ذلك، وإلا تغيَّرت بلاغة الآية وفصاحتها.

٤- لا يتناسب معها أبداً تغيير ما فيها من تعريف وتنكير وتأكيد وإخبار وبسط وإجمال...إلخ ما تميزت به هذه الآية، وكذا كل آيات التوحيد القرآنية.

وهكذا بقية نصوص التوحيد القرآنية جاءت موجزة اللفظ بليغة التعبير فصيحة المعنى[1].

---

(١) لمعرفة المزيد من أمثلة الإيجاز والاختصار انظر: البلاغة القرآنية المختارة من الإتقان ومعترك الأقران للإمام السيوطي، اختيار وتهذيب وتحقيق وتعليق الدكتور السيد الجميلي، دار المعرفة، ط١ (بدون)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، القاهرة، ص٧٧-١٠٤.

# «المطلب السادس»

# «كثرتها وتنوعها وتكاملها»

من المعلوم والمقرر شرعاً أنه كلما كانت معرفة الشيء مهمة، وكان الناس إلى ذلك أحوج، كان تعدّد الطرق الموصِّلة إليه أحوج وأوضح، وليس هناك حقيقة على الإطلاق أعظم من معرفة الله والوصول إلى توحيده، ولذلك جعل الله من طرق التعرف عليه، وسبل إقرار وحدانيته ووجوب توحيده ما ليس لغيره، فأكثر في كتابه (القرآن الكريم) من الآيات والبراهين الدالة عليه، ووسَّع في ذلك حتى استفاض بأدلة وحدانية الله ووجوب توحيده، وشهد العلماء بذلك، وقد أشرتُ سابقاً لبعض شهادات أهل العلم[1]، وأُضيف هنا ما ذكره السيوطي رحمه الله حيث قال: «قال العلماء: قد اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحرير يُبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به...»[2] عموماً لو لم يكن القرآن مملوءاً بأدلة التوحيد الكثيرة، القوية الدلالة، لما نقل ابن القيم عن بعض المتكلمين ـ ولم يسمِّه ـ أنه قال: «أفنيت عمري في علم الكلام أطلب الدليل، وأنا لا أزداد إلا بُعداً عن الدليل، فرجعت إلى القرآن أتدبره وأتفكر فيه، وإذا أنا بالدليل حقاً معي، وأنا لا أشعر به... فلما رجعتُ إلى القرآن، إذا هو الحَكَم والدليل، ورأيت فيه من أدلة الله وحججه وبراهينه وبيناته ما لو جُمع كلُّ حقٍّ قاله المتكلمون في كتبهم، لكانت

---

(١) راجع ص١٤٨.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ٢/ ١٣٥.

سورة من سور القرآن وافية بمضمونه، مع حُسن البيان، وفصاحة اللفظ، وتطبيق المفصَّل، وحُسن الاحتراز، والتنبيه على مواضع الشُّبَه، والإرشاد إلى جوابها»[١].

وليست أدلة التوحيد القرآنية الكثيرة من نوع واحد بل هي متنوعة في الأنفس والآفاق ـ كما سبق شرحه في جميع فقرات هذا البحث ـ فمنهج القرآن في عرضها متوزِّع بين التنويع والتنقل والتلوين، وهذه الخاصية لأدلة التوحيد تزيدها جمالاً أدبياً، وحسُناً وبهاءً، وتعطيها استعذاباً وحلاوة وطلاوةً، وتدفع السّأمَ والمَلَلَ، وتجدد الاستماع إليها برغبة ولذّة ـ وقد سبق شرح كثير من ذلك في استعراضنا لأساليب القرآن في تقرير التوحيد والدعوة إليه ـ ولا شك أن هذا التنقل والتنويع من أهم الوسائل الموصِّلة إلى امتلاك الألباب والنفوس بأدب رفيع.

لقد كتب علماء البلاغة العربية عن منهج البيان القرآني في التنويع والتكامل، حتى في عرضه للأقسام والأنواع التي تدخل في قسم واحد، أو جنس واحد، أو تدخل تحت عنوان واحد ـ كالتوحيد بأنواعه الثلاثة ربوبية، وألوهية، وأسماء وصفات[٢] ـ كل هذا لتحقيق الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ولتنبيه الفِكر لآيات الله، فمن شأن التجديد تحريك الذهن في مختلِفات من الأساليب، والتمكين من وضع أفكار وأغراض بيانية وتربوية في ظلال النص، تُكتشف حيناً بعد حين، كلما تكرّرت قراءة النص، أو تكرر سماعه، وللتنويع فائدة بيانية أخرى: كاختيار الأسلوب الأكثر في مضامينه الفكرية المُراد الدلالة عليها، أو الأكثر بلاغة وإيجازاً واقتصاداً... إلى غير ذلك من الأغراض.

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٤٦.

(٢) انظر في ذلك: البلاغة العربية، للميداني ١/ ٣٢٢-٣٦٣.

ومع اتصاف دلائل التوحيد القرآنية بالتنويع والإطناب غير الممل في مكرّراتها فهي متكاملة، والتكامل في أساليب البيان القرآني ـ سواء بين الأشباه والنظائر أو غيرها ـ صفة لازمة له في جميع آياته، ومنها نصوص التوحيد.

ومن الأمثلة الدَّالة على تنوُّع وتكامل أدلة التوحيد القرآنية ما جاء في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (النحل: ١٠-١٥).

جاء في هذا النص ذكر مجموعات من آيات الله الكونية الدالة على صفات ربوبيته سبحانه، والهادية إلى إثبات ذاته، وبيان استحقاقه الشكر عليها.

والإنسان السوي الذي يتفكر في جميع الآيات الكونية المشار إليها في الآيات القرآنية الآنفة الذكر يجد نفسه أمام أدلة توحيد متعددة متنوعة متكاملة، فهو:

**أولاً**: يتفكر في آيات الله الكونية، وقد جاء بيان هذه الخطوة بعد ذكر المجموعة الأولى من آيات الله التي وجَّه النص النظر إليها بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

**ثانياً**: يعقلها بالإمساك الواعي للنتائج التي أوصله إليها تفكيره فيها، وقد جاء بيان هذه الخطوة بعد ذكر المجموعة الثانية من آيات الله التي وجَّه النص النظر إليها بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

**ثالثاً**: يتذكر وينتفع ـ قلبياً وعملياً ـ من خلال النتائج التي تم التوصل إليها، وقد جاء بيان هذه الخطوة بعد ذكر المجموعة الثالثة من آيات الله التي وجّه النص النظر إليها بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

**رابعاً**: يتوجه بالشكر لله على نعمه التي اشتملت عليها آياته في كونه من خلال اتباعه لطريق الهداية والإيمان، وقد جاء بيان هذه الخطوة بعد ذكر المجموعة الرابعة من آيات الله التي وجّه النص النظر إليها بقوله تعالى: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾. وقوله: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

قال ابن عاشور: «جملة: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ... أي رجاء اهتدائكم... إلى الدين الحق، وهو دين التوحيد لأن في تلك الأشياء دلالة على الخالق المتوحد بالخلق»[1].

وهكذا يلاحظ متدبِّر هذا النص بأناة ورويَّة أن هذه التعقيبات الأربع صالحة لأن تُذكر جميعها عقب كل مجموعة من المجموعات الأربع، ولكن جاء توزيعها عليها مراعاةً لِفَنِّية الأداء البياني، وابتعاداً عن تكريرها مع كل مجموعة، أو حشرها جميعاً في آخر المجموعات، لأن كلاً من التكرير والجمع أخيراً يُضعِف بلاغة النص، ويُقلِّل من قيمة صياغته الفنية.

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٩٨.

وقرينة توجيه النظر لكل هذه المجموعات من آيات الله في كونه ضمن نص واحد، مع صلاحية هذه الآيات فكريًا لأن يأتي التعقيب عليها بأي واحد من التعقيبات الأربع، قرينة دالّة على أن المراد تعميمها على الجميع، وأن التعقيبات متكاملات فيما بينها[1].

ونفس الأمر من حيث التنويع والتكامل الإبداعي في كثير من نصوص التوحيد القرآنية. حيث يستدل القرآن على مسألة التوحيد بضروب من الاستدلال: تارة بلفت العقول إلى مظاهر الخلق والتسوية والتقدير والهداية، ودلالة ذلك على الله، وتارة ببيان عجز معبودات الكفار الباطلة، وتارة بالتأكيد على إقرار باطن الإنسان بالتوحيد وخاصة عند الشدائد.. وغير ذلك مما سبق شرحه فيما مرَّ بنا من هذا البحث.

**عموماً**... يمكن القول أيضاً:

إن من التنويع القرآني في عرضه لأدلة التوحيد النفسية والعقلية، ما يمكن أن يُسمى بالازدواجية والتقابل[2]، ففي كلام الله من ذلك ما يكفي لتوضيح حق التوحيد على العبيد.

لقد عُرضت أدلة التوحيد القرآنية بشكل يوحي باستيعاب كلام الله لكل طرق الاستدلال على عقيدة الوحدانية، فالملاحظ من كل ما سبق شرحه أن القرآن الكريم قد سعى لإقامة التوحيد من خلال تقديمه لأدلة نفسية فطرية داخلية وأدلة آفاقية كونية خارجية، وتقديمه لأدلة خاصة وأخرى عامة، وتنبيهه

---

(١) انظر: البلاغة العربية، للميداني ٢/ ٣٤٣-٣٤٥.

(٢) راجع ص٩٩٥.

على أدلة تاريخية ماضية وأدلة حديثة حاضرة وكذا تضمينه لأدلة عِلْمية مستقبلية، وحديثه عن أدلة بدهية، ودعوته إلى استفادة أدلة أخرى استنباطية.

والملاحظ أيضاً اشتمال القرآن على أدلة سمعية خبرية، وأدلة عقلية منطقية، وغير ذلك من الأدلة وطرق الاستدلال على التوحيد.

لقد اجتمعت في كتاب الله أدلة التوحيد الجزئية والكلية، وتلاقت فيه الأدلة الواقعية مع الأدلة التسليمية أو الافتراضية، واتحدت فيه الأدلة التفصيلية مع الإجمالية، وتظافرت فيه الأدلة الحسية مع الأدلة المجرّدة، كل هذا لبيان وحدانية الله واستحقاقه التوحيد.

إننا نجد أن القرآن قد واستدل على التوحيد بالنقض والإثبات، وسعى لإقامته بكل الأساليب اللغوية البلاغية بما فيها من أخبار مجردة ومؤكدة، وأمر ونهي، ومدح وذم، وترغيب وترهيب، وغير ذلك من الأساليب اللغوية البلاغية.

**وخلاصة الكلام**: أن القرآن لم يترك دليلاً يصلح لخطاب البشر إلا أورده، ولا وسيلة تحقق غاية التوحيد إلا استخدمها، وإنه لم يَسُقْ الأدلة على صحة وحدانية الله فقط، أو وجوب توحيده فحسب، بل أوجب على الناس أن يتدبروا كل هذه الأدلة، وأن يفهموها ـ ولو إجمالاً ـ حتى يكونوا على بينة في أعظم حقائق الوجود، وحتى يكون توحيدهم لله على غاية الاستقرار والثبات حتى الممات[١].

(١) انظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد ص١٢٠.

# «المطلب السابع»

# «جمعها بين الاقناع العقلي والتأثير النفسي والامتاع العاطفي»

سبق الحديث عن التأثير النفسي لآيات القرآن الكريم بشكل عام[١]، وأتحدث هنا عن آيات التوحيد بشكل خاص، فإنه على النقيض من أدلة المتكلِّمين والفلاسفة وطرقهم في إثبات وجود الخالق، واستدلالاتهم المعقّدة الطويلة الجافّة، جاءت أدلة التوحيد القرآنية السهلة الموجزة جامعة بين الإقناع العقلي والتأثير النفسي والإمتاع العاطفي، فهي تخاطب العقل والوجدان، وتقرع الفكر والشعور في آن واحد «ففي كل نفس إنسانية قوّتان: قوّة تفكير، وقوة وجدان، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها، فأما إحداهما فتنقِّب عن الحق لمعرفته، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفِّي هاتين الحاجتين، ويطير إلى النفس بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية، والمتعة الوجدانية معاً.

ولقد تبيّن لنا من خلال التأمل في اجتهادات الحكماء والفلاسفة وعلماء الكلام أن كلامهم ـ رغم عِلاّته[٢] ـ يجعل من ثمار عقولهم نوعاً من البيان للحق، والإقناع للعقول، أكثر مما هو تأثير في النفوس وإمتاع للعواطف

---

(١) راجع ص ١٥٥.

(٢) سنعرض لها في ص١١٠٧ وما بعدها.

والوجدان، وذلك لما في عباراتهم التي يُقدِّمون بها حقائق العلوم من جفاف وعُري ونُبُوٍّ عن الطباع.

بينما كلام الأدباء والشعراء يحقق استثارة الوجدان، ويحرك أوتار الشعور في نفس كل إنسان، حتى لو كان موضوع حديثهم غيّاً أو خيالاً، فقد يستبكون ولا يبكون، ويُطرِبون ولا يَطرَبون، فأكثرهم كما قال تعالى: ﴿ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝ ﴾ (الشعراء: ٢٢٥، ٢٢٦).

ويقرر علماء النفس أنه لا يمكن أبداً أن تتكافأ في إنسان ما قوّة التفكير وقوة الوجدان، وسائر القوى النفسية على حدٍّ سواء، وإذا تقاربت أو تعادلت فلا تعمل في النفس دفعة واحدة، وبنسبة واحدة، بل هي متناوبة حالاً بعد حال، فالذي ينهمك في التفكير تتناقص فيه قوّة وجدانه، والذي يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعف تفكيره، وصدق الله القائل: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ (الأحزاب: ٤).

وكل كاتب أو قائل إن كان متجهاً إلى تقرير حقيقة نظرية أو وصف طريقة عملية كان اتجاهه هذا ثمرة فكره، وإن كان متجهاً إلى تحريض النفس أو تنفيرها أو استثارة كوامنها بترغيب وترهيب، ومدح وذم، وغير ذلك مما سبق شرحه، كان اتجاهه هذا ثمرة عاطفته، وإن كان يتنقّل بين هذين الضربين، دلّ ذلك على تعاقب التفكير والشعور في نفسه[1].

ولكن كثيراً ما يعجز البشر عن مزج ثمار عقولهم بعواطف نفوسهم في آن واحد بحيث يأتون بكلام واحد يجمع بين الحقيقة البرهانية والمتعة الوجدانية

---

(١) النبأ العظيم، للشيخ محمد دراز ص١١٣-١١٦ بتصرف.

والتأثير النفسي، وهذا ما تميّز به كلام الله عزوجل بشكل عام، وأدلة توحيده بشكل خاص، فالله وحده خالق الإنسان بنفسه وعقله وقلبه هو القادر على مخاطبة العقل والقلب معاً، والقادر على إرضائهما سوياً في آن واحد، بل والقادر على إقناع الأول واستثارة الثاني فكلامه كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝ ﴾ (الطارق: ١٣، ١٤).

وهو في نفس الوقت: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر: ٢٣).

لقد جاء كلام الله جامعاً بين النزعتين، ومازجاً بين الطريقتين[١]، فتحققت له الجاذبية والجمال[٢]، والتناسب والتناسق بينهما، قال محمد قطب: «والقرآن يخاطب في قضية الألوهية مجموع الإنسان كله، لا عقله وحده ولا وجدانه وحده، ويخاطبه في جميع حالاته، ويتحدث عنه كذلك في جميع حالاته: مقبلاً ومدبراً، صاعداً وهابطاً، حيَّ الوجدان ومتبلِّد الحس، متفتّح البصيرة ومغلق البصيرة، مستثاراً وهادئاً، متطلعاً وخائفاً، ضاحكاً وباكياً، مستكبراً ومستسلماً، يقظاً وغافياً، مستقيماً على أمر الله وجانحاً عن السبيل»[٣].

إن القرآن ـ وهو يُعرِّف الناس بالله ـ يوقِّع على ذات الأوتار المودَعة في الفطرة... ليهزّها فتستيقظ، ويحركها فتنفعل... وفي لحظة انفعالها يقول لها: إنه

(١) انظر: خصائص التعبير القرآني، للدكتور عبد العظيم المطعني ١/ ٤١٩.

(٢) انظر: مناهل العرفان، للزرقاني ٢/ ٣٣١.

وإعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمّار، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠، عمّان ـ الأردن ص٤٩١

(٣) دراسات قرآنية، لمحمد قطب ص٣٢.

الله، ثم يقول لها: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ (الأنعام: ١٠٢).

«لقد عمد القرآن إلى لمس البداهة، وإيقاظ الإحساس، لينفذ منهما مباشرة إلى البصيرة، ويتخطّاهما إلى الوجدان، وكانت مادته هي المشاهد المحسوسة، والحوادث المنظورة، أو المشاهد المشخّصة، والمصائر المصوّرة، كما كانت مادته

هي الحقائق البديهية الخالدة، التي تتفتح لها البصيرة المستنيرة، وتدركها الفطرة المستقيمة»[1] إن الطريقة التي اتبعها القرآن في عرض أدلة التوحيد هي التي أبرزت أغراضه وموضوعاته، فهي كافية لهذه الأغراض والموضوعات[2].

لقد استخدم القرآن في سبيل إقامة التوحيد في نفوس العبيد ـ طريقة تصوير المعاني الذهنية والحالات النفسية الباطنة المتضمنة اعتراف الكفار بالتوحيد عند الشدائد، وقام بإبرازها في صورة حِسِّية كما سبق شرحه في الأدلة الفطرية النفسية.

وهو كذلك قد اعتمد على تصوير المشاهد الطبيعية، كما في أدلة التوحيد العلمية ـ وهو في نفس الوقت قد صوّر الحوادث والأحداث الماضية، كما في أدلة التوحيد التاريخية المروية في قصص القرآن، كما أنه قد قام بتصوير مشاهد يوم القيامة وذِكْر أحوال الموحِّدين في نعيمهم مقابل توحيدهم، ومعاناة المشركين في جحيمهم بسبب شركهم، صوّر تلك الأحوال كلها كأنها حاضرة شاخصة، وأبرزها بالتخييل والتجسيم الحِسِّي الذي يُفعمها بالحركة المتخيَّلة.

---

(١) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص٢٣٩.

(٢) نفسه ص ٢٣٩-٢٤٠.

إن استخدام القرآن لهذه الطريقة هو الذي جعل أدلة التوحيد القرآنية تنتقل من مخاطبة ذهن الإنسان ووعيه بأسلوب جافّ مجرّد، إلى مخاطبة حِسِّه ووجدانه، بما يثير الأحاسيس والعواطف، ويصل إلى أغوار النفس الإنسانية... ولهذه الطريقة فضلها ولا شك في أداء وبلاغ دعوة التوحيد[1].

إن من عوامل اتصاف أدلة التوحيد القرآنية بقدرتها على الإقناع العقلي والتأثير النفسي والإمتاع العاطفي هو عَرْضُ القرآن لتلك الأدلة بما سمَّاه سيد قطب: بـ«الريشة المبدعة في القرآن الكريم» التي: ما مسَّت جامداً إلا نَبَضَ بالحياة، ولا عَرَضَت مألوفاً إلا بدا جديداً، وتلك قدرة قادرة، ومعجزة ساحرة،... فآية الصبح مشهد مألوف مكرور، لكنه في تعبير القرآن حيٌّ لم تشهده من قبل عينان، إنه كما قال تعالى: ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (التكوير: ١٨).

وآية الليل على الذات الإلهية جاءت في تعبير القرآن وكأنه كائن حي متحرِّك ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ (الفجر: ٤)، وهو يطلب النهار في سباق عظيم ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ (الأعراف: ٥٤) ... والطير ـ وإن كانت كائناً حيّاً مألوفاً لا يلفت نظر الإنسان ـ لكنها في تعبير القرآن الفنِّي مشهد رائع يثير الجنان ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾ (الملك: ١٩) وكذا بقية آيات الله في أرضه وسمائه، وشمسه وقمره، وجباله ووديانه، والدور العامرة، والآثار الداثرة، والنبات والحيوان، والأشجار والأفنان...إلخ، عَرَضَها القرآن كلها كآيات على وحدانية الله ووجوب توحيده،

---

(١) نفسه ص٢٤٢ بتصرف.

بصورةٍ تحقق أبلغ ما يكون من إقناع العقل وإمتاع العاطفة وحلاوة التذوق للأدب القرآني الرفيع[١].

إننا ندرك أن من أسباب التأثير النفسي والإقناع العقلي لأدلة التوحيد القرآنية انفراد القرآن بمنهجه الخاص في انتقائها وصياغتها وتقديمها للمخاطبين، حيث جمع بين الأدلة العقلية والأدلة الروحية، وربط بين النظر في الكون وبين الإحساس الداخلي والاستجابة الأصلية إلى نداء العاطفة والروح الذي ينبعث من أعماق النفوس، فاقترن يقين المرء بالله وإيمانه به بحب الله وتعظيمه، وكذا الخشية منه والخشوع له، ودوام الخوف والرجاء.

إن من دلائل التوحيد القرآنية التي خاطبت الإنسان كله بعقله وقلبه أو فكره ومشاعره ما جاء في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝ ﴾ (الواقعة: ٥٧-٧٤).

---

(١) التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب ص٢٥١-٢٥٢.

إننا نجد أسلوباً منطقياً في الآيات السابقة، يتصف بالحيوية لما فيه من الأسئلة الموجّهة إلى المخاطب، وطلب الإجابة عنها، إلى أن يصل إلى النتيجة المطلوبة ـ النتيجة الحتمية التي بدأت الآيات بها ثم أوردت الأدلة عليها، وعدّدت ذلك من حياة الإنسان وما يحيط به، حتى أوصلته إلى وجود رب عظيم[1]، وطلبت من هذا الإنسان إفراده بعبادة التوحيد، وهذا هو أسلوب القرآن دائماً، وهذه هي خصائص أدلته التوحيدية التي تمزج بين المنطق العقلي والإثارة الوجدانية، وتبعث مشاعر الإجلال والتعظيم لرب الإنسان والأرض والسماوات، وتحجزه عن عصيانه والكفر به ولو من باب الحياء، كونه سبحانه هو المنعم وحده على جميع خلقه بكل أنواع وصور النعيم.

إن القرآن يخاطب الإنسان ويثيره عن طريق منافعه ومصالحه، وحاجاته وملذّاته، وعن طريق قضاياه ومشكلاته، ليكشف له حقيقة وحدانية الله في ربوبيته، ويسوقه لتوحيده في ألوهيته وأسمائه وصفاته.

عموماً يمكن القول: إن نجاح القرآن في مخاطبة عقل الإنسان وإثارة عواطفه نحو التوحيد كونه اعتمد على نوعين من الأدلة القرآنية:

**أولاً: الأدلة الفطرية** ـ كما سبق بيانه ـ فمنهج القرآن في عرضها منهج فطري، يتعامل مع النفس المفطورة على الأحاسيس والمشاعر الموجودة في كل إنسان، ويتلمّس مخاوفها وتطلعاتها، ومحبوباتها ومكروهاتها، بل ويسبر أغوارها وأعماقها، فهو كلام الله الذي خلقها وسواها وقال: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم

---

(١) انظر: دراسات في العقيدة الإسلامية، للدكتور محمد عبد الله الشرقاوي، مكتبة الزهراء، ط(بدون) ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، القاهرة ـ مصر ص١١٧-١١٨.

مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ (النجم: ٣٢) وذَكَر أنه: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ (غافر: ١٩) ومن هنا كان تعامل القرآن الكريم مع النفس وما فطرها الله عليه تعامل العليم علماً مسبقاً بمداخلها، وبكل المؤثرات فيها، بل تعامل الخبير بكل جزئياتها وأسرارها.

لقد كان القرآن الكريم يخاطب الإنسان بما في وجوده هو، وبما في الوجود من حوله، وما في ذلك من دلائل وإيحاءات، كان يستنقذ فطرته من الركام، ويُخلّص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها، وعطّل وظائفها، ويفتح منافذ الفطرة، لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها[1].

**ثانياً: الأدلة العقلية** من ناحية أخرى ـ كما سبق شرحه في معظم فقرات هذا البحث ـ فمنهج القرآن في تقريرها والاستدلال بها منهج عقلي:

**أ ـ أما من حيث تقريرها:** فقد جاء القرآن بعقيدة ليس فيها إلا ما تفهمه العقول ـ ومن ذلك عقيدة التوحيد ـ فتُوجبه أو تجيزه، وليس فيها ما تُحيله[2]، وأحوال ما جاء في القرآن من أدلة التوحيد مع العقل قسمان لا ثالث لهما:

١ – قسم شهد به العقل والفطرة، وهو معظم أدلة التوحيد القرآنية.

٢ – قسم شهد بجملته، ولا يهتدي لتفصيله، كأدلة أسماء الله وصفاته[3].

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٧/ ١٠١٢.

(٢) دليل الأنفس، لمحمد عز الدين توفيق ص٣٣.

(٣) تحفة الودود بأحكام المولود، لمحمد بن أبي بكر، الشهير بابن قيم الجوزية، المكتبة العلمية، ط، المدينة المنورة ـ السعودية ص١٥٨ بتصرف.

ولم يأمر الله الإنسان في القرآن الكريم بالإيمان به ـ ولا في أمر واحد ـ دون أن يحكّم عقله في ذلك.

إن الله تعالى الذي خلق عقل الإنسان وكرّمه به، وأعلى من شأنه وقدره، ودعا لتوظيفه(١)، وجعله مناط التكليف، وخاطبه بعقيدة التوحيد، وأمره بها قد جعل أدلة وحدانيته ووجوب توحيده متناسبة معه ـ أي مع عقله ليتناسب الخلق والأمر فتبارك الله رب العالمين(٢).

وليس هناك أدنى تعارض بين نصوص التوحيد القرآنية العقلية وبين موازين العقل ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ(٣).

**ب ـ وأما من حيث استدلالاتها:** فقد سلكت الآيات القرآنية التي تضمنت الحجاج عن التوحيد مسالك عقلية ـ كما تبيّن لنا من كل ما سبق ـ فجاءت أدلتها حاسمة قاطعة لكل أنواع الإنكار أو الشك أو الظن أو التردد أو الاحتياط أو اليأس، بل غالباً ما تتعدد الأدلة الكثيرة على المطلب الواحد ـ سواء كان توحيد الربوبية أو توحيد الألوهية أو توحيد الأسماء والصفات ـ، ويكون كل واحد من هذه الأدلة مستقلاً في دلالته، مستغنياً عما سواه، كافياً في الوفاء بما سِيق لأجله، شافياً في تحقيق اليقين، فحصل بمجموعها زيادة يقين الإيمان برب العالمين(٤).

---

(١) راجع ص١١١ حيث ذكرتُ دعوة القرآن الإنسان لتوظيف عقله فيما خُلق له.

(٢) دليل الأنفس، لمحمد عز الدين توفيق ص٣٣ بتصرف.

(٣) راجع ص١٥٢، حيث بينت أن أدلة التوحيد القرآنية هي أدلة عقلية ونقلية في نفس الوقت.

(٤) دليل الأنفس ص٣١.

إن القرآن الكريم لم يعرض أدلته بأساليب الفلاسفة وعلماء الكلام، وهذا يزيد من قيمة الطريقة القرآنية الربانية، ويسمو بها أن تقارن الطرق الوضعية البشرية.. فكونه كتاب الله إلى جميع البشر، جاءت أدلته في أجلى صورة، تجمع إلى الوضوح والاستيعاب العقلي أعلى درجات الاستدلال[1].

ولا صحة لقول قائل: إن أدلة التوحيد القرآنية إنما تخاطب الذين آمنوا فحسب، ولا يؤمن بها إلا من سلَّم بما جاء في القرآن الكريم وآمن به، وبمن أنزله، وبصدق مبلِّغه، فلو كان الأمر كذلك فكيف كان النبي ﷺ يوجِّه كلام الله ـ القرآن الكريم ـ إلى كفار عصره، ويخاطبهم به، بل يعتمد عليه في كل دعوته ومحاجته إياهم، حتى أسلم أكثرهم، بل دانت كل الجزيرة العربية وما حولها بالإسلام ودين التوحيد، وكيف اعتبر الله كتابه حُجّةً على الناس أجمعين إلى قيام الساعة، بقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ (التكوير: ٢٧، ٢٨).

ثم إن أدلة التوحيد القرآنية لا زالت كما كانت تقنع غير المؤمنين بدين التوحيد والإيمان بالله وحده، حتى الآن، وإلى ما شاء الله، فيُسلم من أراد الله له الحق والخير والهداية.

وكل هذا يعني أن أدلة التوحيد القرآنية ليست أدلة سمعية نقلية فقط، آمن بها الناس من عند الله الحق، وبلّغها الذي لا ينطق عن الهوى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٤) بل هي أدلة سمعية نقلية شرعية عقلية.

---

(١) نفسه ص٣١، وانظر: مقدمة في التفسير، للراغب الأصفهاني، مطبعة الجمالية، ط١، ١٣٣٩م، مصر، ص٤١، ٤٢، فصل في انطواء القرآن على البراهين والأدلة.

وهكذا لم تأت عبارات التوحيد ذات الدلالة العقلية جافّة قاسية نابية، ولم يعرض القرآن العقيدة في صورة نظرية باردة، أو جدل كلامي عقيم، لا يثير المشاعر والأحاسيس، ولا يأسر القلوب والعقول.

لقد حققت نصوص القرآن التوازن الحكيم في مخاطبة المدعوين في عقولهم وأرواحهم دون طغيان جانب على آخر(١)، ونوّعت عرض حجج التوحيد وبراهينه بما يكفل تحرير العقول من الشرك، وتعليق النفوس بالتوحيد، وذلك من خلال أساليب القرآن البلاغية والنفسية السابق شرحها، ولا حاجة للإعادة هنا.

فالأساليب البلاغية ـ سواء في باب المعاني أو البيان أو البديع ـ التي صيغت فيها حجج التوحيد وبراهينه العقلية حقّقت إعجاب الكفار ببلاغة كلام الله، بل شهادتهم بذلك(٢)، إضافة إلى استسلام الكثير لحجج التوحيد واقتناعهم بصحتها وصدقها وقوّتها وإن لم يُسلموا.

والأساليب النفسية ـ سواء في باب الترغيب والترهيب أو القصص التي عرضت مشاهد الدعوة للتوحيد عبر تاريخ الرسل وتدمير الله لكفار الأمم الماضية ونصره لدعاة التوحيد كان لها أثر بارز في نفوسهم، دَفَعَهُم إلى الإيمان وإن تأخر بهم الزمان، كما يتضح من المطلب التالي:

---

(١) انظر: أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة، للدكتور حمد العمّار.

(٢) كما سبق ذكره في ص٩٠٧.

# «المطلب الثامن»

## «تحقيقها للعلم بالله المفضي إلى الإيمان به»

بما أن أدلة التوحيد القرآنية قد جمعت بين الإقناع العقلي والتأثير النفسي والإمتاع العاطفي ـ كما سبق بيانه في المطلب السابع ـ فلم يكن غريباً أن تكون محقّقة للعلم بالله، دافعة للإيمان به، وذلك حال انتفاء الموانع[1]، وتحقق مشيئة الله وإرادته بوقوع الإيمان لمن أراد الله هدايته، بناء على قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (التكوير: ٢٩).

ولم يكن من قصد القرآن ولا من مهمة الرسل جميعاً أن يصلوا بالناس إلى التسليم بوجود الله فقط ـ كما فعل أكثر الفلاسفة وأهل الكلام ـ ولا حتى إلى التسليم بربوبيته فحسب ـ كما أقر به إبليس وكثير من الكفار ـ إنما جاءت أدلة التوحيد القرآنية لتؤكد وجود الله، وتُعرِّف به، وتنشئ الإيمان به، وتقيم عقيدة التوحيد في القلوب والأبدان عِلماً وعملاً أو اعتقاداً وسلوكاً، وتزرع فيها حب الله وتعظيمه وخشيته وإجلاله. فهي جامعة بين العلم والإيمان، وهدفها هو تقرير التوحيد في نفوس العبيد، وتحقيق تفاعلهم معه، وعملهم بمقتضاه، ودوام تعلقهم به، ولم يكن هدفها فقط تقديم فكرة عن الله، وفرق كبير بين معرفة الله وبين الاعتقاد به والإيمان بجلاله، فمعرفة الله لا تتجاوز إدخال ذلك في دائرة المعلومات الشخصية، بينما الإيمان به يجري في الدماء ويسري في المخ والعظام ويتغلغل في أعماق القلب.

---

(١) انظر ص ١١٤٧ حيث ذكرت موانع الهداية.

كما أن معرفة الله فحسب قد تعتريها شكوك وشبهات وضعف يقين، لكن الإيمان به يكون عن اعتقاد جازم لا شك فيه ولا ظن ولا ريب.

ومعرفة الله فقط تكون باردة كمعرفة أي شيء في الوجود من شمس وقمر ونحوه، معرفة لا تقدم ولا تؤخر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تخفض ولا ترفع...إلخ، فهي جثة هامدة لا حياة فيها ولا تحرك ساكناً، لكن الإيمان بالله يكون حاراً بحماس وقوة، ما لا يهدأ صاحبه حتى يحقق مرضاة ربه ويسعى لمحبوباته، فيضمن خيري الدنيا والآخرة ويسلم من شرّهما.

معرفة الله يمكن أن تتزعزع وتتحوّل وتتحوّر وتتبدّل حسب الفتن والمصالح والمفاسد التي تعتري كل إنسان، وحسب ما يعايشه من شهوات وشبهات، لكن الإيمان به على عكس ذلك كله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (إبراهيم: ٢٧).

إن معرفة الله بالعقول فقط هي معرفة لا تَمَيُّز فيها عن معرفة إبليس بربه وكثير من المشركين والكفار، لكن الإيمان به يبعث الحياة في النفس والكون، ويرفع الموحّدين العابدين لمستوى الملائكة وأزيد، ويُقحمهم الأخطار في سبيله، ويزلزل بهم الجبال لإعلاء شرعه، ويغيِّر بهم مجرى التاريخ[١].

ومن هنا جاءت نصوص التوحيد القرآنية لتحقيق الإيمان بالله لا للتعريف به فحسب، وهذه الخاصية ليست أبداً موجودة في مناهج وأدلة الفلاسفة وأمثالهم في إثبات وجود الخالق بفكرة خالية من كل معاني الإيمان.

---

(١) الإيمان والحياة، للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، ص١٨-١٩ بتصرف. نقلاً عن أحمد أمين من كتابه (فيض الخاطر)، ولم أعثر على المرجع الأصلي.

لقد تضمنت آيات القرآن نصوصاً تؤكد خاصيتها في تحقيق العلم بالله ودفعها للإيمان به، ولو كان الأمر غير ذلك لما قال تعالى ـ ممتدحاً طائفة من أهل الكتاب ـ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (المائدة: ٨٣، ٨٤)، وغير ذلك من الآيات التي تؤكد اندفاع أولي الألباب بعد استقرائهم دلائل التوحيد في القرآن ـ وفي أنفسهم وما حولهم ـ إلى الإيمان بالله[١]، وتحقيق خشيتهم منه في قلوبهم[٢].

وهذا ما أكده ابن تيمية بذكره أن طريقة القرآن في الدعوة إلى الإيمان ـ ومن ذلك الإيمان بالله ـ تجمع بين نوعي العلم والعمل، والخبر والطلب فهي تشمل التعريف بالحق وقوله والعمل به، على أكمل الوجوه، بخلاف طرق الفلاسفة وعلماء الكلام فطريقتهم ـ إن سلمت من الباطل ـ تحقق مجرّد التصديق فقط في القضايا الخبرية، سواء تبع ذلك عمل أم لا[٣].

(١) كما في سورة آل عمران: ١٩٠ وما بعدها.

(٢) كما في سورة فاطر ٢٧-٢٨.

(٣) انظر: فتاوى ابن تيمية ٢/ ١٢، ١٣، ٤٤، ٤٦.

# «المطلب التاسع»

# «عُلُوّ مرماها وتركها ما تعجز عنه العقول»

رغم أن أدلة التوحيد القرآنية تحقق العلم بالله، وتدفع للإيمان به، وتُعرِّف بأعظم حقيقة وأسماها على الإطلاق ـ الله جل جلاله ـ إلا أنها تنأى بالعقول البشرية القاصرة العاجزة عن البحث في الذات الإلهية وماهيتها، لقد أكدّت وجوده، وتأثيره في الكون وتدبيره له وربوبيته للخلق وعرّفت به وبأوصافه بقدر ما يطيقه العقل البشري وذَكَرَتْ بعضاً من أسمائه، وبَيَّنت ما يجوز في حقه وما لا يجوز، وما يجب على العباد نحوه وما يحرم عليهم، وشَرَحَتْ ما يرضيه وما يسخطه، ونحو ذلك، ولم تتعرض للكيفية التي تقوم بها صفاته، أو الماهية التي قامت بها ذاته سبحانه، وقد سبقت الإشارة إلى نهي النبي ﷺ عن التفكير في ذات الله[1]، ليس حَجْراً على العقول ولا لمجرد التغييب عن الحقائق المتعلقة بذات الله، ولكن هذا النهي النبوي، والإغفال القرآني لماهية الذات الإلهية وصفاتها إنما كان لعدة حكم، منها:

أ - رحمة بالعقلاء أن تُقحم عقولهم في البحث عما تعجز عنه، فكما عجزت عقولهم عن إدراك حال كثير من المخلوقات الظاهرة والباطنة، بل عجزت عن إدراك ما في أبدانهم، فهي أعجز عن إدراك من لا يحيط به زمان ولا مكان، ولا وَصْفُ إنس ولا جان سبحانه.

(١) راجع ص٨٥٦.

ب - لأنه لا ينبني على معرفتها والتعريف بها عمل يُطالب به العباد في توحيد الألوهية.

ج - لأن ما ذُكر في القرآن مما يتعلق بوحدانية الله ووجوب توحيده فيه الكفاية، والقرآن كله كافٍ شاف هادٍ كما سبقت الإشارة إليه.

## «المطلب العاشر»

## «مواجهة حججها وبراهينها لجميع أنواع الكفار، وكل شبهاتهم وكفايتها للرد على الجميع»

تبيّن لنا مما سبق شرحه في الباب الأول ـ وخاصة في الفصل الثاني منه ـ أن القرآن استدل على التوحيد بنقض الشرك وإبطال عبادة الشركاء، فقد جاءت أدلته التوحيدية لمخاطبة ومواجهة جميع أنواع المشركين من العرب والمجوس والصابئين وأهل الكتاب، بل والدهريين، وغيرهم ـ سواء في مكة أو المدينة أو غيرهما ـ وأبطلت كل شبهاتهم التي استندوا إليها في شركهم. وواجهت حججُ التوحيد عُبَّادَ الأوثان، والملائكة، والجن، والكواكب، وكلّ من ادّعى ألوهية عيسى وعُزير، ونَسَبَهُمَا إلى الله عزوجل نسبة بنوة، أو زعم أن الله ثالث ثلاثة... إلخ.

كما تصدّت للثانوية وغيرهم بشكل عام، وأبطلت دعوى أهل الكتاب بأن لله أبناءً منهم، وأحباباً من عامّتهم، فلم تُبق أدلة التوحيد القرآنية شبهة أو افتراء أحدثه المشركون أو توارثوه عن آبائهم إلا ودحَضَتْهُ بردودٍ كافية شافية مُفحِمة.

وهذا كله قد عجزت عنه أدلة الفلاسفة، وقصرت عن الوصول إليه، بل غَفَلَتْ عنه، فلم تتجاوز أدلتهم ومنهجهم مسألة إثبات خالق الكون فقط، مع أن هذا الأمر مركوز في الفِطر، مغروس في النفوس. وكذا المتكلّمون ومن نحى نحوهم الذين كان جُلُّ اهتمامهم الرد على الفلاسفة، ولم يَسْعَ أحدٌ من هؤلاء ولا أولئك لمواجهة الشرك ونقضِهِ من أصوله لدى كل الطوائف الكافرة.

# «المطلب الحادي عشر»

# «توافقها مع دعوات الأنبياء السابقين حججاً ومنهجاً وغاية»

لاشك أن دين الأنبياء واحد، وإن تنوّعت شرائعهم، وقد سبق القول والتأكيد أن كل الأنبياء السابقين كانت غايتهم جميعاً الدعوة إلى الإيمان بالله، وعبادته وحده لا شريك له، وكان كل واحد منهم يخاطب قومه قائلاً لهم: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ (الأعراف: ٥٩).

وسبقت الإشارة إلى أن نوحاً وهوداً وصالح وإبراهيم وموسى وشعيب وعيسى ـ عليهم جميعاً سلام الله ـ قد استخدموا عدة أساليب في الدعوة إلى الله، وقد ذكرها الله عزوجل في كتابه، فمنهم من كان يُذَكِّر قومه بنعم الله عليهم كنوح وهود وصالح[1] وغيرهم من الرسل، ومنهم من كان يَنْقُضُ الشرك ويُبطل عبادة الشركاء، كما فعل إبراهيم وإلياس وموسى[2] وغيرهم، ومنهم من كان يستخدم مع المدعوين أسلوب الترغيب والترهيب، كما فعل نوح مع قومه، وإبراهيم مع والده، بل كل الأنبياء والرسل مع أقوامهم[3].

وهذا كله قد استخدمه القرآن الكريم، ونطق به لسان محمد ﷺ في دعوته إلى التوحيد ـ كما سبق التدليل عليه بالتفصيل في طيّات هذا البحث ـ فدلَّ ذلك

(١) راجع ص٤٥٩، ص٤٦١.

(٢) راجع ص ٣٦٢، ص٣٦٦ وانظر سورة الصافات آية ١٢٣-١٢٦، وسورة طه آية ٩٧-٩٨.

(٣) راجع ص١٠١٥.

على توافق أدلة التوحيد القرآنية من حيث حُججها وبراهينها، وطريقة الاستدلال بها، مع حجج أنبياء الله ورسله السابقين ومنهجهم وغايتهم في الدعوة إلى التوحيد.

إن أدلة التوحيد القرآنية متوافقة مع ذلك شكلاً ومضموناً، ولا غرابة في هذا، فقد جاء كتاب الله تعالى جامعاً لخلاصة حجج الرسل السابقين، وملخِّصاً لمناهجهم في الدعوة إلى التوحيد، ومصوِّراً لأساليبهم في ذلك، ومؤكِّداً للغاية الواحدة التي نشدها كلُّ رُسُل الله، لقد جاء كما قال تعالى: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨)، أي حاكماً على الكتب السابقة وشاهداً بصحتها، أميناً عليها[١].

وجاء أيضاً ليضيف حُججاً أخرى، وبراهين تترى، بأساليب بلاغية عُليا أهَّلته ليكون خير الكتب والمعجزة الخالدة، والحجة القائمة على الخلق إلى قيام الساعة.

لقد بلغ توافق أدلة التوحيد القرآنية العقلية مع دعوات الأنبياء السابقين ما لو قدّمها هؤلاء الرسل لأقوامهم، وحاجُّوهم بها، لكان في ذلك كفاية لإقامة الحجة عليهم، وغَنَاءً عن حُججهم، ـ رغم أن القرآن الكريم هو آخر الكتب، ومُبلِّغُهُ هو آخر الأنبياء والمرسلين ـ وما ذلك إلا لاعتماد نصوص التوحيد القرآنية، على مخاطبة العقل و القلب، وهذان أمران مشتركان بين كل البشرية.

---

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني ٢/ ٦٧-٦٨.

وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنا معشر الأنبياء ديننا واحد**»[١]، وقال: «**الأنبياء إخوة من علات**[٢]**، وأمهات شتى ودينهم واحد**»[٣].

فتأكّد لنا من هذا الحديث النبوي اتفاق رسالة محمد ﷺ وحججه وبراهينه الواردة في القرآن الكريم مع ما جاء به من قبله من الرسل، ولا غرو في ذلك فمصدر كل الرسالات السابقة ورُسُلِهَا هو الله القائل: ﴿ **إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ** ﴾ (النساء: ١٦٣) والقائل: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ** ﴾ (الشورى: ١٣).

---

(١) أخرجه البخاري في ٦/ ٤٧٨ في كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ (مريم: ١٦)، برقم ٣٤٤٦ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) عَلاّت: هم الأخوة من أب وأمهاتهم شتى، والمعنى أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع، وقيل المراد أن أزمنتهم مختلفة. انظر: فتح الباري، لابن حجر ٧/ ١٦٣.

(٣) أخرجه البخاري في ٤/ ١٨٣٧ في كتاب: الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، برقم ٢٣٦٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأول الحديث «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم..».

# «المطلب الثاني عشر»

# «ثراء معانيها، وتجذرها وتجددها في كل زمان ومكان ومجال»

رغم ثبات أدلة التوحيد القرآنية واستمرار قوة حجتها وقطعية دلالتها على الواحد الأحد من أول يوم نزل فيه القرآن حتى الآن، دون أن يعتريها ضعف في الحجة أو خلل في البرهان، إلا أنها تميزت بصلاحيتها لكل استنباط جديد، واستدلال وليد على التوحيد في حاضر وقادم الأزمان ـ كما كانت ـ وإلى ما شاء الله، بناء على ما أودع الله فيه من الكنوز والأسرار التي لا تنفد، والتي ما يزال يكشفها المؤَّهلون لذلك. وذلك من خلال ما وهب الله الناظرين فيها من علم وفطنة، وما يفتح عليهم من أنواع المعارف والاستدلالات والاستنباطات، وبناء على ما يكون من اكتشاف علماء العصر الحديث للإعجازات القرآنية المتعدَّدة المتكاثرة يوماً بعد يوم ـ وخاصَّة في مجال الإعجاز العلمي ـ. فكلّما أمعن أهل العلم النظر في آيات الله وجدوا أن القرآن قد يدل بالكلمة الواحدة والكلمات المختصرة على معان متعددة يطول شرحها[1]، ذلك أن القرآن صِيغَ كُلِّهِ بجوامع الكلم وأغناها دلالة على المراد.

---

(١) البيان والتبيين، لأبي عثمان، عمرو بن بحر، المعروف بالجاحظ (١٥٠-٢٥٥)هـ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ط٤، بيروت ـ لبنان ص٩٤. وانظر: خصائص التعبير القرآني، للدكتور عبدالعظيم المطعني ١/ ٣٦٨ وما بعدها حيث ذكر المؤلف أسباب ثراء معاني الألفاظ القرآنية.

وهكذا يُخَيَّل إليك أنك قد أحطت به خبراً، ووقفت على معناه محدوداً، ولو رجعت إليه كرة أخرى لاستفدت منه معاني جديدة غير تلك التي سبق إليها فهمك أول مرة، واستفدت من كلماته وجُمله وسياقه وجوهاً عدة، كلها صحيح أو محتمل للصحة[1].

وأهل العلوم الحديثة ـ سواء العلوم الإنسانية أو العلوم التطبيقية ـ كلما قلَّبوا في نصوص القرآن، وقارنوها بما وصلوا إليه من العلوم في واقعهم وجدوا فيها ما يؤكِّد وحدانية الرحمن وربوبيته، ويكشف عن كثير من أسمائه، وصفاته، بل ويسبقهم إلى تقرير حقائق علمية لم يصلوا إليها بعد.

وهكذا كلما جاء زمان، وتقدم العلم، وتجرّد العلماء لدراسة الحقائق العلمية الإنسانية والكونية بصدق وموضوعية ـ وخاصَّة تلك التي أشار إليها القرآن ـ كلما اكتشفوا أدلة جديدة على وحدانية الله وصِدق كتابه، فتجدَّدت أدلة التوحيد، وتجذَّرت بمرور السنين، وتنوَّعت في كل مجال، فتكاثرت بها لا يُعد ولا يحصى، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣).

ولهذا لا غرو أن يجعل الله رسالة محمد ﷺ خاتمة الرسالات، ودينه ـ الإسلام ـ خاتم الأديان، ما دام قد تكفل بحفظ كتابه ـ المعجزة الخالدة إلى قيام الساعة، وضمن تجذُّر وتجدُّد دلائل التوحيد في كل زمان ومكان ومجال.

---

(١) النبأ العظيم، للشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز ص١١٧ بتصرف.

**ختاماً أقول:**

هذه هي أهم خصائص ومميزات أدلة التوحيد القرآنية، وثمة خصائص أخرى انفرد بها كلام الله بشكل عام ـ بما فيه من أدلة توحيد ـ ذكرها أهل العلم في كتبهم، منها على سبيل المثال:

١- حُسن البيان ووضوح الإجمال.

٢- جودة سبكه وإحكام سرده.

٣- براعته في تصريف القول.

٤- دقة التصوير وجمال التعبير.

٥- التخييل الحِسِّي والتجسيم الفنِّي.

٦- تناسق الأوضاع وائتلاف العناصر، وأخذ بعضها بحجز بعض، وكأنها وحدة لا كثرة.

٧- الفخامة والجلال.

٨- القوة واللين.

٩- خصوصية الفواصل المسجوعة والمرسلة.

وغير ذلك من الخصائص[1].

---

(١) انظر ذلك كله في:

أ ـ النبأ العظيم، لدراز ص١٠٠، وما بعدها.

ب ـ مناهل العرفان، للزرقاني ٢/ ٣٣١ وما بعدها.

ج ـ التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب.

د ـ علم الإعجاز القرآني بين الفن والتاريخ، للكبيسي ص١٣٠ وما بعدها.

لقد بلغت بلاغة النصوص القرآنية ـ ومنها أدلة التوحيد الواردة فيه ـ مبلغاً عظيماً جعلت عمر بن الخطاب يعلن إسلامه رغم استبعاد بعض الصحابة أن يكون منه ذلك[١]، وجعلت بعض أكابر وبلغاء كفار قريش يشهدون بعظمة كلام الله وعلوه، بل يزعمون أنه سحر، وما هو بسحر، وما كان رسول الله ﷺ ساحراً إنما هو سحر البيان كما قال ﷺ: «**وإن من البيان لسحراً**»[٢]، فهو كلام رب العالمين الذي قال تعالى عنه: ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (الحشر: ٢١) فالقرآن كله بما فيه من أدلة التوحيد قاطبة مهيّأ لاستفادة وتذكر من يخشى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ (ق: ٣٧) ممن شاء الله هدايتهم، وإدخالهم في رحمته عزوجل، إنها روعة التعبير القرآني التي جعلت الكفار يتواصون باللغو فيه[٣]، والنهي عن سماعه، والنأي عنه، خشية محوه لضلال العقول، وإحداثه ثوران الأحاسيس والمشاعر في النفوس.

لقد كان إسلام الأكثرين في بداية العهد المكّي ـ وإعلانهم شهادة التوحيد ـ نتيجة منطقية لسماعهم بعضاً من سور القرآن الكريم أو جزءاً منها، وذلك لعدة أمور:

---

(١) راجع ص١٦٠.

(٢) سبق تخريجه في ص١٠٤٢.

(٣) كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فصلت: ٢٦).

أ ـ لما في أصل النسق القرآني ذاته، الجامع بين الجاذبية والجمال والإقناع والإمتاع.

ب ـ لذات الموضوعات التي يتحدث عنها كلام الله[١]، وأعلاها وأهمها موضوع التوحيد لله.

ج ـ لقوة الاستدلال القرآني بحججه القوية الواضحة على وحدانية الله ووجوب توحيده.

وكما أن المنهج القرآني قد تميّز بثراء معاني أدلة التوحيد القرآنية وتجذرها وتجددها في كل زمان ومكان ومجال فقد تميّز أيضاً بابتعاده عن كل الأساليب الفلسفية المعقّدة، وهذا ما أشرحه بالتفصيل في المبحث الثاني من هذا الفصل.

---

(١) التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب ص١٩ بتصرف وزيادة.

# المبحث الثاني

## الفرق بين منهج القرآن ومناهج الفلاسفة وعلماء الكلام في الاستدلال على الخالق

### تمهيد:

رغم أن الفلسفة وعلم الكلام قد بحثا في ذات الموضوع الذي تناوله القرآن الكريم، ـ وهو إثبات وجود الخالق للإنسان والكون، وبيان بعض صفاته[1] ـ وكان هدفهما من ذلك معرفة أصل الوجود، وغايته، وكشف سبيل السعادة الإنسانية عاجلاً وآجلاً.

إلا أن كلام الله قد تميز بمنهج قرآني فريد في إقامة التوحيد، ابتعد فيه عن كل الأساليب الفلسفية المعقدة التي جاء بها الفلاسفة ـ سواء كانوا منتمين إلى أديان ربّانية جاء بها المرسلون، أو لم يكونوا منتمين إلى أي دين[2] ـ واختلف فيه عن

---

(١) لمعرفة حقيقة العلاقة بين الاستدلال القرآني والاستدلال اليوناني، انظر: القرآن والنظر العقلي، لفاطمة إسماعيل محمد إسماعيل ص١٣٥-١٣٧.
ولمعرفة بطلان اعتقاد بعض الناس أن الميزان العقلي الذي أنزله الله في كتابه هو منطلق اليونان، انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٩/ ٢٤٠-٢٤٤.

(٢) لمعرفة طائفة من الفلاسفة الذين كان لهم منهج خاص في إثبات وجود الخالق، وبيان بعض صفاته، انظر: أ- دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي ١/ ٤٨٣-٥٠٤.
ب- براهين وأدلة إيمانية، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، بيروت ـ لبنان ص١٢١-١٣٥

المنهج الفلسفي اختلافاً كبيراً كثيراً، من حيث: مصادر الأدلة ومنابعها، وهدفها وغاياتها، وطرق الاستدلال بها، وقوة، ومقدار دلالاتها، وجَنْيِها وثمارها، وغير ذلك مما اختلف فيه كلام الله العلي العظيم ووحيه الحكيم، عن اجتهاد البشر ذوي العجز والعيب وكل صفات النقص.

ويمكن توضيح ذلك من خلال المطالب الستة الآتية:

---

ج- الإيمان والحياة، للدكتور يوسف القرضاوي، المقدمة من ص٥-١٠.

## «المطلب الأول»

## «مصادر أدلة التوحيد القرآنية ومصادر أدلة الفلاسفة وعلماء الكلام»

مما لا شك فيه أن مصدر جميع أدلة التوحيد القرآنية إنما هو كلام الله ووحيه الصادق (القرآن الكريم) الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢) فكونها ربّانية[١] من عند الله الذي أحاط بكل شيء علماً وفهماً، ولا مبدل لكلماته، ولا معقِّب عليها، فهو الخبير العليم الحكيم، فقد تميَّزت بكل ما هو لله من معاني الحق والكمال والشمول وغير ذلك.

إنها «منحة كريمة تصل إلى حامليها وسفرائها عفواً بلا كدح ولا نصب، وتغمرهم بنورها في فترات خاطفة كلمح البصر أو هي أقرب»[٢] - بينما مصادر أدلة الفلاسفة وعلماء الكلام على الخالق إنما هي العقول البشرية القاصرة، المطبوعة على كل صور النقص والعيب، من: غفلة ونسيان وقصور، وعدم إحاطة بالعلوم كلها، وتأثر بالبيئة المحيطة بها. فالفلسفة وعلم الكلام بكل الصور والمقاييس إنما هما اجتهاد إنساني يتحكم فيها كل ما في طبيعة الإنسان من

---

(١) انظر: تفصيل ذلك في (خصائص التصور الإسلامي ومقوماته)، لسيد قطب، دار الشروق، ط١٥، القاهرة، مصر ص٤٥-٧٤، وص١٥١-١٦٨.

(٢) الدين، للشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز ص٧٣، وقد اقتبسه الدكتور عمر سليمان الأشقر في كتابه (العقيدة في الله) ص٣٧ ولم أعثر على المرجع الأصلي.

قيود وحدود، وتدرج بطيء في الوصول إلى المجهول، وقابلية للتغيُّر والتحول، وتقلب بين الهُدَى والضلال، واقتراب وابتعاد عن درجة الكمال، وتنقُّل بين الحق والباطل، والصواب والخطأ.. إلخ.

كما أن الفلسفة وعلم الكلام قد اعتمدا كثيراً على المنطق اليوناني، الذي فيه اتصال بالإلهيات عندهم، وهذه الإلهيات مخالفة لإلهيات المسلمين، فاليونان لم يكونوا يملكون ديانات منزلة.

أضف إلى ذلك أن المنطق اليوناني فيه اتصال باللغة اليونانية المخالفة للغة العربية، فنشأ الالتباس والاختلاف في الاستدلال ومعاني الألفاظ، كما نقل السيوطي عن الشافعي رحمه الله قوله: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب، وميلهم إلى لسان أرسطو طاليس»[1].

---

(١) انظر: صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق د/ علي سامي النشّار، مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٤٧، ص١٦.
وانظر: القرآن والنظر العقلي، لفاطمة إسماعيل ص١٥٢.

# «المطلب الثاني»

## «هدف القرآن وغايته من الاستدلال مقارنة بأهداف الفلاسفة وعلماء الكلام»

سبق القول إن من خصائص أدلة التوحيد القرآنية تحقيقها العلم بالله، ودفعها للإيمان به، وأؤكِّد هنا قائلاً: يهدف القرآن الكريم من خلال عرضه لأدلة التوحيد النفسية والعقلية إلى تقرير وحدانية الله في نفوس العبيد في مجالاتها الثلاثة (ربوبية ـ ألوهية ـ أسماء وصفات) وتحقيق توحيده في ذلك كله، بشكل كليّ مترابط دون تفكيك أو تجزئة بين أنواع التوحيد الثلاثة.

كما أنه يجعل من دعوته إلى توحيد العبادة تكميل ما جاء به الرسل السابقون الذين قال تعالى عنهم ـ مخاطباً محمداً ﷺ ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥) فلم يكن القرآن يهدف إلى تصوير نظرية في العقيدة عن الله، ولا إلى جدل فلسفي يشغل الأذهان والأفكار[١]، بل كان يهدف من خلال نصبه لأدلة التوحيد الشاهقة إلى تحقيق الإيمان من وراء المعرفة بالله، وترجمة ذلك في الواقع، لتكون كلمة (لا إله إلا الله) التي يتلفظ بها كل من آمن بالله ورسوله وكتابه منهج حياة.

لقد كان هدف أدلة التوحيد القرآنية هو تحقيق غاية الوجود الإنساني كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦) وذلك عن طريق إقامة نوعي التوحيد:

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢/ ١١٥٧ بتصرف.

أ ـ التوحيد العلمي الخبري، أو ما يُسمى بـ(توحيد الإثبات والمعرفة) أي إثبات حقيقة الرب وصفاته وأفعاله وأسمائه على حقيقته.

ب ـ التوحيد الإرادي الطلبي، أو ما يُسمى بـ(توحيد الطلب والقصد) ويعني إفراد الله عزوجل بكل صور العبادة القلبية والبدنية والمالية مما تضمنته سورة الكافرون وغيرها من الآيات[١].

إن أدلة التوحيد القرآنية تعرِّفنا بالحق لا لنعرفه فحسب، بل لنؤمن به ونحبّه، ونمجِّده وندعو إليه، وهي كذلك تعرّفنا الواجب لنؤدِّيه ونوفِّيه، ونكمِّل نفوسنا بتحقيقه[٢]، فهي عملية حتى في جانبها العِلْمِي[٣].

هذا هو هدف القرآن الكريم وغاية أدلته التوحيدية في الاستدلال على الخالق.

أما الفلاسفة فغاية فلسفتهم هي تحقيق المعرفة بتكوين فكرة جافّة عن الله، ترتسم في صورة جامدة..، وأقصى مطالب الفلسفة أن تعرِّفنا الحق والخير، ما هما؟ وأين هما؟

ولا يعنيها بعد ذلك موقفنا من الحق الذي نعرفه، والخير الذي تحدِّده لنا.

لقد سعى الفلاسفة من خلال بحوثهم إلى إثبات وجود خالق للإنسان والكون ـ مع أن هذا أمر فطري في النفوس كلها ـ وسعى علماء الكلام من خلال جدالهم وكلامهم إلى إثبات وحدانية الخالق، وأنه لا شريك له، ظناً منهم أن هذا هو المراد بـ(لا إله إلا الله)[٤].

---

(١) كما في سورة آل عمران: ٦٤.

(٢) العقيدة في الله، للشيخ الدكتور عمر سليمان.

(٣) نفسه.

(٤) العقيدة في الله، للأشقر ص٣٨.

والحقيقة أنَّ سَعْيَ كلا الفريقين لم يزِد في أهدافهما على تحقيق المعرفة بالخالق فقط، وهذا ما أقرَّ به المشركون كما سبق شرحه[١]، بل لقد أقرَّ إبليس بذلك معترفاً لله بالربوبية[٢].

وعلى الرغم من أهمية الاعتراف بوجود الخالق ووحدانية الصانع التي هي نهاية مطلوب الفلاسفة وعلماء الكلام، إلا أن هذا وحده لا يكفي لتحقيق التوحيد الذي فرضه الله على العبيد، ويحبه ويرضاه، فهذا جزء يسير من توحيد الربوبية، ولا ينفع صاحبه، بل قد يكون وبالاً عليه إذا لم يكن معه بقية التوحيد المتعلق بعبادة الله وحده، بكمال الحب مع كمال التعظيم والتذلل، والمتعلق بإفراده سبحانه في كمال أسمائه وعلو صفاته، ولذلك حارب رسول الله ﷺ المشركين حتى أقاموا كل أنواع التوحيد في قلوبهم وواقعهم.

قال ابن تيمية عن مقاصد وأهداف الفلاسفة وعلماء الكلام: «فإن حاصلها ـ بعد التعب ـ خير قليل، فهي لحم جمل غثّ، على رأس جبل... لا سهل فيُرتقى، ولا سمين فيُنتقل»[٣].

---

(١) راجع ص٢٤١ وما بعدها.

(٢) كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الحجر: ٣٩).

(٣) هذا المثل هو جزء من حديث أم المؤمنين رضي الله عنها في خبر إحدى عشر امرأة جَلَسْن فتعاهدن وتعاقدن على ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً، وما ذُكر أعلاه هو قول الأولى منهن، في وصف زوجها.

انظر: صحيح البخاري ٥/١٩٨٨ كتاب: النكاح، باب:حسن المعاشرة مع الأهل، رقم ٤٨٩٣.
=

ثم إنه يفوت بها من المقاصد الواجبة والمحمودة ما لا ينضبط»[(١)].

إذاً لم يكن همُّ هؤلاء وخاصة الفلاسفة إقامة التوحيد بمعناه الشامل الكامل المترابط الذي أمر به الشارع الحكيم وسَعَى لإقامته، ولم يكن همُّهم كذلك نقض الشرك وإبطال عبادة الشركاء كما فعل القرآن الكريم في كثير من آياته.

---

= والمعنى: أن كلام الفلاسفة وعلماء الكلام قليل النفع والخير، فهو كلحم الجمل في غذائه، وليس كلحم الضأن الأكثر نفعاً، كما أنه مهزول رديء، والناس يعرضون عنه لرداءته كإعراضهم عن اللحم الرديء، كما أنه صعب التناول لا يكاد يصل إليه أحد إلا بعد مشقة وعناء شديدين. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ٢١٣.

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ٢٢، وانظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم ١/ ٤٤-٤٥.

# «المطلب الثالث»

# «نقطة الانطلاق وطريقة الاستدلال في منهج القرآن ومناهج الفلاسفة وعلماء الكلام»

اتسمت الطريقة القرآنية لإقرار وحدانية الله والدعوة إلى توحيده بالاعتماد على معلومات ضرورية متفق عليها، وجَعْلِهَا مقدمات ليتم الاستدلال بها، دون الاستدلال عليها.

إن القرآن يبدأ من المألوف والمعروف ليصل إلى غاية التوحيد، ويتدرج من المحسوس إلى المجرد، ومن المشهود إلى الغائب.

إنه يستدل بالآيات المشهودة (النفسية والآفاقية) على وحدة الخالق، وهي الآيات التي يستلزم العلم بها العلم بصانعها كاستلزام العلم بشعاع الشمس العلم بالشمس، وهو ينقل المخاطب إلى ما وراء الآيات الكونية من غير احتياج إلى إقامة الأقيسة التي أقامها المتكلمون للاستدلال على حدوث العالَم.

فالعِلم بكون هذه العوالم مخلوقة مربوبة أمر فطري لا يحتاج إلى إقامة الدليل والبرهان، والإنسان بفطرته يعلم أن هذا الكون الذي يراه فقير إلى الخالق، مقهور مربوب[1].

---

(١) حيث أن أصل العلم في القرآن هو العلم بالله سبحانه، فالله هو الأول الذي خلق الكائنات، وهو الآخر الذي تصير إليه الحادثات، فهو الأصل الجامع، والعلم به أصل كل علم وجامعه، ومن العلم به تتشعَّب أنواع العلوم.

ومن هذه الآيات المشهودة والعلوم الضرورية التي استدل القرآن بها كلُّ ما سبق شرحه في طيَّات هذا البحث، وغيرها مما جاء أيضاً في السور التالية: الرحمن، الواقعة، الملك، المرسلات، النبأ، النازعات، عبس، الغاشية، الشمس[١]، وغيرها من السور.

فالقرآن الكريم لا يؤلف برهانه تأليفاً من مقدمة صغرى وكبرى ونتيجة ـ كما يفعل الفلاسفة ـ ولا يتعرَّض لألفاظهم من جواهر[٢] وأعراض[٣] ونحوها، ولا يثير المشكلات العقلية التي توقع في الشك والحيرة والبلبلة والاضطراب، كما أنه لا يسعى لإنشاء مقدمات معقّدة وطويلة، بل لقد اعتمد على الإيجاز والاختصار كما سبق شرحه.

---

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي، للدكتور عبدالستار فتح الله سعيد ص١٢١-١٢٢ بتصرف واختصار.

(٢) الجواهر: جمع جوهر، وهو ما تحيّز، أي (يشغل مكاناً وحيّزاً) بنفسه، ولا يحتاج في تحيزه إلى غيره.

(٣) الأعراض: جمع عرض، وهو ما لا يتحيّز، أي ( لا يشغل مكاناً وحيزاً) بنفسه، وإنما يقوم دائماً بغيره. ومثال الجوهر: الجسم، ومثال العرض: اللون أو المرض أو الجوع، فهي أشياء لابد لها من الجسم لكي تقوم بها، وحدوث الأعراض بديهي، ثابت بالمشاهدة، لأن الأعراض تأتي وتذهب وتتغير.. إلخ.

أما الجواهر فإنها لا تخلو أبداً عن الإعراض، فليس هناك جسم مثلاً لا لون له، وهو إما أن يكون ساكناً أو متحركاً، وكلاهما عرضان، وإذا كانت الجواهر لا تخلو من الأعراض فهي حادثة مثلها، لأنه مالا يخلو عن الحوادث فهو حادث أيضاً. اهـ.

انظر: كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي ١/ ٢٨٨-٢٩٨. و: التعريفات، للجرجاني ص١٤٨-١٤٩.

إن نقطة البداية في المنهج القرآني الحكيم هي الدعوة إلى توحيد العبادة مباشرة ـ اعتماداً على المعلومات الفطرية الضرورية[١].

«ومنهج القرآن في تقرير التوحيد يعتمد على تقديم صورة عن الإله تتجلى من ورائها كمال قدرة المبدع وتقديره ورحمته وتدبيره.. فهي صورة موجبة للبصيرة، رافعة إلى التدبر والتذكر... للوصول إلى الحقيقة الكبرى المتناسقة»[٢].

إنه يقدم عقيدة التوحيد في صورة التقرير لا في صورة الجدل، وبسلطان اليقين المستمد من تقرير الله ومن شهادة الفطرة الداخلية بصدق هذا التقرير فيما تراه[٣].

---

(١) ولهذا أمر النبي ﷺ معاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن لإقامة التوحيد، وأوصاه أن يكون أول ما يدعو الناس إليه ـ وخاصّة أهل الكتاب ـ هو عبادة الله وحده لا سواه، ثم يخبرهم بما افترض الله عليهم من بقية الفرائض، ولم يأمره ﷺ أن يدعوهم أولاً إلى الشك أو النظر كما هي طريقة المتكلمين. والحديث في صحيح البخاري ٣/ ٣٢٢ برقم ١٤٥٨.
وصحيح مسلم في ١/ ٥٠ برقم ١٩ كتاب الإيمان.
ثم إن الله تعالى عندما يبعث الناس يوم القيامة لا يسألهم عن العلوم الحسية والبدهية، والمنطق والطبعي، والجوهر والعرض، إنما يسألهم عن استجابتهم لدعوة الرسل إلى التوحيد أو عدمها، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص: ٦٥).
وانظر: سورة المائدة ١٩.
وانظر: العقيدة السلفية بين الإمام ابن حنبل والإمام ابن تيمية، للدكتور سيد عبد العزيز السيلي، المكتبة التجارية، دار المنار، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، القاهرة ـ مصر ص٩٩.
و: العقيدة في الله، للشيخ الدكتور عمر الأشقر ص٣٩.
(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٢/ ١١٥٩.
(٣) انظر: في ظلال القرآن ١/ ١٠٣١-١٠٣٥.

بينما نجد أن نقطة الانطلاق في الاستدلال على الخالق لدى الفلاسفة تبدأ من اعتمادهم على النفس الإنسانية، فهم يجعلونها الأصل الذي يبنون عليه ويفرِّعون عنه.. كما أنهم يبتدؤون استدلالهم بالشك في وجود العالم ويسعون لإثبات حدوثه ـ من خلال تقسيمه إلى جواهر وأعراض، ثم يثبتون حدوث كل منهما بمقدمات طويلة، ليصلوا إلى أن للعالم مُحدِثاً[1] مع أن هذا أمر بدهي فطري بالضرورة ـ وكثير من المصنِّفين في الفلسفة يبتدؤون بالمنطق، ثم الطبيعي... ثم ينتقلون إلى العلم الإلهي.

ويبدأ المصنِّفون في الكلام بمقدمات في الكلام: في النظر والعلم والدليل، وهو من جنس المنطق.

ومنهم من ينتقل من تقسيم المعلومات إلى الموجود والمعدوم وأقسامه.

وغالبية الفلاسفة يتوسعون في الأمور الطبيعية، ثم يصعدون إلى الأفلاك وأحوالها، ثم المتألِّهون منهم يصعدون إلى واجب الوجود، وإلى العقول والنفوس، ومنهم من يُثبت واجب الوجود ابتداء من جهة أن الوجود لا بد فيه من واجب.

وحقيقة أن هذا المنهج الفلسفي الكلامي يشغل الباحث والناظر فيه في قضايا ينقضي العمر ولا ينتهي من بعضها، بل إن الذي يحصِّله الإنسان منها ينطوي على شبهات تجعل اليقين غير موجود، فيصاب الباحث بالحيرة والشك[2].

ولتوضيح طول ووعورة طريقة المتكلمين في الاستدلال على الخالق وإثبات وحدانية الصانع، وحدوث العالم أضرب هذا المثال:

---

(١) العقيدة في الله، للأشقر ص٤٠، وانظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢/ ١، ٢٥ وما بعدها.

(٢) نفسه ص٣٧-٣٨ بتصرف.

استدلوا بخلق الإنسان على الخالق من خلال إثبات الأعراض، ثم إثبات حدوثها، ثم إثبات أن الأجسام لا تخلو منها، ثم إثبات أن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، ـ وهذا مبني على امتناع حوادث لا أول لها، وطَرْدُ ذلك في سائر الأجسام مبني على القول بتماثلها ـ.

فبذلك يثبتون أن العالم حادث، والحادث لابد له من محدث، فبذلك يثبت الصانع عندهم.

**والملاحظ من خلال ما سبق:**

أنهم لم يجعلوا خلق الإنسان دليلاً مباشراً على خالقه، كما جاءت به الطريقة القرآنية، بل أخذوا أولاً يستدلون على أن الإنسان مخلوق محدث، بأن النطفة والعلقة والمضغة لا تنفك من أعراض حادثة، كالاجتماع والافتراق وغير ذلك، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، لامتناع حوادث لا أول لها ـ كما سبقت الإشارة إليه وكما هو قانونهم ـ إذاً فالإنسان حادث مخلوق يحتاج إلى خالق.

إننا نلاحظ أن ما جعله القرآن دليلاً على الذات الإلهية وهو خلق الإنسان، جعلوه هم مستدلاً عليه، فالقرآن يجعل خلق الإنسان وحدوثه مقدمة بدهية تُعرف بالحس، ويبنى عليها وجود خالق أبدعه ـ كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ (الطور: ٣٥)، وهم يزعمون أن الحس إنما يدرك حدوث الأعراض دون الأجسام، وأن حدوث جواهر النطفة والعلقة والمضغة لا يُعرف بالبديهة، والذي دعاهم إلى هذا هو قولهم: إن الأجسام كلها مركّبة من الجواهر المنفردة، وأن ما يطرأ على الأجسام من أحوال وتخليق إنما يكون بإحداث أعراض في تلك الجواهر لا غير، من خلال الجمع والتفريق فحسب.

**وخلاصة القول:** إن طريقة الفلاسفة وعلماء الكلام كما يقول ابن تيمية «تتضمّن جحد ما هو معلوم، وهو حدوث الأعيان الحادثة، وهذا معلوم للخلق، وإثبات ماليس بمعلوم بل هو باطل، وهو أن الإحداث لها إنما هو جمع وتفريق للجواهر، وأنه إحداث للأعراض فقط، فالقرآن استدل بما هو معلوم للخلق من أنه سبحانه: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (العلق: ٢)، وهؤلاء جاؤوا إلى هذا المعلوم، فزعموا أنه غير معلوم، بل هو مشكوك فيه، ثم زعموا أنهم يذكرون الدليل الذي به يصير معلوماً، فذكروا دليلاً باطلاً لا يدل على حدوثه، بل يُظن على أنه دليل وهو شبهة، ولها لوازم فاسدة»[١] وقد أنكر ابن الوزير على المتكلمين هذه الطريقة[٢]، ونبّه أبو الحسن الأشعري على بدعيتها وخفائها وغموضها وخطورتها، وصرّح بذمها[٣].

إننا نجد أن أدلة الفلاسفة والمتكلمين وطريقة استدلالهم على الحق (رب العالمين) ناقصة حيث تحتاج مقدماتها إلى برهنة واستدلال في الغالب ـ كما تبيّن لنا مما سبق ـ بل قد تحتاج النتائج نفسها إلى دليل آخر خارج عنها، مما يعقّد الاستدلال لطول مقدماته وكثرة وسائطه وصعوبة طُرقه على أكثر الناس،

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٢٦٧-٢٩٢.

(٢) انظر: البرهان القاطع في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع، لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم، ابن الوزير، تحقيق مصطفى عبدالكريم الخطيب، دار المأمون للتراث، ط١، ١٤٠٩هـ ص١١٦.

(٣) انظر: رسالة إلى أهل الثغر، لعلي بن إسماعيل، أبي الحسن الأشعري، تحقيق عبد الله الجنيدي، مؤسسة علوم القرآن، ط١، ١٤٠٩هـ دمشق ـ سوريا، مكتبة العلوم والحِكم ـ المدينة ص١٨٥-١٨٧.

ونتيجتهم التي وصلوا إليها وأفادت وجود صانع أو خالق للكون نتيجة ناقصة لأنها لم توصّلنا إلى من هو المحدِث للإنسان والكون؟ وهذا يحتاج إلى دليل آخر لإثباته، خارج عن نطاق علومهم، وضروب منطقهم.

**أخيراً أقول ما أحسن ما قال القائل:**

«إن الفلسفة ملاحظة وتحليل وتركيب، فهي صناعة تقطِّع أوصال الحقيقة، وتزهق روحها، ثم تؤلف بينها لتعرضها من جديد، في نسق صناعي على مرآة الفطنة، فتنطبع على سطح النفس قشرة يابسة»[١].

وإن الفلسفة تحاول أن تحصر الحقيقة في العبارة، ولما كان نوع الحقيقة التي تتصدى لها (التوحيد أو الإيمان بالله) يستحيل أن تنحصر في منطوق العبارة، فضلاً على أن جوانب أساسية من هذه الحقائق هي بطبيعتها أكبر من المجال الذي يعمل فيه الفكر البشري، فإن الفلسفة تنتهي حتماً إلى التعقيد والتخليط، والجفاف والانحراف[٢].

---

(١) العقيدة في الله، للأشقر ص٤٢.

وانظر: كتاب الدين، لدراز ص ٦٩ وما بعدها.

(٢) العقيدة في الله، للأشقر ص٤٣ بتصرف.

# «المطلب الرابع»

## «أنواع الأدلة المستخدمة في المنهج القرآني ومناهج الفلاسفة وعلماء الكلام ومقدار قوتها ودلالاتها»

تميّز المنهج القرآني في استدلاله على وحدانية الله ووجوب توحيده باستخدامه أدلة عقلية تليق بجلال الله وكماله، بمعنى أنه لم يستعمل قياس[1] الشمول[2]، وقياس التمثيل[3]، الذي تستوي فيه أفراده، لم يستخدم ذلك في حق الله تعالى، لأنه يلزم منهما تسوية الخالق بالمخلوق.

وإنما اعتمد المنهج القرآني على قياس الأوْلَى في حقه سبحانه، الذي مضمونه: أن كل كمال وجودي غير مستلزم للعدم ولا للنقص بوجه من الوجوه اتصف المخلوق به، فالخالق أولى أن يتصف به، لأنه هو الذي وهب المخلوق ذلك

---

(١) راجع معنى القياس ص٩٦٢ حيث ذكرنا أنه يعني ضرب المثل، وأصله تقديره. اهـ. انظر: فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٥٤.

(٢) قياس الشمول هو: مطابقة المفرد المعيّن للمعنى العام الشامل للأفراد، فإن الذهن يرتسم فيه معنى عام يماثل الفرد المعين، وكل فرد يماثل الآخر، فصار هذا المعنى يماثل هذا، وكل منهما يماثل المعنى العام الشامل لهما، ومن جنس قياس الشمول الأمثال الكلية. انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٥٨، ١٦/ ٤١.

(٣) قياس التمثيل هو: قياس الفرع بأصل معين، موجوداً أو مقدّراً، حيث يُجمع بين المتماثلين بالصفات المعتبرة في الحكم المقصود إثباته أو نفيه، ومن جنسه الأمثال المعيّنة.
انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٥٦-٥٧، و: إعلام الموقعين لابن القيم (١/ ١٧٧، ١٨١، ١٨٦، ١٩٨).

الكمال، ولأنه لو لم يتصف بذلك الكمال مع إمكان أن يتصف به لكان في الممكنات من هو أكمل منه، وهذا محال، لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (النحل: ٦٠).

وكل نقص يُنزّه عن المخلوق، فالخالق أولى بالتنزّه عنه.

وقد سبق الحديث أن أدلة التوحيد القرآنية هي أدلة قطعية يقينية، ولا مجال للظن فيها، فهي من كلام الله المعجز ذي العزة والجلال والكمال.

ويبقى أن أقول هنا: «إن مصدر اليقين في الأدلة القرآنية أنها ليست كالأدلة القياسية الكلية، التي سبقت الإشارة إليها، والتي لا تدل إلا على أمر كلي، بل هي أدلة جزئية واقعية، هي مخلوقات، وسمّاها الله آيات، والآيات (لا تفتقر في كونها آيات إلى قياس كلي، ولا قياس تمثيلي، ولا قياس شمولي، وإن كان القياس شاهداً لها، ومؤيداً لمقتضاها.

ولهذا كانت الدلائل على الخالق آيات له، والآية تختص بما هي آية عليه، ولا تدل على معنى مشترك عام، بل تدل على معيّن موجود متميِّز عن غيره. لذلك فالاستدلال في القرآن يعتمد على الآيات»[١]، والآية هي العلامة، وهي الدليل الذي يستلزم عين المدلول[٢].

والعلم باستلزام الدليل للمدلول المطلوب أقرب إلى الفطرة من العلم بأن كل دليل من أدلة القضية الكلية أو كل معيّن من معيّناتها يستلزم النتيجة[٣].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية ٣/ ١٢٥ بتصرف.

(٢) الرد على المنطقيين، لابن تيمية، ص١٥١، بتصرف.

(٣) نفسه.

وكما تميّزت أدلة التوحيد القرآنية بتناسبها مع جلال الله وكماله، ويقينيتها وقطعيتها في الدلالة عليه وحده سبحانه، دون اشتراك غيره معه، فقد تميّزت أيضاً بأنها برهانية، فوق أنها خطابية إخبارية إقناعية ففي الطريقة القرآنية لابد أن تكون المقدمة برهانية، مع التسليم بها.

وإن كان هناك من ينازع في هذه المقدمة، فإن القرآن يذكر له البرهان على صحتها.

إنه لا يكتفي بمجرد تسليم الخصم بالمقدمة، بل إنه يسوق لها من البراهين مايثبتها، فتكون حجة على من سلّم بها، وعلى من نازع فيها كذلك، قال ابن تيمية: «والله تعالى لا يأمر المؤمنين أن يجادلوا بمقدمة يُسلِّمها الخصم إن لم تكن علماً، فلو قُدِّر أنه قال باطلاً، لم يأمر أن يُحتجّ عليهم بالباطل، لكن هذا قد يُفعل لبيان فساد قوله، وبيان تناقضه، لا لبيان الدعوة إلى القول الحق، والقرآن مقصوده بيان الحق، ودعوة العباد إليه»[1].

وقال في موضع آخر: «إن دلالة الكتاب... على أصول الدين ليست مجرّد الخبر كما يظنه طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء والصوفية وغيرهم، بل الكتاب قد دلَّ الخلق وهداهم إلى البراهين والأدلة المبيِّنة لأصول الدين»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٩/ ١٦٤-١٦٦ باختصار.
وانظر: الرد على المنطقيين ص٤٦٨.

(٢) معارج الوصول إلى أصول الدين وفروعه، ضمن مجموعة الرسائل لابن تيمية، نشرة قصى محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، ط(بدون)، ١٣٨٧هـ، ص١٨٣ باختصار.
وقد نقلتُ ذلك من كتاب (العقيدة السلفية) للدكتور سيد عبدالعزيز السيلي ص٢٨٨ حيث لم أعثر على المرجع الأصلي.

**عموماً يمكن القول:**

رغم أن أسلوب القرآن خطابي جدلي برهاني إلا أن فيه من الأدلة والمناهج ما يقنع الناس جميعاً، على اختلاف أصنافهم، وتباين أفهامهم، وتفاوت مداركهم حيث يجد فيه المثقف بُغيته، والفيلسوف طِلبته، والعامة من الشعوب دواء نفوسهم، وشفاء قلوبهم، والحق المبين الهادي لهم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٥٧).

إن طريقة القرآن في الاستدلال على التوحيد طريقة من شأنها ألا تدع شبهة إلا أزالتها، ولا تردداً في قلب أحد إلا نقلته إلى برد اليقين.

ومن لم يقنع بأدلة القرآن وطريقته في عرض أدلة التوحيد، فهو إلى الاقتناع بما سوى ذلك أبعد، لأن الآفة عندئذ في عقله، وليس في ضعف الدليل[1].

هكذا كان القرآن الكريم ـ ولا يزال ـ في أنواع أدلته التوحيدية ومقدار قوتها ودلالتها.

أما الفلاسفة والمتكلمون فنتيجة لاعتمادهم على المنطق اليوناني في الاستدلال على الخالق، فقد استخدموا ما يُسمى بقياس الشمول وقياس التمثيل، وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أن الأدلة القياسية التي يستخدمها الفلاسفة والمتكلمون، والتي يُسمّونها براهين على إثبات الصانع، لا يدل شيء منها على عينه، وإنما يدل على أمر مطلق، لا يمنع تصوُّره من وقوع الشِّركة فيه،.. وإنما تُعلم عينه بعلم آخر

(١) الدلالة العقلية في القرآن، للدكتور عبد الكريم نوفان عبيدات ص٥٠٠ بتصرف.

يجعله الله في القلوب ـ وهم معترفون بهذا ـ لأن النتيجة لا تكون أبلغ من المقدمات[١] والمقدمة في قولهم هذا محدَث، وكل محدَث لا بد له من مُحدث، نفهم منها أنها قضية كلية، والكُلي لا يدل على معيّن بعينه.

وهذا بخلاف ما يذكره الله من الآيات كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠)، ونحوها من الآيات[٢]، فهذه الآيات وأمثالها تدل على المعيّن، وهو هنا الله جل جلاله.

إننا نلاحظ أن الآيات السابقة تدل على نفس الخالق سبحانه، لا على قدر مشترك بينه وبين غيره، فإن كل ما سواه مفتقر إليه نفسه، فيلزم من وجود المخلوقات وجود عين الخالق نفسه[٣].

إن المنطق الفلسفي والكلامي إنما يهتم بصورة القياس فقط، لذلك سُمّي بالمنطق الصوري، لأنه «يهتم اهتماماً أساسياً بسلامة الانتقال سلامة قياسية، أي يجب أن تكون عباراته منسجمة مع بعضها انسجاماً منطقياً، بحيث يتم فيها اتفاق الفكر مع نفسه، وليس مع الواقع، بما يُسمى بمبدأ الاستنباط القياسي»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى ٩/ ٢٣٣-٢٣٥ باختصار.

(٢) كما في سورة البقرة: ١٦٤.

(٣) انظر: فتاوى ابن تيمية ٩/ ٢٣٣-٢٣٥، و: الرد على المنطقيين، لنفس المؤلف ص٣٧٣.

(٤) طرق الفكر (الاستنباط)، للدكتور محمد أبو حمدان، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، ط (بدون)، سنة ١٩٧٨م ص٦، وقد نقلتُ ذلك من كتاب (القرآن والنظر العقلي) لفاطمة إسماعيل محمد ص١٤٤ ـ ١٤٥ حيث لم أعثر على المرجع الأصلي.

ومن هنا قد يوصِّل المنطق إلى نتيجة صادقة من مقدمات كاذبة، أو غير يقينية طالما لا يعنيه إلا صورة القياس، بصرف النظر عن مادة القياس إذا كانت صادقة صدقاً واقعياً أو كاذبة كذباً واقعياً، وهذا ما عناه ابن تيمية في قوله عن طريق الفلاسفة والمتكلمين في الاستدلال: «ليس في قياسهم إلا صورة الدليل من غير بيان صحته أو فساده»(١).

والعبرة يجب أن تكون بمادة القياس اليقينية، وليس بصورته «ومن المعلوم أن صورة القياس لا تفيد العلم بمواده، والبرهان إنما يكون برهانه بمواده اليقينية»(٢).

فالقياس يؤدي إلى اليقين إذا كانت المادة يقينية، وإلى الظن إذا كانت المادة ظنية، وإذا كانت مقدماته قطعية فإنها تورث القطع في نتائجها(٣)، لذلك يقول ابن تيمية: «لا ننكر أن القياس يحصل به علم إذا كانت مواده يقينية»(٤).

عموماً تبين لنا من كل ما سبق أن أدلة الفلاسفة وعلماء الكلام غير واضحة الدلالة، وغير قطعة في تعيين مطلوبها ومدلولها بعينه، بل هي صورية أكثر مما هي حقيقية واقعية صحيحة.

لقد انطلق الفلاسفة وعلماء الكلام من مقدمات غير مسلّمة لا في العقول ولا في الفِطَر السَّوِية.

---

(١) الرد على المنطقيين ص٢٥٢.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية ١٠/ ٢٤٢ تحقيق رشاد محمد سالم.

(٣) مناهج البحث عند مفكري الإسلام، للدكتور علي سامي النشار، دار الفكر العربي، ط١، سنة ١٩٤٧م، ص١٨٦-١٨٧ بتصرف. وقد نقلتُ ذلك من كتاب (القرآن والنظر العقلي) لفاطمة إسماعيل محمد ص١٤٥ حيث لم أعثر على المرجع الأصلي.

(٤) الرد على المنطقيين ص٢٩٨.

إن الطريقة الكلامية في الغالب: إما مشتبهة يقع النزاع فيها، وإما خفية لا يدركها إلا الأذكياء. ولهذا لا يتفق منهم اثنان على جميع مقدمات دليل إلا نادراً.

وكل رئيس من رؤساء الفلاسفة والمتكلمين له طريقة في الاستدلال تخالف طريقة الرئيس الآخر، بحيث يقدح كل من أتباع أحدهما في طريقة الآخر، ويعتقد كل منهما أن الله لا يُعرف إلا بطريقته، وإن كان جمهور أهل الملة وعامة السلف يخالفونه فيها[(١)].

إن الفلاسفة بهذه الطرق الفاسدة يُخرجون الناس عما فُطروا عليه من المعارف اليقينية، والبراهين العقلية، وما جاءت به الرسل من الأخبار الإلهية عن الله... ويريدون أن يجعلوا من قضاياهم الكاذبة وخيالاتهم الفاسدة أصولاً عقلية، يُعارَض بها ما أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه، وما فَطَرَ الله عليه عباده، وما تقوم عليه الأدلة العقلية التي لا شبهة فيها.

وهم بذلك يفسدون العلوم العقلية والسمعية، لأن مبنى العقل على صحة الفطرة وسلامتها[(٢)].

إن الفلاسفة والمتكلمين لم يوافقوا الطريقة القرآنية لا في الوسائل ولا في المقاصد[(٣)]، والفرق بين الطريقتين كالفرق بين الذاتين ذات الله عزوجل، وذوات الفلاسفة وأهل الكلام.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢/ ٢٢، وانظر: إغاثة اللهفان لابن القيم ١/ ٤٤-٤٥.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٩/ ٢٣٣-٢٣٥ باختصار، وانظر: الرد على المنطقيين، لنفس المؤلف ص٣٧٣.

(٣) مجموع الفتاوى ٢/ ١٢-١٣.

وبناء على كل ما سبق أقول: إن أدلة المتكلمين لا تخلو من الوهن والضعف، وهي موضوع شك وجدل، وبعضها باطل بالفعل، وكما أنها لا تصلح للعامة، فإن عقول العلماء والخاصّة تنفر منها، وتعافها، وتتجاوزها.

ولقد أحسن الإمام الغزالي في تصوير الفرق بين الدليل القرآني والدليل الكلامي بقوله: «فأدلة القرآن مثل الغذاء الذي ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء، ينتفع به آحاد الناس ويتضرر به الأكثرون، بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصّبي الرضيع والرجل القوي. وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرّة، ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الأطفال أصلاً»[١].

وقد وصف ابن تيمية أدلة أهل المنطق ومنهجهم في الاستدلال على الخالق بقوله: «وأما هو في نفسه ـ أي المنطق ـ فبعضه حق، وبعضه باطل، والحق الذي فيه كثير منه أو أكثره لا يُحتاج إليه، والقدر الذي يُحتاج إليه منه فأكثر الفِطَر السليمة تستقل به، والبليد لا ينتفع به، والذكي لا يحتاج إليه، ومضرته على من لم يكن خبيراً بعلوم الأنبياء أكثر من نفعه، فإن فيه من القواعد السلبية الفاسدة ما راج على كثير من الفضلاء، وكانت سبب نفاقهم، وفساد علومهم»[٢].

---

(١) إلجام العوام عن علم الكلام، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، بيروت ـ لبنان ص٨١.

وانظر: ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، لمحمد بن المرتضى اليماني، الشهير بابن الوزير، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، بيروت ـ لبنان، ص٢٢.

(٢) مجموع الفتاوى ١١/ ٢٦٩-٢٧٠.

وانظر: الرد على المنطقيين ص٣٧٣.

وحمل ابن تيمية على المتكلّمين بقوله: «والعجب من قوم أرادوا بزعمهم نصر الشرع بعقولهم الناقصة، وأقيستهم الفاسدة، فكان ما فعلوه مما جرّأ الملحدين أعداء الدين عليه، فلا الإسلام نصروا، ولا الأعداء كسروا»(١).

**عموماً**: إنه لما في أدلة الفلاسفة والمتكلمين من ضعف وتناقض وشكوك وتعقيد، وغموض، وصعوبة مسالك، وغير ذلك... كانت أدلتهم غير يقينية، فكثر في أصحابها الاضطراب والحيرة والقلق، والانزعاج من عدم استقرار نفوسهم على يقين لا يقبل التشكيك، كما تبيّن من ندم بعضهم على ما كان منهم وذمِّهم لعلم الكلام(٢) ـ كما سنأتي عليه(٣) ـ.

كل هذا فوق ما في أدلة الفلاسفة والمتكلمين من حشو للمصطلحات غير القرآنية وإثقال بها.

**ختاماً أقول**: إن كثيراً من الأدلة الفلسفية والكلامية لا تنهض للاستدلال بها.

ومن المعلوم أن ضعف الدليل الذي يُستدل به على الحق يؤدي إلى كثرة الشك بل قد يؤدي إلى ردّ الحق(٤)، إذ يسهل على الخصم بيان عوار الدليل، فإذا ردّه ردّ الحق، مع أن الحق قويّ في ذاته، والضعف إنما هو في الدليل الموصِّل إليه.

---

(١) مجموع الفتاوى ٩/ ٢٥٤.

(٢) انظر: القرآن والنظر العقلي، فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل ص١٥١-١٥٢.

(٣) انظر ص١١٣٥.

(٤) كما فعل المتكلمون بردِّهم النصوص التي تدل على أن الله في السماء، بدعوى أن الله لا يكون في جهة، لأن كونه في جهة يُعدّ تحيّزاً. مع أن النصوص صريحة في كونه تعالى في السماء، وخطؤهم أنهم ظنوا أن معنى كونه في السماء أن السماء تحويه ـ سبحانه ـ وأخطأوا أيضاً عندما طبقوا المقاييس البشرية على الذات الإلهية. انظر: العقيدة في الله، للأشقر ص٤٥.

لأجل ذلك نجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالاً من قول إلى قول، وجزماً بالقول في موضع، وبنقيضه في موضع آخر، بل يُكفّرون بقول ما، وهم ممن قال به في مكان آخر... وهذا دليل على عدم اليقين... ونجد أيضاً أن المتفلسف أعظم اضطراباً وحيرة في أمره من المتكلم...

**وأيضاً**: نجد أهل الفلسفة والكلام أعظم افتراقاً واختلافاً مع دعوى كل منهم أن الذي يقوله هو مقطوع به، قام عليه البرهان. بخلاف أدلة القرآن فإن أصحابها مستقرون عليها، آخذون بها، لا يتلجلجون، ولا يضطربون(١)، ولا يختلفون.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٥٠-٥١.

# «المطلب الخامس»

# «ثمار المنهج القرآني في الاستدلال على التوحيد مقارنة بثمار مناهج الفلاسفة والمتكلمين»

سبق الحديث عن أهداف القرآن من تقديمه لأدلة التوحيد، وأضيف هنا قائلاً: لأن أدلة التوحيد القرآنية أدلة ملزمة، تتقاضى صاحبها الخضوع والتسليم، ولاتقبل في حكمها جدالاً ولا مناقضة، بل لا تبيح له في نفسها بحثاً ولا تردداً[(١)]، ولأن سلطان العقيدة المتمثل في أدلة التوحيد القرآنية أقوى بكثير من فلسفة الفلاسفة وكلام المتكلمين، ولأن القوة النفسية التي تقوم بوظيفة الإيمان أسمى بكثير من القوة النفسية التي تقوم بوظيفة المعرفة، لذلك كله وغيره فإن أدلة التوحيد القرآنية قد أثمرت إيماناً بالله لا يجد الإنسان في صدره منه شيئاً من الضيق أو الحرج، أو الشك والريب، أثمرت إيماناً يحمل فكرة التوحيد من سماء العقل إلى قرارة القلب، فيجعلها للنفس ريّاً وغذاء يدخل في كيانها، ويصبح عنصراً من عناصر حياتها، بعد إحساسها ببرد اليقين[(٢)].

لقد أثمرت كثيراً وخيراً وفيراً محققة كل أهدافها التي سبق الحديث عنها.

أما مناهج الفلاسفة وعلماء الكلام فلم تزد على تعريف الخلق بخالق غير معيّن ولا موصوف، ولم تبيّن الواجب نحوه، وما يحبه، وما يرضاه، وما يقرب إليه وما يباعد عنه، وما يسخطه وما يحبب العبد إليه.

---

(١) العقيدة في الله، للأشقر ص٤١ بتصرف.

(٢) نفسه ص٤٢ بتصرف. وانظر: الدين، للشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز ص٦٩، وما بعدها.

إن الفلسفة وعلم الكلام حققا علماً يسيراً بالله، ولم يحققا الإيمان كله، كما أن الفلسفة لا يعنيها التعمق في معرفة الخالق على الوجه الصحيح ـ لا كمّاً ولا كيفاً، ولا يعنيها التوسع والانتشار في التعريف به كما هو الإيمان، بل قد يَضِنُّ بها أصحابها على غيرهم.

**أخيراً أقول:** لقد جاءنا القرآن الكريم بعقيدة التوحيد الخالص، على لسان محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، أوحاه الله إلى خير الخلق وأصدقهم وأكثرهم أمانة وأرجحهم عقلاً. وجاءنا الفلاسفة ومن نحى نحوهم بالرأي، وفرق كبير بين الرأي والعقيدة، وفرق كبير أيضاً بين روّاد كلٍّ منهما «فذو الرأي فيلسوف، يقول: إني أرى صواباً ما قد يكون في الواقع باطلاً، وما قامت الأدلة عليه اليوم، قد تقوم الأدلة على عكسه غداً، وقد أكون مخطئاً فيه، وقد أكون مصيباً.

أما ذو العقيدة فجازم بات، لا شك عنده ولا ظن، عقيدته هي الحق، لا محالة، هي الحق اليوم، وهي الحق غداً، خرجت عن أن تكون مجالاً للدليل، وسمت عن معترك الشكوك والظنون.

ذو الرأي فاتر بارد إن تحقق ما رأى ابتسم ابتسامة هادئة رزينة، وإن لم يتحقق ما رأى فلا بأس، فقد احترز من قبل بقوله: إن رأيه صواب يحتمل الخطأ...

أما ذو العقيدة فلا يهدأ له بال، ولا يقر له قرار حتى يقيم الحق الذي جاء به ـ وخاصة حقيقة التوحيد ـ إن الرأي موات لا حياة فيه ما لم تنفخ فيه العقيدة من روحها، وهو كهف مظلم متشعِّب لا يهتدى فيه أحد حتى يستنير بشعاع التوحيد، وهو مستنقع راكد يبيض فوقه البعوض، بينما العقيدة بحرٌ زاخر لا

يسمح للهوام الوضيعة بالتوالد على سطحه، ويقذف بالزبد جفاءً ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الرعد: ١٧).

الرأي سديم يتكوّن، والعقيدة نجم يتألق.

الرأي يسبب المصاعب، ويضع العقبات، ويُصغى لأماني الجسد، ويثير الشبهات، ويبعث على التردد.

والعقيدة تقتحم الأخطار، وتزلزل الجبال، وتلفت وجه الدهر، وتغيّر سير التاريخ، وتنسف الشك والتردد، وتبعث الحزم واليقين، ولا تسمح إلا لمراد الروح[١].

هذه هي عقيدة التوحيد التي جاء بها القرآن الكريم، ونصب في سبيل تحقيقها مئات بل آلاف الأدلة القرآنية الداعية إلى التفكر في ما لا يُعدُّ ولا يُحصى من أدلة التوحيد الكونية.

لقد كانت عقيدة التوحيد التي جاء بها أنبياء الله ورسله، وخاتمهم محمد ﷺ الذي جاء بخير الكتب وآخرها، عقيدة واضحة، مبرهنة، ثابتة، بل عقيدة فطرية، وهي كذلك عقيدة وسط فلا إفراط ولا تفريط فيها[٢]. وهكذا هي بقية العقائد الغيبية في القرآن الكريم مما يتعلق بأركان الإيمان.

---

(١) فيض الخاطر، لأحمد أمين، الجزء الأول، بتصرف، وقد نقلتُ ذلك من كتاب (الإيمان والحياة) للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي ص١٨-١٩ لأني لم أعثر على المرجع الأصلي. وانظر: العقيدة في الله، للأشقر ص٤٩-٥٠.

(٢) انظر: خصائص العقيدة الإسلامية في كتاب (الإيمان والحياة) للقرضاوي ص٣٨-٤٦.

## «المطلب السادس»

## «موقف العلماء من الفلسفة وعلم الكلام وأهلهما»

في ختام هذا الفصل ـ وخاصَّة هذا المبحث ـ الذي قارنت فيه بين منهج القرآن في إقرار وحدانية الله، والدعوة إلى توحيده، وبين مناهج الفلاسفة وعلماء الكلام في إثبات الخالق وإقرار وحدانية الصانع، أجد من المناسب أن أذكر موقف أكابر علماء الإسلام تجاه الفلسفة وعلم الكلام وأهلهما، فقد تبيَّن في ذلك انقسام أهل العلم إلى اتجاهين كما يلي:

أ ـ من أهل العلم من أنكر الفلسفة وعلم الكلام: وعارض الاتجاه الداعي إلى خلط مباحث العقيدة الإسلامية بهما[1]، وحذَّر من خطر الانصراف عن أدلة الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح إلى غيرها، وحارب الذين تأثروا بهذه الفلسفات. ومن هؤلاء الأئمة الذين نبذوا الفلسفة وعلم الكلام: الإمام مالك[2]،

---

(١) كما وقع من ابن سيناء وأمثاله حيث خلطوا بين بعض مباحث العقيدة الإسلامية وبين الفلسفة وعلم الكلام، ودعوا إلى ذلك.

(٢) هو: مالك بن أنس بن مالك الأصبحي، الحميري، أبو عبد الله: إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية، ولد في المدينة عام ٩٣هـ، كان صلباً في دينه، بعيداً عن الأمراء والملوك، وُشِيَ به إلى جعفر المنصور العباسي فضربه سياطاً انخلعت لها كتفه، ووجّه إليه الرشيد العباسي ليأتيه فيحدِّثه، فقال: العلم يؤتى،... سأله المنصور أن يضع كتاباً للناس يحملهم على العمل به، فصنَّف الموطأ وهو مطبوع، وله رسالة في (الوعظ) مطبوع، و(تفسير غريب القرآن) وأخبار كثيرة، كتب عنه كثيرون، توفي في المدينة عام ١٧٩هـ. انظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض، تحقيق د/ أحمد بكير، دار مكتبة الحياة، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان ١/ ١٠٢ وما بعدها. و: سير أعلام النبلاء، للذهبي ١/ ١٧ وما بعدها.

والشافعي، وأبو حنيفة[١]، وأحمد بن حنبل[٢]، فقد كرهوا ذلك، وبدّعوا أصحابه، حتى قال فيهم الشافعي رحمه الله «حُكْمِي في أصحاب الكلام أن يُطاف بهم في القبائل، وينادي عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، واقبل

---

(١) هو: النعمان بن ثابت، التيمي، بالولاء، الكوفي، أبو حنيفة: إمام الحنفية، الفقيه، المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، قيل: أصله من أبناء فارس، ولد بالكوفة عام ٨٠هـ ونشأ بها، وكان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والإفتاء، وأراده عمر بن هبيرة (أمير العراقيين) على القضاء، فامتنع ورعاً، وأراده المنصور العباسي بعد ذلك على القضاء ببغداد فأبى، فحلف عليه ليفعلن، فحلف أبو حنيفة أنه لا يفعل فحبسه إلى أن مات (قال ابن خلكان: هذا هو الصحيح)، وكان قوي الحجة، من أحسن الناس منطقاً، قال الإمام مالك: رأيتُ رجلاً لو كلّمتَه في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته. وقال الشافعي: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة، له (مسند) مطبوع في الحديث، جمعه تلاميذه، وتنسب إليه رسالة (الفقه الأكبر) مطبوع، ولم تصبح النسبة، كتب عنه كثيرون، توفي ببغداد عام ١٥٠هـ. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان ٢/ ١٦٣، و: الجواهر المضية في طبقات الحنفية ١/ ٢٦.

(٢) هو: أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله، الشيباني، الوائلي، إمام المذهب الحنبلي، ولد عام ١٦٤هـ في بغداد، أحد الأئمة الأربعة، أصله من مرو،... نشأ منكبّاً على طلب العلم، وسافر في سبيله إلى بلدان كثيرة... في أيامه دعى المأمونُ إلى القبول بخلق القرآن ومات قبل أن يناظر ابن حنبل، وتولى المعتصم فسجن ابن حنبل ثمانية وعشرين شهراً لامتناعه عن القول بخلق القرآن، وأُطلق سنة ٢٢٠هـ ولم يُصبه شر في زمن الواثق بالله ـ بعد المعتصم ـ ولما توفي الواثق، وولي أخوه المتوكل (أخو المعتصم) أكرم الإمام ابن حنبل وقدَّمه... ويُطلق عليه إمام أهل السنة والجماعة لثباته في أيام المحنة وظهور القول بخلق القرآن. له مصنفات كثيرة منها: (المسند) وله كتب في (التاريخ) و(الناسخ والمنسوخ) وغير ذلك. توفي عام ٢٤١هـ . انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان ١/ ١٧، وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ٤/ ٤١٢.

على الكلام[1]» وفي رواية أخرى فيها زيادة أنه قال: «حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال..»[2].

ونُسب إلى أبي حنيفة النعمان أنه قال عن أهل الكلام: «وإني رأيتُ أنَّ من ينتحل الكلام ويجادل فيه قومه، ليس سيماهم سيما المتقدمين، ولا منهاجهم منهاج الصالحين، رأيتهم قاسية قلوبهم، غليظة أفئدتهم، لا يبالون مخالفة الكتاب والسنة والسلف الصالح، ولم يكن لهم ورع ولا تقوى»[3].

أما أبو حامد الغزالي فقد قال عن طريقة أهل الكلام وأدلتهم ـ بعد رجوعه عن ذلك ـ : «اعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي يُنتفع بها، فالقرآن والأخبار[4] مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة، وهي من البدع...، وإما مشاغبة بالتعليق بمناقضات الفِرَق لها، وتطويل بنقل

---

(١) ورُوي عنه أنه قال لقوم تناظروا في الكلام: (تناظروا في شيء إن أخطأتم فيه يقال لكم: أخطأتم، لا تناظروا في شيء إن أخطأتم فيه يقال لكم: كفرتم).
انظر: تبيين كذب المفتري، لابن عساكر الدمشقي ص٣٤٣-٣٤٤، وقد نقلت ذلك من كتاب (الدلالة العقلية في القرآن)، للدكتور عبدالكريم عبيدات ص١٣ حيث لم أعثر على المرجع الأصلي.

(٢) انظر: مناقب الإمام الشافعي، لابن كثير ص١٨٥-١٨٧.
أو: مناقب الشافعي لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، ط١، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م ـ القاهرة ـ مصر ص١٨٥-١٨٧. و: انظر أيضاً: صون المنطق، للسيوطي ص٦٢-٦٦. وكذلك: العقيدة في الله، للأشقر ص٤٧.

(٣) حياة الإمام أبي حنيفة: السيد عفيفي، المطبعة السلفية ومكتبتها، ط (بدون)، ١٣٥٠هـ ـ القاهرة ـ مصر ص١٤. وانظر: أبو حنيفة، للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ط٢، د.ت، القاهرة ـ مصر، ص٢٥-٢٦.

(٤) يقصد سُنّة النبي ﷺ.

المقالات التي أكثرها تُرّهات وهذيانات، تزدريها الطِّباع، وتمجُّها الأسماع، وبعضها خوضٌ فيما لا يتعلق بالدين، ولم يكن شيئ منه مألوفاً في العصر الأول، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع»[١].

وأصاب رحمه الله، فإن علم الكلام يستند إلى صناعة المنطق، ولم نر المنطق المجرّد الجاف، بأقيسته وقضاياه الكلية والجزئية، والموجبة والسالبة كان ـ في يوم من الأيام ـ طريقاً لدخول الناس في مذهب أو عقيدة أو دين، كما أنه قلّما ينفذ إلى النفوس بصورة مقبولة مستساغة[٢].

عموماً لقد نبّه ابن رشد، وابن تيمية، والشاطبي، وابن القيم، وابن الوزير اليماني[٣]، نبّه كل هؤلاء وغيرهم على خطورة المنهج الفلسفي الكلامي، وانتقدوا أهله في ذلك[٤].

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٣٣.

(٢) دراسات في العقيدة الإسلامية، للدكتور محمد عبدالله الشرقاوي ص١١٩-١٢٠.

(٣) هو: محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى، المعروف بابن الوزير اليماني، يتصل نسبه بالحسن بن علي بن أبي طالب، وهو إمام كبير مجتهد مطلق، ولد في عام ٧٧٥هـ بهجر الظهراوين من شطب، قرأ العربية وعلم الكلام وأصول الفقه والتفسير وغيرها... على أكابر مشايخ صنعاء وصعدة وسائر المدن اليمنية... ومكة... تبحر في جميع العلوم وفاق أقرانه... اشتهر صيته وطار علمه في الأقطار... له مؤلفات عدة منها: (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) و: (الروض الباسم) و: (كتاب البرهان القاطع في معرفة الصانع) وغيرها من الكتب، توفي سنة ٨٤٠ هـ. انظر: البدر الطالع، للشوكاني ٢/ ٨١-٩٣.

(٤) انظر: تفاصيل ذلك كله في المرجع السابق ص٨٠-٨٥، ص١٢٠-١٢٢. وفي كتاب (نماذج من الاستدلال على وجود الله وصفاته تعالى) للدكتور عبدالحليم أحمدي ص٧-١٥. وفي كتاب (الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، لسعود العريفي ص٢١٧-٢٦٤.

ب ـ ومن علماء الإسلام من خاض فيما خاض فيه المتكلمون:

فالذين خاضوا وأضناهم المسير، ولم ينتبهوا إلا وشمس العمر تميل إلى الغروب، ندموا على ما كان منهم، وأعلنوا ذلك، وحذَّروا مَنْ بعدَهم من سلوك هذا الطريق الخاطئ الذي ساروا فيه سابقاً، ومن هؤلاء:

١ ـ **محمد بن عمر الرازي**، الذي ملأ الدنيا بكتبه في المعقولات، وشحن تفسيره من ذلك بما انتقده عليه أئمة المسلمين، حيث قال: «ولقد اختبرتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتُ فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم..»[1].

**وأنشد قائلاً:**

**نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلالُ**
**وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذىً ووبالُ**
**ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا**
**فكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا**
**وكم من جبال قد علا شرفاتها ... رجالٌ فزالوا والجبالَ جبالُ**

وقال أيضاً: «لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما وجدتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً»[2].

---

(١) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لأبي العباس موفق الدين أحمد بن القاسم بن ابي أُصيبعه، دار الثقافة، ط٤، ١٤٠٨هـ بيروت ـ لبنان ٣/ ٤١. و: انظر نحوه في: مفتاح دار السعادة، لابن القيم ١/ ١٤٥.

(٢) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم ص٧.

و: اعتقادات فرق المسلمين، لمحمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية، ط (بدون) ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، بيروت ـ لبنان ص٢٣.

وقال بعد هجرانه للفلسفة وعلم الكلام ودعوته لطريقة القرآن: «من جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[1].

٢ ـ الشهرستاني[2]: الذي قرر أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين بعد طول بحث إلا الحيرة والندم، وقال:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيّرتُ طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كفّ حائر ... على ذقن أو قارعاً سن نادم[3]

٣ ـ إمام الحرمين الجويني: وهو من الجهابذة الذين اشتغلوا بعلم الكلام، أُثر عنه أنه قال: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلتُ به... ـ وقال عند موته نادماً متحسراً على ما كان منه ـ:

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية، المكتبة السلفية، ط٤، ١٤٠١هـ القاهرة ـ مصر ص٧.

(٢) هو: محمد بن عبدالكريم بن أحمد، أبو الفتح الشهرستاني، من فلاسفة الإسلام، ولد عام ٤٧٩هـ في شهرستان (بين نيسابور وخوارزم)، كان إماماً في علم الكلام وأديان الأمم، ومذاهب الفلاسفة، يُلقب بالأفضل...

قال ياقوت في وصفه: «الفيلسوف المتكلم، صاحب التصانيف، كان وافر الفضل، كامل العقل، ولولا تخبطه في الاعتقاد ومبالغته في نصرة مذاهب الفلاسفة والذب عنهم لكان هو الإمام...» من كتبه (الملل والنّحل) و(الإرشاد إلى عقائد العباد) وغير ذلك، توفي في بلده عام ٥٤٨هـ.

انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان ١/ ٤٨٢ وفيه روايتان في مولده: إحداهما سنة ٤٦٧هـ، والثانية سنة ٤٧٩هـ، وأثبتُّ الثانية لقول السمعاني إنه سمعها منه.

وانظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، مادة شهرستان.

(٣) نهاية الإقدام في علم الكلام، للشهرستاني ص٣.

لقد خضتُ البحر الخِضم، وخلَّيت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلتُ في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني الله برحمته، فالويل لابن الجويني، وهاأنذا أموت على عقيدة أمي، ـ أو قال على عقيدة العجائز ـ »[١].

٤ ـ **أبو حامد الغزالي**، وهو أحد الذين أطالوا البحث والتنقيب والتنقل من فرقة إلى فرقة، وقد انتهى في آخر عمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، وألّف كتابه: (إلجام العوام عن علم الكلام)، بل حرّم الاشتغال بعلم الكلام إلا في حالات خاصّة، وقد أعرض في آخر عمره عن الاشتغال بعلم الكلام والطرق الكلامية، وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ فمات وصحيح البخاري على صدره[٢]، وغيرهم كثير.

ثم جاء بعد هؤلاء العلماء جماعة من أهل العلم ساروا على المنهج الصحيح القويم، واستوعبوا علوم الفلاسفة وأهل الكلام، وعرفوا مقاتلهم، فردّوا على ذلك كله بالمنهج القرآني، وجابهوا الفلاسفة والمتكلمين بلغتهم وسلاحهم، وبيّنوا ما في ذلك من عَوار وضعف، وكان حامل لواء هذا كله هو شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية رحمه الله[٣].

وبعد أن ذكرتُ موقف أهل العلم من الفلسفة وعلم الكلام وأصحابها أقول:

---

(١) انظر: الفتوى الحموية الكبرى ص٧.

(٢) العقيدة في الله، للأشقر ص٤٨، وللوقوف على حيرة الغزالي. انظر كتابه (المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال) وفيه من الطامات ما فيه.

(٣) العقيدة في الله، للأشقر ص٤٩.

ثمة استفسارات وشبهات قد تعترض الموحّدين في طريق التوحيد، أو يُشكِّكهم غيرهم بها، منها ما يتعلق بالله، ومنها ما يتعلق بآياته، فكان لزاماً عليّ أن أتناول ذلك في فقرة خاصة ـ هي آخر ما يتعلق بهذه الرسالة ـ وذلك كما يلي:

# «شبهات وتساؤلات»

## تمهيد:

بعد أن استعرضنا منهج القرآن الكريم في إقرار وحدانية الله، والدعوة لتوحيده، من خلال عرضه لأدلة التوحيد النفسية والعقلية، وأساليبه لذلك.

وبعد أن تجلّت لنا خصائص المنهج القرآني المتميزة في إقامة التوحيد في نفوس العبيد.

**أقول:** ثمة شبهات واستفسارات تتعلق بوحدانية الله، وتوحيده، قد تتوارد على أذهان بعض العقلاء، أو يضعها غيرهم في طريق الإيمان بالله، مما يؤدي إلى تخلُّف بعض الناس عن التوحيد، أو تلكؤهم في الاقبال عليه، أو يجعل آخرين في حيرة لاستمرار أكثر الخلق على الكفر وإعراضهم عن التوحيد والإيمان.

ومن أهم هذه الشبهات والتساؤلات التي تحتاج إلى ردود عليها ثلاث شبهات هي:

**س١: ما سر استمرار أكثر البشرية على الإلحاد والشرك (أي الكفر) رغم كثرة آيات الله الدالة عليه ووضوحها؟**

**س٢: هل تلزم رؤية الله جهرة للإيمان به ـ كما اشترط الكفار السابقون ـ وهل يمكن ذلك؟**

**س٣: كيف اقترن الإلحاد بالعلوم العصرية الحديثة، رغم دلالة نتائجها على وجود رب واحد يدبر الكون بأجمعه؟**

ولبيان الردود على ذلك نبدأ بالشبهة الأولى:

## الشبهة الأولى:

س: ما سِرُّ استمرار أكثر البشرية على الكفر رغم كثرة آيات الله الدالة على وحدانيته، الموصِّلة لتوحيده ووضوحها؟

ج: للجواب على هذا التساؤل أقرر أولاً حقيقة هذه الشبهة من كتاب الله.

لقد أخبرنا الله عزوجل عن كثرة آياته الدالة عليه، مبيناً إعراض الكفار عنها، من ذلك ما جاء في قوله سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[1] وقوله: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[2].

وأوضح سبحانه أن هذه الآيات بيّنات في نفسها مبيّنات لما تدل عليه فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾[3]، وقال: ﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (الطلاق: ١٠، ١١).

وذكر سبحانه أنه قد نوّع هذه الآيات لتتم هداية الخلق أجمعين، فقال: ﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[4] قال ابن عاشور: «وتصريف الآيات تنويعها باعتبار ما تدل عليه من الغرض المقصود منها وهو الاقلاع عن الشرك

---

(١) يوسف: ١٠٥ ونحوها في سورة الحجر: ١٤، غافر: ٨١، القمر: ٢.

(٢) الأنعام: ٤، ويس: ٤٦.

(٣) الحديد: ٩، ونحوها في المجادلة: ٥.

(٤) الأحقاف: ٢٧.

وتكذيب الرسل. ومعنى تنويع الآيات أنها تارة تكون بالحجة والمجادلة النظرية،... وأخرى بالوعيد، ومرة بالتذكير بالنعم وشكرها»[١].

لقد تنوّعت آيات الله الدالة عليه ـ سواء القرآنية أو الكونية ـ وكانت كما أخبر الله عن آيات موسى لفرعون وملئه بقوله جل شأنه: ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ... ﴾ (الزخرف: ٤٨) فآيات الله في الأرض والسماوات أكبر وأعظم من آياته في الإنسان والحيوان والنبات وغيره كما سبق شرحه.

ورغم هذا كله فأكثر الخلق غافل عنها كما قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾ (يونس: ٩٢) بل معرضون كما قال عز وجل عن الكفار: ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (فصلت: ٤) فلم يتذكروها في أنفسهم، ولم يقبلوا التذكير بها من رسلهم ومن اقتفى أثرهم. إنهم كما قال الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (يونس: ٩٦، ٩٧) فمهما تنوّعت آيات الله الدالة عليه أو تكاثرت وتضافرت على ذلك فلن يؤمنوا بها ولا بما تدل عليه ـ إلا أن يشاء الله ـ:

ـ فهل كان المنهج القرآني في عرض أدلة التوحيد غير كاف بمقصوده؟

ـ وهل يعني هذا أنا بحاجة لمنهج آخر يعرض عقيدة التوحيد بعيداً عن نصوص القرآن؟

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٤٦ وقال: «وجملة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ مستأنفة لإنشاء الترجي،... أي رجاء رجوعهم... والرجاء من الله تعالى يُستعمل مجازاً في الطلب».

- أم أن هناك أسباباً أخرى هي وراء عدم استجابة كثير من الناس لدعوة التوحيد؟

**وللإجابة على هذه التساؤلات أقول:**

أما من حيث المنهج القرآني فقد ذكرنا مميزاته وخصائصه التي انفرد بها، وبيّنا أنه قد اجتمع فيه من الحق ما تفرّق في غيره، وأنّ من لم يقتنع بأدلة القرآن فهو إلى الاقتناع بما سواها أبعد، فليست الآفة في ضعف أدلته، لكن الخلل في المستقبل لها، وهذا ما حكى الله عزوجل عنه في بعض آياته قائلاً: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الجاثية: ٦).

لقد تحدثت فيما سبق عن قوة دلالة أدلة التوحيد القرآنية والكونية على الذات الإلهية[١]، وأُضيف هنا قائلاً:

ليست آيات التوحيد القرآنية قليلة ولا غامضة حتى يقول قائل أنها بسبب ذلك لم تكن كافية لتحقيق غرضها ومقصودها - أي الإيمان بالله عز وجل - بل هي من الكثرة بحيث لا تُعد ولا تُحصى، ومن الوضوح بحيث لا تخفى، ولكن السر في الإنسان ذاته، السر في إعراضه هو عن آيات الله، وعدم نظره فيها نظرة إعتبار وتدبر، وبحث عمن وراءها.

السر في عدم تعرُّفه على الحقيقة، في انغلاق قلبه وعماه وكبره عن الاعتراف بالحق، حتى انحرف عن فطرة الله التي فطر الناس عليها[٢]، فلو جاهد نفسه على

---

(١) راجع ص ١١٢٢.

(٢) الله جل جلاله، لسعيد حوى ص ٢٤ بتصرف.

معرفة الحق، والاهتداء إليه، لهداه الله القائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

وكما أنا نلاحظ طائفة من الناس يعرفون الحق ثم يتركونه بعد العلم به، ويعرفون الشر فيفعلونه ـ كحال مدمني الخمر والمخدرات والفواحش ونحوها ـ.

فكذلك حال الكافرين، يعرفون الحق ويتنكّبونه بعد العلم به، ويعرفون التوحيد فيعرضون عنه، ويعلمون الشرك فيصرون عليه، كما قال تعالى عن جحود قوم فرعون وملئه بآيات موسى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ ﴾ (النمل: ١٤) وكما قال عن كفار قريش مخاطباً رسوله ﷺ ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣) ومرد هذا الإعراض عن آيات الله، وعدم الاستجابة لها إلى عدة أمور سبق الحديث عن بعضها، ومنها كذلك:

١- اتباع الأهواء، فقد أخبر الله نبيه محمداً ﷺ ـ والخطاب له ولأمته من بعده ـ عن سبب عدم استجابة كفار عصره لدعوة التوحيد

بقوله: ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ ﴾ (القصص: ٥٠).

٢- الكبر المتأصِّل في نفوسهم، كما قال سبحانه: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٦).

٣- الظلم والكذب الذي أسرف فيه الكفار، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الصف: ٧) وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (الزمر: ٣).

٤- شدة الإجرام الواقع من الكفار وكثرة إفسادهم في الأرض مما أفسد عليهم قلوبهم، كما قال عز وجل: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ[1] عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (البقرة: ٢٦، ٢٧).

٦- الغفلة واللهو واللعب، كما قال عز وجل: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ (الأنبياء: ١-٣).

٧- إعراض القلوب وزيغها عن الحق وأهله كما قال سبحانه عن الكفار: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (الصف: ٥).

إن الكبر والغفلة عن آيات الله هما طريق الكفر، بينما الخضوع للحق وقبوله هو طريق الإيمان، وهذا ما قررته آيات القرآن بقوله تعالى: ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾[3] وقوله سبحانه: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ (الأعلى: ١٠) وقوله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

---

(١) ران: أي غطى، انظر: تفسير السعدي ص١٠٠٠.

(٢) المطففين: ١٤، ونحوها في سورة الحجر: ١٢-١٣.

(٣) الرعد: ٢٧، ونحوها في الشورى: ١٣.

هذه بعض عوائق الهداية لدى أكثر خلق الله، وأضيف قائلاً: إن من أسباب استمرار الكفار على الشرك والكفر بالله ما يأتي:

أ- عدم وصول البلاغ المبين بدين رب العالمين إلى كل البشر لعدة أمور(١).

ب- التشويه المتعمَّد الذي يمكره اليهود بالإسلام والمسلمين ويبثُّونه عبر وسائل الإعلام العالمية لصد الناس عن دين التوحيد الخالص لرب العالمين.

ج- سلوك بعض المسلمين (أفراداً وجماعات وحكومات) الذي يشوه بالإسلام عند خصومه ويعطي صورة سيئة عن أهله تنفِّر البعض عن الإقبال عليه.

## الشبهة الثانية:

**س: هل تلزم رؤية الله جهرة للإيمان به ـ كما اشترط الكفار السابقون ـ وهل يمكن ذلك؟**

ج: للرد على هذا التساؤل أقرر أولاً وقوع ذلك من الكفار السابقين كما يأتي:

لقد اقترح الكفار على رسلهم اقتراحات عديدة، واشترطوا عليهم شروطاً تعجيزية تعنتية ليؤمنوا بالله(٢)..

---

(١) منها تقصير المسلمين في الدعوة إلى الله كما سأشرحه بالتفصيل في ص١١٨٥.

(٢) ومن هؤلاء كفار قريش الذين قالوا لرسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ... ﴾ (الإسراء: ٩٠-٩٣). وقالوا أيضاً: ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ (هود: ١٢).

وقالوا أيضاً: ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ٧). وانظر: ما جاء في سورة البقرة: ١١٨، والأنعام: ٣٧، والأنفال: ٣٢ والرعد: ٧، ٢٧، وطه: ١٣٣، والأنبياء: ٥.

فلم يستجب الله لهم لعدة حِكَم عظيمة[1].

ومن هذه المقترحات والشروط ما وقع من إلحاح قوم موسى عليه وقولهم له ـ كما سجّل القرآن الكريم ذلك عنهم ـ: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ... ﴾ (البقرة: ٥٥).

وقال سبحانه في موضع آخر وهو يخاطب رسوله محمداً ﷺ: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[2].

فقد اشترط الكفار على موسى عليه السلام ـ تعنُّتاً وتعجيزاً له ـ رؤيتهم لله جل جلاله حتى يؤمنوا به سبحانه وتعالى.

(١) منها أنهم سيكذبون كما كذب الذين من قبلهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ (الإسراء: ٥٩).

ومنها وجوب إهلاك الله لهم إن لم يؤمنوا، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ (الأنعام: ٨).

(٢) النساء: ١٥٣.

وقد طلب موسى عليه السلام رؤية الله عزوجل كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٣) لكن موسى لم يطلب ذلك كما اشترطه الكفار تعنُّتاً وتعجيزاً ـ ليؤمنوا بالله ـ إنما طلبه ليحصل على مزيد من إكرام الله تعالى له، كما أكرمه بأن كلمه تكليماً.

ولقد دلّت الآيات والأحاديث على استحالة رؤية الخلق لربهم في الدنيا، وإمكانية ذلك في الدار الآخرة ـ على خلاف بين الفقهاء[١] ـ وهي رؤية خاصة بأهل الجنة، زيادة من الله لهم في الإكرام والنعيم العظيم[٢].

**والذي يهمنا هنا هو:**

**س: هل رؤية الله في الدنيا شرط للإيمان به؟ وهل يمكن ذلك؟**

**والجواب كما يلي:**

من الأساسيات المتفق عليها في مناهج البحث في العقائد[٣] القواعد التالية:

**القاعدة الأولى:** عدم إدراك الشيء لا يعني عدم وجوده.

**القاعدة الثانية:** عدم تصور الشيء لا يعني عدم وجوده.

**القاعدة الثالثة:** لا تُبنى العقائد على الحدس والافتراض.. ولتوضيح الجواب أبدأ بشرح القاعدة الأولى:

---

(١) والراجح في ذلك ما ذكره جمهور أهل العلم ـ خلافاً للمعتزلة ومن نحى نحوهم ـ هو جواز ذلك، بل هو مما وعد الله به أولياءه (أهل الجنة) كما جاء في تفسير قوله سبحانه: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (يونس: ٢٦)، فقد ذكر أهل التفسير أن المقصود بالزيادة هنا هي رؤية الله في الجنة، وكذا آية ٢٣ من سورة القيامة، وكذا الأحاديث المتواترة.

(٢) لمعرفة أقوال الفقهاء وخلاف أهل العلم في شأن رؤية الله، انظر:

أ ـ شرح العقيدة الطحاوية ص١٨٨-٢٠١.

ب ـ مختصر معارج القبول، للشيخ حافظ بن أحمد آل حكمي، اختصره أبو عاصم هشام بن عبد القادر بن محمد آل عقدة، دار طيبة الخضراء، ط٧، ١٤٢١هـ، مكة ـ السعودية ص٦٤-٦٨.

ج ـ تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ٩/ ١٠٥-١٥٣، وفيه تفصيل ممتاز.

(٣) انظر: البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية، د/ عبد المجيد العرجاوي، دار وحي القلم، ط١، ٢٠٠٣م، دمشق ـ سوريا ص١٩-٢٠.

## القاعدة الأولى: عدم إدراك الشيء بالحواس لايعني عدم وجوده:

هذه قاعدة واضحة يسلم بها العقلاء، وإذا كانت رؤية الأشياء دليلاً على وجودها، فإن عدم رؤيتها ليس دليلاً على عدم وجودها، فهنالك أشياء كثيرة جداً موجودة بيننا لا نراها ومع هذا نؤمن بوجودها ـ سواء أحسسنا بها من خلال آثارها أم لم نحس بذلك ـ فالأشعة تحت الحمراء، وفوق البنفسجية موجودة في واقعنا وإن كنا لا نراها، ونحن نؤمن بالروح التي تلابس أجسادنا، وبالعقل الذي يقودنا، مع أنا لا ندرك هذا بحواسنا وجوارحنا، فهل ترى العينُ الروح التي تسكن في الأجسام فيبعث الله الحياة بها؟ وهل تقدر على رؤية ذلك؟

وهل ترى العين العقل الذي يُفرِّق بين المجنون والعاقل؟ وهل تقدر أن ترى؟

هل بقية الجوارح من يد تلمس، وأنف يشم، ولسان يتذوق، وأذن تسمع، وجلد يتحسس.. إلخ، هل تقدر شيء من هذه الأحاسيس كلها أن تدرك القوى المغناطيسية التي تجذب قطع الحديد؟

**الجواب: لا... لا...**

هل يقدر الإنسان على رؤية جاذبية الأرض التي تجذب إليها كل الأجسام؟

وهل بإمكان أحد من البشر رؤية موجات الإذاعات والتلفزيون وذبذبات الهواتف المحمولة وغيرها؟ أو هل يقدر على ذلك؟

**الجواب: لا... لا...**

أتستطيع العين تحمُّل ضوء قريب يُوجّه إليها من كشّاف أو مصباح قوي؟ أو أشعة الشمس؟[1].

---

(١) طريق الإيمان، تأليف عبد المجيد عزيز الزنداني، ص٢١٨-٢٢١ بتصرف وزيادة.

**الجواب:** إنها لا تستطيع احتمال شدة النور.

إن العين تعجز عن مشاهة ما يدور في الغرفة المجاورة لصاحبها، والبصر لا يقدر على رؤية الهواء المحيط بالإنسان من كل مكان، والنظر لا يستطيع مشاهدة الذرة وإلكترونها ونواتها، ونفس الأمر في الجراثيم والميكروبات والفيروسات التي آمنا بها من خلال آثارها في واقعنا.

إنا لا نستطيع رؤية قارات العالم أجمع، ولايمكننا الإحاطة بنجوم السماء التي تلمع، ولا نتحمل مشاهدة قرص الشمس في رابعة النهار.

وكل هذا وغيره يعني أن العين عاجزة عن رؤية كثير من الأشياء القريبة منها، وهي عاجزة أيضاً عن تحمُّل ما هو فوق طاقتها، وهي عاجزة أيضاً عن إدراك ما هو بعيد عنها، بل إنها عاجزة عن إدراك ما في جوف صاحبها، بل ما في باطنها هي.

وهكذا بقية الجوارح والحواس التي ركّب الله منها الإنسان.

فهل معنى عجزها أو عدم إدراكها للموجودات عدم وجودها؟

**الجواب طبعاً:** لا... بل لا يقول بذلك عاقل.

إنا لا ندرك للهواء لوناً ولا طعماً ولا طولاً ولا عرضاً ولا حجماً ولا... إلخ، ونفس الأمر في كثير من الصفات الإنسانية المعنوية من حُب وكره، وخوف ورجاء، وعلم وجهل، وسرور وحزن،... إلخ، وغير ذلك من المخلوقات الخارجة عن نطاق الحواس الإنسانية. بل إن ما يقارب من ٩٠٪ من معلوماتنا اليومية والعلمية لا نشترط في قبولها المشاهدة[1].

---

(١) كتاب التوحيد، تأليف عبد المجيد عزيز الزنداني، مكتبة جدة، ط٢، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، جدة ـ السعودية ص ٢١٨-٢٢١ بتصرف وزيادة.

لقد آمن الكفار بتاريخهم الماضي، وحروبهم، وحكامهم السابقين، وغير ذلك مما لم يدركوه بشيء من حواسهم.

وصدّق الطلابُ معلمهم في كثير من الحقائق والعلوم ثقة بمدرِّسيهم ـ دون اشتراطهم المشاهدة لذلك ـ وآمن المتعلمون بكثير من الحقائق الرياضية والكونية، التي لا طريق للحواس إليها، وإنما طريقها العقل والتأمل وربط النتائج بالمقدمات، والبراهين العقلية البحتة.

وبناءً على كل ما سبق أقول:

إن الله جل جلاله أعلى وأعظم من أن يُرى بعين الإنسان الصغير الحقير الضعيف ـ إلا أن يشاء الله ـ.

وإن من طرائف أجوبة الفطرة على المشترطين للإيمان بالله تحقُّق رؤيتهم له، أو سماعهم لكلامه، أو إدراكهم إياه بشيء من حواسهم، ما ذكره الشيخ سعيد حوّى ـ رحمه الله ـ بقوله:

حصل في مدرسة ابتدائية أن وقف معلم الطلاب في السنة السادسة يقول لهم:

أترونني؟

قالوا: نعم.

قال: فإذن أنا موجود.

أترون اللوح؟

قالوا: نعم.

قال: فاللوح إذاً موجود.

أترون الطاولة؟

قالوا: نعم.

قال: فالطاولة إذاً موجودة.

قال: أترون الله؟

قالوا: لا.

قال: فالله إذن غير موجود.

فوقف أحد الطلاب الأذكياء وقال: وترون عقل الأستاذ؟

قالوا: لا.

قال: فعقل الأستاذ إذاً غير موجود[١].

وهكذا أجابت فطرة الطفل على انحراف عقل المعلّم ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ ﴾ (الروم: ٣٠).

إن أُناساً في القديم والحديث أنكروا وجود الله لأنهم لم يدركوه بحواسهم، متصوِّرين أن هذا هو الطريق إليه، ورموا المؤمنين بأنهم: واهمون، وضالون، وخرافيون، ومشوِّشون، وغير عِلْميين، إلى آخر السلسلة الطويلة من السب والهُزء والسخرية والازدراء التي يوجهها الكافرون بالله إلى المؤمنين لأنهم آمنوا بالله عن غير طريق الحواس.

إن أمثال هؤلاء الذين يقولون: إنهم لا يؤمنون إلا بما أدركته حواسهم يكذبهم واقعهم المادي الذي يعيشونه ـ كما أشرنا إليه ـ فواقع أمرهم يدل على

---

(١) الله جل جلاله ص٢١ بتصرف يسير.

أنهم آمنوا بأشياء لم تدركها حواسهم، ولكن آثارها هي التي دلّتهم عليها، وهم فيها على يقين لا يخالطه شك، لقد آمنوا بها لإحساسهم بآثارها دون إحساسهم بها ذاتها، أو رؤيتها. والعقل ـ وليس الحواس ـ هو الذي عرّفهم عليها، وإن كانت الحواس هل الآلة التي أعطت العقل أدوات الحكم حتى أصدر حكمه، لكنه لولا العقل ما صدر حكمٌ ولما كانت معرفة.

بل الحقيقة أن الحواس تعطينا أحياناً صوراً كثيرة وهمية ومعلومات خاطئة، ولكننا نعرف الحقيقة بواسطة العقل وحده: فالعصا المغمورة بالماء تبدو مكسورة، والخطوط المتوازية على المدى البعيد تبدو غير متوازية، ونجوم السماء الكبيرة جداً والتي قد تكون أكبر من الأرض تبدو لنا كحبة الجوزة.. وإحساسنا ونحن فوق الطائرة أنها ثابتة والأرض تجري من تحتها[1]... وغير ذلك مما تخطئ به حواسنا لولا أن الله سخر لنا العقل ليحكمها ويكشف لنا ولها حقائق الأمور.

إن من يسعى لإثبات كل شيء ونفيه عن طريق الحواس والتجارب، لا يعترف إلا بأداة واحدة من أدوات المعرفة وهي الحس، ومثل هذا الشخص يعجز عن رؤية الآفاق الأخرى، ويقصر عن إدراك مراتب الوجود التي تدرَك بغير هذه الأداة.

وقد ثبت في أبحاث (نظرية المعرفة) أن للإدراك والمعرفة أدوات متعددة ومختلفة لا أداة واحدة[2].

(١) المرجع السابق ص١٩-٢٠ بتصرف وزيادة.

(٢) الله خالق الكون، بقلم الأستاذ جعفر الهادي، تحت إشراف العلامة المحقق جعفر السبحاني، دار الأضواء، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، بيروت ـ لبنان ص٣٠٧ بتصرف.

فهل كان هؤلاء الكفار على صواب عندما حصروا الحقيقة كلها بالحواس؟

وهل كانوا منطقيين مع أنفسهم عندما رفضوا الإيمان بالله لأنه لم تدركه حواسهم؟ مع أنهم بالآثار وحدها آمنوا بكل الحقائق العلمية التي لم يشاهدوها.

وقبل اختراعهم الأجهزة التي تكشف ما دقّ ولطف من المخلوقات - كالبكتيريا وبعض الفيروسات والطفيليات - هل كانت هذه المخلوقات والحقائق غير موجودة؟ وبالتالي فهل كان إنكارهم لها قبل اختراع الأجهزة التي تكشفها إنكاراً لوجودها؟

إن هذا الكلام يقودنا إلى القول:

بأن كل قضية وحقيقة تحتاج إلى جهاز خاص يناسبها ليكشف حقيقتها وأسرارها، وقضية وجود الله ووحدانيته، ووجوب توحيده هي أعظم القضايا وأحق الحقائق التي تحتاج إلى جهاز العقل.

إن هذا التصور الخاطئ لطريق معرفة الله قديماً وحديثاً من أكبر العوامل التي صرفت كثيراً من الناس عن طريق الإيمان الصحيح بالله، مع أن مثل هذا التصور خاطئ بالبداهة، فالعقل يحكم ببداهته أن الله تعالى خالق المادة ليس بمادة، حتى ندركه بالحواس، وإذا كان منتهى إدراك جوارحنا في عالمنا هذا المادة المحسوسة فقط؛ فلن يكون الله محل إدراكها[1]، ولن نتوصل إليه بالمقاييس المادية.

إن كلام بعض الماديين المخدوعين بالحس والتجربة، وتصورهم بأن ذلك يحدد الوجود إثباتاً ونفياً غير صحيح، واعتقادهم أن ما أثبته الحس والتجربة فهو موجود، وما لم يكن لهما إثبات وجوده فهو إذاً غير موجود، أو لا يمكن الحكم

(١) الله جل جلاله، لسعيد حوى ص١٩-٢٠ بتصرف.

بوجوده على الأقل اعتقاد باطل، ومقتضى كلامهم أن الأعمى على حق إذا أنكر وجود كل مالم يدركه ببصره[1].

إن للعالم وجودان: وجود مادي تدركه الحواس، ووجود آخر غير مادي قد لا تدركه الحواس أو تدركه من خلال آثاره.

قال محمد رشيد رضا: «إنّ مدركات البشر الحِسِّية والعقلية لا تتعلّق في حال هذه الحياة الدنيا بكل ما في هذا الكون من أنواع الموجودات، بل هناك حُجج من الوحي والعقل والعلم تدل على ضد ذلك:

ـ أما الوحي: فقد ثبت فيه أن العالَم قسمان، أو أن الكون قسمان: عالَم الغيب، وعالَم الشهاة.

ـ وأما العقل: فمن أحكامه أن عدم العلم بالشيء لا يقتضي عدم وجوده، وأنَّ من الجائز أن يكون في الكون موجودات كثيرة، لا ندركها، ولا تشعر بها حواسنا ومشاعرنا، لعدم استعدادها لإدراكها البتّة، كما أن بعضها لا يدرك ما يدركه الآخر من الهيئات والألوان والطعوم والروائح مثلاً ـ وإما لضعف الحاسّة فينا عن إدراك ما هو من متعلقها لفقد بعض شروط إدراكه. وقد دل العقل على أن الوجود الممكن الذي نعرفه في الجملة يدل على الوجود الواجب الذي لم ندركه بحواسنا ولم تدرك كنهَه عقولُنا، بل دل على وجود آخر من الممكنات وهو ما يسميه علماء الكون بالأثير.

---

(١) قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (الحاقة: ٣٨-٤٠) للإشارة إلى وجود مخلوقات غير مرئية لكنها موجودة.

ـ وأما العلم ـ علم التجربة والبحث العلمي في الوجود ـ فقد أثبت وجود أحياء كثيرة الأنواع ذات تأثير عظيم في حياة الأحياء من نفع وضر، تُرى بالمرايا المكبَّرة دون البصر المجرّد، وإن فيه مواد أخرى لطيفة هي من أصول عناصره التي لم يتم تكوينه إلا بها، وهي لا تُدرَك بالحواس، ولا بالعقل بادئ بدء، وإنما عُرفت بأعمال التحليل والتركيب وآلاتها..»[1].

**عموماً يمكن القول:**

إن الكفار الذين يشترطون رؤية الله للإيمان به قد أثبت واقعهم أنهم عاجزون عن الإحاطة بالكون الذي يعيشون فيه رؤية وعلماً وفهماً مما سبق شرحه في مبحث الأدلة العلمية في السماوات السبع العُلى، وشمس السماء الأولى.

إنهم يريدون رؤية الله بأبصارهم التي عجزت عن رؤية قرص الشمس، فكيف يرون خالقها الذي وصف نفسه بقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥)؟!

ويريدون الإحاطة به، وقد عجزت أبصارهم وكلّت عن الإحاطة بما في الأرض والسماء وعن إدراك ما في السماوات السبع كلها التي هي بالنسبة لكرسي الرحمن كسبعة دراهم في ترس، و«**ما الكرسي في العرش إلا كحلْقةٍ من حديد أُلقيت بين ظهري فلاة[2] من الأرض**»[3].

---

(١) تفسير المنار ٩/ ١٤٢-١٤٣.

(٢) فلاة: أي صحراء، وهي القفر من الأرض لأنها فُليت عن كل خير، أي فُطمت وعُزلت. لسان العرب، لابن منظور ١٠/ ٣٣٠ مادة (فلا).

(٣) أخرجه ابن حبان في ٢/ ٧٦ في كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، برقم ٣٦١ عن أبي ذر الغفار رضي الله عنه. وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٠٩.

كما صحَّ عن النبي ﷺ. والرحمن على العرش استوى، وهو محيط بكل شيء، سبحانه وتعالى.

حقيقةً إن حال الكفار في طلبهم رؤية الله للإيمان به كمن يريد أن يرى الأرض كاملة بتفاصيلها من ثقبٍ في باب بيته، ولله المثل الأعلى(١).

لقد عجز موسى عليه السلام ـ كليم الله ورسوله ـ عن احتمال رؤية الجبل عندما تجلّت الذات الإلهية عليه، وعجز الجبل بشموخه وقوته عن احتمال نور الله العظيم عندما كشف الله له شيئاً من جلاله وعظمته ونوره، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٣).

فإذا عجز الجبل عن الثبات أمام نور الله رغم صلابة صخوره وتماسك بنائه العظيم، فكل البشر أعجز بكثير عن رؤية الله واحتمال نوره والإحاطة به ـ إلا أن يشاء الله ـ قال شارح العقيدة الطحاوية: «فأعلمه ـ أي أعلم اللهُ موسى ـ أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي... فكيف بالبشر الذي خُلق من ضعف...»(٢).

---

(١) انظر: كتاب التوحيد، للزنداني ص٢٢١.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ص١٩١.

وقد صحّ عن أبي ذر[١] رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ ـ أي ليلة الإسراء والمعراج ـ فقال: **«نور أنّى أراه»**[٢]؟ وفي رواية: **«رأيتُ نوراً»** وصحّ عنه ﷺ أنه قال عن الله **«حجابه النور»** وفي رواية: **«النار»** **«لو كشفه لأحرقت سُبُحات[٣] وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**[٤].

إنه سبحانه لكمال عظمته لا تدركه الأبصار إدراك إحاطة تامة[٥] ـ سواء في الدنيا أو الآخرة ـ قال تعالى: ﴿ **لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ** ﴾ (الأنعام: ١٠٣).

---

(١) هو: جندب بن جنادة بن سفيان، من بني غفار، يكنى أبا ذر، كان من السابقين إلى الإسلام، انصرف إلى بلاده بعد إسلامه يدعو قومه إلى الإسلام، وقدم المدينة بعد بدر وأحد، وكان عمر يُلحقه بهم، كان في علمه يوازي ابن مسعود، تأخر يوم تبوك عن الرسول ﷺ ثم لحق به، سكن الشام بعد وفاة عمر، وكان له رأي في مِلكية المال، أمره عثمان أن يتحول إلى الربذة (من قرى المدينة)، ومات بها سنة ٣١هـ. انظر: طبقات ابن سعد ٤/ ٢١٩، و: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني ٧/ ٦١.

(٢) أخرجه مسلم في ١/ ١٦١، في كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: «نور أنّى أراه» برقم ١٧٨، عن أبي ذر الغفار.

(٣) سُبُحات وجهه: السبحات جمع سبحة، ومعناها نوره وجلاله وبهاؤه. انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ١/ ١٦٢.

(٤) أخرجه مسلم في ١/ ١٦٢، في كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام «إن الله لا ينام...» برقم ١٧٩، عن أبي موسى الأشعري.

(٥) هناك فرق بين الإدراك والرؤية، فالإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى عن موسى ومن معه وفرعون وملئه: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ (الشعراء: ٦١)، فلم ينف موسى الرؤية وإنما نفى الإدراك... فالرب تعالى يُرى ولا يُدرك، ويُعلم ولا يحاط به علماً.

انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ص١٩٣.

ولا يمكن للعيون كلها أن تراه في الدنيا مطلقاً، ولو كان هناك أحد من الخلق أحقّ برؤية الله فهم رسله من البشر الذين أوحى إليهم دون أن يروه، وسيدهم في ذلك محمد ﷺ الذي عُرج به إلى سدرة المنتهى في السماء السابعة، وحتى هؤلاء قال تعالى عنهم: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً[1] فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الشورى: ٥١)، قال ابن أبي العز الحنفي: «واتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه»[2].

وفي ختام شرح هذه القاعدة، قاعدة: «عدم إدراك الشيء بالحواس لا يعني عدم وجوده» أقول:

إن البحث عن الله ووجوده في عالم المادة بحث عن الشيء في غير موضعه ومورده[3].

لقد عرف المؤمنون ربهم، وأيقنوا به من خلال عدة أمور، منها:

أ ـ العقل والقواعد العقلية السابق شرحها في مبحث الأدلة التاريخية على التوحيد[4].

ب ـ آثار الله في مخلوقاته كما سبق شرحه في مبحث الأدلة العلمية، على التوحيد[5].

---

(١) أي جبريل عليه السلام، يرسله الله إلى رسله من البشر.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ص١٩٦.

(٣) انظر: الله خالق الكون، بقلم جعفر الهادي ص٣٠٥-٣٠٧.

(٤) راجع ص٥٣٤.

(٥) راجع ص٥٩٠.

ج ـ النقل (الكتاب والسنة) وهما أوثق مصدر وأصدق خبر عرفته البشرية.

وإذا كان الإبن يصدق والده والطالب يصدق مدرِّس الجغرافيا الذي يحدثه عن أمريكا وروسيا والهند وغيرها ولم تطأ قدم الابن والطالب أرضها، ولم يشاهدها أو يدركها بحواسه ثقة منه بأبيه ومعلّمه، وإذا كان المريض يصدق طبيبه بخبره عن مرضه وعلاجه، ويثق بدوائه دون مشاهدته تجربة المداوة بهذا الدواء، يقيناً منه بأن الطبيب يعلم ما يجهل، ويفهم ما أُغلق عليه.

فإن المؤمنين بالله أشد وثوقاً وتصديقاً برسل الله وكتبه ـ وآخرهم محمد ﷺ، الذي اشتهر بالصدق والأمانة، وشهد بذلك أعداؤه، وجاء بخير الكتب القرآن الكريم المعجز الخالد إلى قيام الساعة.

## القاعدة الثانية: عدم التصور للشيء لا يعني عدم وجوده:

من المعلوم أن تصور الإنسان للشيء مرهون بواقعه المشاهد المحسوس، الذي هو فيه وعليه، فلو حدّثنا أحد الناس المختصين بجهاز الحاسوب (الكمبيوتر) عنه، وأطال في شرح تفاصيله قبل نزوله للواقع المشاهد، ورؤيتنا له بالعين المجردة، أو رؤية صُوَرِه، لما استطعنا تصوره أبداً، وهكذا كل الحقائق العلمية إنما يتم تصورها واستحضارها بناء على ما كان من واقعها المشاهد المحسوس.

ولكن هل يعني عجزنا عن تصورنا لها عدم وجودها؟

إنه لما كان واقع الإنسان الذي يعايشه ويشعر به محدوداً كان تصوره محدوداً أيضاً.

فنحن نجد الأعمى منذ ولادته ـ على سبيل المثال ـ مهما أوتي من الذكاء، ومهما أُوتيَ معلمه من القدرات على تعليمه وتفهيمه... فلن يستطيع أبداً تعريفه حقيقة الألوان، ودقائق الأمور المحسوسة بحاسة البصر لأنه يعيش في عالمه الخاص الذي لا يشعر فيه بأي لون..

وكذلك الأصم لا يمكنه أبداً تعلم اللغات وأصول المحادثة ما لم يكتسب هذا من واقعه إما عن طريق العبارة إن كان سميعاً؟ أو طريق الإشارة إن كان بصيراً.

ولو أننا تساءلنا: هل لهذا الفضاء الكوني نهاية أم لا؟

أما النهاية فالإنسان لا يستطيع أن يتصوّرها، لأنه لا يستطيع أن يتصوّر الحد الذي ينتهي عنده الفراغ، ولا يكون بعده فراغ.

وأما اللانهاية فإنه أيضاً لا يستيطع أن يُسلّم بها، ويقيم لها صورة في ذهنه، كذلك لا يستيطع أن يتصور ما يقول علماء الفلُك المعاصرون من أن الكون يُطوى على نفسه. فهل يعني هذا كله نفي وجود الكون وسعة الأفلاك؟

أم يمكن الإيمان به رغم عجزنا عن تصوره.

وهذا يوصلنا إلى التساؤل التالي:

هل العجز الإنساني عن تصور حقيقة الإله، وما يتعلق به من ذاتٍ موجودة ـ واجبة الوجود ـ ونفس، ووجه، ويدين، وأصابع، وقدم، وساق، واستواء على العرش، ونزول، ومجيء، وكلام، وغضب، وضحك، ورؤية، وسمع، ومحبة وكراهة... وغير ذلك من صفات الله جل جلاله، التي وردت في الكتاب والسنة، وشرحها أهل العلم[1].

---

(١) انظر: العقيدة في الله، للأشقر ص١٥٥-١٨٤.

هل عجز الإنسان عن تصور حقيقة هذا كله يعني عدم وجوده، وعدم حصوله في حق الرحمن سبحانه وتعالى؟

وهل هذا العجز يحول بين العبد وإيمانه بربه؟

أم أنه بالإمكان أن يؤمن بذلك كله، ويفوض معناه على الحقيقة إلى الله عزوجل. يؤمن بذلك إيماناً يليق بجلال الله وعظمته، دون تكييف، أو تشبيه، أو تعطيل أو غيره مما وقعت فيه الفرق السابقة فضلّت وأضلّت.

إن إيمان المرء بالله يمكن أن يتحقق على الوجه الصحيح والأكمل ـ حتى وإن عجز عن تصور ربه ـ لو آمن به كما آمن رسل الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ... ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

## القاعدة الثالثة: لا تُبنى العقائد على الحدس والافتراض:

من الملاحظ أن الباحثين التجريبيين عندما يقومون ببحث ظاهرة معينة، يفترضون من عند أنفسهم افتراضات وتفسيرات وأسباب لهذه الظاهرة التي يُراد بحثها حسبما يهديهم إليه حدسهم وخيالهم، ثم يُجرون تجاربهم للتحقق من صحة ذلك، ويربطون بين النتائج والمقدمات بما يرونه من مسوِّغات في نظرهم، ليعطوا بالنتائج التي توصّلوا إليها تفسيراً مقبولاً للظاهرة المبحوثة.

إن هذا المسلك لا يُعتبر علماً صحيحاً يقينياً، حتى لو قدم صاحبه تفسيرات مقبولة، وذلك لأنه افتراض، ولم يقدم صاحبه دليلاً على هدم كل تفسير آخر غير الذي جاء به. ولما كانت عقيدة التوحيد من أهم القضايا في حياة الإنسان، وجب

أن نبحثها بحثاً علمياً يُبتعد فيه عن الافتراض والتجارب والتحكم. وعلينا أن نبدأ البحث فيها من النقاط المتفق عليها بين جميع العقلاء، ووفق مقتضيات ومستلزمات المنطق الإنساني البيّن ـ وهذا ما فعله القرآن الكريم كما سبق شرحه في آيات الله الكونية والقرآنية ـ .

فإن أوصَلَنا العقل وفق هذا المنهج إلى حُكْمٍ معيّن في التوحيد قلنا به، وإلا توقّفنا ولم نحكم بشيء، حتى يأتينا البلاغ المبين، وقد أتانا، فاجتمع العقل مع النقل على صحة عقيدة التوحيد، ووجوب التسليم بها لرب العالمين.

وإذا كان من الواجب على أهل الإيمان أن يبرهنوا لغيرهم على وجود الله وربوبيته وأسمائه وصفاته، ووحدانيته في ذلك كله، فإن الواجب على الملحدين الذين ينكرون وجود الله عزوجل أن يقدموا من الأدلة والبراهين ما يدحض حجج المثبتين لذلك[1].

إننا نجد أن الأدلة القرآنية والكونية قد قامت لإثبات وجود الله ووحدانيته فيما هو أهل له، ولم يقم أيُّ دليل لإثبات العكس، فتأكد لنا من هذا كله أن الله واحد لا شريك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.

---

(١) انظر: البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية، للدكتور عبد المجيد العرجاوي ص١٩-٢٠.

## الشبهة الثالثة:

**س: كيف اقترن الإلحاد[١] والشرك بالعلوم العصرية الحديثة، رغم دلالة نتائجها على وجود رب واحد يصرف شؤون الكون كله؟**

ج: للجواب على هذا التساؤل أقرر أولاً حقيقة عبادة الملحدين للطبيعة[٢] من دون الله:

الأصل أن تكون الطبيعة كلها ـ بجميع مخلوقاتها وأسرارها وعجائبها وما تؤديه من منفعة لبني آدم ـ هي الدافع الأول لبحث الإنسان عن ربه، وتَعَرُّفِه عليه.

لكن الإنسان لشدة إعجابه بها، ولكثرة خوفه من كوارثها عند مَن يزعم أن الكوارث ليست بقَدَر الله سبحانه كان يلجأ إليها، طمعاً في خيرها أو خوفاً من

---

(١) الإلحاد مأخوذ من (ل ح د)، وهو الميل، ومنه اللحد، وهو الشق في جانب القبر، الذي قد مال عن الوسط، ومنه الملحِد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل.

وهو على عدة صور منها:

أ ـ إنكار وجود الله وتأثيره في الكون.

ب ـ التكذيب بأسماء الله أو ببعضها كتكذيب المشركين باسم الرحمن.

ج ـ وصف الخالق بصفات الخلق، كقول اليهود ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ (آل عمران: ١٨١).

د ـ تسمية الله بأسماء الخلق، كتسمية النصارى له أباً.

هـ ـ تشبيه صفات الله بصفات خلقه، كقول المشبهة إن لله وجهاً كوجهنا.

و ـ منازعة الباري في أسمائه وصفاته كادِّعاء فرعون للألوهية والربوبية، وتسمية قريش لآلهتهم باللات والعُزَّى من اسمي الله (الله والعزيز). انظر: أسماء الله وصفاته، للأشقر ص١٣٧-١٣٩.

(٢) راجع معنى الطبيعة في ص٥٢٤.

شرها، فقام بتأليهها وعبادتها من دون الله ـ بوحي من شياطين الإنس والجن ـ وجَعَلَ آلهة للسماء، وآلهة للأرض والهواء، وآلهة للبحار، وآلهة للنور، وغيرها للنار، وخضع وسجد لها من دون الله فعبد الشمس والقمر والنجوم وغيرها.

وفي هذا يقول العالم ماركس: «إن مظاهر الطبيعة كانت أوّل ما استرعى انتباه الإنسان الأول، وأدهشته عندما نظر إلى الكون، ولشدة نفوذها وتأثيرها في نفسه نبَّهت فيه فكرة الدين فعبد الطبيعة»[1].

هذا قول عالم غربي من علماء الطبيعة، أما قول رسول الله ﷺ في الحديث القدسي فقد روى عن ربه أنه قال: **«إني خلقتُ عبادي حنفاء، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»**[2].

هذه حقيقة عبادة الطبيعيين للطبيعة باختصار.

وإذا أردنا التفصيل بصورة أكثر لمعرفة أسباب انتشار الإلحاد والشرك في العصر الحديث، واقتران ذلك بالعلوم العصرية الحديثة، فأقول:

من معاني الإلحاد: إنكار وجود الإله أصلاً، وعدم الاعتراف بوجوب رب لهذا الكون، وهذا قد وقع قديماً ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ من قلة قليلة من البشر كالدهرية، وغيرهم من الزنادقة في الحضارة اليونانية ـ وهم قليل[3] ـ أُصيبوا

---

(١) روح الدين الإسلامي، لعفيف عبد الفتاح طبّارة ص١٠٤.

(٢) سبق تخريجه ص١٩٣.

(٣) مثل: الفيلسوف اليوناني (ديمقراطيس) والفيلسوف اليوناني أيضاً (أنباذ قلس) وقد دافع بعض الكتاب والحكماء عن هذين الفيلسوفين معتبرين إياهما من الإلهين المؤمنين بوجود الله، وأنهما كانا يعبران عن معتقداتهما بالرموز مما أوهم الآخرين بأنهما ملحدين.
انظر: الله خالق الكون، لجعفر الهادي ص٢٨٤.

بالشك والحيرة في مسألة وجود الله، أو لم تقنعهم الأدلة الإلهية على وجود رب للكون يحكمه ويدبر شؤونه، غير أن وجود هذا العدد من الحيارى والمتشككين في وجود الله لا يعتبر دليلاً على وجود نظام فكري مترابط الحلقات للإلحاد أو الشك طوال التاريخ البشري كما عليه (الفلسفة الإلهية) فلم يحتو التاريخ البشري القديم على منهج إلحادي منظّم، ونظام فكري مادي على غرار ما عليه الفلسفة الإلهية والتفكير الديني، أو على غرار الإلحاد العصري الحديث كما كان في بلاد الشيوعية سابقاً قبل انهيارها[1] ـ.

ومن البدهي أن (المنهج الفكري) شيء، ووجود بعض الشكوك الطارئة المبعثرة حول الذات الإلهية شيء آخر.

وبهذا نخلص إلى القول: إن الإلحاد القديم إنما كان حالات استثنائية ونادرة، وبدون منهج ونظام أو فلسفة فكرية هادفة[2].

وإن من تتبع تاريخ البشرية، أو تاريخ العلم والفلسفة يلاحظ أن الاتجاه العام والرائج في كل عصر من العصور القديمة، وفي كل حضارة من حضاراتها

---

(١) ولا شك أن من أهم وأكبر أسباب انتشار الإلحاد في جمهوريات الاتحاد السوفيتي سابقاً هو ما قامت به حكومة هذه البلدان من فرض الأفكار الماركسية الشيوعية المعادية للدين على شعوبها لمدة سبعين عاماً تقريباً، وتدريسه في مدارسها وجامعاتها وغيرها على جميع طلابها.
وعلى الرغم من استخدامها الحكومات الشيوعية قوة الحديد والنار وكل إمكانياتها وقدراتها، في سبيل نشر الإلحاد إلا أن هذه الشعوب المغلوبة على أمرها سرعان ما تراجعت عن هذا المعتقد عند سقوط الاتحاد السوفيتي وتفكك منظومته، وسرعان ما أقبلت على الكنائس والمعابد والمساجد، إلا من أبى.

(٢) انظر: الله خالق الكون، لجعفر الهادي ص٢٨٢-٢٨٥.

هو الاعتراف بوجود الله وسلطانه على الكون ـ ولو على شرك كما قال تعالى عن كفار العصر النبوي: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٦).

لقد كانت هذه هي السمة الغالبة على معظم الأقوام السابقين، الذين أرسل الله إليهم رسله لدعوتهم لتوحيد الألوهية.

ثم جاء عصرنا الحديث، فزاد الشرك بالله، وتفشي الإلحاد ـ وخاصَّة في فترة من الفترات، حيث زعم الشيوعيون أن «لا إله والحياة مادة» واعتبروا «الدين أفيون الشعوب» ـ وعمَّ الاتجاه الماديُّ الغربَ، وظهر بين علماء الطبيعة وغيرهم، رغم أن ما جاؤوا به في علوم الطبيعة وتوصّلوا إليه منها، يكشف للعاقل حقيقة وحدانية الله، ويدفعه لتوحيده ـ لو سلمت فطرته من الانحراف ـ وكانوا هم أولى من غيرهم بمعرفة الله نظراً لاطِّلاعهم واكتشافهم لكثير من أسرار الكون وآيات الله في مخلوقاته ـ.

لقد انتشر الإلحاد في بلاد الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي، وقطعت العلوم الحديثة الوشيجة بين الناس والكون ـ كما قال سيد قطب[1] وأُنكرت العوالم الروحية، وحُصر الوجود في المادة والظواهر الطبيعية.

وكان هذا الانتشار للكفر والإلحاد أو العلمانية التي فصلت الدين عن الحياة وأبعدته عن الدولة والحكومة، لعدة أسباب سياسية ودينية وفكرية واجتماعية منها:

---

(١) انظر تفاصيل قوله حول هذا في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (ق: ٨).

**١ ـ التصورات الخاطئة التي كان يلقيها البابوات والقُسس في أوربا إلى شعوبهم عن الذات الإلهية:**

لقد كان للمفاهيم والمعتقدات المغلوطة المكذوبة عن الله، التي تصدر عن أرباب الكنائس في بلاد الغرب أكبر الأثر في دفع بعض علمائهم ومفكريهم إلى الإعراض عن الدين، والإقبال على الماديات، فإن بعضها وإن كانت تلقى قبولاً من دهماء الناس عندهم إلا أنها غير مستساغة لدى أرباب الفكر ورجال العلم والتحقيق منهم، الذين تحرّروا عن التقليد، وواجهوا قضايا الدين وغيرها بالنقد والتحليل، والمناقشة والاستفهام، فوجدوا أن معظم ما كان يُلقيه إليهم البابوات والقُسُسُ عن الله لا يتوافق مع العقل ولا يتفق مع العلم الذي وصلوا إليه بعد دراسة وبحث ويقين بنتائجه، فبادروا إلى إنكار ذلك منكرين أصل الوجود، وهو الله سبحانه وتعالى.

لقد سعى أرباب النكائس إلى تحريف كتبهم المقدسة، وكذبوا على الله فيها ووصفوه. بأنه يجعل ويندم ويُغلب...إلخ الصفات التي لا يقبلها العقلاء، ولا ينبغي أن تقال في حق الله جل جلاله.

لقد صوّر بابوات الغرب الذات الإلهية لشعوبهم بصُوَرٍ ليست له ولا تليق به، وزوّروا ذلك في كتبهم المقدسة، وقالوا بفكرة التثليث الباطلة التي أصرّت عليها كنائسهم إصراراً بالغاً واعتبرتها من صميم الدين.

فكيف يقبل عقلاء ومفكروا الغرب مثال هذه الأكاذيب المتناقضة، وكيف يؤمنون بإله يُصلب على خشبة، ويفدى خلقه بنفسه[1] ليطهرهم من ذنوبهم،

---

(١) أي عيسى عليه السلام.

وغير ذلك من السخافات والسفاسف[١] التي امتلأت بها كتبهم المقدسة كالتوراة والإنجيل والتلمود، وانتبه لها أحرار العقول منهم.

لم يكن امام عقلاء أوربا إلا نبذ هذا كله ـ بما فيه من حق وباطل وصدق وكذب ـ، والتنكر لإلهٍ هذه أوصافه وهذا حاله، بل ومحاربة الأديان التي تأتي بمثل هذه الترهات والخرافات.

لقد كانت مثل هذه المعتقدات الباطلة عن الله هي السبب الرئيس لثورة بعض علماء أوروبا على أفكار الكنيسة، وإنكارها، والارتداد عنها، والدعوة إلى تصحيح ما فيها من المحال واللامعقول في شأن إله الكون، وخالقه، وبارئه، سبحانه.

وقد أشار بعض المفكرين الغربيين إلى أثر هذا العامل ـ أي وجود الخرافات حول إله الكون ـ في ارتداد بعض المفكرين والعلماء منهم عن الدين وإلحادهم، حيث قال (وولز أوسكار لندبرج) ما نصه: «في جميع المنظمات المسيحية تُبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في إله هو على صورة الإنسان، بدلاً من الاعتقاد بأن الإنسان قد خُلق خليفة لله على الأرض. وعندما ينمو العقل بعد ذلك، ويتدرب على استخدام الطريقة العلمية فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم في التفكير، أو مع أي منطق مقبول، وأخيراً عندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة، وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي، نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله تعالى كلية»[٢].

---

(١) الله خالق الكون، لجعفر الهادي ص٥٠٨-٥١١ باختصار.

(٢) الله خالق الكون، لجعفر الهادي ص٥١١-٥١٢.

عموماً لقد جاءت آيات القرآن الكريم لتؤكد إجرام كثير من أهل الكتاب في حق الله وكتبه[١]، وتدعوهم إلى توحيده كما يتضح من قوله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ... ﴾

(آل عمران: ٦٤).

وقد سبق استعراض منهج القرآن في نقض الشرك وإبطال عبادة الشركاء، وذِكْر ما أحدثه أهل الكتاب من مزاعم باطلة عن الله[٢]، وتسطير ذلك في كتبهم المقدسة[٣].

### ٢ ـ انهيار بعض النظريات العلمية القديمة المسمّاة باسم الدين:

لقد كان سقوط وانهيار بعض الآراء والنظريات الطبيعية والفلكية القديمة ـ المصبوغة بصبغة الدين ـ إبّان التحول العلمي الذي حدث في الغرب أحد العوامل التي دفعت ببعض علمائهم ومفكريهم إلى الشك في كل ما يتصل بالقديم

---

(١) قال تعالى مثبتاً تحريف أهل الكتاب لكتبهم المقدَّسة: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٧٥) ونحوها في النساء: ٤٦، والمائدة: ١٣، ٤١، والأنعام: ٩١.

(٢) راجع ص٣٧٣.

(٣) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن أكاذيبهم على الله انظر:

أ ـ الله خالق الكون، لجعفر الهادي ص٥٠٨-٥١٢.

ب ـ الحقيقة العظمى (إبرازها وتعريف أهل الكتاب بها) (رسالة ماجستير) للشيخة أسماء بنت عبد المجيد الزنداني، ط (بدون)، د.ت، جامعة الإيمان ـ صنعاء ـ اليمن ص٧٩ وما بعدها.

من آراء وأفكار ونظريات، شأن كل ثورة علمية أو اجتماعية، فإنها لا تكتفي باجتياح ما هو باطل فقط، بل تجتاح ـ تحت تأثير العامل النفسي السلبي ـ كل شيء يتصل بما قبل الثورة، حقاً كان أو باطلاً، صحيحاً كان أو خطأ.

ولم تسلم الأفكار والمعتقدات الدينية من هذا القانون حيث تعرّضت ـ بسبب ذلك ـ إلى موجات من التشكيك والنقد والإعراض. وعلى سبيل المثال نظرية بطليموس الفلكية التي كانت تعتبر الأرض مركزاً للكواكب بما فيها الشمس، التي سُمِّيت فيما بعد بالمنظومة الشمسية، وتعتبر الأفلاك أجساماً وطبقات رُتِّبت بعضها فوق بعض، مثل قشور البصل، وثُبِّتت فيها الكواكب والنجوم، كما تُثبت المسامير في الجدران، أو المصابيح في السقوف، وإنها (أي الأفلاك) هي التي تدور حول (الأرض) في صورة دائرية، وتدور معها الكواكب المثبتة فيها تبعاً لها، وإن هذه الأفلاك تنحصر في تسعٍ، والكواكب تنحصر في عدد معين لا أكثر.

لقد ظلّت هذه النظرية التي صاغها بطليموس في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد مسيطرة على الأوساط العلمية قرابة خمسة عشر قرناً من الزمان باسم الدين، حتى إذا جاء التحول العلمي في الغرب، انهارت هذه الفَرَضية بانهيار أركانها، بعد أن توصّل أربعة من علمائهم الكبار[1] إلى حقائق جديدة في عالم الفلك والفضاء، تخالف ما ذهب إليه بطليموس، واتبعه فيه الكثيرون طوال هذه القرون العديدة.

---

(١) وهم:

١ ـ كوبر نيك (البولندي الأصل).

٢ ـ كبلر (الفلكي والرياضي الألماني).

٣ ـ جاليليو (مكتشف ومخترع التلسكوب).

٤ ـ نيوتن (مكتشف قانون الجاذبية العام).

لقد أثمرت جهود وعلوم هؤلاء الأربعة تفنيد مركزية الأرض، وأثبتت في المقابل مركزية الشمس، ووصفت النجوم والكواكب بأنها أجسام معلقة في الفضاء، لا مثبتة في جدار الفلك، واعتبرت الأرض من السيارات التي تدور حول الشمس كبقية الكواكب.. كما أثمرت جهود هؤلاء اكتشاف دوران السيارات حول الشمس بشكل بيضاوي وليس بشكل دائري، وأن السيارات الأقرب إلى الشمس أكثر سرعة، وأشد دوراناً. وأثمرت جهودهم أيضاً اكتشاف قانون الجاذبية العام، فأثبتت بذلك أن الكواكب والنجوم معلقة في السماء بفعل الجذب والدفع بينها، وأثبتت دراسات وتلسكوبات هؤلاء وجود نجوم وكواكب لا تحصى في درب التبَّانة.

وبذلك كله انهارت نظرية بطليموس الفلكية، وكان سقوطها بعد قرون عديدة من سيادتها سبباً في الشك والارتياب في صحة جميع المعارف الأخرى.

فاندفع بعض البحّاثة الغرب بعد أن رأوا تهافت وسقوط هذه النظرية، ورأوا سقوط بعض القضايا الأخرى أمام الكشوفات العلمية الحديثة، إلى التساؤل التالي:

إذا كان القدماء يخطئون مثل هذا الخطأ الكبير في أمور حسية كهذه، فكيف بالأمور الغيبية المرتبطة بالعوالم الروحية التي لا تُدرك بالحس؟!!

ومن هنا نشأ الشك والموقف السلبي تجاه ما يتلقاه الغرب عن باباواتهم وقساوستهم حتى من المفاهيم الدينية والمعارف الاعتقادية فنبذوها وأعرضوا عنها ظنّاً ببطلانها جميعاً[1].

---

(١) الله خالق الكون، لجعفر الهادي ص٥٢٣-٥٢٥ باختصار واتصرف.

**٣ ـ الثأر من محاكم التفتيش الكنسية وممارساتها الجائرة في حق الأبرياء والعلماء:**

سلك أرباب الكنائس في الغرب مع كل من كان يعارض أفكارهم ـ حتى الباطلة منها ـ سلوك العقوبة والتأديب، عن طريق محاكم التفتيش، وخاصة للعلماء الطبيعيين الذي توصلوا إلى حقائق علمية صحيحة بعد بحوث وتجارب خالفوا فيها تعاليم الكنيسة، فكان هذا أحد العوامل والدوافع القوية التي دفعت بعض مفكريهم وعلمائهم إلى المادية والإلحاد، وإلى الثورة ضد الكنيسة ورجال الدين ومن يقف وراءهم.

بل أقدمت تلك المحاكم على إبادة كل من ارتد عن المذهب الكاثوليكي الذي كان سائداً آنذاك في أوروبا، وقامت بإعدامه حرقاً بالنار.

لقد تحوّلت هذه المحاكم من ملاحقة ومعاقبة المرتدين عن العقيدة الكاثولوكية إلى ملاحقة ومعاقبة العلماء والمفكرين، وكل من ينقد أو يشك في صحة ما ذكره القدامى والبابوات من آراء ومفاهيم حول الكون والطبيعة، بحجة أنها حركة موجّهة ضد الكنيسة وكتبها المقدسة، ويُقدّر أحد الكتاب النصارى أن عدد الذين عاقبتهم هذه المحاكم يبلغ ثلاثمائة ألف، أُحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً وهم أحياء، وكان من هؤلاء العالم الطبيعي المعروف (برونو)[1]

---

(١) وهو فيلسوف إيطالي، واسمه (جوردانو برونو) (١٥٤٨-١٦٠٠)م، واتهمته الكنيسة بالزندقة، وأحرقته في البندقية في إيطاليا.

انظر: الموسوعة العربية الميسرة، إعداد لجنة من الأساتذة والمفكرين، برئاسة محمد شفيق غربال، دار إحياء التراث العربي، ط(بدون)، د.ت ص٣٦٣.

الذي نقمت عليه الكنيسة، واتهمته بالزندقة، وحكمت عليه بالقتل حرقاً بالنار، وكذلك كان.

كما أن التاريخ يذكر أن (جاليليو)[1] الذي أيّد نظرية (كوبرنيك) في دوران الأرض حول الشمس، هو أيضاً قد حاكمته محاكم التفتيش الأوربية الكنسية، وأُرغم على نبذ أفكاره، واعتبرت الكنيسة اكتشافاته الفلكية المتعددة مخالَفة صريحة لكثير من معتقداتها، وأجبرته على إعلان توبته من هذا كله.

لقد تطورت محاكم التفتيش إلى جهاز جهنمي للوقوف في وجه التقدم العلمي الأوربي آنذاك، وإلى شكل من أشكال الرقابة على الفكر الإنساني المتحرر، مستخدمة في هذا السبيل أعنف الوسائل.. الأمر الذي أوجد في نفوس الأغلبية الساحقة من العلماء والمفكرين وغيرهم في بلاد الغرب، كراهية شديدة تجاه تعاليم الكنيسة، التي كانت أكثرها تخالف بديهيات العقل، ومسلّمات الفطرة، وبالتالي تجاه الدين المسيحي نفسه، لأن أرباب الكنيسة صبغوا آراءهم الخرافية بصبغة دينية، وعدُّوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها، ونبذ كل ما يعارضها.

ولهذا عندما أَخَذَتْ سلطة هذه المحاكم في التقلص والتضاؤل، وفَقَدَ (البابا) قوّته وسلطانه، انطلق الناس نحو المادية والإلحاد انتقاماً من الكنيسة، وردة فعل لممارسات ومضايقات محاكم التفتيش وجرائمها بحق الأبرياء والعلماء خاصة، تلك الجرائم التي كانت تمارس باسم الدفاع عن الله والدين، وعلى أيدي القساوسة والرهبان والبابوات.

---

(١) وهو عالم إيطالي، اشتغل بالفلك والرياضة والطبيعة (١٥٦٤-١٦٤٢)م. انظر: المرجع السابق ص٥٩٧.

فسعى الماديون بكل ما أوتوا من قوة إلى فصل الدين عن الحياة، وكان شعار الثورة الأوربية في كثير من بلدانها: (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس) ذلك أن الملوك ناصروا الرهبان والقساوسة على باطلهم، واستمدوا منهم شرعيةً مقدسةً باطلةً.

لقد أفرزت محاكم التفتيش الأوربية عصياناً كبيراً وتمرداً شاملاً على الدين ورجاله، وكل ما يرتبط به من تعاليم وأجهزة ومؤسسات[1].

## ٤ ـ إحلال التجربة مكان الاستدلال العقلي:

لقد كان من جملة معطيات التحول العلمي الذي تحقق في الغرب هو الاهتمام البالغ بـ(التجربة)، وإهمال دور الاستدلال العقلي، إلى درجة القول بأن الأشياء إما أن تخضع للتجربة، وإما أنها غير موجودة مطلقاً، أو أنه لا يمكن الحكم فيها بشيء على الأقل.

وظهور مثل هذا الموقف أدّى إلى رفض كل الحقائق الغيبية ـ كما سبق شرحه في الشبهة الثالثة مع أن الحقائق الغيبية تشكل عمدة المعارف الدينية، فرفضها الغرب بحجة أنها لا تخضع للتجربة، ولا يمكن الوقوف عليها تحت المجهر أو مبضع التشريح.

ولا شك أن التجربة من أفضل الطرق لدراسة الظواهر واكتشاف أسرار الحقائق، والوصول إلى المعارف اليقينية، فبعد أن اهتمت أوروبا بالتجارب العلمية تقدمت علومها، واكتشفت كثيراً من الحقائق، وتغيرت الكثير من

---

(١) الله خالق الكون، لجعفر الهادي ص٥٣٧-٥٤٠ بتصرف واختصار.

معارفها السابقة المغلوطة، ورغم هذا كله إلا أننا نقول: ليس الحس والتجربة هما الأداة الوحيدة للوصول إلى كل العلوم والمعارف وحقائق الأشياء، فهناك وسيلة الاستدلال العقلي للوصول إلى ذلك، كما يذكره رواد نظرية المعرفة، وكما سبقت الإشارة إليه.

وإذا كانت العلوم الطبيعية هي علوم تجريبية يقف الإنسان على حقائقها عن طريق الحس والتجربة، فإن المسائل العقلية المحضة لا تُدرس وتستنبط نتائجها إلا عن طريق الاستدلال والاستنباط العقلي.

وعلى سبيل المثال لو أردنا استنباط (قانون طبيعي) كالجاذبية أو (عنصرٍ مادي من العناصر)، يجب علينا أن نستعين بأداة الحس والتجربة، لأن محاولة الوقوف عليهما عن طريق التفكير المحض والاستدلال العقلي البحت لا يؤدي بنا إلى شيء، ولا يزيدنا إلا بُعداً.

كما أن إثبات (قانون فلسفي كلي) عن طريق الحِسِّ مثل: القول بأن لكل معلول علة، أو السعي لإثبات بطلان الدور والتسلسل، لا يتم عن طريق الحس والتجربة، إذ المجال هنا هو مجال الاستدلال العقلي، لا المشاهدة الحِسِّية، والتجربة المختبرية...

غير أن التحول العلمي الذي وقع في الغرب قد أحلَّ التجربة محل العقل، وأقامها في جميع المجالات العلمية (التجريبية والفلسفية) على السواء، وأعطاها كل القيمة بلا استثناء، وأنكر أن يملك الإنسان حقائق وراء عالم التجربة.

وحقيقة أن هذا الانقلاب لم يكن إلا ردة فعل على ما كان سائداً قبل ذلك في بلاد الغرب حيث كان الناس حينها يكتفون بمطالعة كتب الفلاسفة الإغريقيين،

ويتلقون تعاليم رجال الدين، دون أن يتأكدوا من صحة ذلك وصِدقه بالدراسة والتمحيص والبحوث والتجارب...

وعندما اهتم الغرب بالتجربة والحس حتى وقف على حقائق العلوم، وتبيّن له بطلان كثير مما جاء في كتب الأقدمين، إذا به يُفْرِط في هذا الجانب إفراطاً كبيراً كانت نتيجته تحكيم (التجربة) حتى في المجالات العقلية الفلسفيَة، كما كان نتيجة التفريط تحكيم العقل المحض حتى في مجال العلوم الطبيعية والتجريبية.

لأجل هذا آثر بعض العلماء الطبيعيين في الغرب على أنفسهم ألا يقبلوا شيئاً إلا إذا أثبتته التجربة الحسية...

ولكنهم غفلوا عن أن الذي يقع في نطاق الحس والتجربة الحسية إنما هو (المادة) وآثارها وهو إنما يشكِّل جزءاً من المعارف والحقائق، وأما الموجود غير المادي فلا يقع في إطارها، ولا يخضع للمشاهدة الحسية، ولو خضع للتجربة والمشاهدة لكان غير ذلك.

أجل، كان هذا هو أحد الدوافع الهامة لإعراض كثير من مفكري الغرب وشعوبهم عن المفاهيم الدينية والقضايا الغيبية، وإقبالهم على المادية.

ثم إن هناك عاملاً آخر لاتخاذ هذا الموقف السلبي الرافض للعقيدة الإلهية:

وهو أن كل من توغَّل في علم، وصَرَف حياته فيه، صبغ ذلك العلمُ شخصيته الفكرية والنفسية بصبغته، بحيث لم يعد ينظر إلى الأشياء إلا من زاوية ذلك العلم... وبحيث يعتبر ذلك العلم محوراً لتقييم كل ما يحيط به من الأمور.

وبعبارة أخرى: إن الذهن الإنساني قد يصبح بسببِ اهتمامه بعلم أو شيء معين ذا بُعدٍ واحدٍ، فلا يرى الأشياء إلا من خلال ذلك البعد، ولا يفسر الأمور إلا من خلال ذلك المنظار.

فَمَنْ شغلت المسألة الاقتصادية فكره وعقله، نظر إلى جميع الأشياء من زاويةٍ اقتصادية، وفسّر جميع الأحداث تفسيراً اقتصادياً.

وهكذا من كان مشغولاً بالسياسة أو غيرها...

وهذا هو ما وقع فيه بعض الغربيين، فهم بعد أن أَسَرَتْهم المادية، وتحققت على أيديهم بعض الكشوفات الطبيعية تحوّلت رؤيتهم لكل شيء إلى رؤية مادية محضة، فأصبحوا يفسرون كل شيء بتفسير مادي محض، ويرفضون كل مالا يدخل ضمن هذا النطاق.

ومن هنا جاء رفضهم للأمر والقضايا الدينية في مجال المعتقدات، لأنها لا تدخل في نطاق المادة والأمور المادية، ولا سبيل إليها بالوسائل المادية[1]..

**٥ ـ الغرور العلمي الكاذب:**

ذكرنا أن طبيعة أي ثورة في أي أمة من الأمم أن تثور على كل شيء يتصل بالعهد المباد، وكل ما يرتبط بالقديم، دون تفريق بين الحق والباطل، والصحيح والخطأ.

ويشتد هذا الأمر إذا رافقه شيء من الغرور الحاصل بسبب النجاحات المحرزة في بعض الحقول العلمية.

---

(١) الله خالق الكون، لجعفر الهادي ص٥٤١-٥٤٥ بتصرف واختصار.

والحق أن الغرب قد أحرز بعض النجاحات الباهرة في ميادين العلوم، واستطاع بجهود علمائه، والباحثين من أبنائه أن يكتشف بعض النواميس والقوانين الحاكمة في الكون، وجملة من أسرارها، ولكنهم تصوروا أنهم اكتشفوا كل شيء، ووقفوا على جميع الحقائق، وفتحوا جميع المغالق، وجابوا جميع الآفاق، وأن ما اكتشفوه ـ رغم ضآلته بالنسبة إلى عظمة الكون وكثرة أسراره ـ يكفي لإبطال كل ما يتصل بالقديم، أو التشكيك فيه، والإعراض عنه.

فأصابهم الغرور العلمي الكاذب الذي دفعهم لإنكار الأفكار الضالة التي توارثوها عن آبائهم وأجدادهم حتى قال بعضهم: «إن الإلحاد أفضل من التمسك بالأضاليل»[1] وقرَّر آخر أن «كل شيء محصور في الطبيعة، وأن كل ما يُتخيَّل وراءها وهم في وهم»[2]، ولكن هذه التصورات كلها لم تكن إلا غروراً بالغاً جداً، سرعان ما تراجع عنها بعض علمائهم، بعد أن عرفوا حقيقة عظمة الكون، وزخارة أسراره، وكثرة قوانينه ونواميسه، فاعترفوا بعجزهم وجهلهم وقصور علمهم البشري ـ رغم ما أنجزوه في ميدان العلوم الطبيعية ـ وشهدوا بوجود رب الكون[3].

---

(١) القائل هو بطرس بيل.
انظر: المرجع السابق ص٥٢٥.

(٢) هو: البارون هو لباخ الألماني الجنسية.
انظر: الله خالق الكون، لجعفر الهادي ص٥٢٥ نقلاً عن الكاتب المصري محمد فريد وجدي من كتابه على أطلال المذهب المادي ١/ ٣٠، ولم أعثر على المرجع الأصلي.

(٣) سبق ذكر كثير من شهاداتهم فيما مضى معنا في البحث.
وانظر: الله خالق الكون، لجعفر الهادي ص٥٢٥-٥٢٦.

**٦ ـ انتشار الفساد الأخلاقي:**

صاحَب التحول العلمي المادي في الغرب ـ الذي وفّر كثيراً من وسائل العيش والترفيه ـ فساد عريض، وانحطاط كبير في ميدان الأخلاق والسلوك، لأن ما حدث في الغرب من ثورة صناعية وعلمية لم ترافقها قيادة حكيمة وصالحة، توجه المجتمع إلى حُسن استخدام معطيات ذلك التحول العلمي الصناعي الهائل.

ولذلك استُخدمت تلك المعطيات في سبيل اللذة والهوى، وترتب على ذلك أن انطلق الناس في شهواتهم بلا حدود، ومضوا يمارسون أبشع أنواع السلوك.

فعندما ظهرت الأجهزة التكنولوجية العصرية، وخاصة وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة من صحف وراديو وسينما وتلفاز وإنترنت وغيرها استخدمها الغرب استخداماً سيئاً لِجَنْيِ الأرباح والأموال الطائلة ـ ولو على حساب الأخلاقيات الأساسية والقيم الاجتماعية ـ فذهبوا يقدِّمون من خلالها كل ما يحقق لهم العوائد المادية حتى لو أخلوا بالفضائل الإنسانية.

ومن هنا سقط المجتمع الغربي سقوطاً أخلاقياً مُريعاً، وأصبح تحت تأثير الإباحية التي اجتاحت الغرب، وشملت كل طبقات المجتمع، فصار أسير الغرائز الملتهبة الرخيصة ـ إلا النادر الذي لا يُذكر.

والشاهد من هذا كله أنه لما كانت المفاهيم الروحية والمعتقدات الدينية لا تنمو إلا في أجواء مساعدة ـ كما لا تنمو البذور إلا في أرضية صالحة ـ فإن بقايا المعتقدات الدينية والمفاهيم الإيمانية الخاصة بأهل الكتاب لم تستطع الاستمرار والبقاء في ذلك المجتمع الفاسد.

لقد دفع الانحطاط الأخلاقي المجتمع الغربي إلى التنكر للمعتقدات الدينية كالإيمان بالله والدار الآخرة بما فيها من حساب وعقاب ـ بعد أن غرق الغرب إلى قمة رأسه في الشهوات والمجون، ـ وصار همُّه إشباع بطنه وإطفاء غريزته، وبعد أن انحصرت وظائف الكنيسة ودورها في إجراء بعض المراسيم الجوفاء للموتى والمواليد وعقود الزواج، وصلاة الأحد فقط، دون أن تؤدى دورها في توجيه المجتمع في كل نواحيه الاعتقادية والسلوكية وغيرها...

إننا نلاحظ أن المجتمع الغربي كلما ازداد توغلاً في المفاسد ازداد بُعداً عن قيم الدين، وعداوةً لها، لأنها تحُوْل بينه وبين إرواء غرائزه وشهواته كما يريد، وإلى مثل هذا أشار الله عزوجل بقوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ (الروم: ١٠)..

ولهذا يسعى المستعمرون دائماً إلى إفساد الأخلاق والسلوك في ديار المسلمين تمهيداً لتغيير الأفكار والقضاء على المعتقدات الدينية.

لقد كان شيوع الفساد الأخلاقي أحد العوامل المؤدية للإعراض عن الدين، والإقبال على الإلحاد والمادية الفكرية الاعتقادية[١].

### ٧ ـ نظرية داروين ومعارضتها لما في الكتب المقدسة:

كانت نظرية (النشؤ والارتقاء) لداروين ترى أن الحيوانات والنباتات الحية تكوّنت من أشكال سبقتها، نتيجة تحول تدريجي مستمر. ـ وهذا القول مخالف لما جاء في القرآن الكريم، بل لما جاء في كتب الغرب المقدسة غير المحرّفة التي تنص

---

(١) الله خالق الكون، لجعفر الهادي ص٥٤٧-٥٥٠ بتصرف واختصار.

على أن كل كائن حي خُلِق خلقاً خاصّاً وأنه لم يتحول من نوع آخر ـ ولقد كان لهذه النظرية أثر كبير في إعراض بعض العلماء الغربيين عن المفاهيم الدينية، وإقبالهم على المادية والإلحاد[1]. بعد اقتناعهم بها رغم معارضتها لما في الكتب المقدسة عندهم، التي تنص على أن خلق الإنسان من الطين، دون إشارتها إلى تطوره أو مراحله التكاملية في خلقه ـ فكان هذا دافعاً إلى شك علماء الغرب في صحة كتبهم المقدسة، بل وفي سائر المفاهيم والمعارف الدينية.

**٨ ـ تقصير المسلمين الموحّدين «حكومات وجماعات وأفراد» في الدعوة إلى التوحيد:**

رغم أن الله تعالى جعل ما جاء به محمد ﷺ خاتم الرسالات السماوية وهو الدين الحقّ، وكتابه (القرآن الكريم) الهادي إلى الحق هو الكتاب الوحيد الذي تكفّل الله بحفظه، وكان كذلك، مصداقاً لقوله عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩) فلم يُحرّف ولم يُبدّل ولم يتعرض لزيادة أو إنقاص أو إخفاء..إلخ ـ كما وقع من أهل الكتب في كتبهم ـ.

ورغم أن الله تعالى جعل أمة محمد ﷺ (أمة التوحيد) خير الأمم، كما قال سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ... ﴾ (آل عمران: ١١٠) وخير معروف يؤمر به ويُدعى إليه ـ على الإطلاق ـ هو توحيد الله، وبالمقابل فإن شر منكر يجب التحذير منه هو الكفر والشرك بالله، ورغم أن الله تعالى أوجب على أمة محمد ﷺ الدعوة إلى

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في المرجع السابق ص٥٢٦-٥٣٧.

توحيده كما نفهم من أمره تعالى لرسوله قائلاً: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٨) رغم هذا كله إلا أن المسلمين على مستوى الرعاة والرعية، والمشايخ والدعاة وطلبة العلم قد وقع منهم تقصير كبير في نشر دعوة التوحيد وخاصة بين الشعوب والحكومات الأعجمية المفتونة بإنجازاتها المادية ـ كما أشرنا إليه ـ.

فلم تقم أمة الإسلام الرائدة بواجبها تجاه هذا الدين الخالد إلى قيام الساعة، ولم تستغل إمكانياتها السياسية والاقتصادية، والإعلامية والعلمية وغيرها في تحرير العبيد من الشرك والإلحاد ورفع راية التوحيد على الوجه الأحسن والأكمل.

لقد تخلَّفت عن ذلك لعدة أسباب، منها ما هو بيدها ومنها ما هو جبراً عليها. في الوقت الذي نرى فيه جهود التنصير[1] المسيحي، وغيره على أشدِّه، كما كنا نرى في دعوة الشيوعيين إلى إلحادهم بكل ما أوتوا من إمكانيات وقدرات[2] وقوة.

---

(١) نلاحظ بعض المسلمين يتداولون لفظ (التبشير المسيحي) أو (التبشير النصراني) كما تعارفت عليه المؤلفات النصرانية، المترجمة للغة العربية، وهذا خطأ لأن التبشير إنما هو بدين الإسلام خاتم الديانات وأصحها على الإطلاق. والأولى أن يقال (التنصير المسيحي).

(٢) أذكر أني في حرب الانفصال التي نشبت في اليمن بين شماله وجنوبه عام ١٩٩٤م دخلتُ مخازن عديدة في بعض المحافظات الجنوبية، وهي ممتلئة كلها بعشرات الآلاف من مطبوعات الشيوعية ومؤلفات ماركس ولينين وغيرهما، وعليها شعار الشيوعية (النجمة الحمراء والمنجل) وكانت هذه المؤلفات مناهج مقررة على المواطنين فيما كان يسمى ـ سابقاً ـ بـ(جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية الاشتراكية) وأتذكر أن المجاهدين حينها أحرقوا تلك المخازن بما فيها واستمرت ثلاثة أيام ـ تقريباً ـ وهي تحترق لكثرة ما فيها من مؤلفات الشيوعية والإلحاد.

نرى هؤلاء القوم لم يدخروا جهداً ولا مالاً ولا وقتاً ولا وسيلة إلا واستخدموها لنشر دينهم المحرّف المغمور في الشرك والمحاط به من كل جهة، ومحاربة دين التوحيد (الإسلام) حتى صارت لهم مراكز تنصير ومنصّرين على مستوى العالم أجمع ـ حتى في كثير من الدول الإسلامية ـ وصارت لهم معاهد وجامعات ومناهج ومطبوعات بالآلاف، بل وإذاعات وقنوات فضائية عديدة، وجنَّدوا في سبيل باطلهم ودياناتهم عشرات بل مئات الآلاف من رجالهم ونسائهم، وتواصوا على الشرك ونشر الكفر بين شعوبهم وغيرها من الشعوب الأعجمية الأخرى، بل في ديار الإسلام والمسلمين كما هو معروف[1]، وصدق الله في قوله عنهم وعن أمثالهم ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِءُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[2].

فلو قام أهل الإسلام بواجبهم تجاه دينهم وبشَّروا بدين التوحيد حكومات وشعوب الدول الكافرة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ ﴾ (الشورى: ١٣) وقوله: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ (الحج: ٧٨) لو قام المسلمون بذلك لتراجع طوفان الشرك وقُضي على بقايا موجة الإلحاد أو كاد، فالعالم الغربي الحالي يشكو من تحريف أديانه السابقة، وكَذِب حملة اليهودية والنصرانية، ويعاني من

---

(١) بل امتد نشاط المنصرين إلى بعض المناطق عندنا (في اليمن) وخاصة في مدينة جبلة التابعة لمحافظة إب، وقد وقع تحت يدي من أشرطة الكاسيت ومنشورات ومطبوعات النصارى العشرات بل المئات، إضافة إلى أشرطة الفيديو المزعومة عن المسيح عيسى رسول الله عليه السلام.

(٢) التوبة: ٣٢ ونحوها في الصف: ٨.

الجهل لدين الإسلام الحق، وخاصة بعد ممارسات التضليل الإعلامي لوسائل إعلامهم التي تُظهر الدين الإسلامي وأهله على غير الحقيقة، بل بصورة مشوّهة مموجة ممقوتة.

وإن نفراً من الشعوب الغربية أو طائفة من الأمم الأعجمية لا زالت حتى اللحظة تبحث عن الحق في الديانات السماوية، وتنتظر بفارغ الصبر من يهديها إلى الصراط المستقيم، وتستجيب لذلك[1] حتى لا يلحقهم ما لحق بآبائهم وأجدادهم السابقين من غضب وضلال مبين، كما قال سبحانه ـ معلِّماً الموحِّدين أن يكرروه في صلواتهم كل يوم وليلة ـ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ (الفتحة: ٦، ٧).

إن مما يدل على تقصير المسلمين في دعوتهم إلى دينهم القيّم القويم ما نسمعه من عبارات التأسف والحسرات، وكلمات العتاب التي يلقيها على مسامعنا كلُّ من أسلم من الكفار وصدق في توحيده لله، على تأخيرنا البلاغ المبين له ولقومه.

هذه تقريباً هي أهم الأسباب التي دفعت المجتمع الغربي إلى الإلحاد، وجعلته قريناً بالعلوم الطبيعية الحديثة.

وإذا كان الإلحاد والاتجاه المادي قد تفشّى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي في أوروبا وبلاد الغرب، فإن كثيراً من علماء وفلاسفة القرن

---

(١) لمعرفة العشرات من المستجيبين لدعوة التوحيد، والداعين بعد ذلك أقوامهم إليه، فحققوا نجاحاً باهراً، حيث أسلم على أيدي بعضهم المئات، بل الآلاف.

انظر: المعجزة المتجددة في عصرنا، بقلم أبي عبدالرحمن صالح بن محمد بن حليس اليافعي، مطبعة (بدون)، د.ت، صنعاء ـ اليمن.

العشرين قد ساهموا في القضاء عليه بشكل كبير، وإننا نجد عدداً لا بأس به من الشخصيات العلمية الغربية البارزة، ومن المعدودين في طليعة المكتشفين والمخترعين والمشتغلين بالعلوم الطبيعية.

نجد من هؤلاء من يقف موقف الإلهيين ويعترف بوجود رب للطبيعة والكون. بل نجد منهم من يحمل لواء التوحيد بعد دخوله في دين الإسلام.

لقد وجدنا أن أربعين من كبار رجال العِلمْ الأمريكان في تخصصات مختلفة قد أكّدوا وجود الله، وتجلَّت لهم كثير من أسمائه وصفاته، من خلال علومهم واستدلالاتهم العقلية، وشهدوا بذلك[١].

ولقد قام أحد علماء الغرب[٢] باستقراء آراء كبار العلماء والفلاسفة في القرون الأربعة الأخيرة، وكان عددهم ٢٩٠ عالماً، عن الإيمان بالله، فوجد أن:

(٢٨) عالماً منهم لم يصلوا إلى عقيدة ما.

(٢٤٢) عالماً أعلنوا إيمانهم بالله على رؤوس الأشهاد.

(٢٠) عالماً لم يكونوا يبالون بالوجهة الدينية.

وهذه النتائج تعني أن (٩٢٪) من إجمالي العلماء والفلاسفة المذكورين أعلاه يؤمنون بالله، بل يزكُّون الإيمان به، ويؤكدون على أهميته، ومن هؤلاء:

١ـ الطبيب المشهور (باستور) حيث قال: «الإيمان لا يمنع أي ارتقاء كان... ولو كنتُ علمتُ أكثر مما أعلم اليوم لكان إيماني بالله أشد وأعمق مما هو عليه الآن».

---

(١) قد استشهدت على ذلك في طيات هذا البحث اقتباساً من كتاب: الله يتجلى في عصر العلم، لنخبة من علماء أمريكا.

(٢) هو العالم دينرت.

٢ ـ الدكتور (وتز) عميد كلية الطب في باريس وعضو أكاديمية العلوم، والكيميائي المعروف، حيث قال: «إذا أحسستُ في حين من الأحيان أن عقيدتي بالله قد تزعْزَعَتْ وجَّهتُ وجهي إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها».

٣ ـ (باسكال) حيث قال: «صنفان فقط من الناس يجوز أن نسميهم عقلاء: الذين يعرفون الله، والذين يَجِدُّون في البحث عنه لأنهم لم يعرفوه».

٤ ـ (إينشتاين) القائل: «إن الإيمان هو أقوى وأنبل نتائج البحوث العلمية».

والقائل أيضاً: «إن الإيمان بلا علم ليمشي مشية الأعرج، وإن العلم بلا إيمان ليتلمَّس تلمُّس الأعمى».

٥ ـ (أدمون هربرت) ـ وهو جيولوجي ذائع الصيت ومدرس في جامعة السوربون ـ حيث قال: «العلم لا يمكن أن يؤدي إلى الكفر ولا إلى المادية ولا يُفضي إلى التشكيك».

٦ ـ (فابر) العلامة المؤرخ الطبيعي، حيث قال: «كل عهد له أهواء جنونية، وإني أعتبر الكفر بالله من الأهواء الجنونية... وأيسر عندي أن ينزعوا جلدي من أن ينزعوا مني العقيدة الإلهية».

٧ ـ (البرت ماكوب ونشستر): أستاذ الأحياء بجامعة بايلور، وعميد أكاديمية العلوم بفلوريدا سابقاً، حيث قال: «إن اشتغالي بالعلوم قد دعم إيماني بالله، حتى صار أشد قوة وأمتن أساساً مما كان عليه من قبل، ليس من شك أن العلوم تزيد الإنسان تبصُّراً بقدرة الله وجلاله، وكلما اكتشف الإنسان جديداً في دائرة بحثه ودراسته ازداد إيماناً بالله»[1].

---

(١) انظر: روح الدين الإسلامي، لطبّارة، ص٨٢.

٨ ـ (هرشل) وهو أخصائي في الفيزياء وعلم النفس وفلسفة العلوم حيث قال: «كلما توسّع أُفق العلم، ازددنا معرفة بالله، ذلك لأن العلم يزودنا ببراهين قطعية على وجود الخالق الأزلي القدير الذي لا حد لقدرته»[١].

٩ ـ (لينه) وهو أول من أسَّس لصناعة الراديو في العالم سنة ١٩٣٤م إذ يقول: «يمر أمام عيني ربي[٢] الذي خلق كل شيء، إني لا أراه ببصري، ولكن نفسي تراه حين تشع عليها آثار عظمته وجلاله، وترى ما أودع في هذا الكون من جلائل الأعمال، وخوارق لا تُعدُّ، يكفيني أن أرى الكائنات الحية الصغيرة جداً التي لا تُرى بالعين المجرَّدة، كيف جهّزها الله بجوارح وأعضاء تُحيّر العقول»[٣].

١٠ ـ (إسحاق نيوتن) وهو من أعظم علماء القرن الثامن عشر، حيث يقول: «لاشك في الخالق، فإن هذا التنوع في الكائنات، وما فيها من ترتيب أجزائها ومقوماتها، وتناسبها مع غيرها، ومع الأزمنة والأمكنة، لا يُعقل أن تصدر إلا من حكيم عليم»[٤].

١١ ـ (فن براون) عالم الفضاء الأمريكي، حيث قال: «لقد التقيت بكثير من علماء العالم، وأعرف كثيراً منهم أيضاً، ولكني لم أجد بينهم ممن يستحق أن يوصف بالعلم، وهو يستطيع أن يُفسِّر نشأة الطبيعة بدون أن يشير إلى وجود الله وقدرته ومشيئته في خلق هذا الوجود.

---

(١) الله خالق الكون، لجعفر الهادي ص٢٨٧.

(٢) راجع الملاحظة الواردة على أقوالهم هذه ص٨٥٩.

(٣) المرجع السابق.

(٤) نفسه.

إن العلم الحديث يبحث عن وجود الله ولكنه لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك فهو المسكين العاجز.

كما أن العالم الذي يتعامل مع الظواهر الطبيعية تعاملاً سطحياً، ولا يحاول استكناه ما وراءها هو الآخر المسكين»[1].

١٢ ـ (توماس أديسون) وهو طبيب انجليزي معروف، يقول: «إن ظفري قد سقط اليوم، ولا يستطيع أهل الأرض أن يصنعوا مثله تماماً، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، ولكن الله يصنع لي مثله بعد شهر، فالخليقة بأسرها آية الله الظاهرة، ومعجزته الباهرة»[2].

وغيرها من الأقوال لفلاسفة وعلماء آخرين من العجم والعرب[3].

وإذا كان هؤلاء وأمثالهم قد اعترفوا بالله من أول أمرهم بعد دراستهم للطبيعة، فإن غيرهم من العلماء المشتغلين بالعلوم الطبيعية كانوا يعتقدون أول أمرهم بالمادية، وكانوا على إلحاد، ثم اهتدوا بعد ذلك ـ في ضوء الفطرة والبرهان ـ إلى الاعتراف بالله، أمثال:

١ - الفيلسوف الإنجليزي (رومين).

٢ - الفيلسوف الإنجليزي (ميكائيل فاراي).

---

(١) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(٢) نفسه ص٢٨٨.

(٣) مثل (ديكارت) و(لايبنز) و(الفارابي) و(ابن سينا) و(ابن رشد). انظر:

أ ـ قصة الإيمان، للشيخ نديم الجسر.

ب ـ براهين وأدلة إيمانية، للميداني ص١٢٥-١٢٧.

٣- الفيلسوف الألماني المعروف (رئينك).

فقد كان هؤلاء ممن يعتنقون المذهب المادي ردحاً من الزمن، ويدعون إليه بقوة، ولكنهم انقبلوا عليه بعد فترة، واعترفوا بوجود الله، وكانت لهم في هذا المجال كلمات وتصريحات، ذكرها صاحب كتاب تاريخ العلوم[١]، وذكر في كتابه هذا أسماء طائفة من العلماء الذين كانوا يؤمنون بالله، ويرتادون المعابد والكنائس، ويقدسون الكتب السماوية والمذاهب الدينية.

... وبعد كل ما سبق يتضح لنا أنَّ أكثر العلماء الطبيعيين يعترفون بالله ويؤمنون به ـ وإن كانوا على شرك في ذلك ـ إلا أنهم ليسوا ملاحدة ـ.

ونعم قد يوجد في الغرب أو الشرق بعض الملاحدة من أرباب العلم والفكر[٢]، ولكن إلحادهم ـ إضافة لقلتهم وندرتهم ـ يرجع إلى الأسباب السابق شرحها، وليس إلى الفطرة التي فطرهم الله عليها.

**ختاماً أقول:**

كما شهد علماء الطبيعة المعاصرون على وجود الله وتدبيره لشؤون الكون، فقد شهد غيرهم بشهادة التوحيد، ودخلوا في دين الإسلام، وشهدوا بعظمته وعظمة رسوله وكتابه (القرآن الكريم)، ومن هؤلاء:

---

(١) وقد طبع هذا الكتاب أكثر من ٥٦ مرة، ألّفه (بي بروسو)، انظر: على أطلال المذهب المادي لمحمد فريد وجدي.

(٢) مع ملاحظة أن (صادق جلال العظم) الناطق باسم ملاحدة هذا العصر قام في كتابه (نقد الفكر الديني) بضم أسماء بعض كبار علماء الكون مثل (إسحاق نيوتن) و(اينشتاين) في قائمة الملحدين بالله، للإيهام بأنهما غير مؤمنين به، وهذا غير صحيح كما بينته. وقد ردّ عليه الشيخ عبدالرحمن الميداني في كتابه (براهين وأدلة إيمانية) ص١٠٢-١٠٤ واتهمه بالتزوير.

١ ـ الدكتور (علي سليمان بنوا) وهو طبيب فرنسي، قال: «وإني مدين بالشيء الكثير للكتاب العظيم الذي ألّفه مستر مالك بن نبي[١]، واسمه (الظاهرة القرآنية) فاقتنعت بأن القرآن كتاب وحي منزل من عند الله.

إن من بين آيات هذا القرآن الذي أُوحي به منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ما يحمل نفس النظريات التي كشفت عنها أحدث الأبحاث العلمية»[٢].

٢ ـ البروفيسور (هارون مصطفى ليون) مؤلِّفٌ وعالِمٌ لغوي وجيولوجي، حاصل على الدكتوراه وعلى درجات علمية كبيرة، وكان زميلاً وعضو شرف في كثير من الهيئات العلمية في أوربا، وهو من (إنجلترا) قال: «من مفاخر الإسلام

---

(١) هو مالك بن نبي، الجزائري، ولد بقسنطينة عام ١٩٠٥م، أوتي قوة الملاحظة منذ صباه، مفكر، ذو قدرة على التحليل العلمي والنظر الموضوعي لكل ما يتصل بالحضارة الإسلامية والمجتمع العربي، التحق في صباه بالمدارس القرآنية والتعليم المدني، وحذق لغة المستعمرين الفرنسيين، ثم اتصل بجماعة العلماء الجزائريين... وإن لم يتتلمذ على يد رئيس الجماعة الشيخ عبدالحميد بن باديس، بل آثر الاتصال بتلاميذه وحوارييه،... وتضلّع بالثقافة الإسلامية، وعمل مديراً للتعليم العالي في الجزائر، وكان قبل ذلك قد التحق بالمعهد اللاسلكي وتخرج مهندساً كهربائياً، له كتاب (وجهة العالم الإسلامي)، من أهم كتبه (الظاهرة القرآنية) حيث قرّر فيه المبدأ الغيبي الذي يتضاد مع المذهب المادي... ووضّح الفرق الأسلوبي بين تعبير القرآن وتعبير الرسول ﷺ، قال عنه الدكتور مصطفى السباعي «يتميز مالك بن نبي في جميع مؤلفاته بعمق التفكير ومنطقيته وواقعيته وقوّة أسلوبه في الدفاع عن الأفكار التي يتبنّاها».

توفي في آخر أكتوبر ١٩٧٣م في الجزائر، انظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين للبيومي ٣/ ٢٢٩-٣١٣.

(٢) كتاب التوحيد للزنداني ص٢٦٠.

أنه مبني على العقل، ولا يطالب معتنقيه أبداً بتجميد طاقاتهم الفكرية»[١] في إشارة منه إلى ما فعلته الكنيسة الأوربية مع شعوبها.

٣ ـ الدكتور (عمر ولف بارون أهر نظير) أستاذ علم الأجناس البشرية، وهو من (النمسا) قال بعد أن لخّص كثيراً من أسباب إسلامه: «محمد رسول الله ﷺ هو الرسول الذي جاء بالإسلام، وبذلك يكون الحلقة الأخيرة في سلسلة الرسل الذين حملوا الرسالة الكبرى»[٢].

٤ ـ (كولونيل دونالداس، روكويل): وهو شاعرٌ وناقدٌ ومؤلفٌ، من أمريكا، قال أثناء شرحه لأسباب إسلامه: «والتعاليم الأصيلة التي جاء بها محمد ﷺ لم يُغيّرها المشرّعون بتعديلات أو إضافات، فها هو القرآن على حاله التي أُنزل بها على محمد ﷺ لهداية مشركي ذلك الزمان، يبقى ثابتاً راسخاً رسوخ روح الإسلام ذاته، والاعتدال والتوسط في كل شيء هما دعامتان أساسيتان في الإسلام استحوذتا على كل إعجابي وتقديري»[٣] ونلاحظ أنه في شهادته هذه يشير إلى ما فعله القساوسة والبابوات من تحريف وإضافات في كتبهم المقدسة.

٥ ـ الدكتور (ر.ل. ملما): وهو عالم في تاريخ الأجناس البشرية، وكاتب وأديب من هولندا، قال في سرده لأسباب إسلامه: «بساطة الإيمان في الإسلام، وعدم وجود كهنوت فيه ـ وكأنه يشير بذلك إلى ما أحدثه البابوات في المسيحية ـ وحث الإسلام على التسامح، وأن المسلم مطالب بالبحث عن الحق حيثما وجده،

---

(١) نفسه ص٢٦٠-٢٦١.

(٢) المرجع السابق ص٢٦١.

(٣) نفسه.

ومبدأ الأخوة في الإسلام، والمساواة بين الناس، وتقدير الإسلام للعقل والمادة، ولقيمة كل منهما، وتحريم الإسلام للخمور والمواد المخدرة»[١].

٦ ـ (عمر ميتا)، وهو عالم اقتصادي من اليابان، وباحث اجتماعي، قال واصفاً الإسلام ـ بعد إسلامه: «والرجل العادي يستطيع أن يفهم تعاليم الإسلام، لبساطتها وسهولة تطبيقها، ولذلك لا نجدها حكراً على طائفة من رجال الدين أو القساوسة كما ترى ذلك في الأديان الأخرى، وإني لأتوقع أن يكون للإسلام في اليابان شأن عظيم في المستقبل..»[٢].

٧ ـ الأستاذ (مارك مايني) الخبير الأمريكي في الجامعة الكويتية ـ سابقاً ـ أعلن إسلامه عام ١٩٧٣م، وحوّل اسمه إلى (مصعب عبد الله) وقال معبّراً عن دخوله ودخول غيره من الأمريكان في دين الإسلام: «ليس إسلام الأمريكان أمراً نستغربه، الذي نستغربه ونستنكره ألاَّ يدخل الناس في دين الله أفواجاً»[٣].

**خلاصة القول:**

ـ إن الواقع يشهد أن الإلحاد إلى اضمحلال وزوال، وأن الإيمان والتوحيد إلى توسع وانتشار، وبدعم علماء الطبيعة الغرب، الذين اعترف أكثرهم بربوبية الله، وبقيت المشكلة الكبرى بعدم انصياعهم لتوحيد الألوهية.

ـ وإن التقدم في العلوم في شتى مجالات الحياة يُثبّت الإيمان ويدعّمه ويقويه، بما يكشفه من عظيم الحكمة والصنع والتدبير والتقدير لله، وبما يؤكّده من السبق لكل العلوم البشرية الحديثة.

---

(١) المرجع السابق ص٢٦٢.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه ص٢٦٣.

ـ وإن روّاد العلوم المعاصرين يُقرّون أنه كلما ازداد علمهم، واتّسعت آفاقه ازداد إيمانهم بالله، وقوي يقينهم به.

ـ إن إيمان هؤلاء الرواد قريب جدّاً من إيمان المسلم الموحّد لربه، لولا ما ينقصهم من توحيد الألوهية، ولقد أسلم كثير منهم بعد أن وصلته دعوة الإسلام[١].

وهكذا ثبت لنا أن المستقبل للتوحيد والموحِّدين وستبقى كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى[٢].

وبهذا أكون قد انتهيت من الرد على شبهة اقتران الإلحاد بالعلوم العصرية الحديثة، وبالرد عليها أكون أيضاً قد انتهيت من مبحث الشبهات والتساؤلات التي قد تعتري بعض الناس حول وحدانية الله، ووجوب توحيده.

وبإنجاز هذا المبحث أكون قد وصلتُ إلى نهاية هذا البحث أو هذه الرسالة التي عنونت لها بـ (أساليب وخصائص المنهج القرآني في عرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية).

ولا شك أن نتائج معينة أفرزها هذا البحث، لابد من ذكرها مع بعض التوصيات والمقترحات، وهذا ما أختم به الرسالة كما يلي:

---

(١) المرجع السابق، ص٢٦٣.

(٢) لمعرفة المزيد من الردود على الملحدين وإلحادهم انظر:

أ ـ الدين في مواجهة العلم، لوحيد الدين خان.

ب ـ الإسلام يتحدى، لنفس المؤلف.

ج ـ براهين وأدلة إيمانية، للميداني ص٥٥-١٢٠.

# «الخاتمة»

في نهاية هذا البحث الذي عشت فيه مع كلام الله ـ وخاصّة آيات التوحيد ـ مايقرب من عامين متواصلين، ووفّقني الله أثناء ذلك لمعرفة كثير من معانيها روايةً ودرايةً، وأكرمني باستجلاء منهج القرآن الكريم في تقرير التوحيد، والدعوة إليه، واستنباط خصائصه وأساليبه في ذلك، توصلت إلى عدة نتائج يمكن إجمال أهمها في النقاط الآتية:

١ ـ أَوْلَى القرآن الكريم قضية التوحيد كل الاهتمام وبدأ بها، وأكثر في نصوصه من الاستدلال على وحدانية الله ووجوب توحيده، حتى استفاضت آياته بذلك، وتم لها قيام الحجة البالغة والبرهان الساطع على كل عباد الله العقلاء.

وعليه فأوّل وأهم ما يجب دعوة العباد إليه هو تحقيق التوحيد وترسيخه في نفوسهم، كونه المنطلق والأساس الصحيح والمتين لبقية أنواع العبادات الظاهرة والباطنة، القبلية والبدينة والمالية، فهو الأصل الذي ترتبط به الفروع، والأساس الذي تتفرع عنه الجزئيات، وبه تُقبل الأعمال الصالحة، وتُثمر شعبُ الإيمان، ويتحقق الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

٢ ـ أن الصراع بين الحق والباطل أو التوحيد والشرك، وأهلهما صراع دائم، فهو سُنَّة من سنن الله الجارية في الكون منذ أن خُلِق آدم وإبليس والخير والشر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذا يعني استمرار وجود حملة للحق والتوحيد ومنافحين عنه، وآخرين ملوّثين بالشرك والكفر مناصرين له إلى ما شاء الله.

٣ ـ تميز القرآن الكريم بمنهج خاص في عرضه لأدلة التوحيد ودعوته لذلك، واعتمد على ركائز وأساليب معيّنة، يمكن اعتبارها معالم أو قواعد قرآنية في الدعوة لتوحيد رب العالمين، لا يستغني عنها أحد من الدعاة إلى الله.

فالقرآن الكريم لم يَدَعْ دليلاً يدل على التوحيد إلا أخذ به، ولا طريقة توصل إليه إلا استخدمها، ولم يترك مدخلاً للنفوس والعقول إلا دخل منه ـ سواء بترغيب أو ترهيب أو غيرهما.

لقد استشهد القرآن الكريم على التوحيد بما هو عقلي محض، وجَدَليٌّ افتراضي، وتاريخي ماضي، وعِلمي متجدد في كل زمان ومكان ومجال.

واعتمد على أدلة فطرية نفسية وأخرى عقلية منطقية، وجاء بأدلة محسوسة ومجرّدة وغائبة وظاهرة، وإنسانية وكونية وغيرها.

وتفوّق على مناهج الفلاسفة وعلماء الكلام من حيث الأهداف وطريقة الاستدلال والنتائج المرجوة والمتحققة.

وسَبَق علمَ النفس الحديث في أصول التعامل مع النفس البشرية وتهذيبها وتربيتها وغرس المفاهيم فيها، وإقناعها بالعقائد الحقة الصحيحة ـ وأعلاها عقيدة التوحيد ـ وترسيخ ذلك كله.

وهذا كله يعني ضرورة إلمام الدعاة للتوحيد من هذه الأمة بجميع أدلة التوحيد القرآنية والأخذ بها في دعوتهم إلى الله، والسير على منهجه في تقرير التوحيد وإقامته في نفوس العبيد، كما فعل رسول الله ﷺ، والاكتفاء بذلك عما سواه من أدلة البشر ومناهجهم القاصرة ـ خاصة وقد وصف الله كتابه بأنه هدى وبيان وذكر وشفاء وغيرها من الأوصاف ـ وصدق الله القائل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ (النساء: ١٧٤، ١٧٥).

وقوله عز وجل: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (المائدة: ١٥، ١٦).

٤ ـ أن القرآن الكريم لا يفرض على الإنسان الإيمان بالله فرضاً جبريّاً ـ سواء اقتنع أم لا، رضي أم سخط ـ بل إنه يحاور عقله ويناقشه ويوقظه من غفلته، ويدعوه لدراسة آيات التوحيد القرآنية والكونية بتأمل ورويَّة، ويعتمد على ذلك كله لإقناعه بالإيمان بالله لا شريك له، وتوصيله إلى تمام العبودية له بكمال الحب مع كمال التعظيم والتذلل.

وعلى الرغم من أن الله هو الحق، وكلامه حق، ورغم كثرة أدلة التوحيد القرآنية، وقوة وصناعة دلالتها على وحدانية الله ووجوب توحيده، إلا أن الله تعالى لم يُكره أحداً من عقلاء الخلق على التوحيد، بل قال: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) تقديراً لعقل الإنسان، ومنحاً له لحرية الاختيار المسؤول، وسعياً لتحقيق الاطمئنان النفسي واليقين العقلي بعقيدة التوحيد، وعليه بعد ذلك أن يتحمل عاقبة هذا الاختيار.

٥ ـ القرآن الكريم يحترم العقلاء الذين يوظفون عقولهم فيما خُلقت له، ويستدلون بذلك على خالقها وخالق الكون من حولها، ليصلوا بعد ذلك العلم إلى خشية الله وعبادته.

٦ ـ تأكّد لنا من كل ما سبق حقيقة ما آمن به أهل القرآن، وما أثبته وأكّد عليه ابن تيمية رحمه الله في قاعدته العظيمة المشهورة التي تنص على (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول) سواء في الكتاب أو السنة.

والذي يعنينا هنا توافق أدلة التوحيد القرآنية مع ما يقتضيه الاستدلال العقلي المنطقي أو ما يتوصّل إليه الاستنباط الفكري المتحرر من أسر الشهوات والشبهات.

٧ ـ تأكّد لنا من خلال آيات الله الكونية ومظاهر تدبيره للسماوات والأرض ومن فيهما وما فيهما، وما أوصَلَنَا إليه النظر العقلي في الكون ما قرّره القرآن الكريم من أسماء الله وصفاته، فكان ذلك آية على أن القرآن حق والرسول محمد ﷺ حق، وأن الإسلام هو دين الله عز وجل الذي ارتضاه لعباده إلى قيام الساعة.

٨ ـ ظهر لنا من خلال تتبع منهج القرآن في تقرير التوحيد في نفوس الجاهلين أو المعرضين أو الجاحدين أنه يعتمد على لفت أنظار الناس إلى:

أ ـ حجج وأدلة تستند إلى ما تعطيه مناهج العلم التجريبي من حقائق، وإلى اللوازم العقلية الفكرية لها، وشواهد المعرفة الكونية، باعتبار أن الكون يشتمل على آيات دالات عليه وعلى صفاته العظيمة.

ب ـ حجج وأدلة تستند إلى ما تعطيه الأصول العقلية الصرفة، والموازين الفكرية الثابتة والموجودة في فِطَر وعقول الناس جميعاً ـ إذا كانت سوِيّة باقية على

أصل فطرتها، لم تُصب بخَلَلٍ مرضي، أو إفساد لآليتها بالآراء الفلسفية، ومذاهب الفلاسفة الضالين المضلين ـ[1].

٩ ـ بالتأمل في منهج القرآن لبناء الإيمان بالله انكشف لنا أن توحيد الربوبية هو الأساس لتوحيد الألوهية، وعليه اعتمد القرآن كثيراً لتحقيق توحيد العبادة وبيان كثير من أسماء الله وصفاته.

١٠ ـ اتضح لنا من خلال سعي القرآن الكريم لنقض الشرك وإبطال عبادة الشركاء، أنه لابد في تقرير التوحيد والدعوة إليه من استخدام مبدأ الإزاحة والإزالة لكل العقائد الباطلة من نفوس الناس، ونسفها، وذلك لتخلية مكانها وتهيئتها لاستقبال العقائد الحقة، وتحقيق تمام التشرُّب بها دون أن يتخللها أي شائبة من شوائب الشرك.

١١ ـ قد تثور في النفس الإنسانية عدة شبهات وشكوك تتعلق بالإيمان بالله، أو يثيرها شياطين الإنس والجن، أو يبعثها أعداء التوحيد، وهذه الشبهات قد يكون لها أثرها البارز في تخلُّف بعض المدعوِّين عن الإيمان، وتأخر البعض الآخر عن الانضمام لركب الموحّدين، ولها إسهاماتها في وقوع الشك والحيرة أو التردد والاضطراب في نفوس بعض الخلق، ومن هنا وجب على الدعاة إلى الله مراعاة ذلك والتنبُّه إليه، ومعالجته كما فعل القرآن الكريم في منهجه القويم.

١٢ ـ بعد أن تكفّل الله بحفظ القرآن الكريم إلى قيام الساعة كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩) ويسّر للمسلمين شرحه وتفسير آياته على أيدي طائفة من أهل العلم والإيمان، لم يعد هناك أي عذر

---

(١) وانظر: براهين وأدلة إيمانية، للميداني ص١١-١٨.

للدعاة وعلماء المسلمين وأبنائهم المسلمين إذا قصّروا في دعوتهم إلى التوحيد أو غفلوا وتغافلوا عن ذلك، ولا ينبغي لأحد منهم أن يقع في صدره حرج من الإنذار بالقرآن الكريم كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٢).

١٣ ـ إن تأخّرت جموع المقبلين على الإسلام والتوحيد، أو قلّت أفواجهم، فليس مردٌّ هذا إلى ضعف أدلة التوحيد القرآنية أو قِلّتها أو قصور دلالتها على رب العالمين، إنما ذلك لأمر يشاؤه الله القائل: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر: ٢٣) وقد رتّب مشيئته هذه بناء على علمه السابق بما يكون من عباده المعرضين عن الحق كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (الصف: ٥).

وهذا يعني أنه لا يليق بالدعاة إلى التوحيد أن يقع منهم شك في أدلة التوحيد والإيمان، أو اعتقاد بعدم كفايتها وصلاحها للاستدلال على الإله الحق العظيم، ولا يجوز أن يعتريهم ضعف أو فتور عن البلاغ المبين، أو يفقدوا الثقة بالحق الذي يحملونه، فلهم في رسول الله ﷺ والرسل السابقين أسوة حسنة حتى لو كفر الناس بهم وبدعوتهم، وليتذكروا دائماً قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (الصف: ٨).

١٤ ـ إن في سقوط راية الإلحاد ودُوَلِه، وتطابق كثير من الحقائق العلمية الحديثة مع ما أشار إليه القرآن الكريم أو صرّح به في بعض آياته، واعتراف أكابر علماء الكون في شتى المجالات بوجود رب للسماوات والأرض يدبّر أمر الكون

كلِّه، إن في ذلك كله ما يحمل الدعاة إلى الله لبذل المزيد من الجهود في الدعوة إلى الإيمان به، ويحفزهم إلى الإكثار من الكشف عن وجوه الإعجاز العلمي لآيات القرآن، وزيادة الاستدلال بذلك كله على وحدانية الله في ربوبيته وأسمائه وصفاته، ووجوب توحيده في عبادته.

١٥ ـ تبيَّن من خلال استعراض مشاهد الدعوة إلى التوحيد الواردة في قصص بعض الأنبياء والمرسلين المذكورة في القرآن، وتدبُّرها، أن مسيرة الأنبياء كلهم واحدة، وهدفهم واحد، ومنهجهم واحد ـ وإن اختلفت نتائج دعوتهم وتميَّز كتاب محمد ﷺ القرآن الكريم بغزارة وقوّة أدلته التوحيدية ـ وما دام الأمر كذلك فيمكن الاستدلال على الله بأدلة الرسل السابقين ومناهجهم في الدعوة إلى الله تعالى.

١٦ ـ ثبت من خلال تنزل آيات القرآن ـ ومنها آيات التوحيد ـ على مدى ثلاث وعشرين عاماً، على قلب النبي ﷺ لغرس التوحيد في نفوس العبيد أنه لا يمكن أن يقام دفعة واحدة وفي لحظة واحدة، بل لابد من مراعاة عامل الزمن والتدرج في الدعوة إلى الله، و الصبر والمصابرة والمرابطة على ذلك، إضافة على مزيد من التقوى حتى تؤتي جهود الدعاة ثمارها ولو بعد حين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

١٧ ـ كلما جاء زمان كلما تجلّى الله بآياته القرآنية والكونية لجميع خلقه حتى تبلغ دعوة التوحيد مبلغها الذي بشّر به النبي ﷺ إلى كل أصقاع الأرض في البدو والحضر والمشارق والمغارب.

١٨ ـ الذين ضلوا السبيل إلى الله أحد الأصناف الثلاثة الآتية:

أ ـ رجل أنعم الله عليه بنعمة العقل ولم يؤته حظه من التعقل والفهم والعظة والعبرة، أو الاستدلال بها حوله على الله، فهذا وأمثاله مع السائمة سواء كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩)[١].

ب ـ رجل أنعم الله عليه بنعمة العقل، وأدرك آيات الله في الأنفس والآفاق، ولكن خدعه ذكاؤه وغرّه علمه، وأخذته العزة بالإثم، وتعالى بكبره وإنجازاته عن الإيمان بالله والاستسلام له، فهذا وأمثاله، مع فرعون سواء كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل: ١٤).

ج ـ رجل حمله الحسد والبغي على عدم الإيمان برب العالمين.

١٩ ـ مخالفة التوحيد والوقوع في الشرك جريمة عظيمة، وظلم عظيم، تكاد السماوات يتفطرن منه، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً، وذلك لما تعنيه هذه الطامَّة من:

أ ـ التسوية بين الرب والمربوب، وبين من له منتهى الكمال والعلو والعظمة ومن ليس له شيء من ذلك.

ب ـ قلب الحقائق والموازين والتنكر لما هو مغروس ومفطور في كل نفس إنسانية خلقها الله على الحنيفية السمحة.

---

(١) الأعراف: ١٧٩، ونحوها في الفرقان: ٤٤.

ج ـ مناقضة العقل ـ الذي ميّز الله به الإنسان عن الحيوان، وفضّل به العقلاء عن المجانين ـ ومصادمة ما يقتضيه فهمه وما يوصِّل إليه تأمله وتدبره في هذا الكون وما فيه.

د ـ صرف ما ينبغي من العبادات لمن لا يستحق من المخلوقات، وليس له وجه استحقاق لا في كمال ذاته ولا في اكتمال أركان ربوبيته، ولا في إحسانه إلى غيره.

هـ- مخالفة صريحة وجريئة للأمر العظيم ممن له الخلق والأمر، وتحدٍّ سافر لمالك السماوات والأرض القائل: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ (الإسراء: ٢٣) والقائل: ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ (يوسف: ٤٠).

و ـ تعطيل لعقل الإنسان الذي ميَّزه الله به عن الحيوان وإسقاط لكرامته التي أكرمه بها في الدنيا، وإهدار لعزته وحريته بعبادته لأمثاله أو ما دون ذلك.

ز ـ ضرب بتوجيهات القرآن الكريم الداعية إلى معرفة الله والتعرف عليه عرض الحائط، وتجميد لكل نصوصه التوحيدية.

ح ـ إفحاش في ظلم النفس الإنسانية ـ جسداً وروحاً ـ وتعريضها لسخط الله ومقته وعذابه الشديد العظيم المؤكَّد المؤبَّد في الدار الآخرة، بعد تعرضيها للضنك في الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه: ١٢٤).

٢٠ ـ إنَّ الجاحدين لآيات الله، والمنكرين لنعمه وألوهيته على أبصارهم غشاوة، وقلوبهم مختومة مطبوع عليها ـ عياذاً بالله ـ فإنهم كما قال تعالى عن

الكفار السابقين: ﴿ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ (القمر: ٢) وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (الأنعام: ١١١) بل إنهم يبذلون ما في وسعهم لإنكار هذه المعجزات: ﴿ وَكَذَّبُوا وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ (القمر: ٣) وإن إنكارهم هذا لا يغير من آيات التوحيد شيئاً ولا يمحو من دلالتها على الله ذرَّة من نور.

لقد أوضح الله دلالته للمتفكرين، وأبدى شواهده للناظرين، وبيَّن آياته للعالمين، وقطع أعذار المعاندين، ودحض حجج المارقين، فاستنارت آيات الربوبية، وسطعت دلائل الألوهية، واضمحلَّت غمرات الشك، وزالت ظلمات الريب[1].

٢١ ـ التوحيد كأبيض ثوب يكون، يؤثِّر فيه أدنى أثر، وكالمرآة الصافية جداً أدنى شيء يؤثر فيها، ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية[2].

٢٢ ـ تكشّف لنا من خلال التبصُّر والتأمل في أدلة القرآن ومنهجه في تأكيد وجود الله وإثبات وحدانيته بالبراهين القطعية وعدم إيمان الجاحدين بذلك ـ رغم حضور فكرهم وعقولهم ـ تكشّف لنا دليل آخر على وجود الله وإرادته الكونية النافذة، ذلك لأن العقل إذا تُرك وشأنه، فلابد أن يعمل عمله الطبيعي في اكتشاف الحقائق والوصول عن طريق المقدمات إلى النتائج، ولو لم يكن هناك

---

(١) الله أهل الثناء والمجد، د/ ناصر الزهراني ص٤٧.

(٢) نفسه ص٧٩.

موجد عظيم لهذا العقل، له السلطان المطلق على عمله وسيره يستيطع أن يوقفه عن عمله عندما يشاء، ويستطيع أن يصده عن فهم أبسط الحقائق ـ في كل لحظة من الزمن ـ لما توقّف عقل هذا الإنسان عن فهم هذه الحقيقية البدهية الواضحة خصوصاً بعد النظر في براهينها اليقينية القاطعة.

أما وقد وقع منه هذا العجز الغريب... فقد دلّ ذلك على نفاذ مشيئة الله بإضلال المتكبرين الزائغين عن الحق المتبعين للشهوات والأهواء، وبالتالي دلّ هذا على وجود الله وتصريفه لشئون الكون بمن فيه وما فيه، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾[1].

٢٤ ـ القرآن الكريم ليس كتاباً في الفلسفة والمنطق، إنما هو جملة من البراهين والقواعد العقلية الصحيحة في النظر والفكر الثاقب، يصلح لكل زمان ومكان وإنسان، ويوصِّل العقلاء إلى اليقين بالحقائق، وأشرفُها حقيقة وحدانية الله ووجوب توحيده.

وكان القرآن ولا يزال منطلقاً للفكر الإسلامي ـ إلى جوار السنة النبوية ـ فمنه ابتدأ المسلمون العلم والمعرفة وتدرجوا في سلَّم العلوم المختلفة.

٢٥ ـ إن الاستدلال على وجود الله وربوبيته وعظيم ملكه هو منهج الأنبياء والرسل والأئمة والعقلاء وأصحاب الفطرة الصافية، وكلٌّ من اختصه الله وأراد

---

(١) الكهف: ٥٧. وانظر: كبرى اليقينيات الكونية، للدكتور محمد البوطي ص١٠٦-١٠٧.

له الخير والهداية. وإن الذين ينتفعون بآيات الله القرآنية والكونية هم أولوا الألباب، وإنما يتذكر من يخشى، وإنما يهدي الله إليه من ينيب.

٢٦ ـ التوحيد هو الخاصية البارزة في كل دين جاء من عند الله، وهو الهمُّ الأوَّل والأكبر والهدف الأسمى لكل رسول، وهو أيضاً المقّوِّم والأساس الأول في كل ديانة سماوية، وهو أساس النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة، ولذا وصّى به الأنبياء والرسل ذريتهم مِنْ بعدِهم.

## التوصيات:

نظراً لما أثمرته أدلة التوحيد القرآنية ومنهجه القويم في تقرير التوحيد وإقامته في نفوس الخلق منذ عهد النبوة إلى ما شاء الله، فإنني أوصي الدعاة إلى الله بالأخذ بها، وبالقرآن الكريم جملة وتفصيلاً، والسير على منهجه في تحقيق التوحيد على هذه الأرض بأقرب وأسرع الوسائل، وأبلغ وأنصع البراهين، وأجدى وأنفع الأساليب الحكيمة، دون أن يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، ودون تقديم اجتهادات البشر وأهوائهم على كلام الله.

كما أوصي الباحثين وأهل العلم من الدعاة إلى الله بمزيد من دراسة نصوص التوحيد الواردة في القرآن الكريم والتعمق فيها، وتأمل أساليبه الدعوية في إفحام الخصم وإلزامه بالحجة حتى وصوله به إلى الإسلام وتمام الاستسلام لرب العالمين.

أوصيهم بإشباع هذا الموضوع بحثاً ودراسة وتحليلاً واستنباطاً بصورة تزيدنا معرفة بعظمة كلام الله وقدرته على نصب راية التوحيد في نفوس الناس وواقعهم، وغَنَائِه والاغتناء به عما سواه.

## المقترحات:

إني وإن كنت قد تناولت في هذا البحث (أساليب وخصائص المنهج القرآني في عرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية) في أكثر من ألفي آية تقريباً، فقد وجدت عدداً كبيراً من هذه الآيات وغيرها تربط بين الإيمان بالله واليوم الآخر، ولمحتُ أن للقرآن الكريم منهجاً آخر ـ فريداً ومتميزاً ـ في تقرير هذا اليوم (يوم الدين) والدعوة إلى الإيمان به، حقُّهُ أن تجمع آياته وتُدرس بتأمل ورويّة، وتُحَلَّل بتوسُّع وموضوعية، ليستفيد دعاة الإسلام الطرق القرآنية في غرس الإيمان بأهم ركن من أركان الإيمان بالغيب في قلوب الخلق ـ بعد ركن الإيمان بالله ـ ألا وهو الإيمان باليوم الآخر بما فيه وما قبله وما بعده، وأثر ذلك في صلاح دنيا الناس واستعدادهم لما يأتيهم بعد مماتهم، فأقترح على أولي الهمم وروّاد البحث والعلم إنجاز ذلك لتكتمل هذه الدراسة في معرفة منهج القرآن في تقرير الإيمان بالله واليوم الآخر.

وحتى يتمكن الباحثون في جامعة صنعاء ـ كلية الآداب ـ قسم الدراسات الإسلامية ـ من إنجاز بحوثهم على أحسن وجه وأكمله والاستفادة من المراجع العلمية والإفادة منها دون معوِّقات وصعوبات فإني أكرِّر توصيتي للقائمين على إدارة الدراسات العليا والمعنيين بوضع المنهج الدراسي للسنة الأولى للتمهيدي للماجستير باعتماد مقرر دراسي يُعرِّف الطالب بأمهات كتب الحديث ومصادره ومراجعه وفهارسه، ومناهج مؤلفيها في تأليفها، وكيفية استخراج الحديث وتحقيقه والحكم عليه، وعلى أن يُدرَّب الطلاب على ذلك عمليّاً لأهمية هذا الأمر لكل باحث، وكما هو معمول به في بعض الجامعات الأخرى.

كما أكرّر توصيتي أيضاً باعتماد مادة دراسية تعرِّف الباحث بكتب التراجم والأعلام والبلدان ومناهج مؤلفيها في صياغتها ـ وخاصة ما يتعلق بالوفيات والطبقات ـ وكيفية استخراج التراجم منها.

وأوصي القائمين على إدراة الجامعة بتوسعة المكتبة العلمية الخاصة بقسم الدراسات الإسلامية في كلية الآداب وتزويدها بالمراجع الناقصة مع السعي لتحقيق استقلالها، وتحديثها بأحدث الوسائل العصرية التي تخدم الباحث من حاسوب وأقراص علمية مبرمجة وشبكة المعلومات العالمية (الإنترنت)، وميكروفيلمات، ومخطوطات وغير ذلك.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه وتابعيهم إلى يوم الدين.

**الباحث**


الفهارس

# فهارس الخرائط والجداول والأشكال التوضيحية

## أولاً: فهرس الخرائط والجداول:

## ثانياً: فهرس الصور والأشكال:

# فهرس المصادر والمراجع

## أولاً: القرآن الكريم:

## ثانياً: الكتاب المقدس (التوراة)

## ثالثاً : الكتب:

### (أ)


١- أئمة العلم المجتهدون في اليمن، تأليف القاضي إسماعيل بن علي الأكوع، دار البشير، ط١، عمان ـ الأردن، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان .

٢- الإتقان في علوم القرآن، للعلامة جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر الأسيوطي (٨٤٩-٩١١)هـ تقديم وتعليق د/ مصطفى ديب البُغا، دار ابن كثير، ط٢ ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، دمشق ـ سوريا.

٣- آثار حجج التوحيد في مؤاخذة العبيد، مدحت حسن الفرَّاج، تقديم الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين، دار الكتاب والسنة (باكستان)، مكتبة دار الحميضي، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، الرياض ـ السعودية .

٤- الإحكام في أصول الأحكام، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (٣٨٣-٤٥٦)هـ مراجعة وتحقيق لجنة بإشراف الناشر، دار الحديث، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، القاهرة ـ مصر .

٥- إحياء علوم الدين، تصنيف الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥)هـ وبذيله كتاب المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، بيروت ـ لبنان .

٦- الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، لسعود بن عبد العزيز بن محمد العريفي، دار عالم الفوائد، ط١، ١٤١٩هـ، مكة المكرمة ، السعودية.

٧- الأدلة المادية على وجود الله، للشيخ محمد متولي الشعراوي، مكتبة التراث الإسلامي، ط(بدون) د.ت، القاهرة ـ مصر.

٨- الأدلة المختلف فيها عند الأصوليين، للدكتور خليفة بابكر الحسن، الناشر: مكتبة وهبة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، دار التوفيق النموذجية، الأزهر ـ القاهرة.

٩- الأدلة والقواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، للشيخ عبدالرحمن بن سعدي (١٣٠٧-١٣٧٦هـ) دار المعارف، ط(بدون)، ١٤٠٢هـ، الرياض ـ السعودية.

١٠- الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، للدكتور صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان، دار الذخائر، ط(بدون)، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، الدمام ـ السعودية.

١١- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، لأبي المعالي عبدالملك بن عبدالله الجويني (٤١٩-٤٧٨)هـ، مكتبة الخانجي، ط(بدون)، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م، القاهرة.

١٢- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، المعروف بمعجم الأدباء، لياقوت الحموي، طبعة مرجليوث، ط(بدون)، ١٩٠٧-١٩٢٥م، مصر.

١٣- إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، للشوكاني، محمد بن علي بن محمد (١١٧٣-١٢٥٠)هـ تحقيق أبي مصعب محمد سعيد البدري، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٧، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، بيروت ـ لبنان.

١٤- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني (ت١٤٢١)هـ إشراف محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، بيروت ـ لبنان.

١٥- أسئلة وأجوبة في العلوم (علوم الأرض) (ما هي مسببات الزلازل)، تأليف: أنيتاجانيري، إعداد لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان، ط١، ١٤٢١م/ ٢٠٠٠م، الرياض ـ السعودية.

١٦- أساس البلاغة، تأليف جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٥٤٥-٦٠٦)هـ مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٥م – مصر.

١٧- أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة، للدكتور حَمَدْ بن ناصر العمّار، مركز الدراسات والإعلام، دار أشبيليا، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، الرياض ـ السعودية.

١٨- أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت٤٦٨)هـ، دار ومكتبة الهلال، ط(بدون)، ١٩٩١، بيروت ـ لبنان .

١٩- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لأبي الحسن عز الدين علي بن محمد الجزري، المعروف بابن الأثير (ت٦٣٠)هـ، تصحيح الشيخ عادل الرفاعي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، بيروت ـ لبنان .

٢٠- أسرار خلق الإنسان (العجائب في الصلب والترائب)، للدكتور داود سليمان السعدي، دار الحرف العربي، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م ، بيروت ـ لبنان.

٢١- الإسلام يتحدى، تأليف: وحيد الدين خان، تعريب: ظفر الإسلام خان، مراجعة وتحقيق د/ عبدالصبور شاهين، دار البحوث العلمية ، ط٩، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة ، بيروت ـ لبنان .

٢٢- الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية)، لأحمد الشايب، مطبعة السعادة، ط٧، ١٣٩٦م/ ١٩٧٦م، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ـ مصر .

٢٣- أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة، تأليف الشيخ الدكتور عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، ط٣، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، عمّان ـ الأردن.

٢٤- الإصابة في تمييز الصحابة، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢)هـ دار الكتب العلمية، ط (بدون)، د.ت ، بيروت ـ لبنان .

٢٥- أصول التربية الإسلامية، عبدالرحمن النحلاوي، دار الفكر المعاصر، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، بيروت ـ لبنان .

٢٦- أصول الفقه، لشمس الدين محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي (٧١٢-٧٦٣)هـ حققه وعلّق عليه وقدم له الدكتور فهد بن محمد السدحان، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م ، الرياض ـ السعودية.

٢٧- أصول علم النفس، د/ أحمد عزت راجح، دار القلم، ط (بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان .

٢٨- أضواء البيان وإيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (١٣٢٥-١٣٩٣هـ)، عالم الكتب، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

٢٩- أطلس الحديث النبوي من الكتب الصحاح الستة (أماكن ـ أقوام)، للدكتور شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، بيروت ـ لبنان.

٣٠- أطلس القرآن الكريم (أماكن ـ أقوام ـ أعلام)، للدكتور شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، إعادة، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، بيروت ـ لبنان.

٣١- الإعجاز الإلهي في مراحل خلق الجنين، للدكتور كمال محمد درويش، دار الصحوة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، القاهرة.

٣٢- إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمّار، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، عمّان ـ الأردن.

٣٣- إعجاز القرآن الكريم، أ.د./ فضل حسن عباس، وسناء فضل عباس، دار الفرقان، ط٤، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، عمان ـ الأردن.

٣٤- إعجاز النبات في القرآن الكريم، للدكتور نظمي خليل أبو العطا، مكتبة النور، ط(بدون)، د.ت، القاهرة ـ مصر.

٣٥- الأعلام (قاموس تراجم الأعلام لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط٦، ١٩٨٤م، بيروت ـ لبنان.

٣٦- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لمحمد بن أبي بكر، الشهير بابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١)هـ تحقيق وضبط: عبدالرحمن الوكيل، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

٣٧- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لأبي عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، المشهور بابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١)هـ تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد، ط(بدون)، د.ت، الرياض، السعودية.

٣٨- الأغاني، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (٢٨٤-٣٥٦)هـ شرح عبد علي مهنا وسمير جابر، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، بيروت ـ لبنان.

٣٩- إلجام العوام عن علم الكلام، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥)هـ، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، بيروت - لبنان.

٤٠- الإمام ابن تيمية وقضية التأويل، د/ محمد السيد الجليند، شركة مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، الرياض - السعودية.

٤١- الأمثال القرآنية، تأملات عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، دمشق - سوريا.

٤٢- الأمثال في القرآن الكريم، للدكتور محمد جابر الفياض، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، الرياض - السعودية.

٤٣- الأمم البائدة، هارون يحيى، ترجمة ميسون نحلاوي، مراجعة أورخان محمد علي، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط١، ١٤٢٥م/ ٢٠٠٤م، بيروت - لبنان.

٤٤- إنباه الرواة على أنباه النحاة، لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي (٥٦٨-٦٢٤)هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، بيروت - لبنان.

٤٥- إنه الحق، للشيخ عبدالمجيد بن عزيز الزنداني، رابطة العالم الإسلامي، هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ط٣، ١٤٢٠هـ مكة المكرمة - السعودية.

٤٦- آيات الله في النحل.. والبغال، لمحمد عثمان، دار الراشدين، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، دمشق - بيروت.

٤٧- الإيمان (أركانه وثمراته) في ضوء الكتاب والسنة، د/ محمد عبدالقادر هنادي، دار المجتمع، ط(بدون)، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، جدة - السعودية.

٤٨- الإيمان والحياة، للشيخ الدكتور/ يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط١٨، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، بيروت - لبنان.

٤٩- الإيمان، لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (٦٦١-٧٢٨)هـ، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط(بدون)، ١٤١٣هـ بيروت - لبنان.

٥٠- اشتقاق أسماء الله، لأبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي، المتوفى سنة ٣٤٠هـ تحقيق الدكتور عبدالحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، بيروت ـ لبنان .

٥١- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، لأحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤-٤٥٨)هـ دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، بيروت ـ لبنان.

٥٢- اعتقادات فرق المسلمين، لمحمد بن عمر الرازي (٥٤٤-٦٠٦)هـ، دار الكتب العلمية، ط(بدون)، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، بيروت ـ لبنان .

٥٣- انتصار الحق، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر آل سعدي (١٣٠٧- ١٣٧٦هـ)، دار الثقافة، ط١ ، ١٣٩٨ ، القاهرة ـ مصر .

٥٤- الله أهل الثناء والمجد، د/ ناصر بن مسفر الزهراني، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، الرياض ـ السعودية.

٥٥- الله أو الدمار، لسعد جمعة ، دار الكتاب العربي ، ط(بدون)، د.ت، الأردن.

٥٦- الله جل جلاله، لعباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، ط(بدون)، د.ت، صيدا، بيروت.

٥٧- الله جل جلاله، للشيخ سعيد حوى، دار عمار ، ط(بدون)، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، بيروت ـ لبنان .

٥٨- الله خالق الكون، بقلم الأستاذ جعفر الهادي، تحت إشراف العلامة المحقق الشيخ جعفر السبحاني، دار الأضواء، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، بيروت ـ لبنان.

٥٩- الله والعلم الحديث، لعبدالرزاق نوفل، دار الشروق، ط(بدون)، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م ، القاهرة، مصر .

٦٠- الله يتجلى في عصر العلم، تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين، أشرف على تحريره جون كلوفر مونسيما، ترجمة الدكتور الدمرداش عبدالمجيد سرحان، راجعه وعلق عليه الدكتور محمد جمال الدين الفندي، درا القلم للطباعة والنشر، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان .

## ( ب )

٦١- البحر المحيط في التفسير، لمحمد بن يوسف، الشهير بابي حيان الأندلسي الغرناطي (٦٥٤-٧٥٤)هـ دار الفكر، ط(بدون)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، بيروت، لبنان .

٦٢- بحوث في الثقافة الإسلامية، أ.د/ حسن عيسى عبدالظاهر، وآخرون، دار الحكمة، ط١، ١٤١٤هـ الدوحة ـ قطر.

٦٣- بحوث في عقيدة أهل السنة والجماعة، للدكتور ناصر عبدالكريم العقل، دار العاصمة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، الرياض السعودية.

٦٤- بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية، جمعه ووثق نصوصه وخرج أحاديثه يسرى السيد محمد، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، الدمام ـ السعودية.

٦٥- بدائع الفوائد، لشمس الدين محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ)، الناشر: مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ـ مكتبة العلم، بجدة ط(بدون)، د.ت، مصر ـ السعودية.

٦٦- البداية والنهاية، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٠٠-٧٧٤)هـ تدقيق وتحقيق د/ أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الريان، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، القاهرة ـ مصر .

٦٧- البدر الطالع بمحاسن مَنْ بعد القرن السابع، للعلامة محمد بن علي الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠)هـ مكتبة ابن تيمية، ط(بدون)، د.ت، القاهرة ـ مصر.

٦٨- البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية، للدكتور عبدالمجيد العرجاوي، دار وحي القلم، ط١، ٢٠٠٣م، دمشق ـ سوريا .

٦٩- براهين وأدلة إيمانية، تأليف عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، دمشق ـ سوريا .

٧٠- البرهان القاطع في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع، لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن الوزير (٧٧٥-٨٤٠)هـ تحقيق مصطفى عبدالكريم الخطيب، دار المأمون للتراث، ط١، ١٤٠٩هـ البلد (بدون).

٧١- البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي (٧٤٥-٧٩٤)هـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، القاهرة ـ مصر .

٧٢- بُغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي (٨٤٩-٩١١)هـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ط(بدون)، د.ت، صيدا – لبنان .

٧٣- البلاغة (فنونها وأفنانها)، للدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، عمّان ـ الأردن .

٧٤- البلاغة العربية (أسسها وعلومها وفنونها)، تأليف وتأمل عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، دمشق ـ سوريا.

٧٥- البلاغة الواضحة (البيان ـ المعاني ـ البديع)، تأليف: علي الجارم، ومصطفى أمين، الناشر: دار المعارف، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

٧٦- بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، لمحمد بن محمد بن إبراهيم البستي الخطابي (٣١٩-٣٨٨)هـ تحقيق: محمد خلف الله، ود/ محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط٤، د.ت، القاهرة ـ مصر.

٧٧- البيان القصصي في القرآن الكريم، للدكتور إبراهيم عوضي، دار الأصالة، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، الرياض ـ السعودية .

٧٨- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (٦٦١-٧٢٨)هـ تحقيق محمد بن عبدالرحمن بن قاسم، مطبعة (بدون)، ط(بدون)، د.ت، البلد (بدون).

٧٩- البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ (١٥٠-٢٥٥)هـ تحقيق عبدالسلام هارون، دار الفكر، ط٤، د.ت، بيروت ـ لبنان.

٨٠- بينات الرسول ه ومعجزاته، للشيخ عبدالمجيد بن عزيز الزنداني، بمساعدة مجموعة من طلاب العلم، مركز البحوث بجامعة الإيمان، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، صنعاء ـ اليمن.

٨١- البينة العلمية في القرآن الكريم، للشيخ عبدالمجيد بن عزيز الزنداني، الطبعة (بدون)، د.ت، البلد (بدون).

( ت )

٨٢- تهذيب مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١)هـ راجع النسخة لجنة من العلماء، دار الحديث، ط(بدون) د.ت ، القاهرة ـ مصر .

٨٣- التعبير الفني في القرآن ، للدكتور بكري شيخ أمين، دار الشروق، ط٤، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، بيروت ـ لبنان .

٨٤- التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (١٢٩٦-١٣٩٣)هـ مؤسسة التاريخ، ط١ ، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، بيروت ـ لبنان .

٨٥- تذكرة الحفاظ، لأبي عبدالله شمس الدين محمد الذهبي (ت٧٤٨هـ)، دار الكتب العلمية، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان .

٨٦- تهذيب التهذيب، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢)هـ مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند، ط(بدون)، د.ت، ١٣٢٥هـ دار صادر، بيروت ـ لبنان .

٨٧- التوحيد وواقعنا المعاصر، للدكتور عدنان علي رضا النحوي، دار النحوي، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، الرياض ـ السعودية .

٨٨- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، للخطيب البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي (٣٩٢-٤٦٣)هـ دار الكتب العلمية، الطبعة (بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

٨٩- تناقض أهل الأهواء والبدع في العقيدة، للدكتورة عفاف بنت حسن بن محمد مختار، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، الرياض ـ السعودية.

٩٠- تقريب التهذيب، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢)هـ دراسة وتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان .

٩١- التفسير العلمي المعاصر وأثره في كشف الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، للأستاذ الدكتور سليمان بن صالح القرعاوي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، الرياض - السعودية.

٩٢- التعريفات، للجرجاني، الشريف علي بن محمد (٧٤٠-٨١٦)هـ دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٩٤م، بيروت - لبنان.

٩٣- تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، الإمام محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الحنفي (١١٤٥-١٢٠٥)هـ، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر، ط(بدون)، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، بيروت - لبنان.

٩٤- التمهيد في الكلام على التوحيد، للعلامة جمال الدين يوسف بن حسن بن عبدالهادي الدمشقي الحنبلي (ت٩٠٩)هـ، دراسة وتحقيق وتعليق د/ محمد بن عبدالله السمهري، دار بلنسية، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، الرياض - السعودية.

٩٥- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، للشيخ سليمان بن عبدالله آل الشيخ (١٢٠٠-١٢٣٣)هـ، المكتب الإسلامي، ط(بدون)، ١٤٠٩هـ، بيروت - لبنان.

٩٦- ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، جمع عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس، دار الهجرة، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، الرياض - السعودية.

٩٧- تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، لفوز بنت عبداللطيف بن كامل الكردي، دار طيبة، ط١، ١٤٢١هـ، الرياض - السعودية.

٩٨- التفسير والمفسِّرون، للدكتور محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، ط٢، ١٣٩٦هـ، القاهرة - مصر.

٩٩- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي (٥٤٤-٦٠٤)هـ، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، بيروت - لبنان.

١٠٠- تحفة الإخوان بأجوبة مهمة تتعلق بأركان الإسلام، للشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، جمع: محمد الشايع، دار الفائزين، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، الرياض - السعودية.

١٠١- تاريخ الخلفاء، لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩-٩١١)هـ تحقيق الشيخين: قاسم الشماعي ومحمد العثماني، دار القلم، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٨٦م، بيروت ـ لبنان .

١٠٢- التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، ط١٥، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، القاهرة ـ مصر .

١٠٣- تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، للإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني، المعروف بابن الأمير ( ) ، تحقيق وشرح موفق فوزي الجبر، دار الحكمة، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، دمشق ـ سوريا .

١٠٤- تفسير القرآن العظيم، للحافظ عبدالرحمن بن محمد الرازي ابن أبي حاتم (٢٤٠-٣٢٧)هـ تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، صيدا ـ بيروت .

١٠٥- توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم الموسومة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، تأليف أحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، بيروت ـ لبنان .

١٠٦- تربية الأولاد في الإسلام، لعبدالله ناصح علوان، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، بيروت ـ لبنان .

١٠٧- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (٢٨٢-٣٧٠) هـ تحقيق عبدالسلام هارون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ط١، د.ت، مصر.

١٠٨- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للعلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، دار المغني للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، الرياض ـ السعودية .

١٠٩- التبيان في أقسام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١)هـ ، تفسير القاسمي المسمَّى محاسن التأويل، للشيخ محمد جمال الدين القاسمي (١٢٨٣-١٣٣٢م)هـ، دار الفكر، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، بيروت ـ لبنان.

١١٠- التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء، بإشراف د/ عبدالله عبدالمحسن التركي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط(بدون)، ١٤١٩هـ المدينة المنورة ـ السعودية .

١١١- تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، للشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤)هـ، مكتبة القاهرة، ط١، د.ت، القاهرة ـ مصر .

١١٢- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، لأبي البركات عبدالله بن أحمد ابن محمود النسفي (ت٧١٠)هـ، حققه وخرج أحاديثه يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له محي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، بيروت ـ لبنان .

١١٣- تفسير المراغي، للشيخ أحمد مصطفى المراغي (ت١٣٧١)هـ، دار إحياء التراث العربي، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان .

١١٤- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ.د/ وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، بيروت ـ لبنان .

١١٥- التوحيد والشكر في سورة النحل تأليف عبدالحميد محمود طهماز، دار القلم، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، بيروت ـ لبنان .

١١٦- التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ترجمة الشيخ حسن خالد (مفتي لبنان) المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ ١٩٩٠م، بيروت ـ لبنان.

١١٧- تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (٤٣٣-٥١٠)هـ حققه وخرّج أحاديثه: محمد عبدالله النمر وآخرون، دار طيبة ، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، الرياض ـ السعودية.

١١٨- التفسير الإسلامي للتاريخ، د/ عماد الدين خليل، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨٣م، بيروت ـ لبنان .

١١٩- الترهيب في الدعوة في القرآن والسنة، رقية بنت نصر الله نياز، دار أشبيليا، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، الرياض ـ السعودية .

١٢٠- تحفة الودود بأحكام المولود، لمحمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١)هـ، المكتبة العلمية، ط (بدون)، د.ت، المدينة المنورة ـ السعودية.

١٢١- ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، لمحمد بن المرتضى اليماني، الشهير بابن الوزير (٧٧٥-٨٤٠)هـ دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، بيروت ـ لبنان .

١٢٢- تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، للشيخ عبدالمجيد الزنداني، وآخرين، جامعة الإيمان، ط(بدون)، د.ت ، صنعاء ـ اليمن.

١٢٣- تهذيب الأسماء واللغات، لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦)هـ إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان .

١٢٤- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، للحافظ زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري (ت٦٥٦)هـ ضبط أحاديثه مصطفى محمد عمارة ، دار الريان للتراث، دار الحديث، ط(بدون)، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، القاهرة ـ مصر.

١٢٥- التصميم في الطبيعة، لهارون يحيى، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، بيروت ـ لبنان .

١٢٦- تفسير البيضاوي، تأليف ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت٧٩١)هـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، بيروت ـ لبنان .

١٢٧- تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (٨٩٨-٩٥٢)هـ مكتبة ومطبعة محمد علي صُبيح، ط(بدون)، د.ت، مصر .

١٢٨- التربية الربانية القرآنية للنبي صلى الله عليه وسلم، (رسالة ماجستير) للباحث رشيد منصور الصباحي، جامعة صنعاء ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، صنعاء ـ اليمن .

( ج )

١٢٩- الجواهر المضيّة في طبقات الحنفيّة، لمحيي الدين أبي محمد عبدالقادر بن محمد القرشي الحنفي (٦٩٦-٧٧٥)هـ تحقيق د/ عبدالفتاح محمد الحلو، مؤسسة الرسالة، مطبعة هجر، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان.

١٣٠- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١)هـ، مطبعة (بدون)، ط٣، ١٩٥٢م، البلد (بدون).

١٣١- الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٠٩-٢٩٧)هـ، بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، بيروت ـ لبنان .

( ح )

١٣٢- حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين، للعلامة الشيخ أحمد الصاوي المالكي، مذيّلاً بلباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، أشرف على تصحيحه صدقي محمد جميل، دار الفكر، طبعة (بدون)، ١٩٩٣م/ ١٤١٤هـ، بيروت ـ لبنان .

١٣٣- الحجة في بيان المحجبة وشرح عقيدة أهل السنة، إملاء الحافظ قوّام السنة أبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصفهاني، المتوفى سنة ٥٣هـ، تحقيق ودراسة محمد بن ربيع بن هادي المدخلي، دار الراية، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، الرياض ـ السعودية.

١٣٤- حسن الظن بالله، لأبي بكر عبدالله بن محمد، المعروف بابن أبي الدنيا (٢٠٨-٢٨١)هـ، حققه وعلّق عليه وخرّج أحاديث، مخلص محمد، دار طيبة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، الرياض ـ السعودية .

١٣٥- الحق الواضح المبين، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله آل سعدي (١٣٠٧-١٣٧٦)هـ، المطبعة السلفية، ط(بدون)، د.ت، القاهرة ـ مصر .

١٣٦- حقائق علمية في القرآن عن الحيوان، لإبراهيم محمود، المكتب الجامعي الحديث، ط(بدون)، د.ت، الإسكندرية ـ مصر .

١٣٧- الحقيقة العظمى (إبرازها وتعريف أهل الكتاب بها)، للشيخة أسماء عبدالمجيد الزنداني، (رسالة ماجستير) إشراف: أ.د./ عبدالكريم زيدان ، مطبعة (بدون) ، د.ت، صنعاء ـ اليمن .

١٣٨- حِلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني (ت٤٣٠)هـ، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٩٨م، بيروت ـ لبنان.

١٣٩- حوارات الأنبياء مع أقوامهم، للشيخ الدكتور عبده عبدالله الحميدي، مكتبة الإرشاد، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، صنعاء ـ اليمن.

١٤٠- حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، محمد قطب، دار الشروق، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، القاهرة ـ مصر.

١٤١- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، لسيد قطب (١٩٠٦-١٩٦٦)م، دار الشروق، ط١٥ ، القاهرة ـ مصر.

١٤٢- خصائص التعبير القرآني وسماته، البلاغية، للدكتور عبدالعظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، القاهرة ـ مصر .

١٤٣- خلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور محمد علي البار، الدار السعودية، ط٥، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، جدة السعودية.

( د )

١٤٤- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢)هـ، دار الجيل، ط (بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

١٤٥- الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، د/ عبد الكريم نوفان عبيدات، دار النفائس، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م ، عمان ـ الأردن.

١٤٦- دعوة التوحيد (أصولها – الأدوار التي مرَّت بها ـ مشاهير دعاتها)، للدكتور محمد خليل هرّاس، مكتبة إحياء التراث الإسلامي، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، بيروت ـ لبنان.

١٤٧- درء تعارض العقل والنقل، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٦٦١ – ٧٢٨)هـ، تحقيق د/ محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط١، د.ت، الرياض ـ السعودية.

١٤٨- دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي، دار المعرفة، ط٣، ١٩٧١م ، بيروت ـ لبنان.

١٤٩- دراسات قرآنية، لمحمد قطب، دار الشروق، ط٥، ١٤١٨هـ/ ١٩٨٨م، بيروت ـ لبنان .

١٥٠- دلائل التوحيد، للشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي (١٢٨٣ - ١٣٣٢)هـ تقديم ومراجعة: محمد حجازي، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، مطبعة المدني، ط١، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، القاهرة - مصر.

١٥١- الدين الخالص، للسيد محمد صديق حسن القنوجي البخاري (من علماء الهند) دار التراث، ط٢، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م، القاهرة ـ مصر.

١٥٢- ديوان أبي العتاهية، لأبي إسحاق إسماعيل بن قاسم العنزي، دار مصعب، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

١٥٣- دراسات في النفس الإنسانية، لمحمد قطب، دار الشروق، ط٦، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، بيروت ـ لبنان.

١٥٤- دراسات في العقيدة الإسلامية، للدكتور محمد عبد الله الشرقاوي، مكتبة الزهراء، ط(بدون)، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، القاهرة ـ مصر.

١٥٥- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للإمام عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١)هـ دار الفكر، ط (بدون) ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان.

(ر)

١٥٦- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، للعلامة محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١)هـ دار الكتب العلمية، ط (بدون)، ١٤١٢هـ، بيروت ـ لبنان.

١٥٧- الروح، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، الشهير بابن قيم الجوزية (٦٩١ـ ٧٥١)هـ

١٥٨- دار المنار، ط (بدون)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، مكتبة فياض، المنصورة ـ مصر.

١٥٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي (١٢١٧ـ ١٢٧٠)هـ ضبطه وصححه، على عبد الباري عطية، دار الكتب العليمة، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، بيروت ـ لبنان.

١٦٠- روح الدين الإسلامي، لعفيف عبد الفتاح طبّارة ، دار العلم للملايين، ط ٢٣، ١٩٧٢م، بيروت ـ لبنان.

١٦١- الرد على المنطقيين ، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨) هـ ، مصدر بمقدمة العلامة السيد سليمان الندوي، نشرة عبد الصمد شرف الدين الكتبي، المطبعة القيمة، ط (بدون)، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م، بومباي ـ الهند.

١٦٢- رحلة الإيمان في جسم الإنسان، للدكتور حامد أحمد حامد، دار القلم، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، دمشق.

(ز)

١٦٣- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزي القرشي ، البغدادي (٥٠٨ ـ ٥٩٧)هـ، تقديم زهير الشاويش، المكتبة الإسلامية، ط٤، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، بيروت ـ لبنان.

(س)

١٦٤- سنن إبن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧ ـ ٢٧٥)هـ، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الريان للتراث، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ط(بدون)، د. ت، بيروت ـ لبنان.

١٦٥- سمط اللآلي في شرح أمالي القاري، لأبي عبيد البكري، نَسقه وأكثر من التعليق عليه عبد العزيز الميمني (الراجكوتي)، مطبعة (بدون)، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٦، مصر.

١٦٦- سير أعلام النبلاء، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨) هـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٩، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان.

١٦٧- السنن الكبرى ، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ـ ٤٥٨)هـ، وفي ذيله الجوهر النقي، للعلامة علاء الدين بن علي بن عثمان المادرين الشهير (بابن التركماني) المتوفي ٧٤٥هـ، إعداد الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، ط (بدون)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، بيروت ـ لبنان.

١٦٨- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢١)هـ، المكتبة الإسلامية، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، بيروت ـ لبنان.

١٦٩- سنن أبي داوود، للحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢ـ ٢٧٥)هـ، إعداد وتعليق عزّت عبيد الدعّاس، وعادل السيد، دار الحديث، ط١، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م، بيروت ـ لبنان.

١٧٠- السيرة النبوية ، لا بن هشام، أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت ٢١٣ أو ٢١٨)هـ ، تقديم وتعليق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، ط(بدون)، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، القاهرة ـ مصر.

١٧١- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، أ.د/ عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، بيروت ، لبنان.

١٧٢- سلسلة المعجزات، لهارون يحي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، بيروت ـ لبنان.

## (ش)

١٧٣- شأن الدعاء، لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي الحافظ (٣١٩- ٣٨٨)هـ، تحقيق أحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، بيروت ـ لبنان.

١٧٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، للمؤرخ الفقيه الأديب أبي عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩)هـ، دار الكتب العلمية، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

١٧٥- شرح العقيدة الأصفهانيه، تقديم حسنين مخلوف ، دار الكتب الإسلامية، ط١، د.ت

١٧٦- شرح العقيدة الطحاوية، للعلامة القاضي علي بن علي بن أبي العز الحنفي (٧٣١ – ٧٩٢)هـ، حققها وراجعها جماعة من العلماء، خرج أحاديثها الألباني، المكتب الإسلامي، ط٩، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، بيروت ـ لبنان.

١٧٧- شرح جوهرة التوحيد، للإمام العلامة الشيخ إبراهيم الباجوري (ت ١٢٧٧هـ)نسَّقه وخرج أحاديثه محمد أديب الكيلاني، وعبد الكريم تتان، راجعه وقدم له: عبدالكريم الرفاعي، مطبعة (بدون)، ط(بدون)، د.ت البلد (بدون).

١٧٨- شرح كتاب الفقه الأكبر للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، شرحه الإمام الملا على القاري الحنفي ، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤/، بيروت ـ لبنان.

١٧٩- شرح معاني الآثار، للإمام أبي جعفر محمد بن أحمد بن سلامة الطحاوي الحنفي (٢٢٩ـ٣٢١)هـ، دار الكتب العلمية، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، بيروت ـ لبنان.

١٨٠- الشرك في القديم والحديث، لأبي بكر محمد زكريا، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، الرياض ـ السعودية.

١٨١- شعب الإيمان، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ـ ٤٥٨)هـ، تحقيق أبي هاجر محمد السيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، بيروت، لبنان.

١٨٢- الشعر والشعراء، لأبي محمد عبد الله ين مسلم ابن قتيبة (٢١٣ـ ٢٧٦)هـ، شرح أحمد محمد شاكر، مطبعة (بدون)، ١٣٦٤هـ مصر.

١٨٣- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر، الشهير بابن قيم الجوزية (٦٩١ -٧٥١)هـ ، دار الكتب العلمية، ط، ١٤٠٧هـ بيروت ـ لبنان.

١٨٤- الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، لأبي الفضل القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (٤٧٦ ـ ٥٤٤)هـ ، قدّم له وخرّج أحاديثه كمال بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٣، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م بيروت ـ لبنان.

١٨٥- الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة، بقلم عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد، مكتبة الرشد، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠، الرياض ـ السعودية. القاهرة.

## (ص)

١٨٦- صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ ـ ٢٥٦)هـ ، ضبط وشرح د/ مصطفى البُغا، دار القلم، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، دمشق ـ سوريا.

١٨٧- صحيح مسلم بمختصر شرح النووي،لأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٠٦-٢٦١)هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، ط (بدون)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، بيروت - لبنان.

١٨٨- صحيح سنن أبي داود، لمحمد ناصر الدين الألباني (ت١٤٢١ ) هـ، مكتب التربية العربية لدول الخليج، الرياض، المكتب الإسلامي ، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، بيروت - لبنان.

١٨٩- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، للعلامة محمد بن أبي بكر، الشهير بابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١)هـ، تحقيق د/ على بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، ط٣، ١٤١٢هـ، الرياض- السعودية.

١٩٠- صفة الصفوة، لأبي الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزي (٥١٠ -٥٩٧)هـ تحقيق محمود فاخوري، تخريج د/ محمد روَّاس قلعجي، دار المعرفة، ط٣، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، بيروت - لبنان.

١٩١- الصحيح المسند من أسباب النزول، للشيخ مقبل بن هادي الوادعي (ت ١٤٢٢ )هـ، مكتبة دار الحرمين، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، صنعاء - اليمن.

١٩٢- صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، الطبعة الجديدة والمزيدة والمنقحة، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، أشرف على طبعه زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، بيروت - لبنان.

١٩٣- صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩ - ٩١١)هـ، تحقيق د/ على شامي النشار، مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٤٧م، البلد (بدون).

١٩٤- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، لأبي نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري الفارابي

## (ض)

١٩٥- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٨٣١ - ٩٠٢)هـ، دار الجيل، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، بيروت - لبنان.

## (ط)

١٩٦- طبقات المفسرين، للحافظ شمس الدين محمد بن على بن أحمد الداووي (ت ٩٤٥)هـ،تحقيق: على محمد عمر، دار الكتب، ط١، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، مكتبة وهبة، عابدين، القاهرة.

١٩٧- طبقات الشعراء ، لمحمد بن سلام الجمحي، مطبعة (بدون)، ١٩١٣م ، البلد (بدون).

١٩٨- الطبقات الكبرى لابن سعد، أبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي (١٦٨ ـ ٢٣٠)هـ، دار بيروت، ط (بدون)، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨، بيروت ـ لبنان.

١٩٩- طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن على السبكي (٧٢٨ ـ٧٧١)هـ، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح حلو، مطبعة عيسى الحلبي، مكتبة ابن تيمية، ط٣، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م، القاهرة ـ مصر.

٢٠٠- طبقات المفسرين، لأحمد بن محمد الأدنه وي (من علماء القرن الحادي عشر) تحقيق سليمان بن الخزي، مكتبة العلوم والحكم، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، المدينة المنورة ـ السعودية.

٢٠١- طرق الفكر (الاستنباط)، للدكتور محمد أبو حمدان، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، ط(بدون)، ١٩٧٨م، البلد (بدون).

٢٠٢- طريق الإيمان، للشيخ عبد المجيد عزيز الزنداني، داروحي القلم، ط١، ٢٠٠٣م، دمشق – سوريا.

٢٠٣- الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي كنجو، مؤسسة الرسالة ، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، بيروت، لبنان.

٢٠٤- ظاهرة التفسير العلمي للقرآن الكريم، للدكتور خليل إبراهيم أبو ذياب، دار عمار، ط١، ١٤٢٠هـ) ١٩٩٩م، عمان ـ الأردن.

٢٠٥- الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن، للدكتور عبد العليم عبد الرخضير، الدار السعودية، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، جدة ـ السعودية.

## (ع)

٢٠٦- علم أصول الفقه، للشيخ عبد الوهاب خلاف، مطبعة (بدون)، ١٩٤٧م، البلد(بدون) .

٢٠٧- علماء ومفكرون عرفتهم، لمحمد المجذوب، دار الشواف، ط٤، ١٩٩٢م، الرياض ـ السعودية.

٢٠٨- علم الإعجاز القرآني بين الفن والتاريخ، للدكتور خليل رجب حمدان الكبيسي، مركز عبادي للدراسات والنشر، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، صنعاء ـ اليمن.

٢٠٩- العبر في خبر من غبر، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (٦٧٣ـ ٧٤٨)هـ، تحقيق وضبط أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥/ ، بيروت ـ لبنان.

٢١٠- العقيدة الإسلامية وأسسها، للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، ط٦، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، دمشق ـ سوريا.

٢١١- العلم يدعو للإيمان (الإنسان لا يقوم وحده)، كريسي موريسون، ترجمة محمود صالح الفلكي، دارالقلم، ط (بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

٢١٢- العقيدة في الله، للشيخ الدكتور عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، ط٦، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، الكويت .

٢١٣- علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع)، تأليف أحمد مصطفى المراغي (ت ١٣٧١)هـ، دار القلم، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

٢١٤- علم المعاني ـ البيان ـ المعاني، للدكتور عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

٢١٥- العواصم من القواسم في الذب عن سنة أبي القاسم، لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم، الشهير بابن الوزير، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٢هـ، بيروت – لبنان.

٢١٦- العقيدة السلفية بين الإمام ابن حنبل والإمام ابن تيمية، للدكتور سيد عبد العزيز السيلي، المكتبة التجارية، دار المنار، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣، القاهرة ـ مصر.

٢١٧- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لأبي العباس موفق الدين أحمد بن القاسم ابن أبي أصيبعة دار الثقافة، ط٤، ١٤٠٨ه، بيروت ـ لبنان.

٢١٨- علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، للشيخ عبد المجيد الزنداني، والبروفيسور كيث مور، وآخرين، مطبعة (بدون)، د.ت، البلد (بدون).

٢١٩- العقيدة الإسلامية (أركانها ـ حقائقها ـ مفسداتها)، للدكتور مصطفي سعيد الخن، ومحيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، دمشق سوريا.

٢٢٠- العقيدة في ضوء الكتاب والسنة، للدكتور أحمد السيد على رمضان، مكتبة الإيمان، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، المنصورة ـ مصر.

(غ)

٢٢١- غاية النهاية في طبقات القراء، لشمس الدين أبي الخير محمد بن محمد الجزري (ت ٨٣٣)هـ، عني بنشره : ج. برجستراسر، طبع لأول مرة بنفقة الناشر ومكتبة الخانجي بمصر، سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

٢٢٢- غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي(؟؟)

(ف)

٢٢٣- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشيخ محمد بن علي الشوكاني (١١٧٣ ـ ١٢٥٠)هـ ، حققه وخرج أحاديثه الدكتور عبد الرحمن عميرة، وضع فهارسه وشارك في تخريج أحاديثه لجنة التحقيق والبحث العلمي بدار الوفاء، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، المنصور ـ مصر.

٢٢٤- الفروق اللغوية، للإمام الأديب اللغوي أبي هلال العسكري، الحسن بن عبد الله ابن سهل، ضبطه وحققه حسام الدين القدسي، دار زاهد القدسي، ط(بدون)، د.ت، البلد (بدون).

۲۲٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (۷۷۳ – ۸٥۲)هـ ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ط(بدون)، د.ت، البلد (بدون).

۲۲٦- في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، ط(بدون)، ۱۳۹٤هـ/ ۱۹۷٤م، بيروت ـ لبنان.

۲۲۷- الفطرة (حقيقتها ومذاهب الناس فيها)، لعلي بن عبد الله القرني، دار المسلم للنشر والتوزيع، ط۱، ۱٤۲٤هـ/ ۲۰۰۳م، الرياض – السعودية.

۲۲۸- فاعلم أنه لا إله إلا الله، د/ صلاح الصاوي، دار الإعلام الدولي، ط۲، ۱٤۱٤هـ/ ۱۹۹٤م، القاهرة.

۲۲۹- الفتوى الحموية الكبرى، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٦٦۱ـ۷۲۸)هـ، المكتبة السلفية، ط٤، ۱٤۰۱هـ، القاهرة - مصر.

۲۳۰- فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، لنعيم الحمصي، قدم له الأستاذ العلامة محمد بهجة البيطار، مؤسسة الرسالة، ط۲، ۱٤۰۰هـ/ ۱۹۸۰م، بيروت ـ لبنان.

۲۳۱- الفيزياء ووجود الخالق (مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين)، أ.د/ جعفر شيخ إدريس، مجلة البيان، ط۱، ۱٤۲۲هـ/ ۲۰۰۱م، الرياض ـ السعودية.

۲۳۲- فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها، للدكتور أحمد بن سعد بن حمدان، دار طيبة، ط۱، ۱٤۱٥هـ/ ۱۹۹٤م الرياض ـ السعودية.

۲۳۳- فقه التوحيد من شرح الطحاوي وفتح القدير المجيد، للشيخ خالد عبد الرحمن العك، دار إحياء العلوم، ط۱، ۱٤۱٦هـ/ ۱۹۹٦م، بيروت ـ لنبان.

(ق)

۲۳٤- قطف الأزهار في كشف الأسرار، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال، أبي بكر بن محمد الأسيوطي (۸٤۹ ـ ۹۱۱)هـ، تحقيق ودارسة د/ أحمد بن محمد

الحمادي، إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، البلد (بدون).

٢٣٥- القول السديد في مقاصد التوحيد، للشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي (١٣٠٧ - ١٣٧٦)هـ، مؤسسة النور، ط٣، ١٣٩٠هـ، الرياض - السعودية.

٢٣٦- القول المفيد على كتاب التوحيد، شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين (ت ١٤٢٢)هـ، جَمَعَه وخرج أحاديثه د/ سليمان بن عبد الله أبو الخليل، ود/ خالد بن على المشيقح، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، الدمام - السعودية.

٢٣٧- القاموس المحيط، للفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (٧٢٩- ٨١٧)هـ، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، بيروت - لبنان.

٢٣٨- القرآن والنظر العقلي، لفاطمة إسماعيل محمد إسماعيل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية.

٢٣٩- القرآن وعلم النفس (نداء الفطرة الإيماني)، أ.د/ عبد العلي الجسماني، الدار العربية للعلوم، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، بيروت - لبنان.

٢٤٠- القرآن يتجلى في عصر العلم، للشيخ نزيه القمحاء، دار الهادي، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، بيروت - لبنان.

٢٤١- القواعد الحسان لتفسير القرآن، تأليف العلامة المحقق الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧- ١٣٧٦) هـ ، مكتبة المعارف، ط (بدون)،١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م، الرياض - السعودية.

٢٤٢- القياس في القرآن الكريم والسنة النبوية، لوليد بن على بن عبد الله الحسيني، مكتبة الرشد ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، الرياض - السعودية.

٢٤٣- القرآن وعلم النفس، للدكتور محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط٤، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، بيروت - لبنان.

٢٤٤- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، لعبد الكريم الخطيب، مطبعة السنة المحمدية، ط١، ١٣٨٤هـ/ . ١٩٦٤م، القاهرة - مصر.

٢٤٥- قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم، للشيخ نديم الجسر، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، بيروت ـ لبنان.
٢٤٦- قدرة الله في الكون، للدكتور زغلول النجار، مطبعة الراية، د.ت، البلد (بدون).

(ك)

٢٤٧- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥)هـ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ـ مصر.
٢٤٨- كتاب جمرة اللغة، لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري (ت ٣٢١هـ)، مكتبة الثقافة الدينية، ط (بدون)، د.ت ـ مصر.
٢٤٩- الكواشف الجلية عن معاني الواسطية، عبد العزيز السلمان، نسخة وزعت من قبل معهد إمام الدعوة، ط (بدون)، د.ت، الرياض ـ السعودية.
٢٥٠- الكافي (معجم عربي حديث) لمحمد الباشا، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، بيروت ـ لبنان.
٢٥١- كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ ـ١٧٥)هـ تحقيق د/ مهدي المخزومي، ود/ إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ط (بدون)، د.ت، البلد (بدون).
٢٥٢- الكليات (معجم في المصطلحات والفروق الفردية) لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت ١٠٩٤)هـ، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان.
٢٥٣- كتاب الذيل على طبقات الحنابلة، لأبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي (٧٣٦ ـ ٧٩٥)هـ، دار المعرفة، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.
٢٥٤- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨)هـ، وفي حاشيته كتاب الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد المالكي (ت ٦٨٣)هـ، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، بيروت ـ لبنان.

٢٥٥- كيف تتكون الزلازل والبراكين، تأليف: أندريوياماس، ترجمة الفيرانصور، أكاديمياً للنشر والطباعة، الفرع العلمي من دار الكتاب العربي، ١٩٩٧م، بيروت ـ لبنان.

٢٥٦- كتاب التوحيد، للشيخ عبد المجيد بن عزيز الزنداني، مكتبة جدة، ط٢، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، جدة ـ السعودية،

٢٥٧- كبرى اليقينيات الكونية (وجود الخالق ووظيفة المخلوق)، للشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، ط٩، ١٤١١هـ، دمشق ـ سوريا.

٢٥٨- كشف الخفاء ومزيل الإلتباس فيما أشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للمفسر المحدث الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني (ت ١١٦٢)هـ أشرف على طبعة أحمد القلاش، نشر وتوزيع مكتبة التراث الإسلامي، حلب، دار التراث، ط(بدون)، د.ت، القاهرة.

٢٥٩- كتاب دلائل التوحيد انطلاقاً من القرآن والكون، لعبد الله بن عبد القادر التليدي، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، بيروت ـ لبنان.

٢٦٠- الكون والإنسان بين العلم والقرآن، تأليف بسّام دِفضع ، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤، دمشق ـ سورية.

٢٦١- الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة وبيان ما وقع فيها بسبب التأويل من الشبه المزيفة والبدع المضلة...، ضمن فلسفة ابن رشد، لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد، دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٣٩٨هـ بيروت ـ لبنان.

٢٦٢- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين على المتقي الهندي (ت ٩٧٥)هـ، ضبطه وفسر غريبه الشيخ بكري حياني، مؤسسة الرسالة، ط(بدون)، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان.

٢٦٣- كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد، للحافظ أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن منده، (٣١٠ ـ ٣٩٥)هـ حققه وعلق عليه د/ على ابن محمد بن ناصر الفقيهيّ، مكتبة الغرباء الأثرية، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، المدينة المنورة ـ السعودية.

## (ل)

٢٦٤- لسان العرب ، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري (٦٣٠ – ٧١١)هـ، مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان.

٢٦٥- لوامع الأنوار السنية ولواقح الأفكار السنية قصيدة ابن أبي داؤد الحائية في عقيد ة أهل الآثار. السلفية، تأليف الإمام العلامة محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (ت١١٨٨)هـ دارسة وتحقيق د/ عبد الله بن محمد بن سليمان البصري، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، الرياض ـ السعودية.

٢٦٦- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، للسفاريني، محمد بن أحمد (١١١٤ـ ١١٨٨)هـ، مع تعليقات الشيخ سليمان بن سحمان، وعبدالله أبا بطين، المكتب الإسلامي، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

٢٦٧- لسان الميزان، لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢)هـ دار الفكر، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

## (م)

٢٦٨- المغني، لموفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (٥٤١ ـ ٦٢٠)هـ تحقيق د/ عبد الله عبد المحسن التركي، ود/ عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة هجر، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٩٠م، القاهرة ـ مصر.

٢٦٩- مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢ـ ٨٠٨)هـ تحقيق عبد الواحد وافي، مطبعة لجنة البيان العربي، ط٢، ١٩٦٦م، القاهرة ـ مصر.

٢٧٠- منهج التربية الإسلامية، لمحمد قطب، دار الشروق، ط٩، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، بيروت ـ لبنان.

٢٧١- معجزة القرآن، للشيخ محمد متولي الشعرواي، مكتبة دار التراث الإسلامي ، ط١، ١٩٨٨م، القاهرة ـ مصر.

٢٧٢- منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، لعثمان بن على حسن، مكتبة الرشد، ط٤، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧/ ، الرياض ـ السعودية.

٢٧٣- منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى، خالد بن عبد اللطيف بن محمد نور، مكتبة الغرباء الأثرية، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، المدينة النبوية ـ السعودية.

٢٧٤- مختصر تفسير ابن كثير، المسمى عمدة التفسير، اختصار وتحقيق أحمد محمد شاكر، وأنور الباز، دار الوفاء، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، المنصورة ـ القاهرة.

٢٧٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أبي محمد بن عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي(٤٨٠ ـ ٥٤٦)هـ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، بيروت ـ لبنان.

٢٧٦- موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعبادة المرسلين، لمصطفى صبري، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى الحلبي، ط(بدون)، ١٩٥٠م، البلد (بدون).

٢٧٧- معرفة الله (دلائل الحقائق القرآنية والكونية)، للمرابط بن محمد لخديم الشنقيطي، دار وحي القلم، ط١، ٢٠٠٢م، دمشق ـ سورية.

٢٧٨- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول (في التوحيد)، للشيخ حافظ أحمد الحكمي، (١٣٤٢ـ١٣٧٧)هـ، ضبط وتعليق عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، ط٣، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، البلد (بدون).

٢٧٩- المعجزة الكبرى، د/ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ط(بدون)، د.ت، القاهرة ـ مصر.

٢٨٠- مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان بن جمعة ضميرية، تقديم د/ عبد الله عبد الكريم العبادي، مكتبة السوداي، ط٢، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، جدة ـ السعودية.

٢٨١- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥)هـ، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

٢٨٢- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم حسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني (٥٠٢)هـ ، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة، ١٣١٨هـ/ ١٩٦١م ـ مصر.

٢٨٣- المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرين ، إصدار مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، دار الدعوة، ط(بدون)،١٩٨٩م، استانبول ـ تركيا

٢٨٤- مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (ت١٣٦٧)هـ، خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨، بيروت ـ لبنان.

٢٨٥- المرأة المسلمة المعاصرة، للدكتور أحمد بن محمد أبا بطين، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، الرياض ـ السعودية.

٢٨٦- المستدرك على الصحيحين بتلخيص الذهبي، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (٣٢١ـ٤٠٥)هـ دار المعرفة، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

٢٨٧- المعجم الوجيز، صادر عن مجمع اللغة العربية، تقديم: مصطفى حجازي، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، مصر.

٢٨٨- معجم اللغة العربية (أحدث موسوعة ملونة باللغة العربية بالتسلسل الأبجدي)، تأليف: أديب اللجمي وآخرين، عالم المعرفة،دار المحيط، ط١، ١٩٩٥م، بيروت ـ لبنان.

٢٨٩- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨)هـ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، وساعده ابنه محمد، دار عالم الكتب (بدون)،١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، الرياض ـ السعودية.

٢٩٠- منهج السلف في العقيدة، للدكتور حمدي عبد العال، دار القلم، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤، الكويت.

٢٩١- المعرفة في الإسلام (مصادرها ومجالاتها) لعبد الله بن محمد القرني، دار عالم الفوائد، ط١، ١٤١٩هـ، مكة المكرمة ـ السعودية.

٢٩٢- موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف، لأبي هاجر محمد السيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

٢٩٣- المعجم المفهرس لمعاني القرآن الكريم، لمحمد بن رشدي الزيني، إشراف محمد عدنان سالم، دار الفكر المعاصر، ط(بدون)،١٤١٦هـ، بيروت ـ لبنان.

٢٩٤- مصحف المعلم (أسباب النزول ـ قراءة ـ تفسير)، مع ضوابط مهمات من علوم القرآن ، بقلم الشيخ مشرف عبد الكريم المحرابي، شركة الصناعات المتنوعة، ط(بدون)، د. ت، تعز ـ اليمن.

٢٩٥- الميزان في تفسير القرآن، للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (١٨٩٢ - ١٩٨١)م، صححه ، وأشرف على طباعته الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، ط١، ١٤١١هـ ١٩٩٥م، البلد(بدون).

٢٩٦- مناهج البحث في التربية وعلم النفس، د/ جابر عبد الحميد جابر، ود/ أحمد خيري كاظم، الناشر: دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٧٨م، القاهرة ـ مصر.

٢٩٧- المختار من المنار، لعبد العزيز بن محمد آل الشيخ، مطبعة (بدون)، ط٢، ١٤١٦هـ/ ٢٠٠٠م، دمشق ـ سوريا.

٢٩٨- المواقف في علم الكلام، للقاضي عبد الرحمن بن أحمد، عالم الكتب، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

٢٩٩- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لأبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية(٦٦١ـ ٧٢٨ )هـ، تحقيق د/ محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، ط٢، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، القاهرة ـ مصر.

٣٠٠- معجم علوم القرآن، تأليف: إبراهيم محمد الجرمي، دار القلم، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، دمشق ـ سوريا.

٣٠١- مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر بن عايصن حسن الشيخ، مكتبة الرشد،ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، الرياض ـ السعودية.

٣٠٢- مناهج البحث في العقيدة الإسلامية في العصر الحاضر، للدكتور عبد الرحمن بن زيد الزنيدي، مركز الدراسات والإعلام، دار أشبيليا، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، الرياض ـ السعودية.

٣٠٣- منهج ابن تيمية في الدعوة، للدكتور عبد الله بن رشيد الحوشاني، مركز الدراسات والإعلام، دار اشبيليا، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، الرياض ـ السعودية.

٣٠٤- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ط(بدون)، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، بيروت ـ لبنان.

٣٠٥- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨)هـ، حققه وفهرس له محمد سيد جاد الحق ( من علماء الأزهر)، دار الكتب الحديثة، ط١، د.ت، عابدين ـ مصر.

٣٠٦- معرفة الله عزوجل وطريق الوصول إليه عند ابن تيمية، للدكتور مصطفي حلمي، دار العلوم، جامعة القاهرة، ط(بدون)، د.ت، البلد (بدون).

٣٠٧- موسوعة عباقرة الإسلام (في النحو واللغة العربية والفقه) للدكتور رحاب خضر عكاوي، دار الفكر العربي،ط١، ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان.

٣٠٨- مسند الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١)هـ، إشراف د/ سمير المجذوب، إعداد على حسن الطويل وآخرين، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان.

٣٠٩- مشكاة المصابيح، للشيخ محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي (توفي بعد عام ٧٣٧هـ)، بتحرير العراقي وابن حجر، دار الريان للتراث، ط(بدون)، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، القاهرة ـ مصر.

٣١٠- مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي (توفي بعد عام ٦٦٦هـ)،المكتبة العصرية، ط٣، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، بيروت ـ لبنان.

٣١١- المحصول في علم أصول الفقه، للرازي، للإمام فخر الدين محمد بن عمر الحسيني (٥٤٤- ٦٠٦)هـ دارسة وتحقيق د/ طه جابر العلواني،مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢١هـ/ ١٩٩٢/ بيروت ـ لبنان.

٣١٢- منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام ، جمعة أمين عبد العزيز ، دار الدعوة ط٣، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م، الإسكندرية ـ مصر.

٣١٣- معجم ألفاظ العقيدة، تصنيف أبي عبد الله عامر عبد الله فالح، تقديم فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين، مكتبة العبيكان، ط٢، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، الرياض ـ السعودية.

٣١٤- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١)هـ، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الفكر، ط(بدون)، ١٤١٢هـ بيروت ـ لبنان.

٣١٥- مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (ت ١٤٢٢)هـ (فتاوى العقيدة)، جمع وترتيب فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الثريا للنشر، ط٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤/ ، الرياض ـ السعودية.

٣١٦- معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، للدكتور محمد بن خليفة التيمي، مكتبة أضواء السلف، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، الرياض ـ السعودية.

٣١٧- موسوعة عباقرة الإسلام في (العلم والفكر والأدب والقيادة)، للدكتور محمد أمين فرشوخ، دار الفكر العربي، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، بيروت ـ لبنان.

٣١٨- مجموعة الرسائل المنيرية (رسالة في العقل والروح) لمحمد منير عبده أغا الدمشقي، إدارة الطباعة المنيرية، مكتبة طيبة، ط(بدون)، د.ت، البلد (بدون).

٣١٩- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (٦٣٧ ـ ٧٤٨)هـ تحقيق على محمد البجادي، دار المعرفة، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

٣٢٠- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، للإمام العلامة أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزية (٦٩١ –٧٥١)هـ دار الكتب العلمية، ط (بدون)١٤١٦هـ/ ١٩٩٥، بيروت ـ لبنان.

٣٢١- منهج القرآن في التربية، لمحمد شديد، مؤسسة الرسالة، ط(بدون)، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، بيروت ـ لبنان.

٣٢٢- المعجم الكبير، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠- ٣٦٠)هـ، تخريج وتحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، شركة معمل ومطبعة الزهراء الحديث، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، الموصل ـ العراق.

٣٢٣- موسوعة العلم والإيمان (الأرض وظواهرها الطبيعية)، الناشر: منف للنشر والخدمات الإعلامية، المكتب العربي للمعارف، ط(بدون)، ١٩٩٢م، القاهرة ـ مصر.

٣٢٤- مناظرات وبراهين لإسكات الملحدين، لفهد محمد البلوشي، تقديم د/ السيد محمد نوح، مكتبة المنار الإسلامية، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، كويت.

٣٢٥- معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، للدكتور محمد صالح مخيمر، دار الكتاب الثقافي، ط(بدون)،١١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، إربد ـ الأردن.

٣٢٦- من أساليب التربية في القرآن الكريم، للدكتور عثمان قدري مكانسي، دار ابن حزم، ، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، بيروت ـ لبنان.

٣٢٧- مع قصص السابقين في القرآن، للدكتور صلاح بن عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، ط١، ١٤٠٩/ ١٨٨٩م، دمشق ـ سوريا.

٣٢٨- من روائع القرآن، للشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، مطبعة (بدون)، ط(بدون)، ١٩٧٠م، دمشق ـ سوريا.

٣٢٩- مناهج البحث عند مفكري الإسلام، للدكتور علي سامي النشار، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٤٧م البلد (بدون).

٣٣٠- معجم البلدان، لياقوت الحموي (ت٦٢٦)، دار إحياء التراث، المطبعة (بدون)، ط(بدون)، ١٣٩٩هـ، بيروت ـ لبنان.

٣٣١- مختصر معارج القبول، للشيخ حافظ بن أحمد آل حكمي (١٣٤٢ـ١٣٧٧)هـ اختصره أبو عاصم هشام بن عبد القادر بن محمد آل عقدة، دار طيبة الخضراء، ط٧، ١٤٢١هـ، مكة ـ السعودية.

٣٣٢- الموسوعة العربية المسير، إعداد لجنة من الأساتذة والمفكرين، برئاسة محمد شفيق غربال، دار إحياء التراث العربي، ط(بدون)، د.ت، البلد (بدون).

٣٣٣- منهج الإسلام في تزكية النفوس، للدكتور أنس أحمد كرزون، دار نور المكتبات، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، جدة ـ السعودية .

٣٣٤- معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، اعتنى به وجمعه وأخرجه مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان.

٣٣٥- معجم الأصوليين، للدكتور محمد مظهربقا ، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، في مكة المكرمة، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، سلسلة بحوث الدراسات الإسلامية، ط(بدون)، ١٤١٤هـ السعودية.

٣٣٦- معالم التوحيد في القرآن الكريم، محاضرات الشيخ جعفر السبحاني، بقلم جعفر الهادي، دار الأضواء، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، بيروت ـ لبنان.

٣٣٧- مناهج المفسرين، للدكتور خليل رجب الكبيسي، مركز عبادي للدارسات والنشر، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، صنعاء ـ اليمن.

٣٣٨- المعجزة المتجددة ، بقلم أبي عبد الرحمن صالح بن محمد بن حليس اليافعي، مركز عبادي للدارسات والنشر، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨/ صنعاء ـ اليمن.

٣٣٩- المعجزات القرآنية، لهارون يحي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، بيروت ـ لبنان.

٣٤٠- المنتظم في أخبار الملوك والأمم ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧)هـ دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، راجعه وصححه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

٣٤١- موسوعة جسم الإنسان الشاملة (موسوعة تعريفية مصوره التراكيب الجسم ووظائفه وصيانته)، إعداد أحمد سليمان الخطيب، ويوسف خير الله، مكتبة لبنان، ناشرون، ط١، ٢٠٠٠م، بيروت ـ لبنان.

٣٤٢- مع الله في السماء، للدكتور أحمد زكي، دار القلم، ط١، ١٩٨٣م، بيروت ـ لبنان.

٣٤٣- مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢- ٨٠٨)هـ، تحقيق عبد الواحد وافي ، مطبعة لجنة البيان العربي، ط٢، ١٩٦٦م، القاهرة ـ مصر.

٣٤٤- منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل وأثر المنهجين في العقيدة ، جابر إدريس على أمير، مكتبة أضواء السلف، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م الرياض ـ السعودية.

٣٤٥- مفهوم الفطرة بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي، لعبد الله زايد البيشي، جامعة أم القرى، ط(بدون)، ١٤١٦هـ، مكة – السعودية.

٣٤٦- محاضرات في العقيدة والدعوة ، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، دار العاصمة ، ط١ ، ١٤١٣هـ الرياض ـ السعودية.

٣٤٧- منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان، للدكتور على بن محمد ناصر الفقيهي (رسالة ماجستير)، مطبعة (بدون)، ط١ ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، البلد (بدون).

٣٤٨- منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، للدكتورة منى بنت عبد الله حسن بن داود، دار ابن حزم، ط١ ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، بيروت ـ لبنان.

(ن)

٣٤٩- النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، لمحمد رجب البيومي، دار القلم، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م دمشق - سوريا.

٣٥٠- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن، الأثير الإمام مجد الدين المبارك بن محمد الجزري (٥٤٤ـ٦٠٦)هـ، تحقيق محمود محمد الطناحي، دار الفكر، ط(بدون)، ١٣٩٩هـ/ ١٩٨٩م، بيروت ـ لبنان.

٣٥١- نكت الهيمان في نكت العميان، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤)هـ الطبعة (بدون)هـ/ ١٩٩٧م، الكويت.

٣٥٢- النشر في القراءات العشر، لأبي الخير محمد بن محمد الدمشقي (٨٣٣) هـ ، دار الكتب العلمية، ط(بدون)، د.ت، بيروت.

٣٥٣- النبوات، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨)هـ تحقيق محمد عبد الرحمن عوضي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ ١٩٧٨م، القاهرة ـ مصر.

٣٥٤- نظرات في القرآن، للشيخ محمد الغزالي (٤٥٠ ـ٥٠٥)، مؤسسة الخانجي، ط(بدون)،١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م، القاهرة ـ مصر .

٣٥٥- النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن ) ، للشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز (١٨٩٤ ـ١٩٥٨)م، المطبعة (بدون)، د.ت، البلد (بدون).

٣٥٦- النظر في الكون، لماذا، للدكتور زغلول النجار، مطبعة الراية، د.ت، البلد، (بدون).

٣٥٧- نظرات وحقائق علمية مدهشة في الإبل، للدكتور محمد مصطفي مراد الحموي، دار الشوكاني، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، صنعاء ـ اليمن.

٣٥٨- نماذج من الاستدلال على وجود الله وصفاته تعالى (عرض وتحليل)، للدكتور عبد الحليم أحمدي، مكتبة المنار الإسلامية ، ط (بدون)، د.ت، البلد (بدون).

٣٥٩- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني (٩٨٦ـ١٠٤١)هـ تحقيق يوسف البقاعي، دار الفكر، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، بيروت ـ لبنان.

٣٦٠- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١)هـ تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، ط (بدون)، د.ت، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

٣٦١- الوجيز في أصول الفقه، للأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، دمشق ـ سوريا.

٣٦٢- الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٤٦)هـ، تحقيق أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، بيروت ـ لبنان.

٣٦٣- وجود الله بالدليل العلمي والعقلي، للدكتور محمد نبيل النشواتي، دار القلم، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، دمشق ـ سوريا.

٣٦٤- الولاء والبراء في الإسلام، لمحمد بن سعيد القحطاني، مطبعة (بدون)، ط٣، ١٤٠٩هـ / البلد (بدون).

## رابعاً: الدوريات والمجلات:

١- مجلة الفرقان، العدد السادس، تموز، ٢٠٠٠م، ربيع ثاني، ١٤٢١هـ عمّان - الأردن.

٢- من أساليب الإقناع في القرآن الكريم ، د/ معتصم بابكر مصطفى، كتاب الأمة، العدد ٥٩، جمادى الأولى، ١٤٢٤هـ ، السنة الثالثة والعشرون، ط١، ٢٠٠٣م، الدوحة - قطر.

٣- القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر، لعبد المجيد بن سعود، سلسلة كتاب الأمة، العدد ٦٧، رمضان، ١٤١٩هـ، وزارة الشئون الإسلامية - قطر.

٤- مجلة الأسرة، العدد ١٤٣، السنة الثالثة عشرة، صفر، ١٤٢٦هـ الرياض - السعودية.

٥- ملحق مجلة أسرة (مساء)، العدد الثامن، صفر، ١٤٢٦هـ الرياض - السعودية.

٦- مجلة الإعجاز العلمي، العدد العشرون، محرم، ١٤٢٦هـ، جدة - السعودية.

٧- صحيفة صوت الإيمان، العدد ١٦٩، جمادى أولى، ١٤٢٦هـ / يونيو ٢٠٠٥م، صنعاء - اليمن.

وهناك مراجع أخرى عديدة ذُكرت في صفحات البحث.

# فهرس